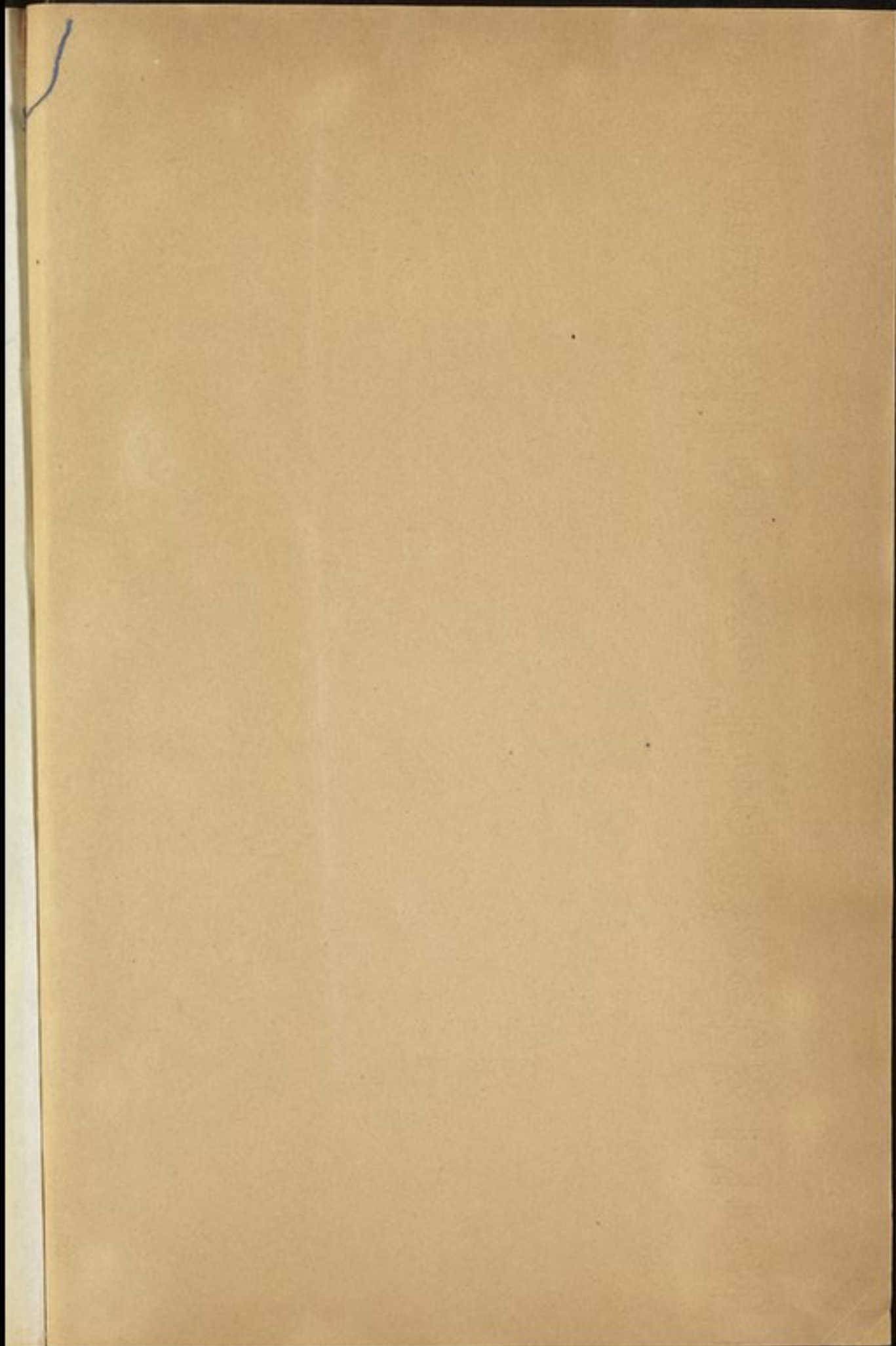


THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY

W. Arthur Jeffery

William J. Hall



اصحابي

تفسير المرائع

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

١٢ - ١٥

أحمد مصطفى المرائع

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دارالعلوم سابقا

الجزء الثالث عشر

BP
130.4
.M372

الطبعة الأولى
١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

v.5

18916G

الجزء الثالث عشر

وَمَا أُبْرِيْ نَفْسِيْ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيْ ، إِنَّ
رَبِّيْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣)

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

المعنى الجملى

هذه الآية الكريمة من تمة إقرار امرأة العزيز كما اختاره أبو حيان فى البحر ،
ويؤيده عطفه على ما قبله ، وقد جعلت أول الجزء الثالث عشر ، لأن تقسيم القرآن
إلى الأجزاء قد لوحظ فيه مقادير الكلم العددى دون المعانى .

الإيضاح

(وما أبرئ نفسي) أى وما أبرئ نفسي من دعوى عدم خيانتى إياه بالغيب
بعد أن وجهت إليه اقرار الذنب وقلت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن
يسجن أو عذاب أليم ، وأودعته السجن وعرف الناس خاصتهم وعامتهم ذلك ،
وكانها بذلك تريد التنصل مما كان .

(إن النفس لأمارة بالسوء) أى إن النفس البشرية لكثيرة الأمر بعمل السوء لما فيها من دواعى الشهوات الجسمية والأهواء النفسية بما ركب فيها من القوى والآلات لتحصيل اللذات ، وما يوسوس الشيطان ويزينه لها من النزغات ، ومن ذلك أن حرضت زوجى على سجن يوسف وقد كان ذلك مما يسوؤه ، فالعفيف النزيه لا يرضى أن يُزَنَّ بالريبة كما يسوء زوجى إذا ليرضى أن يكون عرضه مضغة للأفواه وحديث الناس فى أُنديتهم وأسماهم .

(إلا ما رحم ربي) أى إلا تقسا رحمها ربي فصرف عنها السوء والفحشاء بعصمته كنفس يوسف عليه السلام .

ثم علل ما سلف بقوله :

(إن ربي غفور رحيم) أى إن ربي عظيم المغفرة ، فيغفر ما يعترى النفوس بمقتضى طباعها ، إذ ركب فيها الشهوات الجسمية والأهواء النفسية .

تولية يوسف رئيسا لحكومة مصر

وما وقع لإخوته معه حينئذ

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصَ لِنَفْسِي ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ
لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي خَفِيفٌ
عَلَيْمٌ (٥٥)

المعنى الجملى

بعد انتهاء التحقيق فى أمر النسوة وظهور براءة يوسف من كل سوء ، طلب الملك إحضاره إليه من السجن بعد أن وفى له بما اشترط لهجيته - فلما جاءه وسمع كلامه فهم من فخوى حديثه ، ومن أمانته على مال العزيز وعرضه وحسن تصرفه ، ومن

سيرته الحسنة في السجن ، ومن علمه وفهمه في تأويله للرؤيا ، ومن حرصه على إظهار شرفه وكرامته في مسألة النسوة ما دل على أنه أهل لأن يرفع إلى أعلى المراتب ويولى أسمى المناصب ، وذلك هو ما فعله الملك لخصافة رأيه وبصره بأقدار الرجال ، ولم يصرفه عن ذلك كونه غريبا أو فقيرا أو مملوكا ، كما تشير إلى ذلك الآيتان .

الإيضاح

(وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي) أى وقال الملك أحضروه من السجن إلى بعد أن وفيت له بما طلب : أجعله خالصا لى وموضع ثقتى فلا يشاركه أحد في إدارة ملكى ولا تكون وساطة بينه وبينى . وقد جرت عادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم ، قال ابن عباس : إن الرسول أتاه فقال ألقى عنك ثياب السجن والبس ثيابا جُودا و قم إلى الملك فدعا له أهل السجن ودعا لهم وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة ، فلما أتاه رآه غلاما حدثا ، فقال أيعلم هذا رؤياى ولم يعلمها السحرة والكهنة وأقعدته قدامه ، وقال لا تخف وألبسه طوقا من ذهب و ثياب حرير وأعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك وضرب الطبل بمصر إن يوسف خليفة الملك . (فلما كلمه قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين) أى فأتوه به فلما كلمه وسمع ما أجاب به ، قال له إنك لدينا ذو مكانة سامية ، ومنزلة عالية ، وأمانة تامة ، فأنت غير منازع في تصرفك ، ولا متهم في أمانتك .

وفي هذا إيماء إلى أن الحوار بين المتخاطبين يظهر معارف الإنسان وأخلاقه وآدابه وجميع شمائله فيقدره من يعرف أقدار الرجال ويزنهم بفضائلهم ومزاياهم . والظاهر أن الملك كلمه مشافهة بدون ترجمان ، لأن يوسف كان قد عرف اللغة المصرية من العزيز وامرأته بمحادثته إياها ومع حاشية الوزير من حين قدم مصر ، ومن محادثته صاحبيه في السجن .

وقد تكون اللغة التى كان يتكلم بها يوسف لغة جده إبراهيم وأولاده وحفدته

وكانوا من العرب القحطانيين ثم تفرعت من هذه العربية الإسماعيلية فالمصرية والعبرانية والسريانية ، وكان ملوك مصر وكبراء حكامها في ذلك العهد من أولئك العرب وهم الذين يسمون بالرعاة (الهكسوس) .

ويقول المؤرخون إن ملك مصر في ذلك العهد كان يسمى الوليد بن الريان .

(قال اجعلنى على خزان الأرض) الخزائن واحدها خزانة وهى ما يخزن فيه غلات الأرض ونحوها ، أى قال ولئى خزان أرضك كلها وأكن مشرفا عليها لأتخذ البلاد من مجاعة مقبلة عليها تهلك الحرث والنسل .

ثم ذكر سبب طلبه فقال :

(إنى حفيظ عليم) أى إنى شديد الحفظ لما يخزن فيها فلا يضع منه شىء أو يوضع فى غير موضعه ، عليم بوجوه تصرفه وحسن الانتفاع به .

وقد طلب إدارة الأمور المالية لأن سياسة الملك وتنمية العمران وإقامة العدل فيه تتوقف عليها ، وقد كان مضطرا إلى تركية نفسه فى ذلك حتى يثق به الملك ويركن إليه فى تولية هذه المهام .

وما أضع كثيرا من الممالك الشرقية فى القرون الأخيرة إلا الجهل والتقصير فى النظام المالى وتدبير الثروة وحفظها فى الدولة والأمة .

روى أن الملك لما كلمه وقص عليه رؤياه وعبرها له ، قال ما ترى أيها الصديق ؟ قال تزرع فى سنى الخصب زرا كثيرا وتبنى الخزائن وتجمع فيها الطعام بقصبه وسنبله فإنه أبقي له ، ويكون القصب علفا للدواب ، فإذا جاءت السنون العجاف بعث ذلك فيحصل لك مال عظيم ، فقال الملك ومن لى بهذا ومن يجمعه ويبيعه لى ويكفينى العمل فيه ؟ قال : اجعلنى على خزان الأرض إنى حفيظ عليم .

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ، نُصِيبُ
بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ
لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه إجابة الملك له بأنه أصبح لديه مكينا أميناً وطلب يوسف منه أن يجعله على خزان الأرض يصرفها على حسب ما يرى من التدبير والنظام والدراية والإحكام .

ذكر هنا أنه أجابه إلى مطلبه وجعله وزيراً في دولته يتصرف في شئونها لحسن تدبيره وثاقب رأيه ، وذلك جار على سنن الله في خلقه ، فلن ينال الرياسات العليا والمناصب الرفيعة إلا من يؤتبه الله من المواهب ما يجعله قادراً على ضبط الأعمال وإقامة النظام وحسن السياسة والكياسة في تصريف الأمور .

الإيضاح

(وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء) أى ومثل هذا التمكين الذى سلف ذكر أسبابه ومقدماته، فقد ذكرنا أن إخوة يوسف لولم يحسدوه ما ألقوه في غيابة الجب ، ولولم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر ، ولولم يعتقد العزيز بفراسته أماتته وصدقه لما أمنه على بيته وماله وأهله ، ولولم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها ، ولولم تخب في كيدها وكيد صواحباتها ما ألقى في السجن لإخفاء هذا الأمر ، ولولم يسجن لما عرفه ساقى الملك وعرف علمه وفضله وصدقه في تعبير الرؤيا ، ولولم يعرف ذلك منه الساقى ما عرفه ملك مصر ولم يجعله على خزان الأرض ، فما من حلقة من هذه السلسلة إلا كانت متممة لما بعدها ، وبإذن الله كانت سبباً للوصول إلى ما يليها ، فكلمها في بدايتها كانت شراً وخسراً وفي عاقبتها فوزاً ونصراً أميناً ومهدت للتمكين لدى ملك مصر . فكما مكن له في ذلك مكن له في أرض مصر وقد جرى به مملوكاً فأصبح مالكاً ذا نفوذ وأمر ونهى لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره وصار الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه فيما يرى بما أعده الله تعالى له من تحلية بالصبر واحتمال الشدائد ، والأمانة والعفة وحسن التصرف والتدبير للأمر .

(نصيب برحمتنا من نشاء) أى نخص برحمتنا من إعطاء الملك والرياسة والغنى والصحة ونحوها من نشاء من عبادنا بمقتضى ما وضعنا من السنن فى الأسباب الكسبية مع موافقتها للأحداث الكونية ومراعاة النظم الاجتماعية والفضائل الخلقية (ولا نضيع أجر المحسنين) أى ولا نضيع أجر من أحسنوا فى أعمالهم بشكران هذه النعم ، بل نأجرهم عليها سعادة وهناءة ، وقد بذلنا تلك النعم لمن يطلبها متى أتى الأمور من أبوابها وسار على مقتضى السنن التى وضعناها .

أما من يسيئون التصرف فيها فتصيبهم المنغصات ، وتتوالى عليهم المكدرات ، فالمسرفون لا يلبثون أن ينفالهم الفقر والعُدْم ، والظالمون يثيرون أضعاف المظلومين ، وذوو الخيلاء والبطر يكونون محقرين ، وكلما يصيب المحسنين الشاكرين من ذلك شىء ، وإن نالهم منه شىء يكن أهون عليهم وهم عليه أصبر .

وفى الآية إيماء إلى أنه ما أضع صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز بل كان جزاؤه ما مكن له فى الأرض ولدى ملك مصر .

(ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) أى إن أجر الآخرة وهو نعيمها يكون للمؤمنين المتقين ، وذلك خير لهم من أجر الدنيا لأهلها وإن بلغوا سلطان الملك ، فإن ما أعد له لأولئك ليتضاءل أمامه كل مافى الدنيا من مال وجاه وزينة ولاشبهة فى أن من يجمعون بين السعادتين يكون فضل الله عليهم أعظم ، إذا هم أعطوا حقها من الشكر وقاموا بما يجب عليهم نحو خالقهم من طاعته وترك معصيته .

روى الشيخان عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : « قال فقراء المهاجرين للنبي صلى الله عليه وسلم يارسول الله ذهب أهل الدثور (واحد دثر بالفتح: المال الكثير) بالدرجات العلى والنعم المقيم ، قال ما ذاك ؟ قالوا يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون كما نتصدق ويعتقون ولا نعتق ، قال صلى الله عليه وسلم : أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ؟ ولا يكون أحد أفضل منكم ، إلا من صنع مثلكم ؟ قالوا بلى يارسول الله قال : تسبحون وتكبرون وتحمدون

الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة» قال أبو صالح : فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٨)
 وَمَا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالِ اتُّوْنِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أُيُّكُمْ أَلَا تَرَوْنَ
 أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ
 لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١)
 وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَابُوا إِلَى
 أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)

شرح المفردات

المعرفة والعرفان : معرفة الشيء ، بتفكير في أثره ، وضده الإنكار ، وجهزم : أى أوقر ركائبهم بما جاءوا لأجله ، وجهاز السفر : أهبطه وما يحتاج إليه في قطع المسافة ، ومثله جهاز الميت والعروس (بالكسر والفتح وبهما قرى) أوفى الشيء : جمعه وافيا تاما ، المنزليين : أى المضيفين للضيوف ، تراود : أى تخادع ونستميل برفق ، لفاعلون : أى لقادرون على ذلك ، لفتيانه : أى غلمانه الكياليين ، بضاعتهم : أى التى اشتروا بها الطعام وكانت نعلا وأدما ، والبضاعة : المال الذى يستعمل للتجارة ، والرحال : واحدها رحل : وهو ما يوضع على ظهر الدابة وفوقه متاع الركاب وغيره ، وانقلبوا : أى رجعوا .

المعنى الجملى

جاء في سفر التكوين من التوراة أن يوسف عليه السلام حين ولى الوزارة

طفق يُعدّ العُدّة ويأخذ الأهبة لتنفيذ التدابير التي يقي بها البلاد من خطر المجاعة التي جاءت في تأويل رؤياه للملك ، وكان من ذلك أن بنى الأهرام العظيمة وخزن فيها الحبوب التي استكثر منها مدة سني الخصب السبع الأولى ، فلما جاءت السبع الشداد وعم القحط مصر وغيرها من الأقطار القريبة منها ولاسيما أقربها إليها وهي فلسطين من بلاد الشام ، واشتهر لدى أهلها ما فعله يوسف في مصر من حسن التدبير حتى كثرت فيها الغلال وأصبح يبيع ما زاد على حاجة أهلها للأقطار المجاورة لها أمر يعقوب عليه السلام أولاده أن يرحلوا إلى مصر ويأخذوا معهم ما يوجد في بلادهم من بضاعة ونقد فضة ويشترؤا به قمحا لأن المجاعة أوشكت أن تقضى عليهم فنفذوا ما أراد وكان بينهم وبين يوسف ما قصه الله علينا في كتابه الكريم .

الإيضاح

(وجاء إخوة يوسف) ممتارين حين أصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب مصر ، وكان قد حل بآل يعقوب ما حل بأهلها فدعا أبناءه ماعدا بنيامين فقال لهم يا بني قد بلغني أن بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام فتجهزوا إليه واقصدوه واشتروا منه ما تحتاجون إليه فخرجوا حتى قدموا مصر .
(فدخلوا عليه) وهو في مجلس ولايته ، لأن أمر الميرة وشراء الغلال كان بيده ورهن أمره .

(فعرفهم) حين دخلوا عليه بلا تردد إذ كان عددهم وشكلهم وزيتهم لا يزال عالقا بخياله لنشوئه بينهم ولاسيما ما قاساه منهم في آخر عهده بهم ، وربما كان عمال يوسف وعبيده قد سألوهم عن أمرهم قبل أن يدخلوهم عليه وأخبروه بأوصافهم والبيئة التي رحلوا منها .

(وهم له منكرون) لنسيانهم له بطول العهد ، وتغير شكله بدخوله في سن الكهولة ، ولما كان عليه من عظمة الملك وزيه وشارته ، وما كان من حاجتهم إلى بره وعطفه .

فكل أولئك مما يحول دون التثبيت من معارف وجهه ، ولا سيما أنهم كانوا يظنون أنه قد هلك أو طوّحت به طوائف الأيام ، ولو كانوا قد فطنوا لبعض ملاحظه وتذكروه بها لربما عدوه مما يتشابه فيه بعض الناس ببعض العادات ، وبخاصة أنه لم يكن يدور بخلدكم أن أخاهم قد وصل إلى ذلك المركز السامى .

(ولما جهزهم بجهازهم) أى ولما أوفر ركايتهم بما جاءوا لأجله من الميرة والطعام وجهزهم بما سوى ذلك من الزاد وبما يحتاج إليه المسافرون عادة على قدر طاقتهم وبيئتهم . (قال انتونى بأخ لكم من أبيكم) هو شقيقه بنيامين ، وسبب ذلك أن يوسف ما كان يعطى لأحد إلا حمل بعير ، وقد كان إخوته عشرة فأعطاهم عشرة أحمال فقالوا إن لنا أبا شيخاً كبيراً وأخاً آخر بقى معه ، وإن أباهم لتقدم السن به وشدة حزنه لا يستطيع الحضور ، وإن أخاهم بقى فى خدمة أبيه ، ولا بد لها من شىء من الطعام فجهز لها بعيرين آخرين ، وقال لهم جيئوني بأخيكم لأراه .

وفى سفر التكوين أنه كان استنبأهم عن أنفسهم متذكراً لهم ، إذ عرفهم ولم يعرفه واتهمهم بأنهم جواسيس جاءوا ليروا عورة البلاد ، فأنكروا ذلك وأخبروه خبرهم ، فقالوا نحن عبيدك اثنا عشر أخاً ونحن بنو رجل واحد فى أرض كنعان ، وهذا الصغير عند أينا اليوم ، والواحد مفقود ، فقال لهم يوسف ، ذلك ما كلمتكم به قائلاً ، جواسيس أتم ، بهذا تمتحنون ، وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجىء أخيك الصغير إلى هنا . فدعوا رهيناً عندى وأتوني بأخيكم من أبيكم ، فاقترعوا فأصابت القرعة شمعون خلفوه عنده . ثم أمر يوسف أن تملأ أوعيتهم قمحاً وترد فضة كل واحد إلى عدله وأن يعطوا زادا للطريق ، ففعل لهم هكذا اه .

(ألا ترون أنى أوفى السكيل) أى أتمه ولا أبخسه وأزيدكم حمل بعير لأجل أخيك .

(وأنا خير المنزلين) أى وأنا على هذا خير المضيفين لضيوفه ، فقد أحسن

ضياقتهم وجهزهم بالزاد الكافى لهم مدة سفرهم ومن هذا يعلم أن رواية اتهامهم بالتجسس ضعيفة على كونها لاتليق بمن دون الصديق النبى وهو يعلم بطلانها ، إلا أن تكون ذريعة لغرض صحيح كاتهامهم بالسرقة .

(فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي) أى فإذا عدتم تمارون لأهالكم ولم يكن معكم منعتكم من الكيل فى بلادى فضلا عن إيفائه وإكاله الذى كان لكم بأمرى .

(ولا تقر بون) أى ولا تقر بونى بدخول بلادى فضلا عن الإحسان فى الإنزال والضيافة .

وفى ذلك إيماء إلى أنهم كانوا على نية الامتياز مرة بعد أخرى ، وأن ذلك كان معلوما له عليه السلام ، والظاهر أن مافعله معهم كان بوحى ، وإلا فالبر كان يقتضى أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه ، ولعل الله أراد تكميل أجر يعقوب فى محنته ، وهو الفعال لما يريد فى خلقه .

(قالوا سنراود عنه أباه) أى سنجتهد ونحتمل على أن ننزعه من يده ونحوه عن إرادته فى إبقائه عنده إلى إرادتنا وإرادتك ، ونقنعه بإرساله معنا كما تحب .

(وإنا لفاعلون) ذلك لا محالة ولا نتوانى فيه .

(وقال لفتيانه) أى غلمانة الكياليين .

(اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم) أى اجعلوا بضاعتهم التى اشتروا بها الطعام وكانت نعالا وجلودا فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون .

(لعلمهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم) أى لى يعرفوا لنا حق إكرامهم بإعادتها إليهم وجعل ما أعطيناهم من الغلة مجانا بلائمن ، إذا هم رجعوا إلى أهلهم وفتحوا متاعهم فوجدوها فيه .

ثم علل معرفتهم للبضاعة المردودة إليهم بقوله :

(لعلمهم يرجعون) إلينا طمعا فى برنا ، فإن العوز إلى القوت من أقوى الدواعى

إلى الرجوع .

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَيْبِهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ
مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ

إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ؟ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ (٦٤)

الإيضاح

(فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل) أى قالوا حين رجوعهم إلى أبيهم إن عزيز مصر أصدر أمره بمنع الكيل لنا فى المستقبل إن لم نحضر معنا أخانا بنيامين فقال : (إن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى) .

(فأرسل معنا أخانا نكتل) من الطعام ما نحتاج إليه بقدر عددنا ونكون قد وفينا له بما شرط علينا ، والعرب تقول كلت له الطعام إذا أعطيته ، واكتلت منه وعليه إذا أخذت منه أو توليت الكيل بنفسك .

(وإنا له لحافظون) فى ذهابه وإيابه ، فلا يناله مكروه تخافه ، وكأنهم كانوا يعتقدون أن أباهم لا بد أن يرفض إجابتهم خوفا عليه من أن يحدث له مثل ما حدث ليوسف بدافع الحسد من قبل ، فكان جوابه لهم :

(قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) أى هل أتم صانعون به إلا كما صنعتم ، وأخيه من قبل ، تغييونه عنى وتحولون بينى وبينه ، وقد قلت مثل هذا الكلام فى يوسف إذ ضمتكم حفظه وقلت (وإنا له لحافظون) ثم ختمت فى عهدكم وكذبتهم فأضعتم يوسف ، فأنتم لا يوثق لكم بوعده ولا يطمأن منكم إلى عهد ، فما أشبه الليلة بالبارحة .

(فالله خير حافظا) أى فأنا أتوكل على الله فى حفظ بنيامين لاعلى حفظكم . (وهو أرحم الراحمين) فأرجو أن يرحمنى بحفظه ولا يتلبنى بفقده كما ابتلانى من قبل بفقد أخيه يوسف ، فرحمته واسعة ، وفضله عظيم .

وهذا كما ترى ، فيه ميل منه إلى الإذن والإرسال لما رأى من شدة الحاجة إلى ذلك ، ولأنه لم يرفيا بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما شاهد بينهم وبين يوسف ، وفيه من التوكل على الله مالا خفاء فيه .

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا
 مَا نَبِغِي؟ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلِنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَنَا وَنَزِدَادُ
 كَيْلٍ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا نَوَاقِدَ
 مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ، فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ
 اللَّهُ عَلَى مَا تَقُولُونَ وَكِيلٌ (٦٦)

شرح المفردات

المتاع : ما ينتفع به والمراد هنا وعاء الطعام ، والبضاعة : ثمن ما كانوا أعطوه من
 الطعام ، ونمير أهلنا : أى نجلب لهم الميرة (بالكسر) وهى الطعام يجلبه الإنسان من
 بند إلى بلد ، كيل بعير : أى حمل جمل ، فكيل بمعنى مكيل ، ويسير : أى قليل
 لا يكثر على سخائه كما جاء فى قوله : « وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا » أو سهل لا عسر
 فيه كما فى قوله : « وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا » والموثق : العهد الموثق ، إلا أن
 يحاط بكم : أى إلا أن تغلبوا على أمركم أو إلا أن تهلكوا ، فإن من يحيط به العدو
 يهلك غالباً ، وكيل : أى مطلع رقيب ، فإن الموكل بالأمر يراقبه ويحفظه .

الإيضاح

(ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم) أى ولما فتحوا أوعية طعامهم
 وجدوا فيها ما كان أعطوه من بضاعة ونقد ثمنها لما اشتروه من الطعام ، إذ أن يوسف
 أمر فتياته أن يضعوها فى رحالهم وهم لا يعلمون ذلك .

(قالوا يا أبانا ما نبغى ؟) أى ماذا نطلب وراء ما وصفنا لك من إحسان الملك
 إلينا وكرمه الذى يوجب علينا امتثال أمره ومراجعته فى الحوائج ، وقد كانوا حدثوا أباهم
 بذلك على ما روى أنهم قالوا له إنا قدمنا على خير رجل وقد أنزلنا خير منزل

وأكرم وفادتنا ولو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته ، ثم استدلوا على هذا بقولهم :

ثم أكدوا صدق كلامهم بقولهم :

(هذه بضاعتنا ردت إلينا) أى إن ما تقول فى وصفه ومزىد إحسانه ولطفه لنا من شواهد الحال ما هو دليل عليه ، فهذه بضاعتنا ردت إلينا تفضلا منه بعد أن أثقل كواهلنا بعظيم مننه وجميل عطفه .

وهم بهذا يوثقون إلى أن ذلك كاف فى وجوب امتثال أمره والالتجاء إليه طلبا للمزىد من فضله ، فكل ما جئنا به على غلائه وعظم قيمته هو هبة منه ونفضل علينا . (ونمير أهلنا) أى فنحن ننتفع ببضاعتنا ونمير أهلنا بما نجلبه لهم من الميرة من مصر بلا ثمن .

(ونحفظ أخانا) بعنايتنا جميعا به ، على أننا لانخشى شيئا من المخاوف التى تغلبنا عليه .

(وزداد كيل بعير) أى وزىد على ما نأخذ لأنفسنا حمل حمل يكال لأخيها ، لأن يوسف كان يكيل لكل رجل حمل بعير اقتصادا فى الطعام ، فإذا حضر بنيامين زاد حماله .

(ذلك كيل يسير) أى إن حمل البعير كيل سهل لاعسر فيه على ذلك الحسن الجواد ، أو هو قليل لا يكتر على سخائه وجوده ولا يشق عليه .

(قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله) أى لن أرسله معكم حتى تعطونى عهدا موثقا بتأكيده بإشهاد الله عليه بالقسم به .

(لتأتنى به إلا أن يحاط بكم) أى حتى تحلفوا بالله لترجعن به على كل حال تعرض لكم ، إلا أن تهلكوا فيكون ذلك عندى عذرا على نحو ما جاء فى قوله : « وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ » وقوله : « وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ » وقد يكون المعنى - إلا أن تغلبوا على أمركم وتقهروا فلا تقدرتون على الرجوع .

(فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل) أى فلما أعطوه العهد الموثق الذى اشترطه عليهم ، قال : الله شهيد على ما قاله واشترطه ، وعلى ما أجابوه به : أى إنه سبحانه رقيب عليه وأمره موكل إليه ، فهو الذى يوفق للوفاء بالوعد والصدق فيما أعطى من عهد .

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ
وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ
مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ،
وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لَمَّا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨)

الإيضاح

(وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) أى وقال لهم يا بني لا تدخلوا على هذا الوزير الكريم من باب واحد من أبواب الوصول إليه ، بل ادخلوا عليه متفرقين من أبواب متعددة ، لتروا بأعينكم ما يكون من تأثير كل طائفة منكم فى نفسه وما يظهر على أسارير وجهه وحركات عينيه حين رؤية شقيقه يدخل عليه مع طائفته إذ لا يعلم هذا إذا دخلوا عليه كلهم جماعة واحدة .

وقد يكون المراد لا تدخلوا عليه مجتمعين فيحسدكم الحاسدون أو يكيد لكم الكائنون ، فإذا حل بكم مكروه خشيت أن يصيبكم جميعا .

(وما أغنى عنكم من الله من شيء) أى وما أدفع عنكم بتدبيرى من قضاء الله شيئا ، إذ لا يغنى حذر من قدر ، وهو لا يريد إلغاء الحذر بتاتا فإنه تعالى أمر به وقال « خذُوا حِذْرَكُمْ » بل يريد أن هذا التدبير إنما هو تشبث بالأسباب

العادية التي لا تؤثر إلا بإذن الله تعالى ، وأن ذلك ليس بدافع للتدبر بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه إليه .

(إن الحكم إلا لله) أى ما الحكم فى تدبير العالم ونظم الأسباب والمسببات إلا لله وحده .

(عليه توكلت) أى عليه دون غيره ، ودون حولى وقوتى اعتمدت فى كل ما آتى وأذر .

وفى هذا إيماء إلى أن الأخذ فى الأسباب ومراعاة اتباعها لا ينافى التوكل ، وقد جاء فى الخبر « اعقلها وتوكل » .

(وعليه فليتوكل المتوكلون) لا على أمثالهم من المخلوقين ولا على أنفسهم . فعلى كل مؤمن أن يتخذ لكل أمر يقدم على عمله العدة ويهيئ من الأسباب ما يوصل إليه على قدر طاقته ، ثم بعد ذلك بكل أمر النجاح فيه إلى الله ويطلب منه التوفيق والمعونة فى إنجازها ، فقد يكون من الأسباب ما يخفى عليه أو ما لا تصل إليه يده .

(ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) وهى الأبواب المتفرقة .

(ما كان يعنى عنهم من الله من شيء) أى ما كان دخولهم على هذا النهج يدفع عنهم شيئاً من المكروه الذى يحول دون رجوعهم بنيامين ، ونسبتهم إلى السرقة ، وتضاعف المصيبة على يعقوب .

(إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها) أى إن يعقوب كان عليماً بأن الحذر لا يعنى من القدر ، ولكن كانت هناك حاجة تدور بخلفه ، ما أراد أن يكشف بها أحداً منهم ، وهى وراء الأسباب العادية فى الاحتياط بسلامة بنيامين والعودة به ، قضاها بوصيته لأولاده من حيث لا يفتنون لها ، وهى خوفه عليهم من العين ومن أن ينالهم مكروه من قبل ذلك .

(وإنه لذنو علم لما علمناه) أى لذنو علم خاص به وبأمثاله من الأنبياء ، لما أعطيناه من علم الوحي وتأويل الرؤيا الصادقة ، واعتقاده أن الإنسان يجب عليه

في كل أمر يحاوله أن يتخذ له من الأسباب ما يصل به إلى غرضه ويبلغ به إلى غايته ثم يتوكل بعد ذلك على الله في تسخير ما لم يصل إليه علمه مما لا تتم المقاصد بدونه .

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن الواجب الجمع بين أخذ العدة والسعي في تحقيق الأسباب الصحيحة الموصلة إلى المراد ، وبين الاتكال على الله وهو ما فعله يعقوب عليه السلام ، ولا يكفي تحقق الأسباب وحدها للحصول عليه .

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ
أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيُّهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ
مَاذَا تَفْقِدُونَ؟ (٧١) قَالُوا تَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ
وَأَنَا بِه زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ
وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ؟ (٧٤) قَالُوا
جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥)
فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ، كَذَلِكَ
كِدْنَا يُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ،
رَفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءِ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) .

شرح المفردات

آوى إليه : أى ضم إليه ، والابتئاس : اجتلاب البؤس والشقاء ، والسقاية
(بالكسر) وعاء يسقى به ، وبه كان يكال للناس الطعام ويقدر بكيلة مصرية $\frac{1}{13}$

من الإردب المصرى ، وهو الذى عبر عنه بصواع الملك ، وأذن مؤذن : أى نادى مناد ، من التأذين وهو تكرار الأذان والإعلام بالشىء الذى تدركه الأذن ، والعبير : الإبل التى عليها الأحمال والمراد أصحابها ، زعيم : كفيل أجعله جزاء لمن يجيئ به ، الكيد : التدبير الذى يخفى ظاهره على المتعاملين به حتى يودى إلى باطنه المراد منه ، ودين الملك : شرعه الذى يدين الله تعالى به .

الإيضاح

(ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه) أى لما دخلوا عليه فى مجلسه الخاص بعد دخولهم باحة القصر من حيث أمرهم أبوم ، ضم إليه أخاه الشقيق بنيامين ، وقد حصل ما كان يتوقع يعقوب أو فوق ما كان يتوقع من الخدب عليه والعناية التى خصه بها .

(قال إني أنا أخوك) يوسف الذى قدتموه صغيرا .

(فلا تبتئس بما كانوا يعملون) أى فلا يلحقتك بعد الآن بؤس أى مكروه ولا شدة بسبب ما كانوا يعملون من الجفاء وسوء المعاملة بحسدهم لى ولك .
 روى أنهم قالوا له : هذا أخونا قد جئناك به فقال لهم أحسنتم وأصبتم ومستجدون أجر ذلك عندى فأنزلهم وأكرمهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحده فبكى وقال لو كان أخى يوسف حيا لأجلسنى معه ، فقال يوسف بقى أخوكم وحيدا ، فأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله ، وقال أتم عشرة فلينزل كل اثنين منكم بيتا (حجرة) وهذا لاثانى له فيكون معى ، فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح وسأله عن ولده ، فقال لى عشرة بنين اشتقت أسماءهم من اسم أخ لى هلك فقال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال من يجد أخا مثلك ؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال له : إني أنا أخوك الخ .

(فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه) أى لما قضى لهم حاجتهم ووفاهم كيلهم جعل الإيلاء الذى يكيل به الطعام في رحل أخيه .

وفى قوله: جعل السقاية ، إيلاء إلى أنه وضعها بيده ولم يكل ذلك إلى أحد من فتياته كتجهيزهم الأول والثانى لثلا يظلموا على مكيدته .

(ثم أذن مؤذن) أى وقد افتقد فتياته السقاية ، لأنها الصواع الذى يكيلون به للممتارين فلم يجدوها ، فأذن مؤذنهم بذلك أى كرر النداء به كدأب الذين ينشدون المفقود فى كل زمان ومكان قائلاً :

(أيتها العير إنكم لسارقون) أى يا أصحاب العير قد ثبت عندنا أنكم سارقون فلا ترحلوا حتى ننظر فى أمركم .

(قالوا : وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون؟) أى قال إخوة يوسف للمؤذن ومن معه : أى شئ تفقدون ، وما الذى ضل عنكم فلم تجدوه ؟ .

(قالوا نفقد صواع الملك) أى نفقد الصواع الذى عليه شارة الملك .

(ولمن جاء به حمل بعير) أى ولمن أتى به حمل من القمح ، وفى هذا دليل على أن عيرهم كانت الإبل لا الحمير .

(وأتابه زعيم) أى قال المؤذن وأنا كفيل بحمل البعير ، أجمعه خلوانا لمن يجيء به ، سواء أكان مفقوداً أم جاء به غير سارقه .

(قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين) أى قالوا لقد علمتم بما خبرتموه من أمرنا وسيرتنا من حين مجيئنا فى امتيارنا الأول وحين عودتنا إذ رددنا بضاعتنا التى ردت إلينا مع غيرها ، أننا ما جئنا لنفسد فى أرض مصر بسرقة ولا غيرها مما فيه تعد على حقوق الناس .

(قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين) أى قال فتیان يوسف لهم : فما جزاء سارقه إن كنتم كاذبين فى جحودكم للسرقة وادعائكم البراءة والنزاهة ؟

(قالوا جزاؤه من وجد في رحله) أى جزاؤه أخذ من وجد في رحله وظهر أنه هو السارق له وجعله عبدا لصاحبه ، وقوله :

(فهو جزاؤه) تقرير للحكم السابق وتأكيده بإعادته ، كما تقول حق الضيف أن يكرم فهو حقه ، والقصد من الأول إفادة الحكم ، ومن الثانى إفادة أن ذلك هو الحق الواجب فى مثل هذا ، وقد كان الحكم فى شرع يعقوب أن يسترق السارق سنة .
(كذلك نجزي الظالمين) أى مثل هذا الجزاء الأوفى نجزي الظالمين للناس بسرقة أمتعتهم وأموالهم فى شريعتنا ، فنحن أشد الناس عقابا للسراق .

وهذا تأكيدهم بعد تأكيدهم لثقتهم ببراءة أنفسهم .

(فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه) أى فبدأ يوسف بتفتيش أوعيتهم التى تشمل عليها رحالهم ابتعادا عن الشبهة وظن التهمة بطريق الحيلة .
(ثم استخرجها من وعاء أخيه) أى ثم إنه بعد أن فرغ من تفتيش أوعيتهم قش وعاء أخيه فأخرج السقاية منه .

(كذلك كدنا ليوسف) أى مثل هذا الكيد والتدبير الخفى كدنا ليوسف وأهمناه إياه وأوحينا إليه أن يفعله .

ذلك أن الحكمة الإلهية اقتضت تربية إخوة يوسف وعقابهم بما فرطوا فى يوسف ، واستحقاقهم إتمام النعمة عليهم يتوقف على أخذه بطريق لا جبر فيه ولا تقتضيه شريعة الملك ، وبه يذوقون ألم فراق بنيامين ومرارته ، فيما لا لوم فيه على أحد غير أنفسهم ، ولن يكون هذا الحكم منهم إلا بوقوع شبهة السرقة على بنيامين من حيث لا يؤذيه ذلك ولا يؤله ، وقد أعلمه أخوه يوسف به وبغايته . وفى هذا إيماء إلى جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما ظاهره الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف شرعا ثابتا .

ثم علل ما صنعه الله من الكيد ليوسف بقوله :

(ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) أى وما كان له ولا مما تبيحه أماتته

لملك مصر أن يخالف شرعه الذي فوض له الحكم به وهو لا يبيح استرقاق السارق، فما كان بالميسور له أخذ أخيه من إخوته ومنعه من الرحيل معهم إلا بحكمهم على أنفسهم بشرعية يعقوب التي تبيح ذلك .

ولما كانت هذه الوسيلة إلى تلك الغاية الشريفة منكورة على حسب الظاهر ، لأنها تهمة باطلة ، وكان من شأن يوسف أن يتباعد عنها ويتحاماها إلا بوحي من الله - بين أنه فعل ذلك بإذن الله ومشيبته فقال :

(إلا أن يشاء الله) أى إنه فعل ذلك بإذن الله ووحيه ، لا أنه هو الذى اخترع هذه المكيدة .

(نرفع درجات من نشاء) أى نرفع من نشاء درجات كثيرة فى العلم والإيمان ونزيه وجوه الصواب فى بلوغ المراد ، كما رفعنا درجات يوسف على إخوته فى كل شيء . وفى هذا إيماء إلى أن العلم أشرف المقامات ، وأعلى الدرجات .

(وفوق كل ذى علم عليم) أى وفوق كل عالم من هو أوسع إحاطة منه وأرفع درجة ، إلى أن يصل الأمر إلى من أحاط بكل شيء علما وهو فوق كل ذى علم .
وخلاصة ذلك - أن إخوة يوسف كانوا علماء إلا أن يوسف كان أعلم منهم .

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ، فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ، قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧)
قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا ظَالِمُونَ (٧٩) .

الإيضاح

(قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) أى قال إخوة يوسف ، إن

يسرق بنيامين فقد سرق أخوه يوسف من قبل ، فالسرقة جاءت وراثته من أمهما إذ هما لا ينفردان عنا إلا بها . وفي قولهم هذا إيماء إلى أن الحسد لا يزال كما منا في قلوبهم ، لاختلاف الأمهات ، ولزيد محبة الأب لهما .
وأصح ما قيل في سرقة يوسف ما رواه ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا قال : سرق يوسف عليه السلام صنما لجدته أبي أمه من ذهب وفضة فكسره وألقاه في الطريق فعيره بذلك إخوته .

وأخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : كان أول ما دخل على يوسف عليه السلام من البلاء فيما بلغني أن عمته وكانت أكبر ولد إسحاق عليه السلام وكانت إليها منطقة إسحاق إذ كانوا يتوارثونها بالكبر ، وكان يعقوب حين ولد له يوسف عليه السلام قد حضنته عمته فكان معها ، فلم يحب أحدا شيئا من الأشياء كحبها إياه حتى إذا ترعرع ووقعت نفس يعقوب عليه السلام عليه فأتاها فقال يا أختي سلمى إلى يوسف ، فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة ، قالت : فوالله ما أنا بتاركته فدعه عندي أياما أنظر إليه لعل ذلك يسليني عنه ، فلما خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة إسحاق عليه السلام فخرمتها على يوسف عليه السلام من تحت ثيابه ، ثم قالت فقدت منطقة إسحاق فانظروا من أخذها ومن أصابها ؟ فالتمت ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف عليه السلام ، فقالت والله إنه لسلّم لي أصنع فيه ماشئت ، فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر فقال لها : أنتِ وذلكِ إن كان فعل فهو سلم لك ما أستطيع غير ذلك ، فأمسكته فما قدر عليه حتى ماتت .

وهذا هو الذي عناه إخوته بقولهم (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) وهذه الروايات لا يوثق بها كما لا يدل شيء منها على سرقة حقيقية .

(فأسرّها يوسف في نفسه) أي فأضمر مقاتلهم في نفسه ولم يجبرهم عنها .

(ولم يبدها لهم) أي ولم يؤاخذهم بها لا قولاً ولا فعلاً صفحا عنهم وحلما .

ثم فسر ما أسره بقوله :

(قال أنتم شر مكانا) أى لكنه قال فى نفسه أنتم شر فى مكاتكم ومنزلتكم بما تعرضون به أو تفترونه ، إذ أنكم سرقتم من أيكم أحب أولاده إليه وعرضتموه للهلاك والرق ، وقتلتم لأبيكم قد أكله الذئب الخ .

(والله أعلم بما تصفون) أى والله أعلم منكم بما تصفونه به ، لأنه سبحانه هو العليم بحقائق الأشياء ، فيعلم كيف كانت سرقة الذى أحلتكم سرقة عليه .

ثم أرادوا أن يستعظموه ليطلق لهم أخاه بنيامين فيرجعوا به إلى أبيهم ، لأنه قد أخذ عليهم الميثاق بأن يردوه إليه .

(قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا) طاعنا فى السن لا يكاد يستطيع فراقه وهو علالته التى يتعلل بها عن شقيقه الهالك ، أو هو كبير القدر جدير بالرعاية كما علمت مما سلف من قصصه ومن تعلقه به .

(نخذ أحدنا مكانه) أى بدله فلسنا عنده بمنزلته فى المحبة والشفقة عنده .

ثم عللوا ذلك بقولهم :

(إنا نراك من المحسنين) إلينا فى ميرتنا وضيافتنا وتجهيزنا ، فأتم إحسانك ، فما الإنعام إلا بالإتمام ، أو المعنى إن من عادتك الإحسان مطلقا ، فأجر على عادتك ولا تغيرها ، فنحن أحق الناس بذلك .

فأجابهم عن مقالتهم :

(قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) أى حاش لله أن نأخذ إلا من وجدنا الصواع عنده ، لأننا قد أخذناه بفتواكم (من وجد فى رحله فهو جزاؤه) فلا يسوغ لنا أن نخل بموجبها .

ولم يقل إلا من سرق متاعنا اتقاء للكذب ، لأنه يعلم أنه ليس بسارق .

(إنا إذا لظالمون) أى إنا إذا أخذنا غيره لظالمون من وجهين : مخالفة شرعكم ونص فتواكم ، ومخالفة شريعة الملك .

فَلَمَّا اسْتِيَأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ
 آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْتِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ،
 فَلَنْ أُبْرِحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ
 الْحَاكِمِينَ (٨٠) أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ
 وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْتَلِ الْقَرْيَةَ
 الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ
 لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ، إِنَّهُ
 هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَا عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ
 عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) .

شرح المفردات

استيأسوا : أى يتسوا يأساً كاملاً ، خلصوا : انفردوا عن الناس ، نجياً : أى
 متناجين متشاورين فيما يقولون لأبيهم ، كبيرهم : أى فى الرأى والعقل وهو يهوذا ،
 وموتقاً : أى عهداً يوثق به وهو حلفكم بالله ، فرطتم : قصرتم فى شأنه ولم تحفظوا
 عهد أبيكم فيه ، أبرح : أفرق ، أمراً : أى كيدا آخر ، تولى : أعرض ، والأسف :
 أشد الحزن والحسرة على ما فات ، كظيم : أى مملوء غيظاً على أولاده ممسك له فى قلبه ،
 القرية : اسم للموضع الذى يجتمع فيه الناس وللناس جميعاً ، ويستعمل فى كل واحد
 منهما قاله الراغب .

الإيضاح

(فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً) أى فلما استحك اليأس فى أنفسهم من قبول
 العزيز لشفاعتهم واستعطافهم بعد أن أقام الحجة عليهم بشرعهم وفتواهم وأنه إن فعل

غيره يكون ظلماً بمقتضى شريعتهم وشريعة ملك مصر - اعتزلوا الناس ولم يخالطوا أحداً ، وانفردوا للمناجاة والتشاور في أمرهم .

وخالصة ذلك - إن أولئك الإخوة العشرة بعد أن انتهى كبيرهم من استعطاف العزيز وعدم جدوى ما فعل ، غادر كل منهم رحله وانضم بعضهم إلى بعض وأدنى رأسه من رأسه وأرهبوا آذانهم للنجوى .

(قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله) أي قال كبيرهم عقلا ورأيا وهو يهوذا : ألم تعلموا أيها القوم أن أباكم يعقوب قد أخذ عليكم عهد الله وميثاقه لتردنه إليه إلا أن يحاط بكم ، وقد رأيتم كيف تعذر ذلك عليكم .

(ومن قبل ما فرطتم في يوسف) أي ومن قبل هذا قد قصرتم في حفظ يوسف بعد وعدمكم المؤكد بحفظه ، وكيف إن أباكم قد قاسى من الحزن ما قاسى .
(فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي) أي فلن أفارق أرض مصر ، حتى يأذن لي أبي بتركها والرجوع إليه وبنيامين فيها ، أو يحكم الله لي بأمر من عنده مما هو غيب في علمه ، كأن يترك العزيز لي أخى بإلهام منه تعالى أو بسبب آخر .

(وهو خير الحاكمين) لأنه لا يحكم إلا بما هو الحق والعدل ، وهو للسخر للأسباب والمقدر للأقدار .

ثم أمرهم بأن يقولوا لأبيهم ما يزيلون به التهمة عن أنفسهم قال :
(ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق) صواع الملك فاسترقه وزيره العزيز القائم بالأمر في مصر عملاً بشريعتنا ، إذ نحن أنبأناه بها بعد أن استنبأنا إياها .
(وما شهدنا إلا بما علمنا) أي وما شهدنا عليه بالسرقة بسمع أو إشاعة أو تهمة بل ما شهدنا إلا بما علمنا إذ رأينا الصواع قد استخرج من متاعه .

(وما كنا للغيب حافظين) فنعلم أنه سيسرق حين أعطيناك الموثيق ، ولو كنا نعلم ذلك لما آتيناك العهد الموثق علينا .

(واسأل القرية التى كنا فيها) أى واسأل أهل القرية التى كنا نمتار فيها وهى مصر ، فقد اشتهر فيهم أمر هذه السرقة حتى لو سئلوا لشهدوا .
(والعير التى أقبلنا فيها) أى واسأل أصحاب العير الذين كانوا يمتارون معنا .
ثم أكدوا صدق مقالهم بقولهم :

(وإنا لصادقون) فيما أخبرناك به ، سواء أسألت غيرنا أم لم تسأل ، إذ أن من عادتنا الصدق فلا نخبرك إلا به ولا نظنك فى مرية من هذا .

وبعد أن انتهى تعالى من سرد مقال كبيرهم عاد إلى ذكر مقال أبيهم فقال :
(قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا) أى فرجع الإخوة إلى أبيهم وقالوا له ما لقنهم كبيرهم فلم يصدقهم فيما قالوا ، بل قال لهم بل زينت لكم أنفسكم كيذا آخر فنفذتموه ، ومما يقوى ذلك عندى أنكم لقنتم هذا الرجل حكم شريعتنا وأفتيتموه به وليس ذلك من شريعته .

(فصبر جميل) أى فخالى على مانالى من فقدته صبر جميل لا جزع فيه ولا شكاية لأحد ، بل أشكو إلى الله وحده وأعلق رجائى به .

(عسى الله أن يأتينى بهم جميعا) أى أطلب من الله أن يرجع إلى يوسف وبنيامين والأخ الثالث الباقى بمصر ، وقد كان لديه إلهام بأن يوسف لم يمت وإن غاب عنه خبره .

(إنه هو العليم الحكيم) أى إنه العليم بوجدتى وفقدهم والحزن عليهم ، وله فىنا حكمة بالغة وهو الحكيم فى أفعاله فيبتلى ويرفع البلاء على مقتضى سننه وحكمته فى تدبير خلقه ، وقد جرت سنته أن الشدة إذا تناهت جعل وراها فرجا والمصيبة إذا عظمت جعل بعدها الخلل منها . كما قال (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) .

(وتولى عنهم) أى أعرض عنهم كراهة لما جاءوا به .
(وقال يا أسفا على يوسف) أى يا حزنى ويا حسرتى عليه أقبلى فهذا وقتك

والحال مقتضية لك ، فقد كنت أنتظر أن يأتوني من مصر يبشرى لقاء يوسف ،
نخاب أملى وحل محله ذهاب ابني المسلى عنه ، ولم يشرك معه بنيامين بالأسف عليه ،
لأن مكان حب يوسف والرجاء فيه قد ملأ سويداء القلب وزواياه ، وحل غيره
دون ذلك .

(وابتضت عيناه من الحزن) أى أصابتهما غشاوة بيضاء غطت على البصر مع
بقاء العصب الذى يدرك المبصرات سليما معافى ، قال الدكتور عبدالعزيز إسماعيل باشا:
البياض المصحوب بضياع البصر غالبا معناه (الجلوكوما) والمعروف عند الاختصاصيين
فى أمراض العيون أن أهم سبب لها هو التغيرات فى الأوعية الشعرية نتيجة لأسباب
كثيرة من أهمها الانفعالات العصبية (كما يحدث فى زيادة ضغط الدم) لاسيما الحزن
(الدكتور ملر) اه .

(فهو كظيم) أى مملوء غيظا على أولاده ، يردد حزنه فى جوفه ولا يتكلم بسوء ؛
والحزن عرض طبيعى للنفس ولا يذم شرعا إلا إذا بلغ بصاحبه أن يقول أو يفعل
ما لا يرضى الله تعالى ، ومن ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم عند موت ولده إبراهيم
وقد جعلت عيناه تدرقان فقال له عبد الرحمن بن عوف وأنت يارسول الله : « يا ابن
عوف إنها رحمة » ثم أتبعها بأخرى فقال : « إن العين تدمع والقلب يخشع ولا نقول
إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم محزونون » رواه الشيخان وغيرهما .

وفى التفسير بالمأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن داود عليه السلام
قال : يارب إن بنى إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فاجعلنى لهم
رابعا ، فأوحى الله إليه أن : يا داود إن إبراهيم ألقى فى النار بسببى فصبر ، وتلك بلية
لم تنلك ، وإن إسحاق بذل مهجة دمه بسببى فصبر ، وتلك بلية لم تنلك ، وإن
يعقوب أخذت منه حبيبه فابتضت عيناه من الحزن ، وتلك بلية لم تنلك » قال الحافظ
ابن كثير : وهذا حديث مرسل وفيه نكارة ، فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذى يبعث اه .

قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ
 مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ
 اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ
 وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
 الْكَافِرُونَ (٨٧)

شرح المفردات

تفتأ: أى لا تفتأ بمعنى لا تزال ، والحرض: المرض المشفى على الهلاك ، من
 الهالكين: أى اللتين ، البث فى الأصل: إثارة الشئ وتفريقه كبث الريح التراب،
 ثم استعمل فى إظهار ما انطوت عليه النفس من الغم أو السر، وتحسسوا: أى تعرفوا
 أخبار يوسف بحواسكم من سمع وبصر ، والروح: التنفس ، يقال أراح الإنسان إذا
 تنفس ، ثم استعمل للفرج والتنفيس من الكرب .

الإيضاح

(قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين)
 أى قال ولد يعقوب الذين جاءوا من مصر حين قال يا أسفا على يوسف : تالله
 لا تزال تذكر يوسف وتلهج به حتى تصير بذلك إلى مرض لا تنتفع بنفسك معه
 أو تموت من الغم .

وخلاصة ذلك - إنك الآن فى بلاء شديد ونخاف أن يحصل لك ما هو أكثر
 وأقوى منه ، وهم يريدون بذلك منعه من البكاء والأسف .

فأجابهم والتمس لنفسه معذرة على الحزن :

(قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) أى لا تلومونى وأنا لم أشك إليكم

ولا إلى أحد من الخلق حزني الذي أمضني كتمانته ، فأفشيته بهذه الكلمة (يا أسفا على يوسف) بل شكوت ذلك إلى الله وحده .

(وأعلم من الله ما لا تعلمون) أي وأنا أعلم في ابتلائي بفراقه مع حسن عاقبته ما لا تعلمون ، فأعلم أنه حي يرزق ، وأن الله يحببني ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب ، وأنتم تظنون أن يوسف قد هلك ، وأن بنيامين قد سرق فاسترق ، وتحسبون أنني بحزني ساخط على قضاء الله في شيء أمضاه ولا مرد له ، وأنا أعلم أن لهذا أجلا هو بالغة ، وإني لأرى البلاء ينزل عليكم من كل جانب بذنوبكم وبتفريطكم في يوسف من قبل ، وبأخيه الذي كان يسليني عنه من بعد .

وعن ابن عباس في تفسير الآية : أنا أعلم أن رؤيا يوسف حق وأنني سأسجد له .
(يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) أي اذهبوا إلى مصر وتعرفوا أخبارهما بحواسكم من سمع و بصر حتى تكونوا على يقين من أمرهما .

(ولا تياسوا من روح الله) أي لا تقنطوا من فرجه سبحانه وتنفيسه عن النفس هذا الكرب ، بما ترتاح إليه الروح ويطمئن به القلب .

(إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون) بقدرته وسعة رحمته ويجهلون ما لله في عباده من حكم بالغة ولطف خفي ، فإذا لم يصلوا إلى ما يبتغون من كشف ضر أو جلب خير بنحوا أنفسهم (انتحروا) ها وحزنا .

أما المؤمن حقا فلا تقنطه المصائب ولا الشدائد من رحمة ربه وتفرجه لكرمه ، ومن ثم قال ابن عباس : إن المؤمن من الله تعالى على خير يرجوه في البلاء ويحمده في الرخاء .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَانَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ
مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ

(٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩)
 قَالُوا أَأَنْتَ يُّوسُفُ؟ قَالَ أَنَا يُّوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا
 إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ
 لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ
 الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي
 هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) .

شرح المفردات

الضر: أى ضر الجماعة من الهزال والضعف ، والمزجاة الرديئة التى يدفعها التجار
 من أزجى الشئ وزجاء: إذا دفعه برفق كما قال: «ألم تر أن الله يزجى سحاباً»
 وآثرك: أى اختارك وفضلك ، والخاطى: هو الذى يأتى بالخطيئة عمداً ، والخطى:
 من إذا أراد الصواب صار إلى غيره ، والخطء: الذنب ، وخطأته: قلت له أخطأت ،
 ولا تثريب: أى لا لوم ولا تأنيب وثرّب فلان على فلان إذا عدّد عليه ذنوبه ،
 ويأت بصيرا: أى يصر بصيرا فى الحال ، أو يأت إلى وهو بصير .

الإيضاح

(فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر) أى بعد أن قبلوا وصية
 أبيهم حين قال لهم اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، وعادوا إلى مصر - دخلوا
 على يوسف عليه السلام فقالوا له يا أيها العزيز أصابنا الهزال والضعف لما نحن فيه من
 الجماعة وكثرة العيال وقلة الطعام وقد شكوا إليه رقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة
 وغير ذلك مما يرقق القلب مع أن مقصدهم التحسس من يوسف وأخيه - ليروا

تأثير الشكوى فيه ، فإن رق قلبه لهم ذكروا ما يريدون وإلا سكتوا وقد كان أبوم
يرجح أنه هو يوسف ، فأرادوا أن يروا تأثير هذا الاستعطاف فيه .
(وجئنا ببضاعة مزجاة) أى ببضاعة رديئة يحتقرها التجار ويدفعونها
احتقاراً لها .

(فأوف لنا الكيل) أى فآتتمه كما تعودنا من جميل رعايتك وإحسانك .
(وتصدق علينا) بما تزيده على حقنا ببضاعتنا بعد أن تغمض عن ردايتها .
(إن الله يجزى المتصدقين) فيخلف ما ينفقون ويضاعف الأجر لهم .
وقد بالغوا فى الضراعة والتذلل لما كانوا يريدون من تأثير ذلك فى ملامح
وجهه وجرس صوته ومغالبته دمه .

ثم بعد أن ذكر طريق تحسسهم ذكر رد يوسف عليهم .
(قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه) أى قال ما أعظم ما فعلتم بيوسف
من قبل وبأخيه بنيامين من بعد على قرب العهد ، وما أقبح ما أقدمتم عليه ، كما
يقال للمذنب هل تدري من عصيت ، وهل تعرف من خالفت .
(إذ أنتم جاهلون) قبح ما فعلتموه فى حكم شرعكم ، وحقوق بر الوالدين
وما يجب من رحمة القرابة والرحم .

وخلاصة ذلك - إنكم كنتم فى حال يغلب عليكم فيها الجهل بهذه الحقوق
وبعاقبة البغى والعقوق .

وقد يكون المراد من الجهل الطيش والنزق واتباع الهوى وطاعة الحسد والأثرة .
وقد قال لهم هذه المقالة تمهيدا لتعريفهم بنفسه ، إذ آن أن يصارحهم به بعد أن
بلغ الكتاب أجله وبلغت به وبهم الأقدار غايتها ولم يبق بعد هذا إلا التصريح
وتأويل رؤياه التى كانت السبب فى كل ما حدث من تلك الأفاعيل .

وقد ذكر يوسف إخوته بذنوبهم تذكيرا مجملا قبل أن يتعرف إليهم بذكر

العذر وهو الجهل بقبح الذنب في ذاته وبسوء عاقبته لتمسك نزع الشيطان من أنفسهم الأمانة بالسوء ، وقد ذكرهم بطريق سؤال العارف المتجاهل على طريق التقرير لا التقرير والتوبيخ كما يدل عليه نفي التثريب والدعاء بالمغفرة .

قال صاحب الكشاف في تفسير الآية : أتاهم من جهة الدين وكان حلياً موقفاً فكلهم مستفهما عن معرفة وجه القبح الذى يجب أن يراعيه التائب ، فقال هل علمتم قبح (ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون) لا تعلمون قبحه فلذلك أقدمت عليه - يعنى هل علمتم قبحه فتبتم إلى الله منه ؟ لأن علم القبح يدعو إلى الاستقباح ، والاستقباح يجر إلى التوبة ، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصيحاً لهم فى الدين لامعائبة ونشرباً ، إيثارة لحق الله على حق نفسه فى ذلك المقام الذى يتنفس فيه المكروب ، وينفث المصدر ، ويتشفى المغيظ المحنق ، ويدرك نأره الموتور ، فله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها ، والله حصا عقولهم ما أوزنها وأرجحها اه .

كان سؤاله إياهم عما فعلوا بيوسف وأخيه وهو سؤال العارف بأمرهم فيه من البداية إلى النهاية - مصداقاً لما أوحاه الله إليه حين ألقوه فى غيابة الجب من قوله « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » إذ يبعد أن يعرف هذا سواه ، فأرادوا أن يتثبتوا من ذلك ويستيقنوا به فوجهوا إليه سؤالاً هو سؤال المتعجب المستغرب لما يسمع .

(قالوا أأنك لأنت يوسف؟) أى قالوا من المؤكد قطعاً أنك أنت يوسف - عجبتوا من أنهم يترددون عليه مدى سنتين أو أكثر وهم لا يعرفونه وهو يعرفهم ويكنم نفسه . (قال أنا يوسف) الذى ظلمتمونى غاية الظلم وقد نصرنى الله فأكرمى وأوصلنى إلىسمى المراتب ، أنا ذلك العاجز الذى أردتم قتله بإلقائه فى غيابة الجب ثم صرت إلى ما ترون .

(وهذا أخى) الذى فرقت بينى وبينه وظلمتموه ثم أنعم الله عليه بما تبصرون .

(قد من الله علينا) فجمع بيننا بعد الفرقة ، وأعزنا بعد الذلة ، وآنسنا بعد الوحشة ، وخلصنا مما ابتلينا به .
وفيه إيماء إلى أنه لا وجه لطلبكم بنيامين لأنه أخى لا أخوكم .

تذييله

فإن قيل لم لم يعرف يوسف إخوته بنفسه في أول مرة ليبشروا أباهم به وبما هو عليه من حسن حال و بسطة جاه فيكون في ذلك السرور كل السرور له ؟ فالجواب عن ذلك ما أجاب به ابن القيم في كتابه [الإغاثة الكبرى] قال رحمه الله : لو عرفهم بنفسه في أول مرة لم يقع الاجتماع بهم وبأبيه ذلك الموقع العظيم ولم يحل ذلك المحل ، وهذه عادة الله في الغايات العظيمة الحميدة ، إذا أراد أن يوصل عبده إليها هيأ له أسبابا من الحن والبلايا والمشاق ، فيكون وصوله إلى تلك الغايات بعدها كوصول أهل الجنة إليها بعد الموت وأهوال البرزخ والبعث والنشور والموقف والحساب والصراط ومقاساة تلك الأهوال والشدائد ، وكما أدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ذلك المدخل العظيم بعد أن أخرجه الكفار ذلك المخرج ، ونصره ذلك النصر العزيز بعد أن قاسى مع أعداء الله ما قاساه . وكذلك ما فعل برسله كنوح وإبراهيم وموسى وهود وصالح وشعيب عليهم السلام .

فهو سبحانه يوصل إلى الغايات الحميدة بالأسباب التي تكرهها النفوس وتشق عليها كما قال « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » وربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سببا ما مثله سبب .

وبالجملة فالغايات الحميدة في خبايا الأسباب المكروهة الشاقة ، كما أن الغايات المكروهة في خبايا الأسباب المشتهة المستلذة ، وهذا من حين خلق الله سبحانه الجنة وحفها بالمكاره والنار وحفها بالشهوات اه .

(إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) أى إن الحق الذى نطقت به الشرائع وأرشدت إليه التجارب هو : من يتق الله فيما به أمر وعنه نهى ، ويصبر على ما أصابه من الحن وفتن الشهوات والأهواء ، فلا يستعجل الأقدار بشيء قبل أوانه ، فإن الله لا يضيع أجره فى الدنيا ثم يؤتیه أجره فى الآخرة .
وفى الآية شهادة له من ربه بأنه من المحسنين المتقين الله ، وبأن من كان مطيعا لنفسه الأمانة بالسوء ومتبعا لنزغات الشيطان فان عاقبته الخزى فى الدنيا والنكال فى الآخرة ، إلا من تاب وعمل صالحا ثم اهتدى .

(قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) أى قال إخوة يوسف له : لقد فضلك الله علينا وآثرك بالعلم والحلم والفضل .

(وإن كنا لخاطئين) أى وما كنا فى صنعنا بك وتفریقنا بينك وبين أخيك إلا متعمدين للخطيئة ، ولا عذر لنا فيها عند الله ولا عند الناس .
و بعد أن قدموا له المذرة أجابهم بالصفح عما فعلوا .

(قال لا تريب عليكم اليوم) أى لا لوم ولا تعنيف عليكم فى هذا اليوم الذى هو مظنته ، ولكن لكم عندى الصصح والعفو . وهو إذالم يثرّب أول لقائه واشتعال ناره ، فبعده أولى .

وقال السيد المرتضى : إن كلمة (اليوم) موضوعة موضع الزمان كله كقوله :

اليوم يرحمنا من كان يغبطنا واليوم نتبع من كانوا لنا تبعا

كأنه أريد بعد اليوم اه .

(يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) أى يغفو الله لكم عن ذنبكم وظلمكم ويستره عليكم ، وهو أرحم الراحمين لمن أقلع عن ذنبه وأناب إلى طاعته بالتوبة من معصيته .

وقد تمثل النبى صلى الله عليه وسلم بالآية يوم فتح مكة حين طاف بالبيت وصلى ركعتين ، ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب وقال : « ماذا تظنون أنى

فاعل بكم؟ قالوا نظن خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: وأنا أقول كما قال أخى يوسف (لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُْ الْيَوْمَ)، فخرجوا كأنما نشروا من القبور.. أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس والبيهقي عن أبي هريرة. . . روى أن يوسف عليه السلام لما عرف نفسه إخوته سألمهم عن أيهم فقالوا يذهب بصره فعند ذلك أعطاهم قميصه وقال:

(اذهبوا بقميصي هذا) الذى على بدنى أو يدي .
(فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا) أى ألقوه على وجهه حين وصولكم إليه دون تأخير يصر بصيرا ، وقد علم هذا إما بوحي من الله ، وإما لأنه علم أن أباه ما أصابه ما أصابه إلا من كثرة البكاء وضيق النفس فإذا ألقى عليه قميصه شرح صدره وسر أعظم السرور ، وقوى بصره وزالت منه هذه الغشاوة التى رانت عليه ، والقوانين الطبية تؤيد هذا ، كما سيأتى بعد .

(وائتوني بأهلكم أجمعين) من الرجال والنساء والذراري وغيرهم ، وقد روى أن أهله كانوا سبعين رجلا وامرأة وولدا .

وَلَمَّا فَصَّاتِ الْعَيْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لَأَنْ
تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ
الْبَشِيرُ الْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بِصِيرًا ، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ
اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ
(٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) .

شرح المفردات

يقال فصل عن البلد: إذا انفصل وجاوز حيطانه، وتفندون: أى تنسبونى إلى

الفند؛ وهو فساد الرأى وضعف العقل وانحرف من الكبر، فى ضلالك : أى فى خطئك
أو فى إفراطك فى حبه والإصرار على اللهج به ، وارتد : أى رجع .

الإيضاح

(ولما فصلت العير قال أبوم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) أى ولما
انفصلت عير بنى يعقوب عن حدود مصر قافلة إلى أرض الشام ، قال أبوم لمن حضره
من حفدته ومن غيرهم : إنى لأشم رائحة يوسف كما عرفتها فى صغره ، لولا أن تنسبونى
إلى ضعف الرأى وفساد العقل وخرف الكبر ، لصدقتمونى فى أنى أجد رائحته
حقيقة وأنه حى قد قرب موعد لقائه والتمتع برؤيته .

وروى عن ابن عباس أنه لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح
قيص يوسف ، قال إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ، فوجد ريحه من ثمانية
أيام ، وفى رواية من ثمانين فرسخاً ، والمراد من مسافات بعيدة جدا .

(قالوا تالله إنك لنى ضلالك القديم) أى قال حاضر ومجلسه : تالله إنك
لنى خطئك الذى طال أمده باعتقادك أن يوسف حى يرجى لقائه وقد قرب .

ولا غرو فللخلى أن يقول فى الشجى ما شاء ، فأذنه عن العذل صماء
سلوتى عنكم احتمال بعيد وافتضاحى بكم ضلال قديم
كل من يدعى المحبة فيكم ثم يخشى اللام فهو ملهم
قال قتادة فى تفسيرها : تالله إنك لنى ضلالك القديم أى من حب يوسف
لاتسأه ولا تسأه اه ، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها له .

(فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا) أى فلما جاء البشير وهو ابنه
يهودا الذى يحمل القميص من يوسف (وهو الذى حمل إليه قيصه الملطخ بالدم
الكذب) ليمحو السيئة بالحسنة ، ألقاه على وجه يعقوب فعاد من فوره بصيرا كما

كان - بل قد قيل إنه عادت إليه سائر قواه ، وليس ذلك بعجيب ولا منكر ، فكثيرا ما شفى السرور من الأمراض وجدد قوى الأبدان والأرواح ، والتجارب وقوانين الطب شاهد صدق على صحة ذلك . قال الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا : لا تحسن أعراض مرض (الجوالكوما) أو شدة توتر العين أو تقف شدته إلا بالعلاج ، ومنه العمليات الجراحية ، ولكن شفاء سيدنا يعقوب بوضع القميص على وجهه هو معجزة من المعجزات الخارجة عن قدرة الإنسان ، وليس المهم هو القميص أو وضعه على وجهه ، فقد كان ذلك لتسهيل وقع المعجزة على الحاضرين فحسب ، ولكن المهم هو طريقة الشفاء وهي إرادة الله المنحصرة في (كن فيكون) وهي خارجة عن كل السنن الطبيعية التي أمر الإنسان أن يتعلمها ، فعظمة المعجزة ليست في النتيجة فحسب ولكن في طريق الشفاء - وما أعظم إعجاز القرآن الذي وصف حالة مرضية خاصة وبين سببها ، ولم يكن يعلم العالم شيئا عن هذا المرض في ذلك الوقت ولا بعده بزمن طويل اه .

وقد أجاب يعقوب من لاموه بما كان عليه من علم قطعي من ربه بصدق مايقول .
 (قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ؟) أي قال لهم : ألم أقل لكم حين أرسلتكم إلى مصر وأمرتكم بالتحسس ونهيتكم عن اليأس من روح الله : إني أعلم بوحى الله لا من خطرات الأوهام ما لا تعلمون من حياة يوسف عليه السلام - وقد ذكرهم الآن إذ عاد بصيرا بما كان قد قاله لهم حين ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم .

نبذة في تعليل شم يعقوب رائحة يوسف

أثبت العلم حديثاً أن الريح تحمل الغبار وما فيه من قارة إلى أخرى ، فتحمله من إفريقيا مثلاً إلى أوروبا وهي مسافة أبعد مما بين مصر وأرض كنعان من بلاد الشام وهي بلا شك تحمل رائحة ماله منها رائحة ، ولكن الغريب شم البشر لها من المسافات البعيدة ، والإنسان إذا قيس بغيره من الوحوش والحشرات كان أضعف منها شماً ، فالكلب ذو حاسة قوية في الشم حتى ليدير به الآن رجال الشرطة ويستخدمونه في حوادث الإجرام من قتل وسرقة لإثبات التهمة على المجرمين ، فيأتون بالكلب المعلم فيشم المجرم ويخرجه من بين أشخاص كثيرين ، ويرى ذلك رجال القانون دليلاً قوياً على إثبات الجريمة على من يرشد إليه ، بل دليلاً قاطعاً في بعض الدول . والروائح منها القوى والضعيف ، ومن أضعفها رائحة جسم الإنسان وعرقه وما يصيب ثوبه منها ، ولكن ما نحن فيه من خوارق العادات ومن خواص عالم الغيب لا من السنن العادية والحوادث التي تتكرر من البشر .

وقد دلت الآية على أن يعقوب عليه السلام أخبر أنه وجد رائحة يوسف لما فصلت العير من أرض مصر ، فعلمنا أن نؤمن به لأنه معصوم من الكذب ، وقد تبين صدقه بعد ، وليس بالواجب علينا أن نعرف كنهه أو نصل إلى معرفة سببه ، ولكن إذا نحن قلنا إنه لشدة تفكره في أمر ولده وتذكره لرائحته حين كان يضعه ويشمه - شعر بتلك الرائحة قد عادت له سيرتها الأولى - لم يكن ذلك مجانباً للصواب ولا معارضاً للعقل ولا ناقضاً لما يثبت العلم ، أو قلنا بأننا نتقبل هذا بدون تعليل ولا تصوير لكيفية ذلك - لم نبعد عن العقل ولا عن العلم ، إذ لا خلاف بين العلماء في أن ما يجمله الباحثون أضعاف ما يعرفونه .

وعلى الجملة فعلمنا التسليم بما أخبر به دون حاجة للبحث في كنهه أو صفته مادام ذلك داخلاً في حيز الإمكان .

(قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) أى قال أولاده وكانوا قد وصلوا إثر البشير . يا أبانا اسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا التى اجترحناها من عمقك وإيذاء أخويتنا ، إنا كنا متعمدين لهذه الخطيئة ، عاصين لله ، ظانين أن نكون بعدها قوما صالحين .

الآن اعترفوا بذنوبهم كما اعترفوا ليوسف من قبل ، لكن يوسف باذر إلى الاستغفار لهم وهم لم يطلبوه منه ، وعليك أن تسمع جواب أبيهم الآتى :
(قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم) وعدم بالاستغفار لهم فى مستأنف الزمان ، وعلل هذا بأن ربه واسع المغفرة والرحمة ، لا ينقطع رجاء المؤمن فيها وإن ظلم وأساء .

والفارق بين جواب يعقوب وجواب يوسف من وجوه كثيرة اقتضتها الحكمة:
(١) إن حال أبيهم معهم حال الربى المرشد للمذنب ، لا حال المنتقم الذى يخشى أذاه ، وليس من حسن التربية ولا من طرق التهذيب أن يريهم أن ذنبهم هين لديه حتى يعجل بإجابة مطلبهم بالاستغفار لهم .

(٢) إن ذنبهم لم يكن موجها إليه مباشرة ، بل موجه إلى يوسف وأخيه ، ثم إليه بالتبع واللزوم ، إلى أنه ليس من العدل أن يستغفر لهم إلا بعد أن يعلم حالهم مع يوسف وأخيه ، ولم يكن يعقوب قد علم بعفو يوسف عنهم واستغفاره لهم .

(٣) إن هذا ذنب كبير وإثم عظيم طال عليه الأمد وحدثت منه أضرار نفسية وخلقية وأعمال كان لها خطرنا ، فلا يمتحى إلا بتوبة نصوح تجتث الجذور التى علقت بالأنفس والأرجاس التى باضت وأفرخت فيها .

فلا يحسن بعدئذ من الربى الحكيم أن يسارع إلى الاستغفار لمقترفها عقب طلبه حتى كأنها من هيئات الأمور التى تغفر ببادرة من الندم ، ومن ثم تلبث فى الاستغفار لهم إلى أجل ليعلمهم عظيم جرمهم وأعلمهم بأنه سوف يتوجه إلى ربه ويطلب لهم الغفران منه بفضلته ورحمته .

(٤) إن حال يوسف معهم كان حال القادر بل المالك القاهر مع مسيء ضعيف لديه ، عظم جرمه عليه ، فلم يشأ أن يكون الغفران بشفاعته ودعائه ، فآمنهم من خوف الانتقام تعجيلا للسرور بالنعمة الجديدة التي جعل الله أمرها بين يديه ، وليروا ويرى الناس فضل العفو عند القدرة ، وليكون لهم في ذلك أحسن الأسوة ، وفي هذا من ضرور التربية أكبر العظة والعبرة ، ولو أصر المغفرة لكانوا في وجل مما سيحل بهم وخافوا شر الانتقام ، فكانوا في قلق دائم وتبلبل بال واضطراب نفس فكانت معرفتهم له عذابا فوق العذاب الذى هم فيه ، ولكن شاءت رحمته بهم أن يجعل السرور عاما والحياة الجديدة حافلة بالاطمئنان وقرّة العين ، وهكذا شاءت الأقدار وشاء الله أن يكون ذلك وهو العليم الحكيم .

تأويل رؤيا يوسف من قبل

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبْوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) .

شرح المفردات

آوى إليه أبويه : أى ضمهما إليه واعتنقهما ، ورفع أبويه : أى أضعدهما ، والعرش كرمى تدبير الملك لا كل سرير يجلس عليه الملك وخروا له سجدا : أى أهوى أبواه

وإخوته إلى الأرض وخرّوا له سجدا ، تأويل رؤياي : أى مآلها وعاقبتها ، وأصل
النزغ : نخس الرائض الفرس بالمهماز لإزعاجه للجري ، ثم قيل نزغه الشيطان كأنه
نخسه ليحشه على المعاصي ، ونزغ بين الناس : أفسد بينهم بالحث على الشر .

المعنى الجملى

بعد أن أخبر فيما سلف أن يوسف قال لإخوته اتنوني بأهلكم أجمعين - أخبر
هنا أنهم رحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر ، فلما أخبر يوسف بقرب مجيئهم
خرج للقاءهم ، وأمر الملك أمراءه وأكابر دولته بالخروج معه للقاء نبي الله يعقوب
عليه السلام .

الإيضاح

(فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه) فى العبارة حذف وإيجاز يفهم من
سياق الكلام والمعنى - بعد أن ذهب إخوة يوسف إلى أبيهم وأخبروه بمكانة يوسف
فى مصر وأنه الحاكم المفوض المستقل فى أمرها - أبلغوه أنه يدعوهم كلهم للإقامة معه
فىها والتمتع بحضارتها فرحلوا حتى بلغوها - ولما دخلوا على يوسف وكان قد استقبلهم
فى الطريق فى جمع حافل احتفاء بهم ضم إليه أبويه واعتنقهما .

وظاهر الآية يدل على أن أمه كانت لاتزال حية ورجحه ابن جرير ، وقال جمع
من المفسرين إن المراد بأبويه أبوه وخالته ، لأن أمه قد ماتت قبل ذلك فتزوج
أبوه خالته .

(وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) أى وقال لهم ادخلوا بلاد مصر إن
شاء الله آمنين على أنفسكم وأنعامكم من الجوع والهلاك ، فإن سنى القحط كانت
لاتزال باقية ، وذكر المشيئة فى كلامه للتبرؤ من مشيئته وحوله وقوته إلى مشيئة الله
الذى سخر ذلك لهم وسخر ملك مصر وأهلها له ثم لهم ، وهذا من شأن المؤمنين
ولا سيما الأنبياء والصدّيقون .

وفي سفر التكوين من التوراة أن يوسف عليه السلام عرف نفسه إلى إخوته عقب مجيئهم بينيامين شقيقه وأرسلهم لاستحضار أبويه وأهلهم ، فجاؤا فأقطعهم أرض جاسان (إقليم الشرقية الآن) وأرسل إليهم العربات لتحميلهم وأحمال الغذاء والثياب على الحمير ، فلما وصلوا إليها شد يوسف على مركبته وصعد ليلاقي إسرائيل أباه في جاسان ، فلما ظهر له ألقى بنفسه على عنقه وبكى طويلا ، ثم استأذنهم ليذهب إلى فرعون ويخبره بمجيئهم ومكانهم ليقدم عليه ، لأنهم رعاة وأرض جاسان خصبة ففعل ، ثم أخذ وفدا منهم لمقابلة فرعون وأدخل أباه عليه فبارك فرعون .

ومن هذا يتبين أن هذا اللقاء كان هو الأول لهم ، وبعد لقاء فرعون قال لهم ادخلوا مصر ثم عاد بهم إلى قصره الخاص .

(ورفع أبويه على العرش) أى أصعد أبويه إلى السرير الذى كان يجلس عليه لتدبير أمر الملك تكريما لهما فوق ما فعله بالإخوة .

(وخرؤا له سجدا) أى أهوى أبواه وإخوته وخرؤا له سجودا ، وكان ذلك تحية الملوك والعظماء فى عهدهم ، ومن ثم سجد يعقوب لأخيه عيسو حين تلاقيا بعد تفرق .

والسجود ليس عبادة بذاته ، وإنما يكون كذلك بالنية والتزام الصفة الشرعية فيه .

(وقال ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل) أى هذا السجود منكما ومن إخوتى الأحد عشر هو المآل والعاية التى آلت إليها رؤياى التى رأيتها من قبل فى صغرى « إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » .

(قد جعلها ربى حقا) أى قد جعلها ربى حقيقة واقعة واستبان أنها لم تكن أضغاث أحلام ، فالكواكب الأحد عشر مثال إخوتى الأحد عشر ، وأنت وأمى مثال الشمس والقمر ، ولا بدع فى ذلك فهذه الأسرة هى التى حفظ الله بها ذرية إسحاق بن إبراهيم لتنتشر دين التوحيد بين العالمين فكانت خير أسر البشر جميعا .

(وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو) أي وقد أحسن بي ربي إذ أخرجني من السجن وسما بي إلى عرش الملك ، وجاء بكم من البادية حيث كنتم تعيشون في شظف العيش وخشوتته ، ونقلكم إلى الحضرة حيث تعيشون في نعم الاجتماع ونشر الدين الحق ، وتعاونون على ترقى العلوم والصناعات . ولم يذكر له إخراجهم من الجب لوجوه :

(١) إنه ذكر آخر المحن المتصلة بنهاية النعم .
(٢) إنه لو ذكر حادث الجب لكان في ذلك تزيب لإخوته وقد قال (لا تزيب عليكم اليوم) .

(٣) إنه بعد خروجه منه صار عبدا لا ملكا .
(٤) إنه بعد خروجه منه وقع في مضارة تهمة المرأة التي بسببها دخل السجن . وعلى الجملة فالنعم الكاملة إنما حصلت بعد خروجه من السجن .
(من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي) أي من بعد أن أفسد الشيطان ما بيني وبين إخوتي من عاطفة الأخوة ، وقطع ما بيننا من وشيجة الرحم ، وهيج الحسد والشر .

(إن ربي لطيف لما يشاء) أي إن ربي عالم بدقائق الأمور رفيق بعباده ، فينفذ ما يشاء في خلقه بحكمته البالغة ، فن ذا الذي كان يدور بخلده أن الإلقاء في الجب يعقبه الرق ، ويتلو الرق فتنة العشق ، ومن أجله يزج في غيابات السجن ، ومن ذا إلى السيادة والملك .

(إنه هو العليم الحكيم) أي إنه هو العليم بمصالح عباده فلا تخفى عليه مبادئ الأمور وغايتها ، الحكيم الذي يفعل الأمور على وجه الحكمة والمصلحة ، فيجازي الذين أحسنوا بالحسنى ، ويجعل العاقبة للمتقين .

وبعد أن حمد يوسف ربه على لطفه في مشيئته وعلمه وحكمته - تلا ذلك بالدعاء فقال :

طلب يوسف من ربه حسن الخاتمة

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَآلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي
بِالصَّالِحِينَ (١٠١) .

الإيضاح

(رب قد آتيتني من الملك) أى قال يوسف بعد ما جمع الله له أبويه وإخوته ،
و بسط عليه من الدنيا ما بسط من الكرامة ، ومكن له فى الأرض : رب قد آتيتنى
ملك مصر وجعلتنى متصرفا فيها بالفعل وإن كان لغيرى بالاسم ، ولم يكن لى فيها
حاسد ولا باع إذ أجريت الأمور على سنن العدل ووفق الحكمة والساداد .
(وعلمتنى من تأويل الأحاديث) أى وعلمتنى ما أعبر به عن مآل الحوادث
ومصادق الرؤى الصحيحة فتقع كما قلت وأخبرت .
(فاطر السموات والأرض) أى مبدعهما وخالقهما .

(أنت ولى فى الدنيا والآخرة) أى أنت متولى أمورى ومتكفل بها ، أو أنت
موال لى وناصرى على من عادانى وأرادنى بسوء وإن نعمك لتغمرنى فى الدنيا ،
وسأتمتع بها بفضلك ورحمتك فى الآخرة ، ولا حول لى فى شىء منهما ولا قوة .
(توفنى مسلما) أى اقبضنى إليك مسلما ، وأتم لى وصية أبائى وأجدادى .
« وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ
إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » .

(وألحقتنى بالصالحين) أى وألحقتنى بصالح أبائى إبراهيم وإسحاق ومن قبلهم

من أنبيائك ورسلك ، واحشرنى فى زمرتهم ، وهذا الدعاء بمعنى ما جاء فى سورة الفاتحة « اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم » أى من النبیین والصديقين والشهداء والصالحين .

فى ذكر هذا القصص إثبات لنبوة محمد عليه السلام

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَتَوْا
أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ
(١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) .

الإيضاح

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) أى إن نبأ يوسف ووالده يعقوب وإخوته وكيف مكن ليوسف فى الأرض وجعل له العاقبة والنصر وآتاه الملك والحكمة فساس ملكا عظيما وأحسن إدارته وتنظيمه وكان خير قدوة للناس فى جميع ما دخل فيه من أطوار الحياة ، بعد أن أرادوا به السوء والهلاك حين عزموا أن يجعلوه فى غيابة الجب - كل ذلك من أخبار الغيب الذى لم تشاهده ولم تره ، ولكننا نوحيه إليك لنثبت به فؤادك ، فتصبر على ما نالك من الأذى من قومك ، ولتعلم أن من قبلك من الرسل لما صبروا على ما نالهم فى سبيل الله ، وأعرضوا عن الجاهلين فازوا بالظفر وأيدوا بالنصر وغلبوا أعداءهم .

ثم أقام الدليل على كونه من الغيب بقوله :

(وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) أى وما كنت حاضرا عندهم ولا مشاهدا حين صحت عزائمهم على أن يلقوا يوسف فى غيابة الجب ، يبعون بذلك هلاكه والخلاص منه ، وهذا كقوله تعالى بعد سياق موسى « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ

الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا « الآية ، وقوله في هذه القصة « وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتَلَّوْا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا » الآية .

وخلاصة هذا - إن الله أطلع رسوله على أنباء ما سبق ليكون فيها عبرة للناس في دينهم وديناهم ، ومع هذا ما آمن أكثرهم ، ومن ثم قال :
(وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) أى وما أكثر مشركى قومك ولو حرصت على أن يؤمنوا بك ويتبعوا ما جئتهم به من عند ربك - بمصدقيك ولا متبعيك .

قال الرازى : إن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا ذكر هذه القصة من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التعنت ، فلما ذكرها أصروا على كفرهم فنزلت هذه الآية ، وكأنه إشارة إلى ما ذكره الله تعالى في قوله « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

(وما تسألهم عليه من أجر) أى وما تسأل هؤلاء الذين ينكرون نبوتك على ما تدعوهم إليه من إخلاص العبادة لربك وطاعته وترك عبادة الأصنام والأوثان من أجر وجزاء منهم ، بل ثوابك وأجر عملك على الله .

والخلاصة - إنك لا تسألهم على ذلك مالا ولا منفعة فيقولوا إنما تريد بدعائك إيانا إلى اتباعك أن نزل لك عن أموالنا إذا سألتنا عن ذلك ، فمالك حال من سبقك من الرسل ، فهم لم يسألوا أقوامهم أجرا على التبليغ والهدى ، والقرآن مليء بنحو هذا كما في سورتي هود والشعراء وغيرها .

وإذا كنت لا تسألهم على ذلك أجرا فقد كان حقا عليهم أن يعلموا أنك إنما تدعوهم إليه اتباعا لأمر ربك ونصيحة منك لهم .

(إن هو إلا ذكر للعالمين) أى هذا الذى أرسلك به ربك تذكير وموعظة لإرشاد العالمين كافة لا لهم خاصة ، وبه يهتدون وينجون فى الدنيا والآخرة .

وفى الآية إيماء إلى عموم رسالته صلى الله عليه وسلم .

وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
 مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦)
 أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً
 وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧)

شرح المفردات

وكأين : بمعنى كثير ، والآية هنا: الدليل الذي يرشد إلى وجود الصانع ووحده
 وكال علمه وقدرته ، يمرون عليها : يشاهدونها ، معرضون : أى لا يعتبرون بها ،
 والغاشية : العقوبة تغشاهم وتعمهم ، وبغته : فجأة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن أكثر الناس لا يؤمنون مبهما حرصت على إيمانهم
 ولا يتأملون في الدلائل الدالة على نبوتك - ذكر هنا أن هذا ليس ببدع منهم ،
 فأكثرهم في غفلة عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه في السموات
 من كواكب ثوابت وسيارات ، وأفلاك دائرات ، وفي الأرض من حدائق
 وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وقفار شاسعات ، وحيوان ونبات :
 وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

الإيضاح

(وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) أى وهم
 في السموات والأرض من آيات دالة على توحيد الله وكال علمه وقدرته من شمس
 وقمر ونجوم وجبال وبحار ونباتات وأشجار يمر عليها أكثر الناس وهم غافلون عما فيها

من عبرة ودلالة على توحيد ربها ، وأن الألوهية لا تكون إلا للواحد القهار الذي خلقها وخلق كل شيء فأحسن تدبيره .

وعلى الجملة فما في السموات والأرض من عجائب وأسرار وإتقان وإبداع -
ليدل أتم الدلالة على العلم المحيط والحكمة البالغة والقدرة التامة .

والذين يشتغلون بعلم ما في السموات والأرض وهم غافلون عن خالقهما ، ذاهلون عن ذكره ، يمتعون عقولهم بلذة العلم ، ولكن أرواحهم تبقى محرومة من لذة الذكر ومعرفة الله عز وجل ، إذ الفكر وحده وإن كان مفيداً لا تكون فائدته نافعة في الآخرة إلا بالذكر ، والذكر وإن أفاد في الدنيا والآخرة لا تكمل فائدته إلا بالفكر ، فطوبى لمن جمع بين الأمرين فكان من الذين أوتوا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ونجوا من عذاب النار في الآخرة .

(وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) أى وما يقر هؤلاء بأن الله هو الخالق كما قال « وَلَسْنَا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » إلا وهم مشركون به في عبادتهم سواء من الأوثان والأصنام ومن زعمهم أن له ولداً ، تعالى عما يقولون .

قال ابن عباس هم أهل مكة آمنوا وأشركوا وكانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك ، وهذا هو الشرك الأعظم ، إذ يعبد مع الله غيره ، وفي صحيح مسلم أنهم كانوا إذا قالوا لبيك لا شريك لك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قَدْ ، قَدْ) أى حسب حسب لا تزيدوا على هذا ، وفي الصحيحين عن ابن مسعود « قالت يارسول الله : أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك » .

ومن درس تاريخ الأمم الماضية والحاضرة عرف كيف طرأ الشرك على الأمم ، وسرى في عبادتهم سر يان السَّم في الدسم .

قال ابن القيم في إغاثة اللهيان : وما زال الشيطان يوحى إلى عبّاد القبور منهم أن الدعاء عندها مستجاب ، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء لها والإقسام على الله بها - مع أن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه - فإذا تقرر ذلك عندهم ، نقلهم منه إلى دعائه وعبادته وسؤاله الشفاعة من دون الله ، واتخاذ قبره وثناً تعلق عليه القناديل والستور ، ويطاف به ويستلم ويقبل ويحج إليه ويذبح عنده ، فإذا تقرر هذا عندهم نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته واتخاذ عيدا ومنسكا ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم ، وكل هذا مما علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاف لما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم من تجديد التوحيد وألا يعبد إلا الله اه .

أما التوسل إلى الله بصالحى عباده كقولهم اللهم بجاه فلان عندك أو بحق فلان أو بجرمته أسألك أن تفعل كذا فلم ينقل عن أحد من سلف الأمة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء ، وما أخرجه الطبراني من حديث فاطمة بنت أسد من قوله (بحق نبيك والأنبياء من قبلى) فقد طعن فيه رجال الحديث ، على أنه ليس فيه إلا الدعاء بحق النبيين فحسب ، وهو ما فضلهم الله به على غيرهم من النبوة والرسالة وما وعدهم به من التمكين والنصر ، على أن حقوق الرسل وصالح الصالحين ليست من أعمال السائل التى يستحق عليها الجزاء ولا رابطة تربطها بإجابة سؤاله . (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون؟) أى أفأمن هؤلاء الذين يؤمنون بالله ربهم ويشركون به فى عبادته غيره ، أن تأتيهم عقوبة تغشاهم وتغمرهم ، أو تأتيهم الساعة فجأة حيث لا يتوقعون ، وهم مقيمون على شركهم ، وكفرهم بربهم ، فيخلدهم فى نار جهنم .

والآية كقوله « أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض؟ أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون . أو يأخذهم فى تقلبيهم؟ فما هم بمعجزين . أو يأخذهم على تخوف؟ فإن ربكم لرهوف رحيم » .

وقوله « أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ؟ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ؟ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » .

وجاء في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبایمانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقخته (الناقة ذات الدر) فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته (لقمته) إلى فيه فلا يطعمها » والمراد من كل هذا أنها تبغت الناس وهم منهمكون في أمور معاشهم فلا يشعرون إلا وقد أتتهم .

والحكمة في إبهام وقتها أن الفائدة لاتم إلا بذلك ، ليخشى أهل كل زمان إتيانها في هذا الوقت ، فيحملهم الخوف على مراقبة الله تعالى في أعمالهم فيلتزموا الحق ويتحروا الخير ويتقوا الشرور والمعاصي .

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ، أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟ (١٠٩)

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن أكثر الناس لا يفكرون فيما في السموات والأرض من آيات، ولا يعتبرون بما فيها من علامات، تدل على أن الله هو الواحد الأحد، الفرد

الصدد - أمر رسوله أن يخبر الناس أن طريقه هي الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده يدعو بها هو ومن اتبعه على بصيرة وبرهان .

الإيضاح

(قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) أى قل أيها الرسول: هذه الدعوة التي أدعو إليها ، والطريقة التي أنا عليها ، من توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الأوثان والأصنام هي سنتي ومنهاجى ، وأنا على يقين مما أدعو إليه ولدى الحجة والبرهان على ما أقول ، وكذلك يدعو إليها أيضا من اتبعني وآمن بي وصدقني . والآية كقوله : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » . (وسبحان الله) أى وأتزه الله وأعظمه من أن يكون له شريك فى ملكه ، أو أن يكون هناك معبود سواه ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا : « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ خَلِيقًا غَفُورًا » .

(وما أنا من المشركين) أى وأنا برىء من أهل الشرك به لست منهم ولا هم منى .

وفى قوله : (على بصيرة) إيماء إلى أن هذا الدين الحنيف لا يطلب التسليم بنظرياته ومعتقداته بحكايتها فحسب ، ولكنه دين حجة وبرهان ، فقد ذكر مذاهب المخالفين وكره عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان ، وما فيها من الأحكام والإنتقان ، على أنظار العقول وطالبها بالإمعان فيها ، لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه .

نقل البغوى عن ابن عباس فى تفسير قوله : « وَمَنْ اتَّبَعَنِي » يعنى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا على أحسن طريقة ، وأقصد هداية ، معدن العلم ، وكنز الإيمان ، وجند الرحمن ، وعن ابن مسعود . أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم

كانوا أفضل هذه الأمة ، وأبرها قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، اختارهم الله لصحبة نبيه ، ولإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على إثرهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الصراط المستقيم .
وقد كان من شبه منكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أن الله لو أراد إرسال رسول لبعث ملكا كما حكى عنهم سبحانه : « لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلْنَا مَلَائِكَةً »
فرد سبحانه عليهم بقوله :

(وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى) فكيف عجبوا منك ولم يعجبوا ممن قبلك من الرسل ، ونظير هذا قوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » وقوله : « وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَآيَاتٍ كَلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ » وقوله : « قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ » الآية .

وهذه الشبهة ذكرت في كثير من السور كالأعراف وإبراهيم والنحل والكهف والأنبياء والشعراء ، وقال الحافظ بن كثير : يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسوله من الرجال لامن النساء ، وهذا قول الجمهور كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة ، فالله لم يوح إلى امرأة من بنات بنى آدم وحي تشريع اه .

وفي قوله : (من أهل القرى) أى من أهل الأمصار دون البوادي إيحاء إلى أن سائر البلدان تتبعهم إذا آمنوا ، ولأن أهل البادية أهل جفاء ، يرشد إلى ذلك قوله عليه السلام « من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل » .

ثم أتبع ذلك بتأنيبهم وتهديدهم على تكذيبهم بالرسول صلى الله عليه وسلم فقال : (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم؟) أى أفلم يسيروا هؤلاء المشركون من كفار قريش ممن يكذبونك ويحجدون نبوتك وينكرون ما جئتهم به من توحيد الله وإخلاص العبادة له ، فينظروا فيما وطئوا من البلاد من أوقعنا بهم من الأمم قبلهم كقوم لوط وصالح وسائر من عذبهم الله من الأمم ، وما

أحللنا بهم من بأسنا بتكذيبهم رسلنا ، وجحدهم بآياتنا ، ويعتبروا بما حل بهم .
ثم رغب في العمل للآخرة فقال :

(ولدار الآخرة خير للذين اتقوا) أى إن الدار الآخرة للذين آمنوا بالله ورسله
واتقوا الشرك به وارتكاب الآثام والمعاصي - خير من هذه الدار للمشركين المنكرين
للبعث المكذبين بالرسول والذين لاحظ لهم من هذه الحياة إلا التمتع بلذاتها .
فإن نعيمها البدنى أكمل من نعيم الدنيا ، لدوامه وثباته وخلوه عن المنغصات
والآلام ، فما بالك بنعيمها الروحى من لقاء الله ورضوانه وكال معرفته .

(أفلا تعقلون؟) هذا الفرق أيها المكذبون بالآخرة ، أما إنكم لو عقلتم ذلك لآمنتم .
ثم ذكر سبحانه توبيخاً لفؤاده عليه السلام أن العاقبة لرسله ، وأن نصره تعالى
ينزل عليهم حين ضيق الحال وانتظار الفرج كما قال : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي »
وقال : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا » وأن نصره يأتيهم إذا تمادى المبطلون
في تكذيبهم فقال :

حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَوَضَّحُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا
فَنَجَّيْنَا مِنَ نَشَاءِ وَلَا يَرُدُّ بِأُسْنَانٍ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ
فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن
تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ (١١١)

شرح المفردات

الظن هنا : إما بمعنى اليقين وإما بمعنى الحسبان والتقدير ، والبأس : العقاب ،
والألباب : العقول واحدها لب ، وسمى بذلك لكونه خالص مافى الإنسان من قواه ،
والعبرة : الحال التى يتوصل بها من قياس ما ليس بمشاهد بما هو بمشاهد .

الإيضاح

(حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا) أى وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى فدعوا من أرسلوا إليهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له فكذبوا بما جاءهم به ، وردوا ما أتوا به من عند ربهم ، حتى إذا يئس الرسل من إيمانهم لانهما كهم فى الكفر وتماديهم فى الطغيان من غير وازع ، وظنت الأمم أن الرسل الذين أرسلوا إليهم قد كذبوهم فيما كانوا أخبروهم عن الله من وعده لهم النصر عليهم - جاءهم نصرنا .

وهذه سنة الله فى الأمم ، يرسل إليهم الرسل بالبينات ، ويؤيدهم بالمعجزات ، حتى إذا عرضوا عن الهداية ، وعاندوا رسل ربهم ، وامتدت مدة كيدهم وعدوانهم ، واشتد البلاء على الرسل واستشعروا بالقنوط من تمادى التكذيب وتراخى النصر - جاءهم نصر الله فجأة ، وأخذ المكذبين العذاب بغتة ، كالطوفان الذى أغرق قوم نوح ، والريح التى أهلكت عادا قوم هود ، والصيحة التى أخذت ثمود ، والخسف الذى نزل بقرى قوم لوط وهم فيها كما قال : « أَلَمْ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » .

وفى هذا تذكير لكفار قريش بأن سنته تعالى فى عباده واحدة لا ظلم فيها ولا محاباة ، وبأنهم إن لم ينيبوا إلى ربهم حل بهم من العذاب ما حل بأمثالهم من أقوام الرسل كما قال فى سورة القمر : « أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ؟ » وقد نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر وما بعدها من الغزوات ، وأهلك الجاحدين المعاندين من قومه .

روى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت لابن أختها عروة بن الزبير وهو يسألها عن قول الله تعالى : (حتى إذا استيأس الرسل) الآية ، هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم ، فطال عليهم البلاء واستأخر عليهم النصر ، حتى إذا

استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم -
جاءهم نصر الله عند ذلك .

وعن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ وظنوا أنهم قد كذبوا (مخففة)
أخرجه ابن مردويه من طريق عكرمة ، ونحوه عن ابن عباس قال : يئس الرسل أن
يستجيبوا لهم وظن قومهم أن الرسل كذبوهم بما جاءوهم به جاءهم نصرنا ، ونحوه
عن ابن مسعود قال حفظت عن رسول الله في سورة يوسف أنهم قد كذبوا مخففة اه .
(فنجى من نساء) أى فنجى الرسل ومن آمن بهم من أقوامهم ، لأنهم على
حسب ما وضع الله من تأثير الأعمال في طهارة النفوس وزكائها - هم الذين يستحقون
النجاة دون غيرهم كما قال : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

(ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) أى ولا يمنع عقابنا وبطشنا عن القوم
الذين أجزموا فكفروا بالله وكذبوا رسله ، وما أتوهم به من عند ربهم .
وقد جرت سنة الله أن يبلغ الرسل أقوامهم و يقيموا عليهم الحجة وينذروهم
سوء عاقبة الكفر والتكذيب ، فيؤمن المهتدون ، ويصر المعاندون ، فينجى الله
الرسل ومن آمن من أقوامهم ويهلك المكذبين .

ولا يخفى ما في الآية من التهديد والوعيد لكفار قريش ومن على شاكلةهم من
المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم .

(لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب) قص الخبر : حدث به على أصح
الوجوه وأصدقها ، من قولهم قص الأثر واقتصه إذا تتبعه وأحاط به خبراً ، أى لقد
كان في قصص يوسف عليه السلام مع أبيه وإخوته عبرة لذوى العقول الراجحة
والأفكار الثاقبة ، لأنهم هم الذين يعتبرون بعواقب الأمور التي تدل عليها أوائلها
ومقدماتها ، أما الأغرار الغافلون فلا يستعملون عقولهم في النظر والاستدلالات ،
ومن ثم لا يفيدهم النصيح .

وجه الاعتبار بهذه القصة أن الذى قدر على إنجاء يوسف بعد إلقائه في غيابة
الجب وإعلاء أمره بعد وضعه في السجن ، وتمليك مصر بعد أن بيع بالثمن البعس ،

والتمكن له في الأرض من بعد الإسار والحبس الطويل ، وإعزازه على من قصده بالسوء من إخوته ، وجمع شمله بأبويه وبهم بعد المدة الطويلة المدى ، والحجى بهم من الشقة البعيدة النائية - إن الذي قدر على ذلك كله لقادر على إعزاز محمد صلى الله عليه وسلم وإعلاء كلمته ، وإظهار دينه ، فيخرجه من بين أظهركم ، ثم يظهره عليكم ، ويمكن له في البلاد ، ويؤيده بالجند والرجال ، والأتباع والأعوان ، وإن مرت به الشدائد ، وأتت دونه الأيام والحوادث .

(ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه) أى ما كان هذا القصص حديثا يخلق ويفترى لأنه نوع أعجز حملة الأحاديث ورواة الأخبار - ممن لم يطالع الكتب ولم يخالط العلماء ، فهو دليل ظاهر ، وبرهان قاهر ، على أنه جاء بطريق الوحي والتنزيل ، ومن ثم قال ولكن تصديق الذي بين يديه أى من الكتب السماوية التى أنزلها الله قبله على أنبيائه كالتوراة والإنجيل والزيور ، أى تصديق ما عندهم من الحق فيها ، لا كل الذى عندهم ، فهو ليس بمصدق لما عندهم من خرافات فاسدة ، وأوهام باطلة ، لأنه جاء لمحوها وإزالتها ، للإثباتها وتصديقها .

(وتفصيل كل شيء) من أمر الله ونهيه ، ووعدته ووعيده ، وبيان ما يجب له تعالى من صفات الكمال وتنزهه عن صفات النقص ، وفيه قصص الأنبياء مع أقوامهم ، لما فيها من عبر وعظات وسائر ما بالعباد إليه حاجة .

وعلى الجملة فى القرآن تفصيل كل شيء يحتاج إليه فى أمر الدين ، وقد أسهب فى موضع الإسهاب وأوجز حيث يكفى الإيجاز ، ففصل الحق فى العقائد بالحجج والدلائل ، وفى الفضائل والآداب وأصول الشريعة وأمهاة الأحكام بما به تصلح أمور البشر وشئون الاجتماع .

(وهدى) أى وهو هدى لمن تدبره ، وأنعم فى النظر فيه وتلاه حق تلاوته ، فهو مرشد إلى الحق وهاد إلى سبيل الرشاد وعمل الخير والصلاح ، فى الدين والدنيا .

(ورحمة لقوم يؤمنون) أى وهو رحمة عامة للمؤمنين الذين تنفذ فيهم شرائعه في دينهم وديانهم .

والخاضعون لها من غير المؤمنين يكونون في ظلها آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، أحراراً في عقائدهم وعباداتهم ، مساوين للمؤمنين في حقوقهم ومعاملاتهم ، يعيشون في بيئة خالية من الفواحش والمنكرات التى تفسد الأخلاق وتعبث بالفضائل .
نسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم فى الدنيا والآخرة ، وأن يحشرنا فى زمرة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين يوم تسودّ وجوه وتبيض وجوه وأن يجعل خواتمنا خير الخواتم فى الدنيا والآخرة كما جعل خاتمة يوسف مع أبويه وإخوته كذلك .

إجمال ما جاء فى سورة يوسف

- (١) قصص يوسف رؤياه على أبيه يعقوب .
- (٢) نهى يعقوب لولده عن قصّة قصصه على إخوته .
- (٣) تدييرهم المكيدة ليوسف وإلقائه فى غيابة الجب .
- (٤) ادعاؤهم أن الذئب قد أكله .
- (٥) عشور قافلة ذاهبة إلى مصر عليه والتقاطها له .
- (٦) بيعها إياه فى مصر بثمن بخس لعزير مصر .
- (٧) وصية العزيز لامراته يا كرام مثواه .
- (٨) مراودة المرأة له عن نفسها وإعداد الوسائل لذلك .
- (٩) تمنّعه من ذلك إكراماً لسيدته الذى أكرم مثواه .
- (١٠) قدّها لقميصه وادعاؤها عليه أنه هو الذى أراد بها الفاحشة .
- (١١) شهادة شاهد من أهلها بما يجلى الحقيقة .
- (١٢) افتضاح أمرها فى المدينة لدى النسوة .
- (١٣) تدييرها المكيدة لأولئك النسوة وإحكام أمرها .
- (١٤) إدخاله السجن اتباعاً لمشيئتها .

- (١٥) تعبيره رؤيا فتبين دخلا معه السجن .
- (١٦) رؤيا الملك وطلبه تعبيرها .
- (١٧) إرشاد أحد الفتيين للملك عن يوسف وأنه نعم المعبر لها .
- (١٨) طلب الملك إحضاره من السجن واستخلافه لنفسه .
- (١٩) توليته رئيسا للحكومة ومهيمننا على ماليها .
- (٢٠) مجيء إخوة يوسف إليه وطلبه منهم أن يحضروا أخاهم لأبيهم .
- (٢١) إرجاع البضاعة التي جاءوا بها .
- (٢٢) إحضارهم أخاه إليه بعد إعطائهم الموثق لأبيهم .
- (٢٣) طلب أبيهم أن يدخلوا المدينة من أبواب متعددة .
- (٢٤) إخبار يوسف لأخيه عن ذات نفسه .
- (٢٥) أذان المؤذن أن العير قد سرقوا .
- (٢٦) قول الإخوة إن أخاه قد سرق من قبل بعد حجزه عنده .
- (٢٧) طلب الإخوة من يوسف أن يأخذ أحدهم مكانه .
- (٢٨) وجود غشاوة على عيني يعقوب من الحزن .
- (٢٩) تعريف يوسف بنفسه لإخوته .
- (٣٠) حين جاء البشير بقميص يوسف ارتد يعقوب بصيرا .
- (٣١) طلب الإخوة من أبيهم أن يستغفر لهم .
- (٣٢) رفع يوسف أبويه على العرش .
- (٣٣) قول يوسف لأبيه هذا تأويل رؤياي من قبل .
- (٣٤) دعاؤه بحسن الخاتمة .
- (٣٥) في هذا القصص إثبات لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم .
- (٣٦) تحذير المشركين من نزول العذاب بهم كما حدث لمن قبلهم .
- (٣٧) لم يرسل الله إلا رجالا وما أرسل ملائكة .
- (٣٨) نصر الرسل بعد الاستيئناس .
- (٣٩) في قصص الرسل عبرة لأولى الألباب .

سورة الرعد

هي مدنية وآيها ثلاث وأربعون ، نزلت بعد سورة محمد ، ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه سبحانه أجمل في السورة السابقة الآيات السماوية والأرضية في قوله « وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » ثم فصلها هنا أتم تفصيل في مواضع منها .

(٢) إنه أشار في سورة يوسف إلى أدلة التوحيد بقوله « أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ؟ » ثم فصل الأدلة هنا بإسهاب لم يذكر في سالفها .

(٣) إنه ذكر في كلتا السورتين أخبار الماضين مع رسالهم ، وأنهم لاقوا منهم ما لاقوا وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وكتب الخزي على الكافرين والنصر لرسوله والمؤمنين ، وفي ذلك تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وتثبيت لقلبه .

(٤) جاء في آخر السورة السابقة وصف القرآن بقوله : « مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » وفي أول هذه وهو قوله « تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) .

الإيضاح

(المر) قلنا فيما سلف إن هذه الحروف في أوائل السور حروف تنبيه كالأ ونحوها ، وتقرأ بأسمائها ساكنة فيقال «ألف لام ، ميم ، را» ؛ كما قلنا إن كل سورة بدئت بهذه الحروف ففيها انتصار للقرآن وتبين أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه .

(تلك آيات الكتاب) أى آيات هذه السورة آيات القرآن البالغ حد الكمال المستغنى عن الوصف بين الكتب السماوية الجدير بأن يختص باسم «الكتاب» .

(والذى أنزل إليك من ربك الحق) أى وكل القرآن الذى أنزله إليك ربك حق لا شك فيه ، وهذا كالإجمال بعد التفصيل لما تقدم من وصف السورة بالكمال فكأنه سبحانه بعد أن أثبت لهذه السورة الرفعة والكمال عمم هذا الحكم فأثبتته للقرآن جميعه فلا تختص به سورة دون أخرى .

وهذا الأسلوب جار على سنن العرب في مخاطبتهم فقد قالت فاطمة الأنمارية وقد سئلت عن بنيتها، أى بنيك أفضل؟ (ربيعة، بل عمارة، بل قيس، بل أنس ، شكلمهم إن كنت أعلم أيهم أفضل ، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها) فبعد أن أثبتت الفضل لكل منهم على سبيل التعيين ، أجملت القول وأثبتت لهم الفضل جميعا .

(ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) أى ولكن أكثر الناس لا يصدقون بما أنزل عليك من ربك ، ولا يقرون بهذا القرآن وما فيه من بديع الأمثال والحكم والأحكام التى تناسب مختلف العصور والأزمان ، والتى لو سار الناس على سنتها لسعدوا فى الدنيا والآخرة ؛ وقد سلك المسلمون سبيلها فى عصورهم الأولى فكانوا خير أمة أخرجت للناس ، وامتلكوا أكثر المعمور فى ذلك الحين وثلوا عروش كسرى والروم ودانت لهم الرقاب ، وساسوا الملك سياسة شهد لهم أعداؤهم

بأنها كانت سياسة عدل ورفق ، وأخذ على يد الظالم لإنصاف المظلوم ، فله دين رفع من قدر أهله حتى أوصلهم إلى السماكين ؛ ولكن خلف من بعدهم خلف أضاعوا معالم دينهم وألقوه وراءهم ظهر يافخاق بهم ما كانوا يكسبون ، وصاروا أذلة بعد أن كانوا أعزة ، ومستعبدين بعد أن كانوا سادة ، تابعين بعد أن كانوا متبوعين « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » والآية بمعنى قوله « وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » .

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ،
 وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، يُدَبِّرُ الْأُمْرَ يُفَصِّلُ
 الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلِقَاءَ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ
 وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ،
 يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي
 الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَبَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ
 وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّضُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ، إِنَّ
 فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) .

شرح المفردات

العمد: السوارى واحدها عمود كأدم وأديم، والتسخير: التذليل والطاعة، والتدبير:
 التصريف للأمر على وجه الحكمة ، والتفصيل : التبيين ، والآيات: هي الأدلة التي
 تقدم ذكرها من الشمس والقمر ، واليقين : العلم الثابت الذي لا شك فيه ، والمد:
 البسط ، والرواسي: الثوابت المستقرة التي لا تتحرك ولا تنتقل واحدها راسية ، والأنهار

واحدتها نهر: وهو المجرى الواسع من الماء، زوجين اثنين: أى ذكر وأنثى، والعرب تسمى الاثنين زوجين والواحد من الذكور زوجا لأشاه، والأنثى زوجا وزوجة لذكورها، يغشى يغطى، قطع: أى بقاع مختلفة، متجاورات: أى متقاربات، جنات أى بساتين، صنوان: هى النخلات يجمعها أصل واحد وتنشعب فروعها واحدتها صنو وفى الحديث «عم الرجل صنو أبيه» والأكل (بضم تين وبتسكين الثانى): ما يؤكل فالمراد به هذا التمر والحب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآية السالفة أن أكثر الناس لا يؤمنون ، أعقبه بذكر البراهين على التوحيد والمعاد فاستدل بأحوال السموات وأحوال الشمس والقمر وأحوال الأرض جبالها وأنهارها وأزهارها ونخيلها وأعناها واختلاف ثمراتها وتنوع غلاتها على وجود الإله القادر القاهر الذى بيده الخلق والأمر ، وبيده الضر والنفع ، وبيده الإحياء والإماتة ، وهو على كل شىء قدير .

الإيضاح

ذكر سبحانه أدلة على وجوده ووحدانيته وقدرته ، بعضها سماوى وبعضها أرضى ، وذكر من الأولى جملة أمور :

(١) (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها) أى إنه تعالى خلق السموات مرفوعات عن الأرض بغير عمد بل بأمره وتسخييره ، على أبعاد لا يدرك مداها ، وأنتم ترونها كذلك بلا عمد من تحتها تسندها ، ولا علاقة من فوقها تمسكها ، وقد تقدم هذا بإيضاح فى سورة البقرة .

(٢) (ثم استوى على العرش) أى ثم استوى على عرشه الذى جعله مركز هذا التدبير العظيم ابتواء يليق بعظمته وجلاله يدبر أمر ملكه بما اقتضاه علمه من

النظام وإرادته وحكمته من إحكام وإتقان ، وقد سبق تفصيل هذا في سورتي الأعراف ويونس .

(٣) (وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى) أى وذلّل الشمس والقمر وجعلهما طائعين لما أريد منهما لمنافع خلقه ، فكل منهما يسير في منازلها لوقت معين ؛ فالشمس تقطع فلسكها في سنة ، والقمر في شهر لا يختلف جرى كل منهما عن النظام الذى قدر له ، وإليه الإشارة بقوله « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » وقوله « وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَا مَنَازِلَ » وإيضاح هذا ذكر في سورتي يونس وهود ، وبعد أن ذكر هذه الدلائل قال :

(يدبر الأمر) أى إنه تعالى يتصرف فى ملكه على أتم الحالات وأكمل الوجوه فهو يمت ويحيى ويوجد ويعدم ويغنى ويفقر وينزل الوحي على من يشاء من عباده ، وفى ذلك برهان ساطع على القدرة والرحمة ، فإن اختصاص كل شيء بوضع خاص وصفة معينة لا يكون إلا من مدبر اقتضت حكمته أن يكون كذلك ، فتديره لعالم الأجسام كتديره لعالم الأرواح وتديره للكبير كتديره للصغير لا يشغله شأن عن شأن ، ولا يمنعه تدبير شيء عن تدبير آخر كما هو شأن المخلوقات فى هذه الدنيا ، وكذلك هو دليل أيضا على أنه تعالى متعال فى ذاته وصفاته وعلمه وقدرته لا يشبه شيئا من مخلوقاته .

(يفصل الآيات) أى يلبس الموجودات ثوب الوجود بنظام محكم دقيق ، ويوجد بينها ارتباطات تجعلها كأنها سلسلة متصلة الحلقات لا انفصام لبعضها عن بعض ، فالجموعة الشمسية من الشمس والقمر والكواكب مرتبطة فى حركاتها بنظام خاص بواسطة الجاذبية لالتحيد عن سننه ولا تجرد معدلا عن السير فيه على حسب النهج الذى قدر لها ، ولا تزال كذلك حتى ينتهى العالم ، فيحدث حينئذ تغيير لأوضاعها ، واختلال لحركاتها : « إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَشَرَتْ » .

وهكذا الموجودات الأرضية لها أسباب تعقبها مسببات بإذن الواحد الأحد ، فالزراع يحرث أرضه ويلقى فيها الحب ثم يسقيها ويضع فيها السماد ويوالى سقيها حتى تؤتى أكلها ، فإذا فقدت حلقة من تلك السلسلة باء صاحب الزرع بالخسران فلم يحصل على شيء أو حصل على القليل التافه الذي لا يعادل التعب والنصب الذي فعله .
ثم أبان سبحانه أن هذا التدبير للأمور والتفصيل للآيات الدالين على القدرة الكاملة والحكمة الشاملة ، جاء الحكمة اقتضتتهما وهي الإيقان بالبعث لفصل القضاء ومجازاة كل عامل بما عمل : « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » فإما نعيم مقيم وإما عذاب أليم ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(لعلكم بلقاء ربكم توقنون) أى رجاء أن تتحققوا أن من قدر على رفع السموات بغير عمد ودبر الأمر بإحكام ونظام - قادر على البعث والنشور وإحياء الموتى من القبور لفصل القضاء ثم ثواب كل عامل على ما عمل ، إن خيرا نفيروا وإن شرا فشر ؛ فإما سعادة لا شقاء بعدها ، وإما نكال وعذاب تتبدل من هوله الجلود « كَلِمَاتٍ نَسِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا » .

وخلاصة هذه العبرة - إنه تعالى كما قدر على إبقاء الأجرام الفلكية العظيمة من الشمس والقمر وسائر الكواكب فى الجوب بلا عمد ودبر الأمور بغاية الإحكام والدقة ولم يشغله شأن عن شأن - ليس بالبعيد عليه أن يرد الأرواح إلى الأجساد ويعيد العالم إلى حياة أخرى حياة استقرار وبقاء يفصل فيها القضاء ، وإذا أيقنتم بذلك وليتم معرضين عن عبادة الأصنام والأوثان ، وأخلصتم العبادة للواحد الديان ، وأثمرتم بوعده ووعيده وصدقتم برسله وبادرتهم إلى اتباع أوامره وتركتم ما نهى عنه ، ففرتم بسعادة الدارين .

وبعد أن ذكر سبحانه الدلائل السماوية على وحدانيته وكمال قدرته أردفها بالأدلة الأرضية فقال :

(١) (وهو الذي مد الأرض) أى جعلها متسعة ممتدة فى الطول والعرض ،
لثبت عليها الأقدام، و يتقلب عليها الحيوان، وينتفع الناس بخيراتها زرعها وضرعها ،
وبما فى باطنها من معادن جامدة وسائلة ، ويسيرون فى أكنافها يبتغون رزق
ربهم منها .

ولاشك أن الأرض لعظم سطحها فى رأى العين كذلك ، وهذا لا يمنع
كرويتها التى قد قامت عليها الأدلة لدى علماء الفلك ولم يبق لديهم فيها ريب .

(٢) (وجعل فيها رواسى) أى وأرساها بجبال راسيات شامخات لانتقل
ولا تتحرك حتى لا تحيد وتضطرب .

(٣) (وأنهارا) أى وجعل فيها أنهارا جارية لمنافع الإنسان والحيوان ، فيسقى
الإنسان ماجعل الله فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال ويجعلها له طعاما
وفاكهة ، ويكون منها مادة حياته فى طعامه وشرابه وغذائه .

(٤) (ومن كل الثمرات ، جعل فيها زوجين اثنين) أى وجعل فيها من كل
أصناف الثمرات زوجين اثنين ذكرا وأنثى حين تكونها ، فقد أثبت العلم حديثا أن
كل شجر وزرع لا يتولد ثمره وحبه إلا من اثنين ذكر وأنثى ، وعضو التذكير
قد يكون مع عضو التأنيث فى شجرة واحدة كأغلب الأشجار ، وقد يكون عضو
التذكير فى شجرة وعضو التأنيث فى شجرة أخرى كالنخل ، وما كان العضوان فيه
فى شجرة واحدة إما أن يكونا معا فى زهرة واحدة كالقطن ، وإما أن يكون كل
منهما فى زهرة كالقرع مثلا .

(٥) (يفتشى الليل النهار) أى يلبس النهار ظلمة الليل فيصير الجو مظلما
بعد أن كان مضيئا فكأنه وضع عليه لباسا من الظلمة ، وكذلك يلبس الليل ضياء
النهار فيصير الجو مضيئا ، وكل هذا تتم المنافع للناس بالسكون والاستقرار أو بالبحث
على المعاش والأرزاق كما قال : « أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ

وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا » وقال : « وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ » .

وبعد أن ذكر هذه الأدلة التي تشهد رأى العين فى كل صباح ومساء وفى كل حين ووقت ، ذكر أن هذه الأدلة لا يلتفت إليها ولا يعتبر بها إلا من له فكر يتدبر به وعقل يهتدى به إلى وجه الصواب وينتقل من النظر فى الأسباب إلى مسبباتها فقال : (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) أى إن فى ذلك من عجائب خلق الله وعظيم قدرته التى خلق بها هذه الأشياء العظيمة - لدلائل وحجج لمن يتفكر فيها ويعتبر فيعلم أن الخالق لذلك هو القاهر فوق العباد وهو ذو الإرادة المطلقة والقدرة الشاملة ، فلا يعجزه إحياء من هلك من خلقه ولا إعادة من فنى منهم ولا ابتداء ما شاء ابتداعه ، ومن ثم لا تجوز العبادة إلا له ولا التذلل والخضوع إلا لسلطانه ، ولا ينبغى أن تكون لصنم أو وثن أو حجر أو شجر أو ملك أو نبي أو غير أولئك ممن سلب النفع والضرر ، بل لا يستطيع صرف الأذى عن نفسه : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ » .

وقد روى « تفكروا فى آلاء الله ولا تتفكروا فى الله » .

(٦) (وفى الأرض قطع متجاورات) أى وفى الأرض بقاع متجاورات متدانيات يقرب بعضها من بعض وتختلف بالتفاضل مع تجاورها ، فمن سبخة لانبت شيئاً إلى أرض جيدة التربة تجاورها وتنبت أفضل الثمرات ومختلف النبات ، ومن صالحة للزرع دون الشجر ، إلى أخرى مجاورة لها تصلح للشجر دون الزرع ، إلى متدانية لهما تصلح لجميع ذلك ، ومنها الرخوة التى لا تكاد تماسك وهى تجاور الصلبة التى لانفتتها المعاول وأدوات التدمير من المفرقات (الديناميت والقنابل) وكلها من صنع الله وعظيم تدبيره فى خلقه .

(وجنات من أعناب) أى وفيها بساتين من أشجار الكرم .

(وزرع) أى وفيها زرع من كل نوع وصنف من الحبوب المختلفة التى تكون غذاء للإنسان والحيوان .

(ونخيل صنوان وغير صنوان) أى وفيها نخيل صنوان يجمعها أصل واحد وتنشعب فروعها ، وغير صنوان أى متفرقات مختلفة الأصول .

(يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) أى يسقى كل ما ذكر من القطع والجنات والزرع والنخيل بماء واحد لا اختلاف فى طبعه ، ومع وجود أسباب التشابه نفضل بمحض القدرة بعضها منها على بعض فى الثمرات شكلا وقدرًا ورأحة وطعما وحلاوة وحموضة .

ثم بين أن مثل هذا لا يفكر فيه إلا من أوتى العقل الذى يفكر فى المقدمات والنتائج والأسباب والمسببات فقال :

(إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) أى إن فيما فصل من الأحوال السالفة لآيات باهرة لقوم يعملون على قضية العقل ، فمن ير خروج الثمار المختلفة الأشكال والألوان والطعوم والروائح فى تلك البقاع المتلاصقة ، مع أنها تسقى بماء واحد وتشابه وسائل نموها - يحزم حتماً بأن لذلك صانعا حكيمًا قادرًا مدبرًا لا يعجزه شيء ، وكذلك يعتقد بأن من قدر على إنشاء ذلك ، فهو قادر على إعادة مبادئه أول مرة ، بل هو أهون منه لدى النظر والاعتبار .

وَإِنْ تَعَجَّبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِنَّا كُنَّا تُرَابًا أَيْنَا لِنِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟
 وَأُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ
 أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ
 قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ،

وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) .

شرح المفردات

العجب : تغير النفس حين رؤية ما يستبعد في مجرى العادة ، والأغلال : واحدها غل ، وهو طوق من الحديد طرفاه في اليدين ويحيط بالعنق ، والمثلثات (بفتح فضم) واحدها مثلة (بفتح فضم) كسمرة: وهي العقوبة التي تترك في المعاقب أثار قببها كصلم أذن أو جدع أنف أو سمل عين ، والغفر : الستر بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة ، والمراد بالآية هنا الآيات الحسية كقالب عصا موسى حية وناقة صالح ، والإنذار : التخويف ، والهادى : القائد الذي يقود الناس إلى الخير كالأنبياء والحكام والمجاهدين .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر إنكارهم لوحدانته تعالى مع وضوح الأدلة على ذلك من خلق السموات بلا عمد وتسخير الشمس والقمر يجريان إلى أجل مسمى ، ومن مد الأرض وإلقاء الجبال الرواسى فيها إلى آخر ما ذكر من الآيات الدالة على عظيم قدرته وبديع صنعه لمن يتأمل ويتفكر في ذلك الملكوت العظيم - ذكر هنا إنكارهم للبعث والنشور على وضوح طريقه وسطوع دليله قياسا على ما يرون ويشاهدون ، فإن من قدر على خلق السموات والأرض وسائر العوالم على هذا النحو الذى يحار الإنسان فى الوصول إلى معرفة كنهه لا يعجز عن إعادته فى خلق جديد كما قال تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْزِ بِمَخْلُقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ؟ .

الإيضاح

(وإن تعجب فعجب قولهم أنذا كنا ترابا أننا لفي خلق جديد؟) أى وإن تعجب من عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع من الأصنام والأوثان بعد أن قامت الأدلة على التوحيد ، فأعجب منه تكذيبهم بالبعث واستبعادهم إياه بقولهم :

(أنذا كنا ترابا أننا لفي خلق جديد؟) أى أنذا فنيئا و بليئا نعاد بعد العدم ، مع أنهم لا ينكرون قدرته تعالى على إيجادهم بداءة ذى بدء وتصويرهم فى الأرحام وتديير شئونهم حالا بعد حال .

وقد تكرر هذا الاستفهام فى أحد عشر موضعا فى تسع سور من القرآن: فى الرعد، والإسراء ، والمؤمنون ، والنحل ، والعنكبوت ، والسجدة ، والصفات ، والواقعة ، والنازعات ؛ وكلها تتضمن كمال الإنكار وعظيم الاستبعاد .

ثم وصف أولئك المنكرين للبعث فقال :

(أولئك الذين كفروا بربهم) أى أولئك الذين جحدوا قدرة ربهم وكذبوا رسوله على ما عاينوا من آياته الكبرى التى ترشدهم إلى الإيمان وتهديهم سبيل الرشاد لو كانوا يبصرون - هم الذين تمادوا فى عنادهم وكفرهم ، فإن إنكار قدرته تعالى إنكار له لأن الإله لا يكون عاجزا .

(وأولئك الأغلال فى أعناقهم) أى وأولئك مقيدون بسلاسل وأغلال من الضلال تصدمهم عن النظر فى الحق واتباع طريق الهدى والبعد عن الهوى كما قال :

كيف الرشاد وقد خلّفت فى نفر لهم عن الرشاد أغلال وأقياد

وقد يكون المعنى - إنهم يوم القيامة عند العرض للحساب توضع الأغلال فى أعناقهم كما يقاد الأسير الذليل بالغل ، ويؤيده قوله تعالى : « إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ » .

(وأولئك أصحاب النار هم الماكثون فى النار دار

الذل والهوان لا يتحولون عنها ولا يبرحونها كفاء ما سولت لهم أنفسهم من سئ الأعمال وما اجترحوا من الموبقات والشرور والآنام : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .

و بعد أن ذكر تكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم في إنكار عذاب يوم القيامة ذكر جحودهم لعذاب الدنيا الذي أوعدهم به ، وكانوا كلما هددهم بالعذاب قالوا له فجننا بهذا العذاب وطلبوا منه إنزاله ، وهذا ما أشار إليه بقوله :

(ويستعجلونك بالسيئة) أى ويستعجلونك بالعقوبة التى هددوا بها إذا هم أصروا على الكفر استهزاء وتكديبا كما حكى الله عنهم فى قوله « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ » وفى قوله « وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ » وفى قوله « سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ » .

(قبل الحسنه) أى قبل الثواب والسلامة من العقوبة ، وكان صلى الله عليه وسلم يعدم على الإيمان بالثواب فى الآخرة وحصول النصر والظفر فى الدنيا .

(وقد خلت من قبلهم المثالات) أى ويستعجلونك بذلك مستهزئين بإنذارك منكبرين وقوع ما تنذرهم به ، والحال أنه قد مضت العقوبات الفاضحة النازلة على أمثالهم من المكذبين المستهزئين ، فمن أمة مسخت قرده ، وأخرى أهلكت بالرجفة ، وثالثة أهلكت بالخسف إلى نحو أولئك .

(وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) أى وإن ربك لذو عفو وصفح عن ذنوب من تاب من عباده فتارك فضيخته بها فى يوم القيامة ، ولولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة حين اكتسابها كما قال « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ » .

(وإن ربك لشديد العقاب) لمن يجترح السيئات وهو متماد فى غوايته سادر

في آثامه ، وقد يعجل له قسطا منه في الدنيا ويكون جزاء له على ما سولت له نفسه كما يشاهد لدى المدمنين على الخمر من اعتلال وضعف ومرض مزمن وفقر مدقع وذل وهوان بين الناس ، وفي المقامرين من خراب عاجل وإفلاس في المال والذل بعد العز ، وربما اقتضت حكمته أن يؤجل له ذلك إلى يوم مشهود يوم يقوم الناس لرب العالمين فيستوفى قطه هناك نارا تكوى بها الجباه والجنوب ، وتبدل الجلود غير الجلود ، وقد قرن المغفرة بالعقاب في مواضع كثيرة من الكتاب الكريم ليعتدل الرجاء والخوف كقوله « إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » وقوله « نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الخوف والرجاء .

روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ) الخ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا عفو الله وتجاوزه ما هنا أحدا العيش ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل واحد » .

وبعد أن ذكر طعنهم في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لقوله بالحشر والمعاد ، ثم طعنهم فيه لأنه أنذرهم بحلول عذاب الاستئصال ذكر أنهم طعنوا فيه لأنه لم يأت لهم بمعجزة مبينة كما فعل الرسل من قبله فقال :

(ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) أي ويقول الذين كفروا تعنتا وجحودا : هلا يأتينا بآية من ربه كعصا موسى وناقاة صالح ، فيجعل لنا الصفا ذهباً ويزيح عنا الجبال ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً ، وقد طلبوا ذلك ظناً منهم أن القرآن كتاب كسائر الكتب لا يدخل في باب المعجزات التي أتى بها الرسل السالفون .

وقد رد الله عليهم الشبهة بقوله في آية أخرى « وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ » أي إن سنقنا أن الآيات إن لم يؤمن بها من طلبوها أهلكناهم بذنوبهم ، ولم نشأ أن يحل بكم عذاب الاستئصال .

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم راغبا في إجابة مقترحاتهم حبا في إيمانهم بين له وظيفته التي أرسل لأجلها فقال :

(إنما أنت منذر) أى إن مهمتك التي بعثت لها هي الإنذار من سوء مغبة ما نهى الله عنه كدأب من قبلك من الرسل ، وليس عليك الإتيان بالآيات التي يقترحونها ابتغاء هدايتهم ، فأمر ذلك إلى خالقهم وهاديهم « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » ، « فَلَمَّا لَكَ تَخِيعُ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » .

(ولكل قوم هاد) أى ولكل أمة قائد يدعوهم إلى سبل الخير ، فطره الله على سلوك طريقه بما أودع فيه من الاستعداد له بسائر وسائله ، وقد شاء أن يبعث هؤلاء الهداة في كل زمان كي لا يترك الناس سدى ، وأولئك هم الأنبياء الذين يرسلهم لهداية عباده، فإن لم يكونوا فالحكماء والمجتهدون الذين يسرون على سننهم ويقتدون بما خلفوا من الشرائع وفضائل الأخلاق وحميد السمائل ، ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ،
وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩)
سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ
وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ
مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِذَا
أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١) .

شرح المفردات

الفيض : النقصان يقال غاض الماء وغضته كما قال « وَغِيضَ الْمَاءَ » بمقدار ،
 أى بأجل لا يتجاوز ولا ينقص عنه ، والغائب : ما غاب عن الحس ، والشاهد :
 الحاضر المشاهد ، الكبير : العظيم الشأن ، والمتعالى : المستعلى على كل شيء ، وأسر
 الشيء : أخفاه فى نفسه ، والمستخفى : المبالغ فى الاختفاء ، والسارب : الظاهر ، من
 قولهم سرب : إذا ذهب فى سرّبه (طريقه) معقبات ، أى ملائكة تعتقب فى حفظه
 وكلائته واحداها معقبة ، من عقبه : أى جاء عقبه ، من بين يديه ، أى قدامه ، ومن
 خلفه ، أى من ورائه ، من أمر الله ، أى بأمره وإعانتة ، وال ، أى ناصر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه إنكار المشركين للبعث واستبعادهم له كما حكى عنهم
 بقوله « أَئِنذًا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَنَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ » ، إذ رأوا أن أجزاء الحيوان حين
 تفتتها وتفرقها يختلط بعضها ببعض ، وقد تتناثر فى بقاع شتى ونواح عدة وربما أكل
 بعض الجسم سبع وبعضه الآخر حدأة أو نسر ، وحينئذ يأكل السمك قطعة منه
 وأخرى يجرى بها الماء وتدفن فى بلد آخر، أزال هذا الاستبعاد بأن الذى لا يعزب
 عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، والذى يعلم الأجنة فى بطون أمهاتها ، ويعلم
 ما هو مشاهد لنا أو غائب عنا يعلم تلك الأجزاء المتناثرة ومواضعها مهما نأى
 بعضها عن بعض ويضم متفرقاتها ويعيدها سيرتها الأولى .

الإيضاح

(الله يعلم ما تحمّل كل أنثى) من ذكر أو أنثى ، واحد أو متعدد ، طويل
 العمر أو قصيره كما قال « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ
 أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ » ، وقال « وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ » .

(وما تغيض الأرحام وما تزداد) أى وما تنقصه الأرحام وما تزداده من عدد فى الولد فقد يكون واحدا وقد يكون اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة ، ومن جسده فقد يكون تاما وقد يكون ناقص الخلق وهو المخذج ، ومن مدة الحمل فقد تكون أقل من تسعة أشهر وقد تكون تسعة إلى عشرة أشهر تقريبا ، فقد دل الإحصاء والبحث الذى عمل فى مستشفيات لندن على أن الجنين لا يستقر فى البطن وهو حى أكثر من ٣٠٥ يوم ، وفى مستشفيات برلين على أنه لا يستقر أكثر من ٣٠٨ ومن ثم جرت المحاكم الشرعية الآن على أن عدة المطلقة لا تكون أكثر من سنة بيضاء أى سنة قرية أى ٣٥٤ يوما ، وهو رأى فى مذهب مالك .

(وكل شيء عنده بمقدار) أى ولكل شيء ميقات معين لا يعدوه زيادة ولا نقصا « فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » .

وفى معنى الآية قوله تعالى « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » وفى الحديث « إن إحدى بنات النبي صلى الله عليه وسلم بعثت إليه رسولا : أن ابنا لها فى الموت وأنها تحب أن تحضره ، فبعث إليها يقول « إن الله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فمرها فلتصبر ولتحتسب » .

(عالم الغيب والشهادة) أى عالم ما هو غائب عنكم لا تدركه أبصاركم من عوالم لا نهاية لها ، فقد أثبت العلم حديثا أن هناك عوالم لا تراها العين المجردة بل ترى بالمنظار المعظم (التليسكوب) ومنها الجراثيم (المكروبات) التى تولد كثيرا من الأمراض التى قد يعسر شفاؤها أو يتعذر فى كثير من الأحوال كجراثيم السرطان والسل والزهري ، أو تشفى بعد حين كجراثيم الجدري و (الدفتيريا) والحصبة ونحوها وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ » ، وما تشهدونه وترونه بأعينكم « وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » .

(الكبير المتعال) أى هو العظيم الشأن الذى يجلب عما وصفه به الخلق من صفات المخلوقين ، المستعلى على كل شىء بقدرته وجبروته وهو وحده الذى له التصرف فى ملكوته .

وفى هذا إيماء إلى أنه تعالى قادر على البعث الذى أنكروه ، والآيات التى اقترحوها ، والعذاب الذى استعجلوه ، وإنما يؤخر ذلك لمصلحة لا يدركها البشر فيخفى عليه سرها .

وفى معنى الآية قوله « سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ » .

ثم بين أن علمه تعالى شامل لجميع الأشياء فقال .

(سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) أى من أسر قوله وأخفاه ولم يتلفظ به ، أو جهر به وأظهره فهو سواء عند الله يسمعه ولا يخفى عليه شىء منه كما قال « وَإِن تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى » وقال « وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ » قالت عائشة : سبحان الذى وسع سمعه الأصوات ، والله لقد جاءت المجادلة تشتكى زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا فى جنب البيت وإنه ليخفى على بعض كلامها فأنزل الله « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » .

(ومن هو مستخف بالليل) أى مختف فى عقر داره فى ظلام الليل .

(وسارب بالنهار) أى ظاهر ماش فى بياض النهار ، فكلاهما عند الله سواء ، وروى عن ابن عباس فى تفسير ذلك : هو صاحب ربيعة مستخف بالليل ، وإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه برىء من الإثم .

(له معقبات من بين يديه ومن خلفه) أى للانسان ملائكة يتعاقبون عليه : حرس بالليل وحرس بالنهار يحفظونه من المضار ويراقبون أحواله ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ أعماله من خير أو شر ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، فائتان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال

يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحد من ورائه وآخر من قدامه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلا ، حافظان وكاتبان كما جاء في الحديث الصحيح « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون » .
وإذا علم الإنسان أن هناك ملائكة تحصى عليه أعماله كان حذرا من وقوعه في المعاصي خيفة أن يطلع عليه الكرام الكاتبون ويزجره الحياء عن الإقدام على فعل الموبقات كما يحذر من الوقوع فيها إذا حضر من يستحى منه من البشر ، وهو أيضا إذا علم أن كل عمل له في كتاب مدخر يكون ذلك رادعا له داعيا إلى تركه .

وليس أمر الحفظة بالبعيد عن العقل بعد أن أثبتته الدين وبعد أن كشف العلم أن كثيرا من الأعمال العامة يمكن إحصاؤها بالآلات دقيقة لاتدع منها شيئا إلا تحصىه ، فقد أصبحت المياه والكهرباء في المدن تعد بالآلات (العدادات) فالمياه التي يشرّبونها والكهرباء التي يضيئون بها منازلهم تحصى وتعد كما يعد الدرهم والدينار ، وكذلك هناك آلات تحصى المسافات التي تقطعها السيارات في سيرها ، وأخرى تحصى تيارات الأنهار ومساقط المياه إلى غير ذلك من دقيق الآلات التي لا تترك صغيرة ولا كبيرة من الأعمال إلا تكتبها وتحصيها .

وكما تقدمت العلوم وكشفت ما كان غائبا عنا كان في ذلك تصديق أيما تصديق لنظريات الدين ووسيلة حافزة إلى الاعتراف بما جاء فيه مما يخفى على بعض اللاديين الذين لا يقرون إلا بما يرونه رأى العين ولا يدعون إلا بما يقع تحت حسهم ، وبهذا يصدق قول القائل (الدين والعقل في الإسلام صنوان لا يفتقان ، وصديقان لا يختلفان) .

(يحفظونه من أمر الله) أى هم يحفظونه بأمر الله وإذنه وجميل رعايته وكلاءته ، فكما جعل سبحانه للمحسوسات أسبابا محسوسة ربط بها مسبباتها على حسب ما اقتضته حكمته ، فجعل الجفن سببا لحفظ العين مما لم يرد أن يكون ، كذلك

جعل لغير المحسوسات أسبابا ، فجعل الملائكة أسبابا للحفظ ، وأفعاله تعالى لا تخلو من الحكم والمصالح .

وكذلك جعل لحفظ أعمالنا كراما كاتبين وإن كنا لاندري ماقلهم وما مدادهم وكيف كتابتهم وأين محلهم وما حكمة ذلك ، مع أن علمه تعالى بأعمال الإنسان كاف في الثواب والعقاب عليها ، وقد يكون من حكمة ذلك أنه إذا علم الإنسان أن أعماله محفوظة لدى الحفظة الكرام كان أجدر بالإذعان لما يلقاه من ثواب وعقاب يوم العرض والحساب .

ولمفسرى السلف أقوال في الآية . قال ابن عباس : هم الملائكة تعقب بالليل تكتب على ابن آدم ويحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، وذلك الحفظ من أمر الله و بإذن الله ، لأنه لا قدرة للملائكة ولا لأحد من الخلق أن يحفظ أحدا من أمر الله وبما قضاه عليه إلا بأمره وإذنه ، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه . وقال علي : ليس من عبد إلاومعه ملائكة يحفظونه من أن يقع عليه حائط أو يتردى في بئر أو يأكله سبع أو يغرق أو يحرق ، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبين القدر اه .

(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) أى إن الله لا يغير ما بقوم من نعمة وعافية فيزيلها عنهم ويذهبها حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك بظلم بعضهم بعضا واعتداء بعضهم على بعض ، وارتكابهم للشرور والموبقات التى تقوض نظم المجتمع وتفتك بالأمم كما تفتك الجرائم بالأفراد .

روى أن أبا بكر قال : قال صلى الله عليه وسلم « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب » ويرشد إلى صحة هذا قوله تعالى : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » وقد بسطنا هذا فيما سلف في مواضع متعددة وأشار إليه المحقق المؤرخ ابن خلدون في مقدمة التاريخ وعقد له بابا جعل عنوانه (فصل فى أن الظلم مؤذن بخراب العمران) واسترسل فيه على النهج المعروف عنه وضرب له الأمثلة بما حدث فى كثير من الأمم قبل الإسلام

وبعده وبين أن الظلم قد ثل عروشها وأذل أهلها وجعلها طُعْمَةً لِلآخِرِينَ ومثلاً للآخرين .

وفى حال الأمم الإسلامية اليوم وقد اجتثت من أطرافها وتحكم فيها أهل الغرب وأذلوها بعد أن استعمروها عبرة لمن تدبر وألقى السمع وهو شهيد ، والقرآن شاهد على صدق هذه النظرية ، كما قال : « إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » وقوله « إِنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » أى الصالحون لاستعمارها والانتفاع بخيراتها ما ظهر منها وما بطن .

(وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له) أى وإذا أراد الله بقوم سوءاً من مرض وفقر ونحوهما من أنواع البلاء بما كسبت أيديهم حين أخذوا فى الأسباب التى تصل بهم إلى هذه الغاية ، فلا يستطيع أحد أن يدفع ذلك عنهم ولا يرد ما قدره لهم . وفى هذا إيحاء إلى أنه لا ينبغي الاستعجال بطلب السيئة قبل الحسنة ، وطلب العقاب قبل الثواب فإنه متى أراد الله ذلك وأوقعه بهم فلا دافع له .
والمخالصة — إنه ليس من الحكمة فى شيء أن يستعجلوا ذلك .

(وما لهم من دونه من وال) أى وما لهم من دون الله سبحانه من يلى أمورهم فيجلب لهم النفع ويدفع عنهم الضرر ، فالآلهة التى اتخذوها لا تستطيع أن تفعل شيئاً من ذلك ولا تقدر على دفع الأذى عن نفسها فضلاً عن دفعه عن غيرها .
ولله در الأعرابي الذى رأى صنماً يبول عليه الثعلب فنارت به حميته فأمسكه وكسره إرباباً إرباباً وقال :

أرببٌ يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالث عليه الثعلاب

وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْنَاهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَاسْتَغْنُوهُ مِنْهُ » .

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢)
وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ

فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ، وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) لَهُ
دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ
كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي
ضَلَالٍ (١٤) وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا
وَظِلَالًا لَهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ (١٥) .

شرح المفردات

البرق : ما يرى من النور لامعا خلال السحاب ، والرعد : هو الصوت المسموع
خلال السحاب . وسببها على ما بين في العلوم الطبيعية - أن البرق يحدث من تقارب
سحابتين مختلفي الكهر بائية ، حتى يصير ميل إحداها للاقتراب من الأخرى أشد
من قوة الهواء على فصلها ، فتهمج كل منهما على الأخرى بنور زاهر وصوت قوى
شديد ، فذلك النور هو البرق . والصوت هو الرعد الذي نشأ من تصادم دقائق
الهواء الذي تطرده كهر بائية البرق أمامها ، والصواعق : واحدا صاعقة . وسببها أن
السحب قد تمتلئ بكهر بائية والأرض بكهربائية أخرى والهواء يفصل بينهما ، فإذا
قاربت السحب وجه الأرض تنقص الشرارة الكهر بائية منها فتتزل صاعقة تهلك
الحرث والنسل ، والمجادلة : من الجدل وهو شدة الخصومة ، وأصله من جدلت الحبل
إذا أحكت فتله كأن المجادلين يقتل كل منهما الآخر عن رأيه ، والمحال : أى المماحلة
والمكايذة لأعدائه ، يقال محل فلان بفلان إذا كايده وعرضه للهلاك ، وتمحل إذا
تكلف فى استعمال الحيلة ، فى ضلال : أى ضياع وخسار ، والظلال : واحدا ظل
وهو الخيال الذى يظهر للجرم ، والعدو : واحدا غداة كتمنى وقناة وهى أول النهار،
والأصال ، واحدا أصيل : ما بين العصر والمغرب .

المعنى الجملي

بعد أن خوَّف سبحانه عباده بأنه إذا أراد السوء بقوم فلا يدفعه أحد - أتبعه بذكر آيات تشبه النعم والإحسان حيناً وتشبه العذاب والنقم حيناً آخر .

روى « أن عامر بن الطفيل وأزبد بن ربيعة أخا لبيد وفدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر فأبى عليهما ذلك ، فقال له عامر لعنه الله : أما والله لأملأنها عليك خيلاً جُرُداً ورجلاً مُرداً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أباي الله عليك ذلك وابنا قَيْلَةَ (الأنصار من الأوس والخزرج) ثم إنهما هما بالفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل أحدهما يخاطبه والآخر يستل سيفه ليقته من ورائه ، فحماه الله تعالى منهما وعصمه ، فخرجا من المدينة وانطلقا في أحياء العرب يجمعان لحربه ، فأرسل الله على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقته ، وأرسل الطاعون على عامر فخرجت فيه غُدَّةُ كَعْدَةِ البكر ، فأوى إلى بيت سلولِيَّةَ وجعل يقول : (غُدَّةُ كَعْدَةِ البكر وموت في بيت سلولِيَّةَ ، حتى مات) وأنزل الله في مثل ذلك « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله » .

الإيضاح

(هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً) أى إنه سبحانه يسخر البرق فيخاف منه بعض عباده كالسافر ومن في جَرِينِهِ التمر والزبيب للتجفيف ، ويطمع فيه من له فيه النفع كمن يرجو المطر لسقى زرعته ، وهكذا حال كل شيء في الدنيا هو خير بالنظر إلى من يحتاج إليه في أوانه ، وشر بالنظر إلى من يضره على حسب مكانه أو زمانه . (وينشىء السحاب الثقال) أى ويوجد السحب منشأة جديدة ممتلئة ماء فتكون ثقيلة قريبة من الأرض .

(ويسبح الرعد بحمده) أى إن في صوت الرعد لدلالة على خضوعه وتنزيهه

عن الشريك والعجز كما يدل صوت المسيح وتحميده على انقياده لقدرة ذلك الحكيم الخبير، ونحو الآية قوله سبحانه: « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَقْتَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » .

أخرج أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وغيرهم عن ابن عمر « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد والصواعق يقول : اللهم لاتقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا هبت الريح أو سمع صوت الرعد تغير لونه حتى يُعرف ذلك في وجهه ، ثم يقول للرعْد : سبحان من سبحت له ، وللريح : اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابا . (والملائكة من خيفته) أى ويسبح الملائكة الكرام من هيئته وجلاله ، وينزهونه عن اتخاذ الصاحبة والولد .

(ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) إصابته بها فيهلكه .

(وهم يجادلون فى الله) أى يجادلون فى شأنه تعالى وفيما وصفه به الرسول الكريم من كمال العلم والقدرة والتفرد بالألوهية وإعادة الناس للجزاء على أعمالهم يوم العرض والحساب .

وفى هذا تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم فإنه لما نعى على كفار قريش عنادهم فى اقتراحهم الآيات الحسية كآيات موسى وعيسى عليهما السلام ، وإنكارهم كون الذى جاء به عليه السلام آية - سلاه بما ذكر كأنه قال له : إن هؤلاء لم يقصروا جحدهم وإنكارهم على النبوة بل تخطوه إلى الألوهية ، ألا تراهم مع ظهور الآيات البينات على التوحيد يجادلون فى الله باتخاذ الشركاء وإثبات الأولاد له ، ومع إحاطة علمه وشمول قدرته ينكرون البعث والجزاء والعرض للحساب ، ومع شديد بطشه وعظيم سلطانه يقدمون على المكابدة والعناد ، فهون عليك ولا تذهب نفسك عليهم حسرات .

(وهو شديد الحال) أى وهو سبحانه لا يغالب فهو شديد البطش والكيـد لأعدائه يأتهم من حيث لا يحتسبون ولا يترقبون ، وهو القادر على أن ينزل عليهم عذابا من عنده لا يستطيعون حيلة لدفعه ولا قوة على رده ، لكنه يمهـلهم لأجل معلوم على حسب ما تقتضيه الحكمة كما صح فى الحديث : « إن ربك لا يهمل ولكن يمهـل » ومثل الآية قوله : « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » وقوله : « وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَّرْنَاَّهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ » .

قال ابن جرير فى تفسير ذلك : والله شديدة مما حلتـه فى عقوبة من طغى عليه وعتى وتمادى فى كفره .

(له دعوة الحق) أى له تعالى الدعاء والتضرع الواقع حيث ينبغى أن يكون ، والمجاب حين وقوعه ، أى إن إجابة ذلك له تعالى دون غيره .

وفى هذا وما قبله وعيد للكفار على مجادلتهـم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بحلول محاله بهم ، وتهديدهم بإجابة دعائه عليه السلام إن دعا عليهم . وقيل دعوة الحق كلمة التوحيد: أى لله من خلقه أن يوحده ويخلصـوا له ، وإنه شرعها وأمر بها .

(والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالفه) أى والأصنام الذين يدعـوهم المشركون ويتضرعون إليهم ويتجاوزون الله لا يجيبونهم بشيء مما يريدونه من نفع أو ضر إلا كما يجيب الماء لمن بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه ، والماء جماد لا شعور له يبسط الكفين ولا قبضهما ، فكيف يجيب دعاءه ، وهكذا أصنامهم لا تحير جوابا .

وخلاصة ذلك — إنه شبه ألهتهم حين استكفوا بهم ما أهمهم ، وهم لا يشعرون بشيء فضلا عن أن يجيبوا أحدا — بماء برأى من عطشان باسط كفيه إليه يناديه هلم أقبل إلىّ وهو لا يستطيع ردا ولا جوابا .

(وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) أى فى ضياع وخسار ، فإن دَعَوْا الله لم يجبههم ، وإن دعوا الأصنام لم تستطع إجابتهم .

ثم بين عظيم قدرته تعالى فقال :

(والله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها) أى وينقاد لعظمته كل شىء ، فيخضع له الملائكة والمؤمنون من الثقلين طوعا فى الشدة والرخاء ، والكفار كرها فى حال الشدة كما جاء فى آيات كثيرة كقوله : « وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ » وقوله : « فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَّوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ » وقوله « لَنْ أَنْجِيَنَّكَ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » .

(وظلالهم بالغدو والآصال) أى وتسجد أيضا ظلال كل من كفر بالله طوعا أو كرها بالغدوات والعشايا تبعا لانقياد الأجسام التى تشرق عليها الشمس ، فيصرفها الله تعالى بالمد والتقلص ، وتخصيص هذين الوقتين بالذكر لظهور الامتداد والتقلص فيهما ، أو المراد بهما الدوام كما جاء ذلك كثيرا فى استعمالاتهم .

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ، قُلْ أَفَأَتَّخِذْتُمْ مِنْ دُونِهِ
أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ؟ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى
وَالْبَصِيرُ ؟ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ؟ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا
كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ؟ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ
الْقَهَّارُ (١٦) .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن كل من فى السموات والأرض خاضع لقدرته منقاد لإرادته بالغدو والآصال ، وفى كل وقت وحين ، طوعا أو كرها على حسب ما يريد

أعاد الكلام مع المشركين ليلزمهم الحجة ويقنعهم بالدليل ويضيق عليهم باب الحوار حتى لا يستطيعوا الفرار من الاعتراف بوحدانيته وشمول قدرته وإرادته وأنه لا معبود سواه ولا رب غيره .

الايضاح

(قل من رب السموات والأرض) أى قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الذين اتخذوا من دونه أولياء : من رب هذه الأجرام العلوية والسفلية التى تبهر العقول بجميل صنعها وكامل ترتيبها ووضعها ؟

(قل الله) أى قل لهم : الذى خلقها وأنشأها وسواها على أتم وضع وأحكم بناء هو الله ، وقد أمرَ عليه السلام ليحجيب بذلك للإشارة إلى أنه هو وهم سواء فى ذلك الجواب الذى لا يحيص منه وهم لا ينكرونه البتة كما قال تعالى : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » .

(قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟) أى قل لهم بعد أن ثبت هذا لديكم : فلم اتخذتم لأنفسكم من دون الله معبودات هى جمادات لا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرا ؟ فكيف تنفع غيرها أو تضر ؟ وإذا لم يكن لها القدرة على شىء من ذلك فعبادتها محض السفه الذى لا يرضاه لنفسه رشيد يزن أعماله بميزان الحكمة والمصلحة .

وخلاصة ذلك — أفبعد أن علمتم أنه هو الخالق لهذا الخلق العظيم تتخذون من دونه أولياء هم غاية فى العجز؟ وجعلتم ما كان يجب أن يكون سببا فى الاعتراف بالوحدانية وهو علمكم بذلك — سببا فى إشراككم به سواء من أضعف خلقه ، وهو بمعنى قوله : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ » ثم ضرب مثلا للمشركين الذين يعبدون الأصنام والمؤمنين الذين يعترفون بأن لارب غيره ولا معبود سواه ، فقال :

(قل هل يستوى الأعمى والبصير) أى قل لهم مصورا سخيف آرائهم مفتدا قبيح معتقداتهم : هل يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئا ولا يهتدى لحجة يسلكها إلا بأن يهدى بدليل ، والبصير الذى يهدى الأعمى لسلك الطريق ؟ لاشك أن الجواب أنهما غير متساويين ، فكذلك المؤمن الذى يبصر الحق فيتبعه ويعرف الهدى فيسلكه ، لا يستوى وإياكم ؟ وأنتم لاتعرفون حقا ولا تبصرون رشدًا .
ثم ضرب مثلا للكفر والإيمان بقوله :

(أم هل تستوى الظلمات والنور) أى هل تستوى الظلمات التى لاترى فيها الطريق فتسلك ، والنور الذى يبصر به الأشياء ، ويجلو ضوءه الظلام - لاشك أن الجواب عن ذلك أنهما لا يستويان ، فكذلك الكفر بالله صاحبه منه فى حيرة ، يضرب أبدا فى غمرة، لا يهتدى إلى حقيقة ولا يصل إلى صواب ، والإيمان بالله صاحبه منه فى ضياء ، فهو يعمل على علم بربه ومعرفة منه بأنه يثبته على إحسانه ويعاقبه على إساءته ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ويكلؤه بعنايته فى كل وقت وحين ، فهو يفوض أمره إليه إذا أظلمت الخطوب ، وتعقدت فى نظره مدلهات الحوادث .

(أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم) أى أخلق أوثانكم التى اتخذتموها معبودات من دون الله ، خلقا كخلقه ، فاشتبه عليكم أمرها فيما خلقت وخلق الله ، فجعلتموها له شركاء من أجل ذلك - أم إنما بكم الجهل والبعد عن الصواب ، إذ لا يخفى على من له مُسككة من العقل أن عبادة ما لا يضر ولا ينفع من الجهل بحقيقة المعبود ومن يجب له التذلل والخضوع والإنابة والزلفى والإخبات إليه ، وإنما الواجب عبادة من يرجى نفعه ويخشى عقابه وضره ، وهو الذى يرزقه ويمونه آتاء الليل وأطراف النهار .

ثم ذكر فذلِكَ لما تقدم ونتيجة لما سبق من الأدلة والأمثال التى ضربت لها فقال :

(قل الله خالق كل شىء ، وهو الواحد القهار) أى قل مبينا لهم وجه الحق :

الله خالقكم وخالق أوثانكم وخالق كل شيء ، وهو الفرد الذى لا ثانى له ، الغالب على كل شيء سواه ، فكيف تعبدون غيره وتشركون به ما لا يضر ولا ينفع .

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْسِكُهُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ، أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) أَفَنْ يَعْلَمُ أُنْمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ (١٩) .

شرح المفردات

الأودية : واحدها وادٍ ، وهو الموضع الذى يسيل فيه الماء ، والفرجة بين الجبلين ، وقد يراد به الماء الجارى فيه ، بقدرها : أى بمقدارها المتفاوت قلة وكثرة على حسب تفاوت إمكانتها صفرا وكبرا ، واحتمل : أى حمل ، والزبد : ما يعلو وجه الماء حين الزيادة كالخبب ، وما يعلو القدر عند غليانها ، والرابي : العالى المرتفع فوق الماء الطافي عليه ، والجفاء : ما رمى به الوادى من الزبد إلى جوانبه .

المعنى الجملى

بعد أن ضرب الله مثل البصير والأعمى للمؤمن والكافر ، ومثل النور والظلمات للإيمان والكفر - ضرب مثلين للحق فى ثباته وبقائه ، وللباطل فى اضمحلاله وفنائه

ثم بين مآل كل من السعداء والأشقياء وما أعد لكل منهما يوم القيامة ، وبين أن حالهما لا يستويان عنده ، وأن الذى يعنى تلك الأمثال ويعتبر بها إنما هو ذو اللب السليم والعقل الراجح والفكر الثاقب .

الإيضاح

(أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا) أى أنزل من السحاب مطرا فسالت مياه الأودية على حسب مقدارها فى الصغر والكبر ، فحمل السيل الذى حدث من ذلك الماء زبدا عاليا مرتفعا فوقه طافيا عليه - وهذا هو المثل الأول الذى ضربه الله للحق والباطل والإيمان والكفر .

(ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) أى ومن الذى يطرحه الناس فى النار من ذهب أوفضة وكذلك من سائر الفلزات كالحديد والنحاس والرصاص - زبد راب كما يطفو على الماء فى الأودية زبد مثله ، ويتخذ من الذهب والفضة حلى ، ومن الحديد والرصاص والنحاس وما أشبه ذلك متاع وهو ما يتمتع به الناس كالأواني والقدور وغيرها من آلات الحرث والحصد وأدوات المصانع وأدوات القتال والنزال ، وهذا هو المثل الثانى .

(كذلك يضرب الله الحق والباطل) أى وما مثل الحق والباطل إذا اجتمعا إلا مثل السيل والزبد ، فكما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك فى النار بل يذهب ويضمحل ، فالباطل لا يثبت له ولا دوام أمام الحق ، وقد فصل هذا بقوله .

(فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) أى فأما الزبد الذى يعلو السيل فيذهب فى جانبى الوادى ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح ، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شئ وأما ما ينفع الناس من الماء والذهب والفضة فيمكث فى الأرض ، فالماء نشر به ونسقى به الأرض

فينبت جيد الزرع الذى ينتفع به الناس والحيوان ، والذهب والفضة نستعملها فى الحلى وصك النقود ، والحديد والنحاس ونحوها نستعملها فى متاعنا من الحرث والحصد وفى المعامل والمصانع ووسائل الدفاع ونحو ذلك .

وخلاصة المثالين — إنه تعالى مثل نزول الحق وهو القرآن الكريم من حضرة القدس على القلوب الخالية منه المتفاوتة الاستعداد فى ملاحظته وحفظه ، وفى استذكاره وتلاوته ، وهو وسيلة الحياة الروحية والفضائل النفسية والآداب المرضية — بما نزل من السماء فى أودية قاحلة لم يكن لها سابق عهد به ، وسال بمقدار اقتضت الحكمة أن يكون نافعا فى إحياء الأرض وما عليها جالبا لسعادة الإنسان والحيوان ، وكذلك جعله حلية تتحلّى بها النفوس وتصل بها إلى السعادة الأبدية ، ومتاعا يتمتع به فى المعاش والمعاد ومثله بالذهب والفضة وسائر الثقلات التى يتخذ منها أنواع الآلات والأدوات وتبقى منتفعا بها رداً طويلاً من الزمن .

ومثل الباطل الذى ابتلى به الكفرة لفقد استعدادهم لعمل الخير بما ران على قلوبهم من شرور المعاصى واجتراح الآثام — بالزبد الرابى الذى يطفو على الماء ، أو يخرج من خبث الحديد والنحاس والفضة والذهب ونحوها ويضمحل سريعاً ويذوب .

وقال الزجاج : مثل المؤمن واعتقاده ونفع الإيمان له كمثل الماء المنتفع به فى نبات الأرض وحياة كل شىء ، ومثل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر ، لأنها كلها تبقى منتفعا بها ، ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذى يذهب جفاء ، ومثل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذى لا ينتفع به .

(كذلك يضرب الله الأمثال) أى ومثل ضربنا لهذه الأمثال البديعة التى توضح للناس ما أشكل عليهم من أمور دينهم وتظهر الفوارق بين الحق والباطل والإيمان والكفر — نضرب لهم الأمثال فى كل باب حتى تستبين لهم طرق الهدى فيسلكوها وطرق الباطل فينحرفوا عنها وتم لهم سعادة المعاش والمعاد ويكونوا المثل

العليا بين الناس : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » .

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعُشب ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وورعوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً - فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثنى به ونفع به الناس فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » .

وروى أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حولها جعل الفئاض وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبهن فيقتحمن فيها - فذلك مثلى ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار ، هلم عن النار فتغلبوني فتقتحمنون فيها » .

و بعد أن بين سبحانه شأن كل من الحق والباطل في الحال والمآل وأتم البيان شرع يبين حال أهلها مآلا ترغيبا وفيها وترهيبا وتكلمة لوسائل الدعوة إلى الحق والخير ، وتنفيرا عن سلوك طرق الباطل والشر فقال :

(للذين استجابوا لربهم الحسنى) أى للذين أطاعوا الله ورسوله وانقادوا لأوامره وصدقوا ما أخبر به فيما نزل عليه من عنده - المثوبة الحسنى الخالصة من الكدر والنصب ، الدائمة المقتترنة بالتعظيم والإجلال ، والآية بمعنى قوله : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » وقوله : « وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا » .

(والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به ،

أولئك لهم سوء الحساب، وماوهم جهنم و بئس المهاد) أى والذين لم يطيعوا الله ولم يمتثلوا أوامره ولم ينتهوا عما نهوا عنه ، فقد جعل الله لهم ثلاثة أنواع من العذاب والعقوبة .
 (١) إنهم من شدة ما يرون من العذاب لو استطاعوا أن يجعلوا مافى الأرض جميعا ومثله معه فدية لأنفسهم لفعلوا ، فإن المحبوب أو لا لكل إنسان هو ذاته ، وما سواها فيحب لكونه وسيلة إلى مصالحها ، فإذا كان مالكا لهذا العالم كله ولما يساويه جعله فداء لنفسه .

وفى هذا من التهويل الشديد ومن سوء ما يلقاهم فى ذلك اليوم ، ما لا يخفى على من اعتبر وتذكر .

(٢) سوء الحساب ، فيناقشون على الجليل والحقير ، وفى الحديث « من نوقش الحساب عذب » ذلك أن كفرهم أحبط أعمالهم ، وارتكابهم للشرور والآثام ران على قلوبهم وجعلها تستمرى الغواية والضلالة ، وحبهم للدنيا جعلهم يعرضون عما يقربهم إلى الله زلفى فباءوا بالخسران والهوان والنكال .

(٣) إن ماوهم جهنم و بئس المسكن مسكنهم يوم القيامة ، إذ أنهم غفلوا عما يقربهم إلى ربهم وينيلهم القرب من كرامته ، واتبعوا أهواءهم وانغمسوا فى لذاتهم فحقت عليهم كلمة ربك .

ونزل فى حمزة رضى الله عنه وأبى جهل كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله تعالى :

(أمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) أى لا يستوى من يعلم أن الذى أنزله الله عليك من ربك هو الحق الذى لا شك فيه ولا امتراء . ومن لا يعلم فهو أعمى لا يهتدى إلى خير يفهمه ، ولو فهمه ما انتقاد إليه ولا صدقه ، فيبقى حائرا فى ظلمات الجهل وغياب الضلالة .

قال قتادة : هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه ، وهؤلاء كمن هو أعمى عن الحق فلا يبصره ولا يعقله اه .

(إنما يتذكر أولوا الألباب) أى إنما يعتبر بهذه الأمثال ويتعظ بها ويصل إلى
لها وسرها إلا أولو العقول السليمة والأفكار الرجيحة .

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ
مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١)
وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَهُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢)
جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ
وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) .

شرح المفردات

يدرءون : أى يدفعون ، والعدن : الإقامة، يقال عدن بمكان كذا: إذا استقر ،
ومنه المعدن لمستقر الجواهر ، والدار : هى دار الآخرة .

المعنى الجملى

بعد أن ضرب الله الأمثال لمن اتبع الحق وسلك سبيل الرشاد ، ولمن ركب
رأسه وسار فى سبيل الضلالة لا يلوى على شىء ولا يقف لدى غاية - بين أن من جمع
صفات الخير الآتية يكون ممن اتبعوا الحق وملكوا نواحي الإيمان وأقاموا دعائمه ،
وهؤلاء قد كتب الله لهم حسنى العقبي والسعادة فى الدنيا والآخرة .

الإيضاح

(الذين يوفون بعهد الله) أى الذين يوفون بما عقده على أنفسهم فيما بينهم وبين ربهم وفيما بينهم وبين العباد ، وشهدت فطرم في هذه الحياة بصحته ، وأنزل عليهم فى الكتاب إيجابه .

قال قتادة : إن الله ذكر الوفاء بالعهد والميثاق فى بضع وعشرين موضعا من القرآن عناية بأمره واهتماما بشأنه .

(ولا ينقصون الميثاق) أى الميثاق الذى وثقوه بينهم وبين ربهم من الإيمان به ، وبينهم وبين الناس من العقود كالبيع والشراء وسائر المعاملات ، والعهود التى تعاهدوا على الوفاء بها إلى أجل ، وفى الحديث : « آية المنافق ثلاث : إذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب » .

(والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) أى يصلون الرحم التى أمرهم الله بوصلها فيعاملون الأقارب بالمودة والحسنى ، ويحسنون إلى المحاويج وذوى الخلة منهم بإيصال الخير إليهم ودفع الأذى عنهم بقدر الاستطاعة ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سره أن يبسط فى رزقه ، وأن ينسأ له فى أجله فليصل رحمه » وإنساء الأجل : تأخيرها ، وذلك بالبركة له فيه فكأنه قد زاد . ويدخل فى ذلك جميع حقوق الله وحقوق عباده ؛ كالإيمان بالكتب والرسل ، ووصل قرابة المؤمنين بسبب الإيمان ؛ كالإحسان إليهم ، ونصرتهم ، والشفقة عليهم ، وإفشاء السلام ، وعيادة المرضى ، ومراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء فى السفر ، إلى غير ذلك .

أخرج الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن البر والصلة ليخفنان سوء الحساب يوم القيامة ثم تلا : والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » .

(ويخشون ربهم) الخشية : خوف مقرون بالتعظيم والعلم بمن تخشاه ، ومن ثم خص الله بها العلماء بدينه وشرائعه والعالمين بجلاله وجبروته في قوله : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » والمراد أنهم يخشون ربهم ويخافونه خوف مهابة وإجلال .
(ويخافون سوء الحساب) أى يحذرون مناقشة الله إياهم الحساب ، وعدم الصفح لهم عن ذنوبهم ، فهم لهبتهم جادون في طاعته ، محافظون على اتباع أوامره وترك نواهيه .

(والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم) الصبر : حبس النفس عن نيل ما تحب ، أى والذين صبروا على ما تكرهه النفس ويثقل عليها من فعل الطاعات وترك الشهوات طلبا لرضا ربهم من غير أن ينظروا إلى جانب الخلق رياء وسمعة ، ولا إلى جانب أنفسهم زينة وعجبا .

(وأقاموا الصلاة) أى أدوها على ما رسمه الدين من خشوع القلب واجتناب الرياء والخشية لله ، مع تمام أركانها وهيئاتها احتسابا لوجهه .

(وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) أى وأنفقوا بعض ما رزقناهم سرا فيما بينهم وبين ربهم ، وعلانية بحيث يراهم الناس ، سواء كان الإنفاق واجبا كالإنفاق على الزوجة والولد والأقارب الفقراء ، أم مندوبا كالإنفاق على الفقراء والمحاويج من الأجانب .

(ويدعون بالحسنة السيئة) أى ويدفعون الشر بالخير ويمجازون الإساءة بالإحسان ، فهو كقوله : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » ومن ثم قال ابن عباس : أى يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سوء غيرهم .

(أولئك لهم عقبى الدار) أى أولئك الذين وصفناهم بتلك المحاسن والكمالات التى بلغت الغاية فى الشرف والكمال - هم الذين لهم عقبى الحسنة فى الدار الآخرة .
ثم بين هذه عقبى فقال :

(جنات عدن يدخلونها) أى تلك العقبي هي جنات إقامة يخلدون فيها لا يخرجون منها أبدا .

ثم ذكر ما يكون فيها من الأنس باجتماع الأهل والمحبين الصالحين فقال :
(ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) أى ويجمع فيها بينهم وبين أحبائهم من الآباء والأزواج والأبناء ممن عمل صالحا لتقر بهم أعينهم ويزدادوا سرورا برؤيتهم حتى لقد ورد أنهم يتذاكرون أحوالهم فى الدنيا فيشكرون الله على الخلاص منها .

وفى الآية إيحاء إلى أنه فى ذلك اليوم لا تجدى الأنساب إذا لم يسعها العمل الصالح ، فالآباء والأزواج والذرية لا يدخلون الجنة إلا بعملهم ، وقد أشار إلى ذلك الكتاب الكريم : « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »
وفى الحديث إن النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى مرض موته قال لفاطمة : « يا فاطمة بنت محمد سليمانى من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا » .

ثم ذكر ما لهم من الكرامة فيها بتسليم الملائكة عليهم فقال :
(والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) أى وتدخّل عليهم الملائكة من هاهنا وهنا للتسليم عليهم والتهنئة بدخول الجنة والإقامة فى دار السلام فى جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام .

(سلام عليكم بما صبرتم) أى قائلين لهم : أمان عليكم من المكاره والخاوف التى تحيق بغيركم ، بما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه والآلام التى لاقيتموها فى دار الحياة الدنيا .

(فنعمة عقبي الدار) أى فنعمة عاقبة الدنيا الجنة .
أخرج ابن جرير « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأتى قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : سلام عليكم بما صبرتم فنعمة عقبي الدار ، وكذا كان يفعل أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم » .

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ
 أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ
 الدَّارِ (٢٥) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أوصاف المتقين وما أعد لهم عنده في دار الكرامة بما كان
 لهم من كريم الصفات وفاضل الأخلاق - بين حال الأشقياء وما ينتظرهم من العذاب
 والنكال ، وأتبع الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب على سنة القرآن الدائبة في مثل هذا
 « نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

الإيضاح

وصف سبحانه الأشقياء بصفات هي السبب في خسرتهم :

- (١) (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) أى ينقضون عهد الله الذى
 ألزمه عباده بما أقام عليه من الأدلة العقلية كالتوحيد والقدرة والإرادة والإيمان
 بالأنبياء والوحى ونحوها ، وتقضه إما بالآل ينظروا فيه فلا يمكنهم العمل بموجبه ،
 وإما بأن ينظروا فيه ويعلموا صحته ثم هم بعد يعاندون فيه ولا يعملون بما علموه
 واعتقدوا صحته ، وقوله : من بعد ميثاقه أى من بعد اعترافهم به وإقرارهم بصحته .
- (٢) (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) من الإيمان به وبجميع أنبيائه الذين
 جاءوا بالحق ، فآمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض وقطعوا الرحم وكانوا حرا على
 المؤمنين وعونا للكافرين ، ومنعوا المساعدات العامة التى توجب التآلف والمودة بين
 المؤمنين كما جاء فى الحديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وجاء أيضا
 « المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو اشتكى باقى الأعضاء بالسهر والحمى » .

(٣) (ويفسدون فى الأرض) بظلمهم لأنفسهم وظلمهم لغيرهم بابتزاز أموالهم واغتصابها بلا حق ، وتهيج الفتن بين المسلمين وإثارة الحرب عليهم ، وإظهار العدوان لهم .

ثم حكم عليهم بما يستحقون بما دسوا به أنفسهم فقال :

(أولئك لهم اللعنة) أى أولئك الذين اتصفوا بهذه الخمازى وسىء الصفات ، لهم بسبب ذلك الطرد من رحمة ربهم ورضوانه ، والبعد من خيرى الدنيا والآخرة . (ولم سوء الدار) أى ولم سوء العاقبة وهو عذاب جهنم جزاء وفاقا لما اجتروه من السيئات وأتوه من الشرور والآثام .

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَفَرِحُوا بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا
أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن
أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ
تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ
مَآبٍ (٢٩) .

شرح المفردات

يقدر : يضيق كقوله « وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ » أى ضيق والمراد أنه يعطيه بقدر كفايته لا يفضل عنه شىء ، متاع : أى متعة قليلة لا دوام لها ولا بقاء ، وأناب : أى رجع عن العناد وأقبل على الحق ، وتطمئن : أى تسكن وتخشع ، وطوبى لهم : أى لهم العيش الطيب وقررة العين والغبطة والسرور ، والمآب : المرجع والمنقلب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن من نقض عهد الله من بعد ميثاقه ولم يقرّ بوحدانيته وأنكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فهو ملعون في الدنيا ومعذب في الآخرة - بين هنا أنه تعالى يبسط الرزق لبعض عباده ويضيقه على بعض آخر على ما اقتضته حكمته وسابق علمه بعباده ، ولا تعلق لذلك بإيمان ولا كفر ، فربما وسع على الكافر استدراجاً له ، وضيق على المؤمن زيادة في أجره ، ثم ذكر مقالة لهم كثر في القرآن ترددها وهي طلبهم منه آية تدل على نبوته لإنكارهم أن يكون القرآن آية دالة على ذلك ، ثم ذكر حال المؤمنين المتقين وما لهم عند ربهم في جنات تجري من تحتها الأنهار .

الإيضاح

(الله يبسط الرزق لمن يشاء) أى الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ممن هو حاذق في جمع المال وله من الخيلة في الحصول على كسبه واستنباطه بشتى الوسائل ما يخفى على غيره ، ولا علاقة لهذا بإيمان وكفر ولا صلاح ومعصية .
(ويقدر) على من يشاء ممن هو ضعيف الخيلة في كسبه ، وليس بالحوّل القلب في استنباط أسبابه ووسائله ، وما الغنى والفقر إلا حالان يمران على البرّ والفاجر كما يمر عليهما الليل والنهار والصبح والمساء .

ثم ذكر أن مشركى مكة بطروا بغناهم فقال :

(وفرحوا بالحياة الدنيا) أى وفرح الذين نقضوا العهد والميثاق يبسط الرزق في الحياة الدنيا وعدّوه أكبر متاع لهم وأعظم حظوة عند الناس .
ثم بين لهم خطأهم فقال :

(وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع) أى وما نعيم الدنيا إذا قيس على نعيم الآخرة إلا نزر يسير سريع الزوال فهو كجمالة الراكب وزاد الراعى ، فلا حق

لهم في البطر والأشر بما أوتوا من حظوظها وانتفعوا به من خيراتها ، فهم قد اعتزوا بالقليل السريع الزوال .

أخرج الترمذى عن المستورد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم إصبه هذه في اليمّ فلينظر بم يرجع ، وأشار بالسبابة » . وأخرج الترمذى وصححه عن ابن مسعود قال : « نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فقام وقد أثر في جنبه ، فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك ، فقال مالى وللدنيا ، ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » .

ولما أبان أنهم قد اتخذوا بالسراب ، واكتفوا بالحباب ، ذكر ما ترتب على ذلك الغرور من اقتراحهم على رسوله صلى الله عليه وسلم الآيات فقال :

(ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) أى ويقول الذين كفروا من أهل مكة كعبد الله بن أبى وأصحابه ، هلا أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم آية كما أرسل على الأنبياء والرسل السابقين كسقوط السماء عليهم كسفا ، أو تحويل الصفا ذهبا ، أو إزاحة الجبال من حول مكة حتى يصير مكانها مروجاً وبساتين إلى نحو أولئك من الاقتراحات التى حكها القرآن عنهم كقولهم : « فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ » وكأنهم لفرط عنادهم وعظيم مكابراتهم قد ادعوا أن ما أتى به من باهر الآيات كالقرآن وغيره ليس عندهم من الآيات التى توجب الإذعان والإيمان أو التى لا تقبل شكاً ولا جدلاً .

ثم أمر رسوله أن يبين لهم أن إنزال الآيات لا دخل له فى هداية ولا ضلال بل الأمر كله بيده .

(قل إن الله يضل من يشاء ويهذى إليه من أناب) أى إنه لا فائدة لكم فى نزول الآيات إن لم يرد الله هدايتكم فلا تشغلوا أنفسكم بها ، ولكن تضرعوا إليه واطلبوا منه الهداية ، فإن الضلال والهداية بيده وإليه مقاليدها ، وادعوه أن يهيب*

لكم من أمره رشداً ، وأن يمهّد لكم وسائل النجاة والسعادة ، ويدفع عنكم نزغات الشيطان ووساوسه لتظفروا بالحسنى في الدارين .

والخلاصة — إن في القرآن وحده غنى عن كل آية ، فلو أراد الله هدايتكم بصرف اختياركم إلى تحصيل أسبابها وكان لكم فيه مرشد أيما مرشد ، ولكن الله جعلكم سادرين في الضلالة لاتلون على شيء ، ولا ينفعكم إرشاد ولا نصيح ، لسوء استعدادكم وكثرة لجاجكم وعنادكم ، ومن كانت هذه حاله فأتى له أن يهتدى ولو جاءته كل آية؟ كما قال : « وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » وقال : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » وقال : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَخَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ » .

أما من أقبلوا إلى الله وتأملوا في دلائله الواضحة ، وسلكوا طريقه المعبدة ، فالله ينير بصائرهم ويشرح صدورهم ، وهم لا بد واصلون إلى الفوز بالحسنى ، وحاصلون على السعادة في الدنيا والآخرة ، وهم من أشار إليهم بقوله :

(الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله) أي هم الذين آمنوا وركنت قلوبهم إلى جانب الله وسكنت حين ذكره ، وإذا عرض لهم الشك في وجوده ظهرت لهم دلائل وحدانيته في آيات ومعجائب الكائنات ، فرضى به مولى ورضى به نصيرا ، ومن ثم قال :

(ألا بذكر الله تطمئن القلوب) أي ألا بذكر الله وحده تطمئن قلوب المؤمنين ويزول القلق والاضطراب من خشيته ، بما يفيضه عليها من نور الإيمان الذي يذهب الملح والوحشة ، وهي بمعنى قوله في الآية الأخرى : « ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » .

فللمؤمنون إذا ذكروا عقاب الله ولم يأمنوا من وقوعهم فى المعاصى وجلت قلوبهم كما قال : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ » وإذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة سكنت نفوسهم واطمأنت إلى ذلك الوعد وزال منها القلق والوحشة .

وفى الآية إيماء إلى أن الكفار أفئدتهم هواء إذ لم تسكن نفوسهم إلى ذكره ، بل سكنت إلى الدنيا وركنت إلى لذاتها .

ثم بين سبحانه جزاء المطمئنين وثوابهم فقال :

(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنَ مَا أَجْرُ) أى إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم الفرح وقرّة العين عند ربهم وحسن المآب والمرجع . وفى هذا من الترغيب فى طاعته والتحذير من معصيته ومن شديد عقابه ما لا يخفى فيه .

وخلاصة ذلك — إن أهل الجنة منعمون بكل ما يشتهون كما جاء فى الحديث : « فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتَى ، بَلِ اللَّهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا ، أَفَلَمْ يَتَأَسَّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ، وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) وَقَدْ اسْتَهْزَى بِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ

لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى
كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا
لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ؟ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَكْرُهُمْ
وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤) .

شرح المفردات

خلت: مضت ، متاب: مرجعي ، قطعت : شقت ، بيأس : يعلم وهو لغة هوازن ،
قارعة رزية تفرع القلوب ، أمليت : أى أمهلت مدة طويلة فى أمن ودعة ، قائم :
رقيب ومتول للأمور ، تنبئونه : تخبرونه ، بظاهر من القول : أى بباطل منه لاحقيقة
له فى الواقع ، والسبيل : هو سبيل الحق وطريقه ، والواقى : الحافظ .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه طلبهم من رسوله صلى الله عليه وسلم الآيات كما أنزل على
الرسل السالفين كموسى وعيسى وغيرهم من النبيين والمرسلين ، وبين أن الهدى هدى
الله ، فلوأوتوا من الآيات ما أوتوا ولم يرد الله هدايتهم فلا يجديهم ذلك فتبلا ولاقطميرا،
ذكر هنا أن محمدا ليس ببدع من الرسل وأن قومه سبقهم أقوام كثيرون وطلبوا
الآيات من أنبيائهم وأجابوهم إلى ما طلبوا ولم تغنهم الآيات والنذر فكانت عاقبتهم
البوار والنكال ، فأنزل على كل قوم من العذاب ما أتى عليهم جميعا وأصبحوا معه
كأمس الدابر؛ ولو أن كتابا تسير به الجبال عن أما كتبها أو تشقق به الأرض فتجعل
أنهارا وعيونا لكان هذا القرآن الذى أنزلناه عليه ، ثم أبان أن الله تعالى قادر
على الإتيان بما اقترحوه لكنه لم يرد ذلك لأنه لا ينتج المقصود من إيمانهم .

ثم أتبع ذلك بالتبئيس منه وبالتهديد بقارعة تحمل بهم ، وبتسليية النبي صلى الله عليه وسلم على استهزائهم به .

أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وغيرهما عن الشعبي قال : قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كنت نبيا كما تزعم فباعد جبلي مكة أخشيها (اسمي الجبلين) هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة ، فإنها ضيقة حتى نزرع فيها ونرعى ، وابعث لنا آباءنا من الموتى حتى يكلمونا ويخبرونا أنك نبي ، أو احملنا إلى الشام أو اليمن أو إلى الحيرة حتى نذهب ونجىء في ليلة كما زعمت أنك فعلته فنزلت هذه الآية .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس أنهم قالوا : سَيَّرُ بِالْقُرْآنِ الْجِبَالَ ، قَطَعَ بِالْقُرْآنِ الْأَرْضَ ، أخرج به موتانا ، فنزلت .

الإيضاح

(كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك) أى كما أرسلنا إلى الأمم الماضية رسلا فكذبوهم ، كذلك أرسلناك في هذه الأمة لتبليغهم رسالة الله إليهم ، وكما أوقعنا بأسنا وتممتنا بأولئك فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم .

وخلاصة ذلك — إننا كما أرسلنا إلى أم من قبلك وأعطيناهم كتابا تتلى عليهم ، كذلك أرسلناك وأعطيناك هذا الكتاب لتتلوه عليهم ، فلماذا يقترحون غيره ؟ .
(وهم يكفرون بالرحمن) أى وحالهم أنهم كفروا بمن أحاطت بهم نعمه ، ووسعت كل شيء رحمته ، ولم يشكروا نعم فضله عليهم ولا سيما إحسانه إليهم بإرسالك وإنزال القرآن عليك وهو الكفيل بمصالح الدنيا والآخرة كما قال تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » .

وكفرهم به أنهم جحدوه بتاتا أو أثبتوا له الشركاء .

(قل هو ربي لا إله إلا هو) أى قل لهم : إن الرحمن الذى كفرتم به هو خالقى ومتولى أمرى ومبلغى مراتب الكمال . لا رب غيره ولا معبود سواه ، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . وعن قتادة قال : « ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية حين صالح قريشا كتب فى الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم . فقالت قريش أما الرحمن فلا نعرفه ، وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم ، فقال أصحابه دعنا نقاتلهم ، قال لا ، اكتبوا كما يريدون » اهـ .

(عليه توكلت) أى عليه لا على غيره توكلت فى جميع أمورى ولا سيما فى نصرتى عليكم .

(وإليه متاب) أى وإليه وحده توبتى ، وهو بمعنى قوله : « وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْبِكَ » وفى هذا بيان لفضل التوبة ومقدار عظمتها عند الله ، وبعث للكفار على الرجوع عما هم عليه بأبلغ وجه وألطف سبيل ، إذ أمر بها عليه السلام وهو منزه عن اقتراف الذنوب فتوبتهم وهم عاكفون على أنواع الكفر والمعاصى أحق وأجدر .

(ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) أى ولو ثبت أن كتابا سيرت بتلاوته الجبال وزعزعت من أما كتبها كما فعل بالطور لموسى عليه السلام .

(أو قطعت به الأرض) أى شققت وجعلت أنهارا وعيوننا كما حدث للحجر حين ضرب به موسى بعصاه .

(أو كلم به الموتى) أى أو كلم أحد به الموتى فى قبورهم بأن أحيامهم بقراءته فتكلم معهم بعد كما وقع لعيسى عليه السلام - لو ثبت هذا الشئ من الكتب لثبت لهذا الكتاب الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لما انطوى عليه من الآيات الكونية الدالة على بديع صنع الله فى الأنفس والآفاق ، واشتمل عليه من الحكم والأحكام التى فيها صلاح البشر وسعادتهم فى الدار الفانية والدار الباقية ، ومن قوانين العمران التى تكون خيرا لمتبعيها وفوزا لسالكيها ، وتجعل منهم خير أمة

أخرجت للناس ، وهذا بمعنى قوله : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » .

وخلاصة ذلك — لو أن ظهور أمثال ما اقترحوه مما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة ، لكان مظهر ذلك هو القرآن الذى لم يعدوه آية واقترحوا غيره .

ولا يخفى مافى هذا من تعظيم شأنه الكريم ، ووصفهم بسخف العقل وسوء التدبير والرأى ، وبيان أن تلك المقترحات لا ينبغي أن يؤبه لها ولا يلتفت إليها ، لأنها صادرة عن التشهى والهوى والتماذى فى الضلال والمكابرة والعناد ، لاعن تقدير للأمر على وجهها الصحيح وتأمل فى حقائقها وما يجب أن يكون لها من الاعتبار .

ويجوز أن يكون المعنى — لو أن كتابا فعلت بوساطته هذه الأفاعيل العجيبة لما آمنوا به لفرط عنادهم وغلومهم فى مكابرتهم ، وهذا بمعنى قوله : « وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيَوْمِهِمْ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » .

(بل لله الأمر جميعا) أى بل مرجع الأمور كلها بيد الله ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ومن يضل فلا هادى له ، ومن يهد فما له من مضل .

وخلاصة ذلك — إن الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات ، لكن الإرادة لم تتعلق بذلك لعلمه أن قلوبهم لا تلين ولا يجدى هذا فائدة فى إيمانهم .

(أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) أى ألم يعلم الذين آمنوا أن الله تعالى لو شاء هداية الناس أجمعين لهداهم ، فإنه ليس ثمة حجة ولا معجزة أنجع فى العقول من هذا القرآن الذى لو أنزل على جبل لرأيت خاشعا متصدعا من خشية الله ، لكنه لم يشأ ذلك .

روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبى إلا وقد أوتى ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن

أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » يريد أن كل نبي انقضت معجزته بموته ، وهذا القرآن حجة باقية على وجه الدهر لاتنقضى عجائبه ، ولا يخفق على كثرة الرد ولا يشبع منه العلماء .

(ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة) أى ولا يزال الكافرون تصيبهم البلايا والرزايا من القتل والأسر والسلب والنهب بسبب تماديهم فى الكفر وتكذيبهم لك وإخراجك من بين أظهرهم .

(أو تحل قريبا من دارهم) أى أو تحل تلك القارعة قريبا من دارهم فيفزعون منها ويتطأير شررها إليهم .

(حتى يأتى وعد الله) أى حتى ينجز الله وعده الذى وعدك فيهم بظهورك عليهم وفتحك أرضهم وقهرك إياهم بالسيف .

(إن الله لا يخلف الميعاد) أى إن الله منجز ما وعدك من النصر عليهم ، لأنه لا يخلف وعده كما قال : « فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفًا وَعْدِهِ رُسُلَهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ » .

ولما كان الكفار يسألون النبى صلى الله عليه وسلم هذه الآيات على سبيل الاستهزاء والسخرية وكان ذلك يشق عليه ويتأذى من تلك الكلمات أنزل الله تسلية له على سفاهة قومه قوله :

(ولقد استهزى برسلكم من قبلك) أى إن يستهزى بك هؤلاء المشركون من قومك ويطلبوا منك الآيات تكذيبا لما جئتهم به فاصبر على أذاهم وامض لأمر ربك فلقد استهزأت أمم من قبلك برسلكم .

ثم بين شأنه مع المكذبين فقال :

(فأمليت للذين كفروا) أى فتركتهم ملاوة أى مدة من الزمان فى أمن ودعة كما يملى للبهيمة فى المرعى .

(ثم أخذتهم فكيف كان عقاب) أى ثم أحلت بهم عذابي ونقمتى حين تبادوا فى غيرهم وضلالهم ، فانظر كيف كان عقابي إياهم حين عاقبتهم - ألم أذقهم ألم العذاب ، وأجعلهم عبرة لأولى الألباب ؟ .

وقد صدق الله وعده ونصر رسوله على عدوه ، فدخل فى دين الله من دخل ومن أبى قتل ، ودانت العرب كلها له وانضوت تحت لوائه وحقت عليهم كلمة ربك . وفى هذا تعجب مما حل بهم ودلالة على شدته وفضاعة أمره كما لا يخفى .

ثم ذكر سبحانه ما يجرى مجرى الحجاج عليهم وما فيه توبيخ لهم وتعجيب من عقولهم ، وكيف إنها وصلت إلى حد لا ينبغى لعاقل أن يقبله ولا يرضى به فقال :
(أفن هو قائم على كل نفس بما كسبت) أى أفن هو قائم بحفظ أرزاق الخلق ومتولى أمورهم وعالم بهم وبما يكسبونه من الأعمال من خير أو شر ولا يعزب عنه شيء - كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التى لاتسمع ولا تبصر ولا تدفع عن نفسها ولا عن يعبدها ضرا ولا تجاب لهم نفعا .

وخلاصة ذلك - إنه لا عجب من إنكارهم لآياتك الباهرة مع ظهورها ، وإنما العجب كل العجب من جعلهم القادر على إنزالها المجازى لهم على إعراضهم عن تدبر معانيها - بقوارع تترى واحدة بعد أخرى يشاهدونها رأى العين - كمن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فضلا عن اتخاذه ربا يرجى نفعه أو يخشى ضره .

ونحو الآية قوله : « وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا » وقوله : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ »
وقوله : « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

ثم أكد هذا بقوله :

(وجعلوا لله شركاء) عبدوها معه من أصنام وأوثان وأنداد

ثم أعقب ذلك بتوبيخ إثر توبيخ فقال :

(قل سموهم) أى صفوهم فهل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة ، وقد يكون المعنى سموهم من هم وما أسماؤهم ؟ فإنهم ليسوا ممن يذكر ويسمى ، وإنما يسمى من ينفع ويضر .

(أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض) أى بل أتخبرونه بشركاء يستحقون العبادة لا يعلمهم ، أو تخبرونه بصفات لهم يستحقون لأجلها العبادة وهو لا يعلمها ، وفى هذا نفي لوجودها لأنها لو كانت موجودة لعلمها لأنه لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

(أم بظاهر من القول) أى بل أتسمونهم شركاء ظننا منكم أنها تنفع وتضر ، كما تسمونهم آلهة كما قال : « إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى » .

وخلاصة حجاجه على المشركين — نفي الدليل العقلى والدليل النقلى على أحقية عبادتها — فبعد أن هدم قاعدة الإشراف بقوله : (أقم هو قائم على كل نفس بما كسبت) زاد ذلك إيضاحاً فقال : وليتهم إذ أشركوا بربهم الذى لا ينبغى أن يشرك به — أشركوا به من له حقيقة واعتبار ومن ينفع ويضر ، لامن لا اسم له فضلاً عن المسمى ، بل من لا يعرف له وجود فى الأرض ولا فى السماء ، ويريدون أن ينبشوا عالم السر والنجوى بما لا يعلمه ، ثم زاد على ذلك فقال : وما تلك التسمية إلا بظاهر من القول من غير أن يكون تحتها طائل وماهى إلا أصوات جوفاء كثيرة المبانى خالية من المعانى .

(بل زين للذين كفروا مكرهم) أى دع هذا الحجاج وألق به جانبا فإنه لا فائدة فيه ، لأنه زين لهم كيدهم لاستسلامهم للشرك وتماديهم فى الضلال .

(وصدوا عن السبيل) أى وصرخوا عن سبيل الحق بما زين لهم من صحة ما هم عليه .

(ومن يضل الله فما له من هاد) أى ومن يخذله الله لسوء اعتقاده وفساد أعماله واجتراحه للآثام والمعاصى فلا هادى له يوقفه إلى النجاة ويوصله إلى طرق السعادة .
ونحو الآية قوله : « وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » وقوله :
« إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » .
ثم بين عاقبة أمرهم فقال :

(لهم عذاب فى الحياة الدنيا) أى لهم عذاب شاق فى هذه الحياة بالقتل والأسر
وسائر الآفات التى يصيبهم بها .

(ولعذاب الآخرة أشق) أى ولتعذيب الله إياهم فى الدار الآخرة أشد من
تعذيبه إياهم فى الدنيا وأشق لشدته ودوامه .

ثم أياهم من صرف العذاب عنهم فقال :

(وما لهم من الله من واق) أى وما لهم حافظ يعصمهم من عذاب الله ،
إذ لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، ولا يأذن لأحد فى الشفاعة لمن كفر به ومات
على كفره .

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ
وَوَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ،
قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦)
وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ، وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ
الْعِلْمِ مَالِكٌ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ
وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ

اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ
الْكِتَابِ (٣٩) .

شرح المفردات

المثل : الصفة والنعمة ، والأكل : ما يؤكل ، والظل : واحد الظلال والظلول
والأظلال ، والأحزاب : واحد حزب ، وهو الطائفة المنتحزة أية الجمعية لشأن
من الشئون كحرب أو عداوة أو نحو ذلك ، والمآب : المرجع ، والواقى : الحافظ ،
والأجل : الوقت والمدة ، والكتاب : الحكم المعين الذي يكتب على العباد على
حسب ما تقتضيه الحكمة ، والمحو : ذهاب أثر الكتابة ، وأم الكتاب : أصله
وهو علم الله تعالى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أعده للكافرين من العذاب والنكال في الدنيا والآخرة -
أتبعه بذكر ثواب للمتقين في جنات تجري من تحتها الأنهار ، ثم أردفه بذكر فرح
المؤمنين من أهل الكتاب بما أنزل عليه من ربه ، وإنكار بعض منهم لذلك ، ثم حث
الرسول صلى الله عليه وسلم على القيام بحق الرسالة وتحذيره من مخالفة أوامره ، ثم ختم
هذا بذكر الجواب عن شبهات كانوا يوردونها لإبطال نبوته صلى الله عليه وسلم
كقولهم : إنه كثير الزوجات ، ولو كان رسولا من عند الله لما اشتغل بأمر النساء .

وخلاصة الجواب - إن محمدا ليس بيدع من الرسل ، فكثير منهم كان له أزواج
وذرية ولم يقدح ذلك في رسالاتهم ، وكقولهم : إنه لو كان رسولا من عند الله لم يتوقف
فيما يطلب منه من المعجزات ، فأجيبوا بأن أمر المعجزات مفوض إلى الله إن شاء
أظهرها وإن شاء لم يظهرها ، ولا اعتراض لأحد عليه ، وقولهم : إن ما يخوفنا به من
العذاب وظهور النصرة له ولقومه لم يتحقق بعد فليس بنبي ولا صادق فيما يقول ،

فأجيبوا عن ذلك بقوله : لكل أجل كتاب : أى إن لكل حادث وقتا معيننا لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، فتأخر المواعيد لا يدل على ما تدعون .

الإيضاح

(مثل الجنة التي وعد المتقون) أى فيما نقصه عليك صفة الجنة التي وعد الله لمتقين وأعطاهم إياها كفاء إخبارهم له وإنابتهم إليه ودعائهم إياه مخلصين له الدين لا شريك له .

(تجرى من تحتها الأنهار) سارحة في أرجائها وجوانبها يصرفونها كيف شاءوا وأين أرادوا .

(أكلها دائم) أى فيها الفواكه والمطاعم والمشارب التي لا تنقطع عنهم ولا تبديد . (وظلها) كذلك ، فليس هناك حر ولا برد ولا شمس ولا قمر ولا ظلمة كما قال تعالى : « لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا » .

وبعد أن وصف الجنة بهذه الصفات الثلاث - بين أنها مآل المتقين ومنتهى أمرهم فقال :

(تلك عقبي الذين اتقوا) أى هذه الجنة عاقبة من اتقوا ربهم فأقلعوا عن الكفر والمعاصى واجتراح السيئات ، وعنت وجوههم للحى القيوم وخافوا يوما تشيب من هوله الولدان وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . ثم بين عاقبة الكافرين بعد ما بين عاقبة المتقين فقال :

(وعقبي الكافرين النار) أى وعاقبة الكافرين بالله النار ، بما اقترفوا من الذنوب ودنسوا به أنفسهم من الآثام .

وفى الآية فتح باب الطمع على مصراعيه للمتقين ، وإقاله بالرئاج على الكافرين . ثم بين أن أهل الكتاب انقسموا فئتين : فئة فرحت بنزول القرآن وفرقة أنكرتة وكفرت ببعضه فقال :

(والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك) من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به كما قال تعالى : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ » وهم جماعة ممن آمن من اليهود كهبد الله ابن سلام وأصحابه ، ومن النصارى وهم ثمانون رجلا من الحبشة واليمن ونجران .

(ومن الأحزاب من ينكر بعضه) أى ومن جماعتهم الذين تحزبوا وتألّبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة ككعب بن الأشرف والسيد والعاقب أسقفي نجران وأشياعهم - من أنكروا بعض القرآن وهو ما لم يوافق ما حرفوه من كتابهم وشرائعهم .

ولما ذكر سبحانه اختلاف أهل الكتاب في شأنه صلى الله عليه وسلم - بين بما يجاز ما يحتاج إليه المرء ليفوز بالسعادتين فقال :

(قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) أى قل لهم صادعا بالحق ولا تكثروا بمن ينكروه : إني أمرت فيما أنزل إليّ بأن أعبد الله وحده ولا أشرك به شيئا سواه ، وذلك ما لا سبيل إلى إنكاره وأطبقت عليه الشرائع والكتب كما قال : « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا » وذلك ما دلت الدلائل التي في الآفاق والأنفس على وجوب الإذعان له والاعتراف به .
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

(إليه أدعو) أى إلى طاعته وإخلاص العبادة له وحده أدعو الناس .

(وإليه مآب) أى وإليه وحده مرجعى ومضيرى ومصيركم للجزاء ، ولا خلاف بيننا في هذا ، فالعجب لكم أن تنكروا المتفق عليه وتختلفوا فيما لا محل للخلاف فيه . وهذه الآية جامعة لشؤون النشأة الأولى والآخرة ، فقوله : (قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) توحى إلى ما جاء به التكليف ، وقوله (إليه أدعو) تشير إلى مهام الرسالة ، وقوله : (وإليه مآب) تشير إلى البعث والجزاء للحساب يوم القيامة .

ثم بين سبحانه أنه أرسل رسوله بلغة قومه كما أرسل من قبله رسلا بلغات أقوامهم فقال :

(وكذلك أنزلناه حكما عربيا) أى وكما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا عليهم الكتب ، أنزلنا عليك القرآن حكما عربيا بلسانك ولسان قومك ليسهل عليهم تفهم معناه واستظهاره . وسمى القرآن حكما : أى فصلا للأمر على وجه الحق - لأن فيه بيان الحلال والحرام وجميع ما يحتاج إليه المكفون ليصلوا إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

وقد جاء بمعنى الآية قوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » .

ثم إن أهل مكة دعوه إلى أمور يشاركون فيها فقال :

(ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم) أى ولئن اتبعت أهواء هؤلاء الأحزاب ابتغاء رضاهم كالتوجه إلى قبلتهم وعدم مخالفتهم فى شىء مما يعتقدونه . (مالك من الله من ولى ولا واق) أى ليس لك من دون الله ولى ولا ناصر ينصرك فينقذك منه إن هو أراد عقابك ، ولا واق يقيك عذابه إن هو عذبك ، فاحذر أن تتبع أهواءهم وتتهج نهمهم وقد تقدم أن مثل هذا من وادى قولهم : (إياك أعنى واسمعى يا جاره) فهو إنما جاء لقطع أطماع الكافرين وتبهيج المؤمنين على الثبات فى الدين لا للنبي صلى الله عليه وسلم فهو لا يحتاج فيه إلى باعث ولا مبيح . ونزل : لما عابت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم بكثرة النساء ، فقالوا لو كان نبيا كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء .

(ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) أى وكما أرسلناك رسولا بشرى ، كذلك بعثنا المرسلين قبلك بشرى يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ويأتون الزوجات ويولد لهم .

وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أما أنا فأصوم وأفطر وأقوم وأنام وآكل اللحم وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .
وقد كان من حكمة تعدد زوجاته أمهات المؤمنين أن اطلعن منه على الأحوال الخفية التي تكون بين الرجل والمرأة وعلمن منه أحكامها ونشرنها بين المؤمنين ، وناهيك بأم المؤمنين عائشة وفيها يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « خذوا نصف دينكم عن هذه الجبراء » ومن ثم كانت أكثر من حدث عن رسول الله بهد أبي هريرة وأكثر من حدث عن شمائله وأخلاقه في السر والعلن ، ومنها علم المسلمون كثيرا من أحكام دينهم ، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يختلفون إليها للحديث والفتيا وكانت تحاجهم وتجادلهم وتلزمهم الحجة ولا يجردون مَعْدِلًا عن التسليم برأيها .
وروى أن المشركين طعنوا في نبوته لعدم إتيانه بما يقترحونه من الآيات فنزل قوله :

(وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله) أى وما كان فى وسع رسول من الرسل أن يأتي من أرسل إليهم بمعجزة يقترحونها إلا متى شاء الله وعلم أن فى الإتيان بها حكما ومصالح لعباده ، وقد جاء من الآيات بما فيه عبرة لمن اعتبر وغناء لمن تفكر وتدبر ، ولكنهم أبوا إلا التمدى فى الغواية والضلال كما تقدم من مقال عبد الله ابن أبي أمية .

والآيات المقترحة لاتأتى إلا على مقتضى الحكمة فى أزمان يعلمها الله ، وقد جعل لكل زمن من الأحكام ما فيه الصلاح والخير للناس ، ولا صلاح فيما اقترحوه ، وهل من الصلاح أن يرضع المراهق اللبن من ظئره أو أن يجعل له مهد ينام فيه ؟ كذلك لاحكمة فى إنزال الآيات التى اقترحوها ، وهذا إيضاح قوله :

(لكل أجل كتاب) أى لكل كتاب أجل أى لكل أمر كتبه الله أجل معين ووقت معلوم ، فلا آية من المقترحات بنازلة قبل أوانها ، ولا عذاب مما خوفوا به محاصل فى غير وقته ، ولا نبوة بحاصلة فى غير الزمان المقدر لها ، فموسى وعيسى

ومحمد عليهم السلام جاءوا فى أزمنة رأى الله الصلاح فى وجودهم فيها لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون ، وهكذا انقضاء أعمار الناس ووقوع أعمالهم وآجالهم ، كلها كتبت فى آجال ومدد معينة لا تقديم فيها ولا تأخير ونحو الآية قوله (لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ) .
فما مثل الدنيا من كواكبها وشمسها وأرضها وزرعها إلا مثل مصنع رتبت أعماله ووضعت عماله فى حجر معينة ووزع بينهم العمل على نظم خاصة فى أوقات معينة ولهم مناهج يتبعونها فتراهم كل يوم يعملون وينصرفون من أما كتبهم ثم يعودون إليها على نهج لا يتغير ولا يتبدل ، فالدنيا قد جعل الله لها نظاما على مقتضى الحقائق الثابتة التى تعلق بها علمه ، وعلى هذا النظام جرت الشمس والقمر والكواكب وظهر النبات والحيوان وتعاقب الموت والحياة ، وظهرت نجوم ونبت أخرى ونبت زرع وحصد آخر ومات نبي وقام آخر وامتد دين وانتشر وتقلص دين ونسخ .

وكل كوكب من الكواكب التى تصلح للحياة كأرضنا كأنه صحيفة يكتب فيها ويمحى ، وذلك تابع لما فى المنهج الأسمى ، ومن ثم تتعاقب الأمم والأجيال والدول والنظم على قطر كمصر فيتعاقب عليه قدماء المصريين واليونان والرومان ، ولا شك أن كل هذا محو وإثبات على مقتضى المنهج المرسوم ، وهكذا تنسخ آية من القرون ويؤتى بغيرها كما ينسخ زرع بزراع وليل بنهار ، وقوم بقوم ، ودين نبي بآخر فى ميقاته للمعين فى علمه تعالى ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(يمحوا الله ما يشاء ويثبت) وقد أثر عن أئمة السلف فيها أقوال لاتناقض فيها

بل هى داخله فيما سلف :

- (١) قال الحسن : يمحوا الله من جاء أجله ويثبت من بقى أجله .
- (٢) وقال عكرمة : يمحوا الله القمر ويثبت الشمس .
- (٣) وقال الربيع : يقبض الله الأرواح حين النوم فيميت من يشاء ويمحوه ويرجع من يشاء فيثبته .
- (٤) وقال السدى : يمحوا الله القمر ويثبت الشمس .

(٥) وقال آخرون : يمحو الله ما يشاء من الشرائع بالنسخ ويثبت ما يشاء فلا ينسخه ولا يبدله .

(٦) وقال آخر : يمحو الله الحن والمصائب بالدعاء .

(وعنده أم الكتاب) هو علم الله ، وجميع ما يكتب في صحف الملائكة لا يقع حيثما يقع إلا موافقا لما ثبت فيه فهو أم لذلك فكأنه قيل يمحو ما يشاء محوه ويثبت ما يشاء وهو ثابت عنده في علمه الأزلي الذي لا يكون شيء إلا على وفق ما فيه .

وَإِنَّمَا نُزِينُكَ بِبَعْضِ الَّذِي نَعَدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيْنِكَ فَإِنَّمَا عَلَيْنَا
الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ
أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ
مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاللَّهُ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ
وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا
قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) .

شرح المفردات

الأطراف : الجوانب ، المعقب : الذي يكر على الشيء فيبطله ، ويقال لصاحب الحق معقب لأنه يقفو غريمه بالاعتضاء والطاب ، والمكر : إرادة المكروه في خفية ، وعقبي الدار : أى العاقبة الحميدة ، والأم : أصل الشيء وما يجرى مجراه كأم الرأس للدماغ وأم القرى لمكة .

المعنى الجملى

سبق أن ذكر أنهم اقترحوا عليه الآيات استهزاء به وطلبوا استعجال السيئة التي توعدهم بها، وكان صلى الله عليه وسلم يتننى وقوع بعض ما توعدوا به ليكون زاجرا

غيرهم ، ذكر هنا لرسوله أن وظيفته التبليغ ولا يهيمه ما سينالهم من الجزاء فعلينا حسابهم ، وهل هم في شك من حصول ما توعدناهم به وهم يرون بلادهم تنقص من جوانبها بفتح المسلمين لها وقتل أهلها وأسره وتشريدهم ، والله يحكم في خلقه كما يريد وقد حكم للمسلمين بالعز والإقبال ، وعلى أعدائهم بالقهر والإذلال - ثم بين أن قومه ليسوا ببدع في الأمم فقد مكر من قبلهم بأنبيائهم ولم يكن مكرهم ليضيرهم شيئا فكانت العاقبة للمتقين ، وأهلك الله القوم الظالمين ، وسيعلم الكافرون حين يحل بهم العذاب ، يَنْ حَسَنَ الْعَاقِبَةِ ؟ ثم ذكر إنكار اليهود لرسالته وأمره بالجواب عن ذلك بأن الله شهد له بأنه صادق فيها وأيده بالأدلة والحجج وفي شهادته غنى عن شهادة أى شاهد آخر ، وكذلك شهد من آمن من أهل الكتاب بأنهم يجدون وصفه في كتبهم .

الإيضاح

(وإما ترينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإتما عليك البلاغ وعلينا الحساب) أى إن نرك أيها الرسول في حياتك بعض الذى نعد هؤلاء المشركين بالله من العقاب على كفرهم ، أو نتوفاك قبل أن نريك ذلك ، فما عليك إلا تبليغ رسالة ربك لا طلب صلاحهم ولا فسادهم ، وعلينا محاسبتهم ومجازاتهم بأعمالهم إن خيرا نخير وإن شرا فشر ، ونحو الآية قوله تعالى : « فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ . فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ . إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ » .

(أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ؟) أى أشك أولئك المشركون من أهل مكة الذين يسألونك الآيات ، ولم يروا أنا نأتى الأرض فنفتحها لك أرضا بعد أرض ونلحقها بدار الإسلام ونذهب منها أهلها بالقتل والأسر والإجلاء ؟ أليس هذا مقدمة لما أوعدناهم بحصوله ، ونذيرا بما سيحل بهم من الفكال والوبال في الدنيا والآخرة لو تدبروا ، فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ .

ونحو الآية قوله : « أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ؟ » .

(والله يحكم لامعقب لحكمه) أى والله يحكم وحكمه النافذ الذى لا يرد ، ولا يستطيع أحد أن يبطله وقد جرت سنته أن الأرض يستعمرها عباده الصالحون بالعدل فيها والسير على نهج المساواة وترك الظلم ، وقد حكم للمسلمين بالعز والإقبال على ما وضع من السنن العامة ، وعلى أعدائهم بالإدبار وركود ريجهم لما سلكوه من الظلم والفساد فى الأرض .

(وهو سريع الحساب) فعما قريب سيحاسبهم فى الآخرة كيفاء ما دنسوا به أنفسهم واران على قلوبهم بارتكاب الآثام بعد أن يعذبهم فى الدنيا بالقتل والأسر ، فلا تستبطن عقابهم فإنه آت لا محالة ، وكل آت قريب .

ثم بين أن قومه ليسوا ببدع فى الأمم فقد مكر كثير ممن قبلهم بأنبيائهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر فقال :

(وقد مكر الذين من قبلهم) أى وقد مكر كثير من كفار الأمم الماضية بأنبيائهم كما فعل نمرود بإبراهيم وفرعون بموسى واليهود بيسى ثم دارت الدائرة على الظالمين وأهلك الله المفسدين .

وفى هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتصبير بأن العاقبة لا محالة له .
(فله المكر جميعا) أى إن مكر الماكرين لا يضر إلا بإذنه تعالى ولا يؤثر إلا بتقديره ، فيجب ألا يكون الخوف إلا منه تعالى .

وفى هذا أمان له صلى الله عليه وسلم من مكرهم .
(يعلم ما تكسب كل نفس) فيعصم أوليائه ويعاقب الماكرين بهم ليوفى كل نفس جزاء ما كسبت .

وفى هذا ما لا يخفى من شديد الوعيد والتهديد للكافرين الماكرين .
ثم أكد هذا التهديد بقوله :

(وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) أى وسيعلم الكفار إذا قدموا إلى ربهم يوم القيامة حين يدخل الرسول والمؤمنون الجنة ويدخلون النار ، لمن العاقبة المحمودة إذ ذاك وإن جهلوا ذلك من قبل ؟ .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أسقف من اليمن فقال له عليه السلام هل تجدنى فى الإنجيل رسولا؟ قال لا فأنزله الله تعالى :

(ويقول الذين كفروا لست مرسلًا) أى ويقول الجاحدون لنبوتك ، الكافرون برسالتك ، لست رسولا من عند الله أرسلك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور وتدعوهم إلى عبادة إله واحد لا شريك له وتنقذهم من عبادة الأصنام والأوثان وتصلح حال المجتمع البشرى وتمنع عنه الظلم والفساد .

(قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم) أى قل حسبى الله شاهدا بتأييد رسالتى وصدق مقالتي إذ أنزل على هذا الكتاب الذى أعجز البشر قاطبة أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

(ومن عنده علم الكتاب) وهم من أسلم من أهل الكتابين التوراة والإنجيل كعبد الله بن سلام وأضرابه فإنهم يشهدون بنعته فى كتابهم .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : كان من أهل الكتاب قوم يشهدون بالحق ويعرفونه ، منهم عبد الله بن سلام والجارود وتميم الدارى وسلمان الفارسي رضى الله عنهم .

خلاصة لهذه السورة

ترى نما تقدم فى تفسير هذه السورة أنها اشتملت على الأمور الآتية :

(١) إقامة الأدلة على التوحيد بما يرى من خلق السموات والأرض والجبال والأنهار والزرع والنبات على اختلاف ألوانه وأشكاله ، وهذا تفصيل لما أجمله فى السورة

قبلها من قوله : « وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » .

(٢) إثبات البعث ويوم القيامة ، والتعجب من إنكارهم له .

(٣) استعجالهم العذاب من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبيان أنه واقع بهم لا محالة كما وقع لمن قبلهم من الأمم الغابرة .

(٤) بيان أن للإنسان ملائكة تحفظه وتحرسه وتكتب عليه ما يكتبه من الحسنات والسيئات بأمر الله .

(٥) ضرب الأمثال لمن يعبد الله وحده ولمن يعبد الأصنام بالسييل والزيد الرابي .

(٦) بيان حال المتقين الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب وأقاموا الصلاة وأنفقوا في السر والعلن ، وبيان ما لهم يوم القيامة .

(٧) بيان حال الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويفسدون في الأرض وبيان ما لهم .

(٨) إنكار الشركاء مع إقامة الأدلة على أن لا شريك لله .

(٩) وصف الجنة التي وعد بها المتقون وبيان أنها مآل المتقين ومآل الكافرين النار وبئس القرار .

(١٠) بيان أن كثيرا ممن أسلموا من أهل الكتاب يفرحون بما ينزل من القرآن إذ يرون فيه تصديقا لما بين أيديهم من الكتاب .

(١١) بيان مهمة الرسول وأن خلاصه ما جاء به - عبادة الله وحده ، وعدم الشرك به ، ودعاؤه لجلب النفع ودفع الضر وأن إليه المرجع والمآب .

(١٢) بيان أن كل رسول أرسل بلغة قومه ليسهل عليهم قبول دعوته وفهمها .

(١٣) تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته من قبول دعوة المشركين من بعد ما جاءهم من العلم .

(١٤) إن جميع الرسل صلوات الله عليهم كان لهم أزواج وذرية .

(١٥) إن المعجزات ليست بمشيئة الرسل يفعلونها كما أرادوا ، وإنما هي بإذن الله وإرادته .

(١٦) بيان أن هذه الحياة الدنيا إنما هي محو وإثبات وموت وحياة فيزيل الله قوما ويوجد آخرين ، وكل ذلك محفوظ في علم الله الذي لا تغيير فيه ولا تبديل .

(١٧) إن مهمة الرسل إنما هي التبليغ ، أما الجزاء على مخالفة الأوامر فامر ذلك إلى الله ولا يعنى الرسول أن يحصل في زمنه أو بعد وفاته .

(١٨) إن انتقام الله من المكذبين قد بدأ في حياة الرسول بقتل أعدائه وأسرمهم وتشريدهم في البلاد .

(١٩) إن مكر أولئك الكافرين بالرسول ليس ببدع جديد ، فكثير من الأمم السابقة مكروا بأنبيائهم وكان النصر حليف المتقين ونكل الله بالقوم الظالمين .

(٢٠) إلخاف الكافرين في إنكار رسالته صلى الله عليه وسلم ، مع بيان أن الله شهيد على ذلك بما أقام من الأدلة على صدقه ، وكذلك شهادة من آمن من أهل الكتاب بوجود أمارات رسالته صلى الله عليه وسلم في كتبهم وتبشيرها بها .

سورة إبراهيم

هي مكية وعدد آياتها ثنتان وخمسون .

وارتباطها بالسورة قبلها من وجوه :

(١) إنه قد ذكر في السورة السابقة أنه أنزل القرآن حكما عربيا ولم يصرح بحكمة ذلك وصرح بها هنا .

(٢) إنه ذكر في السورة السالفة قوله : « وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » وهنا ذكر أن الرسل قالوا : « مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » .

(٣) ذكر هناك أمره عليه السلام بالتوكل على الله ، وهنا حكي عن إخوانه المرسلين أمرهم بالتوكل عليه جل شأنه .

(٤) اشتملت تلك على تمثيل الحق والباطل ، واشتملت هذه على ذلك أيضا .

(٥) ذكر هناك رفع السماء بغير عمد ومد الأرض وتسخير الشمس والقمر ، وذكر هنا نحو ذلك .

(٦) ذكر هناك مكر الكفار وذكر مثله هنا ، وذكر من وصفه ما لم يذكر هناك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ

فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ إِيْبَيْنَ لَهُمْ
فِيضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) .

شرح المفردات

الظلمات : الضلالات ، والنور : الهدى ، وإذن ربهم : تيسيره وتوفيقه ،
والعزيز : الغالب ، والحديد : الحمود المثني عليه بحمده لنفسه أزلا وبحمد عباده له أبداً ،
ويل : هلاك ، يستحبون : يختارون ، سبيل الله : هو دينه الذي ارتضاه ، يبغونها :
يطلبون لها ، عوجا : زيغا وعوجاجا ، واللسان : اللغة .

الإيضاح

(الرّ) تقدم منا أن بينا في سورتي يونس وهود طريق قراءته والمعنى المراد منه
بما أغنى عن إعادته هنا .

(كتاب أنزلناه إليك) أى هذا كتاب أنزلناه إليك أيها الرسول .

(لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) أى لتنقذ الناس من ظلمات الضلالة
والكفر إلى نور الإيمان وضيائه ، وتبصر به أهل الجهل والعمى ، سبل الرشاد والهدى ،
بما اشتمل عليه من واضح الآيات البينات المرشدة إلى النظر في حقائق الكون الدالة
على وحدانية الله تعالى وأنه لا شريك له وأن الواجب عبادته وحده ، ثم دعاؤه لجلب
النفع وكشف الضر ، وفيها أيضا سعادة البشر وصلاحهم في الدنيا والآخرة .

(بإذن ربهم) أى بتوفيقه ولطفه بهم ، بإرسال نور الهدى إلى قلوبهم
فيسلكون طرق الفلاح والصلاح .

(إلى صراط العزيز الحميد) أى إلى الصراط المستقيم وهو الطريق الذي ارتضاه
الله خلقة وشرعه لهم ، وهو العزيز الذي لا يغالb ، الحمود في جميع أفعاله وأقواله
وأمره ونهيه .

ونحو الآية قوله : اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ،
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ « الآية ،
وقوله : « هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ كُفْرَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ » الآية .

ثم بين ما سلف بقوله :

(اللهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) أى هو الله المتصف بملك ما فيهما
خلقا وملكا وتصرفا وتديرا .

وهذه الجملة الدالة على عظمة خالق الأكوان ، وأنه المنفرد بالعظمة والسلطان ،
قد كررت في كثير من سور الكتاب الكريم للتنبية إلى أن من أهم مقاصد هذا
الدين أن يكون في المسلمين حكماء ربانيون يفهمون حقائق هذا الكون ويدركون
أسرار بدائعه ، ويستخرجون للناس ما في باطن الأرض وينتفعون بما في ظاهرها ،
ويتأملون فيما في السموات من بديع الصنع وما تقدمه لنا من الخير العميم الذي ينتفع
منه الإنسان والحيوان في ما كلفهما ومشربهما ومسكنهما وسائر حاجاتهما ومرافقتهما .
وجاء في سورة يوسف قوله تعالى توبيخا للغافلين وحثا لهم المستبصرين :
« وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » .

ومع كل هذا فوا أسفا رأينا كثيرا من المسلمين الذين تتلى عليهم هذه الآية صباح
مساء - يكتفون بمجرد تلاوتها والإيمان بها دون بحث ولا تفهم لمغزاها ولا المراد منها
والاستبصار بما تنطوى عليه من المقاصد والمرامى ، ولو كان ذلك كافيا لكان ذكر
الخبز حين الجوع كافيا في الشبع ، والنظر إلى الماء كافيا في الرى .

ثم توعدهم الذين جحدوا آياته وكفروا بوحدايته فقال :

(وويل للكافرين من عذاب شديد) أى وهلاكك بشديد العذاب يوم القيامة
لمن كفر بك ولم يستجب دعوتك بإخلاص التوحيد لخالق السموات والأرض ،

وَتَرَكَ عِبَادَةَ مَنْ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ شَيْئًا ، بَلْ هُوَ مَمْلُوكٌ لَهُ تَعَالَى لِأَنَّهُ بَعْضُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ .

ثم وصف سبحانه أولئك الكافرين بصفات ثلاث .

(١) (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ) أَي إِنْ أَوْلَيْتُكَ الْكَافِرِينَ
يَطْلُبُونَ الدُّنْيَا وَيَعْمَلُونَ لَهَا وَيَتَمَتَّعُونَ بِلذَاتِهَا وَيَقْتَرِفُونَ الْآثَامَ وَيُرْتَكِبُونَ الْمَوَاقِبَاتِ
وَيُؤَثِّرُونَ ذَلِكَ عَلَى أَعْمَالِ الْآخِرَةِ الَّتِي تَقْرَبُهُمْ إِلَى اللَّهِ زَلْفَى وَيَنْسَوْنَ يَوْمًا تَجَاوَزَى فِيهِ
كُلَّ نَفْسٍ بِمَا عَمَلَتْ ، يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي
تُؤْوِيهِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا .

(٢) (وَيَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ) أَي وَيَمْنَعُونَ مَنْ تَتَجَهَّ عَزَائِمُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ
بِاللَّهِ وَاتِّبَاعِ رَسُولِهِ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ ، أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَيَتَّبِعُوهُ ، لِمَا زَيْنَ لَهُمْ
الشَّيْطَانُ مِنْ سَبِيلِ الطُّغْيَانِ ، وَرَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مِنَ الْفَجْرِ وَالْعَصِيَانِ ، وَابْعَدَ
عَنْ كُلِّ مَا يَقْرُبُ إِلَى الرَّحْمَنِ .

(٣) (وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) أَي وَيَطْلُبُونَ لَهَا الزَّيْغَ وَالْعِوَجَ وَهِيَ أْبَعْدُ مَا يَكُونُ
مِنْ ذَلِكَ ، فَيَقُولُونَ لِمَنْ يَرِيدُونَ صَدْمَهُمْ وَإِضْلَالَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَدِينِهِ ، إِنْ ذَلِكَ
الدِّينُ نَاءٌ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَزَانِعٌ عَنِ الْحَقِّ وَالْيَقِينِ ، وَإِنَّكَ لَتَسْمَعُ كَثِيرًا مِنَ الْمُلْحَدِينَ
يَقُولُ إِنْ الْقَوَانِينِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْحُدُودِ وَالْجُنَايَاتِ شَدِيدَةٌ غَايَةَ الشَّدَّةِ وَإِنَّمَا تَصْلُحُ
لِلْأُمَّمِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْبَادِيَةِ ، لِأَنَّ الْأُمَّمَ الَّتِي أَخَذَتْ قَسْطًا عَظِيمًا مِنَ الْحَضَارَةِ : « كَبُرَتْ
كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » فَتَلِكُ شَرِيعَةٌ دَانَتْ لَهَا أُمَّةٌ
غَيَّرَتْ وَجْهَ الْبَسِيطَةِ وَمَلَكَتْ نَاصِيَةَ الْعَالَمِ رَدْحًا مِنَ الزَّمَانِ وَكَانَتْ مُضْرِبَ الْأَمْثَالِ
فِي الْعَدْلِ وَتَرَكَ الْجُورَ وَثَلَّتْ عُرُوشَ الْأَكْمَرَةِ وَالْقِيَاصِرَةَ وَامْتَلَكَتْ بِلَادَهُمْ وَأَزَالَتْ
عِزَّهُمْ وَسُلْطَانَهُمْ ، إِلَى أَنْ غَيَّرَ أَهْلُهَا مَعَالِمَهَا فَأَرَكْسَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَسَبُوا ، فَبَدَّلَ عِزَّهُمْ ذِلًّا
وَسَعَادَتَهُمْ شِقَاءً ، وَتَلِكَ سُنَّةُ اللَّهِ ، إِنْ الْأَرْضُ يَرِثُهَا عِبَادُهُ الصَّالِحُونَ لِاسْتِعْمَارِهَا ،
ثُمَّ حَكَمَ عَلَيْهِمْ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ فَقَالَ :

(أولئك في ضلال بعيد) أى فهم باختيارهم لأنفسهم حب العاجلة وصددهم عن الدين وابتغائهم له الزيف والعوج - فى ضلال بعيد عن الحق لا يرجى لهم فلاح ، وأنى لهم ذلك وقد كبوا على وجوههم وزين لهم الفساد والنعى فيرون حسنا ما ليس بالحسن وقبيحا ما ليس بالقبيح ؟ .

ثم بين سبحانه كمال نعمته وإحسانه على عباده فذكر أنه يرسل رساله إلى أقوامهم بلغاتهم كي لا يشق عليهم فهم الدين وحفظه فقال :

(وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) أى وما أرسلنا رسولا إلى أمة من الأمم من قبلك وقبل قومك إلا بلسان قومه الذين أرسلناه إليهم ليفهمهم ما أرسل به إليهم من أمره ونهيه بسهولة ويسر ، ولتقوم عليهم الحجة وينقطع العذر وقد جاء هذا الكتاب بلغتهم وهو يتلى عليهم ، فأى عذر لهم فى ألا يفقهوه ، وما الذى صددهم عن أن يدرسوه ، ليعلموا ما فيه من حكم وأحكام ، وحلال وحرام ، وإصلاح لنظم المجتمع ليسعدوا فى حياتهم الدنيا والآخرة ؟ .

والنبي صلى الله عليه وسلم وإن أرسل إلى الناس جميعا بلغاتهم متباينة وألسنتهم مختلفة ، فأرساله بلسان قومه أولى من إرساله بلسان غيرهم ، لأنهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم ويوضحونه لهم حتى يصير مفهوما لهم كما فهموه ، ولو نزل بلغات من أرسل إليهم وبينه لكل قوم بلسانهم لكان ذلك مظنة للاختلاف ، وفتحا لباب التنازع ، لأن كل أمة قد تدعى من المعانى فى لسانها ما لا يعرفه غيرها ، وقد يقضى ذلك إلى التحريف والتصحيف بسبب دعاوى الباطلة التى يقع فيها المتعصبون .

وبعد أن بين سبحانه أنه لم يكن للناس من عذر فى عدم فهم شرائعه - ذكر أن الهداية والإضلال بيد الله ومشيئته فقال :

(فيضل الله من يشاء ويهتدي من يشاء) أى إن الناس فريقان : فريق هداه الله وأضاء نور قلبه وشرح صدره للإسلام فاتبع سبيل الرشاد؛ وفريق رانت على قلبه

الغواية والضلالة بما اجترح من الآثام ، وأوغل فيه من المعاصي والذنوب ، وذلك كله بتقديره تعالى ومشيئته لا راد لقضائه ولا دافع لحكمه .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو العزيز فلا يغلب مشيئته غالب ، الحكيم فى صنعه ، فلا يفعل إلا ما تقتضيه السنن العامة فى خلقه ، والنواميس التى وضعها لصلاح حال عباده وضلالهم : « سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَأَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥)
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِذْ كُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)
وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ جَمِيدٌ (٨) .

شرح المفردات

الآيات : هى الآيات التسع التى أجزاها الله على يده عليه السلام ، والظلمات : الكفر والجهالات ، والنور : الايمان بالله وتوحيده وجميع ما أمروا به ، وذكركم : أى عظهم ، وأيام الله : وقائمه فى الأمم السابقة ويقال فلان عالم بأيام العرب : أى بحروبها وملاحمها كيوم ذى قار ويوم الفججار قال عمرو بن كلثوم :

وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن نديننا
والصبار : كثير الصبر ، والشكور : كثير الشكر ، يسومونكم : يكلفونكم ، بلاء :
أى ابتلاء واختبار ، وتأذن : أى آذن وأعلم ، وحميد مستوجب للحمد لذاته وإن
لم يحمده أحد .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أنه أرسل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الناس ليخرجهم
من الظلمات إلى النور ، وأن فى هذا الإرسال نعمة له ولقومه - أتبع ذلك بذكر
قصص بعض الأنبياء وتفصيل ما لاقوه من أقوامهم من شديد الأذى والتمرد والعناد ،
لما فى ذلك من التسلية له وجميل التأسى بهم ، وبيان أن المقصود من بعثة الرسل
واحد وهو إخراج الخلق من ظلمات الضلالات إلى أنوار الهدايات .

الإيضاح

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور) أى كما
أرسلناك أيها الرسول وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ،
أرسلنا موسى إلى بنى إسرائيل وأيدناه بالآيات التسع التى سلف ذكرها فى سورة
الأعراف وأمرناه بأن يدعوهم إلى الإيمان بالله وتوحيده ليخرجوا من ظلمات الجهل
والضلال إلى نور الهدى والإيمان .

(وذكركم بأيام الله) أى عظمهم مرغبا لهم بتذكيرهم بنعم الله عليهم وعلى من
قبلهم ممن آمن بالرسول فى الأمم السابقة ليكون فى ذلك حافز لهم على العمل ويكون
لهم بمن سلف أسوة - ونحوها : موعدا بتذكيرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ممن كذب
الرسول من الأمم الغابرة كعاد وثمود ليكون لهم فى ذلك مزدجر وليحذروا أن يحل
بهم مثل ما حل بغيرهم .

وأيام الله في جانب موسى عليه السلام منها ما كان محنة وبلاء وهي الأيام التي كان فيها بنو إسرائيل تحت قهر فرعون واستعباده ، ومنها ما كانت نعمة كأنجائهم من عدوهم وقلق البحر لهم وإنزاله المن والسلوى عليهم .

(إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى إن في ذلك التنبيه والتذكير لدلائل على وحدانية الله وقدرته لكل صبار في المحنة والبلية ، شكور في المنحة والعطية . قال قتادة : نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر ، وإذا أعطى شكر ، وفي الحديث إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أمر المؤمن كله عجب ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وإن أصابته سرء شكر فكان خيرا له » .

وفي هذا إيماء إلى أن الإنسان في هذه الحياة يجب أن يكون بين صبر وشكر أبدا لأنه إما في مكروه يصبر عليه وإما في محبوب يشكر عليه ، والوقت في هذه الحياة ذهب ، فمتى ضاع من حياتنا زمن دون عمل نسدى فيه خدمة لأنفسنا ولديننا ووطننا فقد كفرنا بالنعمة وأضعنا الفرصة ولم نعتبر بما حل بمن قبلنا من الأمم الغابرة ، فليحذر كل امرئ أن يضيع حياته بلا عمل وليخف على وقت يضيع ثم بعده عذاب سريع .

ولما سمع موسى أمر ربه امتثله وأخذ يذكر قومه بأيام الله كما حكى الله عنه فقال : (وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) أى اذكروا لقومك حين قول موسى لقومه يا قوم تذكروا إنعام الله عليكم إذ أنجاكم من فرعون وآله ، حين كانوا يذيقونكم العذاب ويكلفونكم من الأعمال ما لا يطاق مع القهر والإذلال ، ويذبحون أبناءكم ويبقون نساءكم على قيد الحياة ذليلات مستضعفات ، وهذا رزء من أشد الرزء ، وأعظم ألوان البلاء ، قال شاعرهم :

ومن أعظم الرزء فيما أرى بقاء البنات وموت البنينا
وفي ذلك التذكير عبرة لهم لو يعتبرون .

(وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) أى وفيما ذكر ابتلاء واختبار عظيم من ربكم ، لما فيه من نعمة التعذيب والإذلال وقتل الأولاد واستحياء البنات ، ثم نعمة الإنجاء من كل ذلك العسف والقهر ، فالابتلاء كما يكون بالنعمة كما قال « وَبَلَّوْنَاَهُمُ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » وقال : « وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً » .

(وإذا تأذن ربكم) أى واذا كروا يابنى إسرائيل حين آذنكم ربكم وأعلمكم بوعده فقال :

(لئن شكرتم لأزيدنكم) أى لئن شكرتم ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها بطاعتي فيما أمركم به وأنهاكم عنه لأزيدنكم من نعمي عليكم ، وقد دلت التجارب أن العضو الذى يناط به عمل كلما مرن عليه ازداد قوة ، وإذا عطل عن العمل ضمير وضعف ، وهكذا النعم إن استعملت فيما خلقت له بقيت ، وإن أهملت ذهبت . أخرج البخارى فى تاريخه والضياء فى المختارة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ألهم خمسة لم يحرم خمسة - وفيها - من ألهم الشكر لم يحرم الزيادة » . والخلاصة - إن من شكر الله على ما رزقه وسع عليه فى رزقه ، ومن شكره على ما أقدره عليه من طاعته زاد فى طاعته ، ومن شكره على ما أنعم عليه من صحة زاده الله صحة ، إلى نحو أولئك من النعم .

(ولئن كفرتم) النعم وجحدتموها فلم تقوموا بواجب حقها عليكم من شكر النعم بها .

(إن عذابى لشديد) بحرمانكم منها وسلبكم ثمراتها فى الدنيا والآخرة ، فتعذبون فى الدنيا بزوالها ، وفى الآخرة بعذاب لا قبل لكم به ، وفى الحديث : « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » .

ثم بين سبحانه أن منافع الشكران ومضار الكفران لا تعود إلا إلى الشاكر أو الكافر بتلك النعم ، أما المعبود المشكور فهو متعال عن أن ينتفع بالشكر أو يضره الكفر فلا جرم قال :

(وقال موسى إن تكفروا أأنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد) أى إن تجحدوا نعمة الله التى أنعمها عليكم ويفعل مثل فعلكم من فى الأرض جميعا فما أضررتكم بالكفر إلا أنفسكم ، إذ حرمتموها من مزيد الإنعام وعرضتموها للعباب الشديد ، وإن الله غنى عن شكركم وشكر غيركم وهو المحمود وإن كفر به من كفر ، وهذا كقوله : « إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ » الآية وقوله : « فَكْفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ » .

وقد يكون موسى قال هذه المقالة حين عين منهم دلائل العناد ومخايل الإصرار على الكفر والفساد وتيقن أنه لا ينفعهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخَّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) .

شرح المفردات

الريبة : اضطراب النفس وعدم اطمئنانها بالأمر ، وفاطر السموات والأرض
أى موجدتها على نظام بديع ، والسلطان : الحجة والبرهان .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما ذكر به موسى قومه مما أولاهم به ربهم من نعمة ورفع عنهم من نقمة ، ثم ذكر وعده تعالى بالزيادة لمن شكر ووعيده بالعذاب لمن كفر ، ثم حذرهم بأن الكفران لا يضير ربهم وأنه غنى عن حمدهم وحمد من فى الأرض جميعا - أخذ يذكركم بأيام الله فيمن قبلهم من الأمم السالفة والأجيال البائدة بأسلوب طلي ومقال جلي ، فذكر القول أولاً على سبيل الإجمال ، ثم أتبعه بمحاورة بين الرسل وأقوامهم ، أقام فيها الرسل الحجة على أممهم ودحض ما تمسكوا به من الترهات والأباطيل .

الإيضاح

(ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله) أى ألم يأتكم خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل التى غاب عن الناس علمها وعند الله إحصاؤها .

ثم فصل هذا النبا وفسره بقوله :

(جاءتهم رسلهم بالبينات) أى جاءتهم رسلهم بالمعجزات الظاهرة والبينات

الباهرة ، وبين كل رسول لأمته طريق الحق ودعاهم إليه ليخرجهم من الظلمات إلى النور .

(فردوا أيديهم في أفواههم) أى عضوا بنان الندم غيظا لما جاءهم به الرسل ، وضجرا لنفرتهم من استماع كلامهم إذ سفهوا أحلامهم وشتموا أصنامهم ، وقد فعلت العرب مثل ذلك مع النبي صلى الله عليه وسلم كما قال سبحانه : « عَضُوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ » .

وقال أبو عبيدة والأخفش ونعما قالوا هو مثل والمراد أنهم لم يؤمنوا ولم يجيبوا ، والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت ، قد رد يده في فيه .

(وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به) أى إنا كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم به من البينات التي أظهرتموها حجة على صحة رسالتكم ، وإنما يقصدون من الكفر بها الكفر بدلائلها على صدق رسالتهم .

(وإنا لنى شك مما تدعوننا إليه مريب) أى وإنا لنى شك مما تدعوننا إليه من الإيمان بالله ووحدايته ، وجملة ما جئتم به من الشرائع .

وخلاصة مقالهم — إنهم جاحدون نبوتهم قاطعون بعدم صحتها ، لأن ما جاءوا به من التعاليم والشرائع مما يشك في صدقه وأن الله سبحانه يدعو إلى مثله . فرد الرسل عليهم منكرين متعجبين من تلك المقالة الحمقاء كما أشار إلى ذلك بقوله :

(قالت رسلهم أفى الله شك ؟) أى أفى وجود الله شك ، وكيف ذلك والقطرة شاهدة بوجوده ، ومجبولة على الإقرار به ، فالاعتراف به ضرورى لدى كل ذى رأى حصيف كما جاء فى الحديث : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرّانه أو يمجسانه » .

ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب فتحتاج إلى النظر فى الأدلة الموصلة ، إلى ذلك ومن ثم وجه الرسل أنظار أممهم إلى هذه الأدلة فقالوا :

(فاطر السموات والأرض) أى هو الذى خلقهما وأبدعهما على غير مثال سابق

ودلائل الحدوث ظاهرة عليهما فلا بد لهما من صانع وهو الله الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء وإلهه ومليكه ، وقد جاء هذا الوصف في محاورات الأنبياء جميعا ، وهو نفس الوصف الذي جاء في أول السورة على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم ، ومن هذا يعلم أن كل نبي جعل مطمح نظره توجه النفوس إلى علوم السموات والأرض .
ولما أقاموا الدليل على وجوده وصفوه بكل الرحمة بقولهم :

(يدعوكم) إلى الإيمان به بوساطة إرساله إيانا لنخرجكم من ظلمات الوثنية إلى نور الوحدانية وإخلاص العبادة للواحد القهار .

(ليغفر لكم من ذنوبكم) أي يدعوكم لمغفرة بعض ذنوبكم وهي الذنوب التي بينكم وبين ربكم لا المظالم وحقوق العباد .

والمتتبع لأسلوب الكتاب الكريم يرى أن كل موضع ذكر فيه مغفرة الذنوب للكافرين جاء بلفظ (من) كقوله : « وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا . يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » وقوله : « يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » لأنه يخاطبهم في أمر الإيمان وحده .

وفي المواضع التي يذكر فيها مغفرة الذنوب للمؤمنين تجيء بدون ذكر (من) كقوله : « ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » لأن المغفرة منصرفة إلى المعاصي ومتوجهة إليها .

(ويؤخركم إلى أجل مسمى) أي إلى وقت سماه الله وجعله منتهى أعماركم إن أنتم آمنتم به ، وإلا عاجلكم بالهلاك وعذاب الاستئصال جزاء كفرانكم بدعوة الرسل إلى التوحيد وإخلاص العبادة للواحد القهار .

ثم حكى الله تعالى رد الأمم على مقالة الرسل ، وهو يتضمن ثلاثة أشياء :

(١) (قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا) فلا فضل لكم علينا ، فلم خصصتم بالنبوة وأطلعكم الله على الغيب وجعلكم مخالطين لزمره الملائكة دوننا ، إلى أنه لو كان الأمر

كما تدعون لوجب أن تغارقونا في الحاجة إلى الأكل والشرب وقربان النساء وما شاكل ذلك .

(٢) (تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) ولا حجة لكم على ما تدعون وليس من حصافة العقل أن نترك أمرا قبل أن يقوم الدليل على خطئه .

(٣) (فأتونا بسلطان مبين) أي بحجة ظاهرة تدل على صحة ما تدعون من النبوة ، أما ذكر السموات والأرض ومعجائبهما فلسنا نحفل بهما ، والعجائب الأرضية والسموية لا نعقلها ، والبشر لا يخضعون إلا لمن يأتي لهم بما هو خارج عن طور معتادهم وحينئذ يعظمونه و يبجلونه ، وهذه المشاهدات لا ترى فيها شيئا خارقا للعادة ، وإذا فلا إيمان ولا تسليم إلا بما هو فوق طاقتنا كقلب العصاحية ونقل الجبال وما إلى ذلك .

وبعد أن حكى عن الكفار شبهاتهم في الطعن في النبوة حكى عن الأنبياء جوابهم عنها فأجابوا عن الأولى والثانية بالتسليم لكن التماثل لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة لأن هذا منصب يمن الله به على من يشاء من عباده ، كما لا يمنع من أن يخص بعض عباده بالتمييز بين الحق والباطل والصدق والكذب وأن يحرم الجمع العظيم منه ، وهذا ما أشار إليه بقوله :

(قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) وأجابوا عن الشبهة الثالثة بأن ما جئنا به حجة قاطعة و بينة ظاهرة على صدق رسالتنا وما اقترحتموه من الآيات فأمره إلى الله إن شاء أظهره وهو زائد على قدر الكفاية ، وذلك ما أومئوا إليه بقولهم :

(وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله) أي بمشيئته وإرادته ، وليس ذلك في قدرتنا .

وبعد أن أجابهم الأنبياء عن شبهاتهم أخذ المشركون يخوفونهم ويتوعدونهم بالانتقام منهم وإيذابهم قدر ما يستطيعون ، فقال لهم الأنبياء إنا لا نخاف تهديدكم

ولا وعيدكم ، بل تتوكل على الله ونعتمد عليه ولا نقيم لما نقولون وزنا ولا نأبه به ،
وهذا ما أشار إليه سبحانه بقوله حكاية عنهم :

(وعلى الله فليتوكل المؤمنون) في دفع شرور أعدائهم عنهم وفي الصبر على
معاداتهم .

ثم زادوا أمر التوكل توثيقا وتوكيدا فقالوا :

(وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا) أى وكيف لا نتوكل على الله
وقد هدانا إلى سبل المعرفة وأوجب علينا سلوك طريقها وأرشدنا إلى طريق النجاة ،
ومن أنعم الله عليه بنعمة فليشكره عليها بالعمل بها .

(ولنصبرن على ما آذيتونا) أى ولنصبرن على إيذائكم بالعناد واقتراح الآيات
ونحو ذلك مما لا خير فيه وندعوكم لعبادة الله وحده ليكون ذلك منا شكرا على نعمة
الهداية .

ثم ختموا كلامهم بمدح التوكل وبيان أن إيذاءهم لا يثنيهم عن تبليغ رسالة
ربهم فقالوا :

(وعلى الله فليتوكل المتوكلون) أى وعلى الله وحده فليثبت المتوكلون على
توكلهم وليحتملوا كل أذى فى جهادهم ولا يبالوا بما يصيبهم من أذى ولا بما يلاقون
من صعاب وعقبات .

ومن عنده مال أو علم فلينفع به الناس وليكن كالنهر يسقى الزرع والشمس تضيء
العباد وليصبر على أذى الناس كما صبر الأنبياء وأوزوا ، فالهداة ما خلقوا إلا ليعملوا فهم
هداة بطباعهم ، ولذاتهم فى قلوبهم ومنهم تنتقل إلى الناس .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ
فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ

الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا
 وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦)
 يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ
 وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) .

شرح المفردات

لتعودن : لتصبرن ، والملة : الدين والشريعة ، والمقام : موقف الحساب ،
 واستفتحو : أى طلبوا الفتح بالنصرة على الأعداء ، وخاب : هلك ، والجبار :
 العاتى المتكبر على طاعة الله ، والعنيد : المعاند للحق المخالف له ، ومن ورأه : أى من
 بعد ذلك ينتظره ، والصدید : ما يسيل من جلود أهل النار ، يسيفه : أى يستطيه
 يقال ساع الشراب : إذا جاز الحلق بسهولة ، يأتيه الموت : أى تأتيه أسبابه وتحيط به
 من كل جهة ، عذاب غليظ : أى شديد غير منقطع .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما دار من الحوار والجدل بين الرسل وأقوامهم وذكر الحجج التي
 أدلى بها الرسل وقد كان فيها المنع لمن أراد الله له الهداية والتوفيق ، ومن كان له
 قلب يعى به الحكمة وفصل الخطاب - ذكر هنا أنهم بعد أن أحموا لم يجدوا وسيلة
 إلا استعمال القوة مع أنبيائهم كما هو دأب المحجوج المغلوب في الخصومة ، فخيروا
 رسلهم بين أحد أمرين : إما الخروج من الديار ، وإما العودة إلى الملة التي عليها الآباء
 والأجداد ، فأوحى الله إلى أنبيائه أن العاقبة لكم وستدور عليهم الدائرة ، وستحلون
 محلهم في ديارهم وسيعذبون في الآخرة بنار جهنم ويرون ألوانا من العذاب
 لا قبل لهم بها .

الإيضاح

(وقال الذين كفروا لرسلمهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا) أى وقال الذين كفروا بالله لرسلمهم حين دعومهم إلى توحيده تعالى وترك عبادة الأصنام والأوثان لنخرجنكم من بلادنا مطرودين منها إلا أن تعودوا فى ديننا الذى نحن عليه من عبادة الأصنام كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به : « لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا » الآية ، وكما قال قوم لوط : « أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ » الآية ، وقال إخبارا عن مشركى قريش : « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا » .

وخلاصة هذا — ليكون أحد الأمرين لا محالة : إما إخراجكم ، وإما صيرورتكم فى ملتنا ملة الآباء والأجداد وهى عبادة الآلهة والأوثان ، وقد ممكن لهم فى ذلك أنهم كانوا كثرة وكان أهل الحق قلة كما جرت بذلك العادة فى كل زمان ومكان ، فإن الظلمة يكونون متعاونين متعاضدين ، ومن ثم استطاعوا أن يبرموا هذا الحكم بلا هوادة ولا رفق كما هو شأن المعتز بقوته الذى لا يخشى اعتراضا ولا خلافا .

والأنبياء صلوات الله عليهم لم يكونوا فى ملتهم ولم يعبدوا الأصنام طيلة حياتهم لكنهم لما نشئوا بين ظهرانيهم وكانوا من أهل تلك البلاد ولم يظهرها فى أول أمرهم مخالفة لهم — ظنوا أنهم كانوا على دينهم .

ولما تمدت الأمم فى الكفر وتوعدوا الرسل بأخذهم بالشدة والإيقاع بهم — أوحى الله إليهم بإهلاك من كفر بهم ووعدهم بالنصر والغلب على أعدائهم كما أشار إلى ذلك بقوله : (فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم) أى فأوحى الله إلى رسله قائلا لهم : لنهلكن من تنهى فى الظلم من المشركين ، ولنسكننكم أرضهم وديارهم بعد إهلاكهم عقوبة لهم على قولهم : (لنخرجنكم من أرضنا) .

وفي ذلك وعيد وتهديد للمشركين من قريش على كفرهم وجرائمهم على نبيه ،
وتثبيت وأمر له بالصبر على مايلقى من المكروه كما صبر من كان قبله من الرسل ،
وبيان لأن عاقبة من كفر به الهلاك وعاقبته النصر عليهم كما قال : « سُنَّةَ اللَّهِ
فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ » وقال : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ
لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِن جُنَدُنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ » وقال : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ
أَنَا وَرُسُلِي » .

ثم ذكر السبب في نصرهم عليهم فقال :

(ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد) أى هكذا أفعال بمن خاف مقامه بين
يدى يوم القيامة ، وخاف وعيدى فاتقانى بطاعتي وتجنب سخطى - أنصره على من
أراد به سوءا وبغى به مكروها من أعدائى ، وأورثه أرضه ودياره .
ثم بين أن كلا من الفريقين الأمم والرسل طلبوا المعونة والتأييد من ربهم وإلى
ذلك أشار بقوله :

(واستفتحوا) أى واستفتحت الرسل على أممها أى استنصرت الله عليها ،
واستفتحت الأمم على أنفسها كما قالوا : « اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِن عِنْدِكَ
فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .
ثم ذكر مآل المشركين وبيّن أن النصر للمتقين فقال :

(وخاب كل جبار عنيد) أى وهلك كل متكبر بجانب للحق منحرف عنه .
(من ورائه جهنم) أى ومن وراء الجبار العنيد جهنم أى هى له بالمرصاد تنتظره
ليسكنها مخلدا فيها أبدا ويعرض عليها فى الدنيا غدوا وعشيا إلى يوم التناد .
ثم بين شرابه فيها فقال :

(ويسقى من ماء صديد) أى ليس له فى النار شراب إلا ما يخرج من جوفه
وقد خالطه القيح والدم ، وخص بالذكر لأنه ألم أنواع العذاب .

ثم ذكر ألمه من ذلك الشراب فقال :

(يتجرعه ولا يكاد يسيغه) أى يتحساه جرعة بعد جرعة ولا يكاد يزرده من شدة كراهته ورداءة طعمه ولونه وريحه وحرارته كما قال : « وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » وقال : « وَإِنْ يَسْتَقِيمُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَأَلْمَلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ » .

ثم ذكر ما يحيط به من الأهوال فقال :

(ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) أى وتحيط به أسبابه من الشدائد وأنواع العذاب من كل جهة من الجهات من قدامه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله فى نار جهنم ، ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه لو كان يموت ، لكنه لا يموت كما قال تعالى : « لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا » .

ثم أكد شدائدھا وعظيم أهوالھا فقال :

(ومن ورائه عذاب غليظ) أى وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ أى مؤلم أغلظ من الذى قبله وأمر كما قال تعالى : « وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ . لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ » وقال : « وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ شَرًّا مَاتًا . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ . هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٍ . وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ » .

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَاءُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما سيلاقيه الكافرون في هذا اليوم العاصف من سائر أنواع العذاب التي سلف وصفها - بين هنا أن ما عملوه في الدنيا من صالح الأعمال لا يجديهم فتيلا ولا قطميرا ، فما أشبهه إذ ذاك برماد أطارته الرياح في يوم عاصف فذهبت به في كل ناحية ، فهم لا يجدون من أعمالهم فيه شيئا ، ثم بين أن ذلك اليوم آت لا ريب فيه ، فإن من أنشأ السموات والأرض بلا معين ولا ظهير قادر على أن يفتنيهم ويأتى بخلق سواهم ، وليس ذلك بعزيز ولا بممتنع عليه .

الإيضاح

(مثل الذين كفروا بربههم أعمالهم كرماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف) أى ما مثل أعمال الكافرين التي كانوا يعملونها في الدنيا ويزعمون أنها تنفعهم يوم الجزاء - إلا كمثل رماد حملته الرياح وأسرعت الذهاب به في يوم عاصف فنسفته ولم تبق له أثرا ، فهم يوم القيامة لا يجدون منها شيئا ينفعهم عند الله فينجيهم من عذابه ، إذ لم يكونوا يعملونها لله خالصة ، بل كانوا يشركون فيها الأصنام والأوثان .

والمراد من تلك الأعمال أعمال البر كالصدقة ، وصلة الرحم ، وبر الوالدين ، وإطعام الجائع ، وإغاثة الملهوف ، ونحو ذلك .

ثم أكد نفي فائدتها لهم إذ ذاك فقال :

(لا يقدرון مما كسبوا على شيء) أى لا يقدرون يوم القيامة على شيء من أعمالهم في الدنيا ، فلا يرون لها أثرا من ثواب أو تخفيف عذاب ، كما لا ينتفع بالرماد إذا أرسل عليه الرياح في يوم عاصف .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ جَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا »

وقال: «مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ، وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ »
 وورد في الصحيح عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت «يارسول الله إن ابن جُدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين ، هل ذلك نافعه ؟ قال لا ينفعه لأنه لم يقل : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » .

(ذلك هو الضلال البعيد) أى ذلك السعى والعمل على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم منه أحوج ما كانوا إليه ، هو الضلال البعيد عن طريق الحق والصواب .

ثم ذكر دليل وحدانيته فقال :

(ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز) أى ألم تعلم أيها الرسول أن الله أنشأ السموات والأرض بالحكمة وعلى الوجه الصحيح الذى يحق أن يخلقا عليه ، ومن قدر على خلقهما على أتم نظام وأحكم وضع بلا معين ولا ظهير ، فهو قادر على أن يفتنكم ويأتى بخلق جديد سواكم ، وما ذلك بممتنع ولا متعذر عليه .

ومثل الآية قوله : « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْزُبْ عَنْهُم مِّنْ قَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُخَيِّبَهُم بَأْتِيَةِ الْعَذَابِ ، بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

وخلاصة ذلك — إنهم بعدوا فى الضلال وأمعنوا فى الكفر بالله مع وضوح الآيات الدالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة ، وأنه هو الحقيق بأن يرجى ثوابه ويخشى عقابه .

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ؟ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سِوَاهُ عَلَيْنَا أَجْرٌ غَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا نَالْنَا مِنْ مَّحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ

لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ
 وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا
 تُلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي
 كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)
 وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣) .

شرح المفردات

و برزوا : أى صاروا بالبراز وهى الأرض المتسعة ، ويراد بها مجتمع الناس فى ذلك
 اليوم ، والضعفاء : واحدهم ضعيف ، ويراد به ضعيف الرأى والفكر ، والذين
 استكبروا : هم رؤساؤهم الذين استنفروهم ، والتبع : واحدهم تابع كخادم وخدم ، مغنون :
 أى دافعون ، ومحيص : أى منجى ومهرب ، والسلطان : التسلط ، بمصرخكم : أى
 بمغيثكم ، يقال استصرخنى فأصرخته : أى استغاثنى فأغثته .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما يلقاه الأشقياء فى ذلك اليوم من العذاب ، وذكر أن
 أعمالهم الطيبة التى كانت فى الدنيا أحببت فلم تغن عنهم شيئا - ذكر هنا محاوراة بين
 الأتباع المستضعفين والرؤساء المتبوعين وما يحدث فى ذلك الوقت من الخجل لهم ،
 ثم أردفها بمناظرة وقعت بين الشيطان وأتباعه من الإنس ، وبعد أن ذكر أحوال
 الأشقياء وبالغ فى بيانها وتفصيلها شرح أحوال السعداء وما أعد لهم من الثواب
 العظيم والأجر الجزيل .

الإيضاح

(وبرزوا لله جميعا) أى برزت انخلائق كلها برّها وفاجرها لله الواحد القهار:
أى اجتمعت فى براز من الأرض ، وهو المكان الذى ليس فيه شيء يستر أحدا .

(فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا) أى فقال الأتباع لقادتهم
وسادتهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده وعن اتباع قول الرسل : إنا كنا تابعين
لكم تأمرونا فنأتمر وتمهوننا فنتمهى .

(فهل أتمم مغنون عنا من عذاب الله من شيء) أى فهل تدفعون عنا اليوم
شيئا من ذلك العذاب كما كنتم تعدوننا وتمنوننا فى الدنيا .
وقد حكى الله رد أولئك السادة عليهم .

(قالوا لو هدانا الله لهديناكم) أى لو أرشدنا الله تعالى وأضاء أنوار بصائرنا
وأفاض علينا من توفيقه ومعونته لأرشدناكم ودعوناكم إلى سبل الهدى ووجهنا أنظاركم
إلى طرق الخير والفلاح ، ولكنه لم يهدنا فضلنا السبيل فأضلناكم .

ولما كان هذا القول منهم أمارة الجزع قالوا :

(سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص) أى ليس لنا مهرب ولا خلاص
مما نحن فيه إن صبرنا أو جزعنا .

وخلاصة ذلك — بيان الجزع والصبر فلا نجاة من عذاب الله .

وفى مثل الآية قوله : « وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ » وقوله : « رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا
سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَمَلُ عَلَيْهِمْ
لَعْنًا كَبِيرًا » .

ولما ذكر سبحانه المناظرة التى ستكون بين الأتباع والرؤساء أردفها بالمناظرة التى ستكون بين الشيطان وأتباعه حينئذ فقال :

(وقال الشيطان لما قضى الأمر) أى وقال إبليس مخاطبا أتباعه من الإنس ، بعد أن حكم الله بين عباده فأدخل المؤمنين فراديس الجنات ، وأسكن الكافرين سحيق الدركات .

(إن الله وعدهم وعد الحق) أى إن الله وعدهم على أسنة رسله بالبعث وجزاء كل عامل على عمله إن خيرا نخير وإن شرا فشر ، ووعدده حق وخبره صدق .
(ووعدهم فأخلفتم) أى ووعدهم أن لاجنة ولا نار ولا حشر ولا حساب ، ولئن كانوا فنعم الشفيح لكم الأصنام والأوثان ، فأخلفتم موعدى إذ لم أقل إلا بهرجا من القول وباطلا منه فاتبعتمونى وتركتم وعد ربكم وهو وليكم ومالك أمركم .
ونحو الآية قوله : « يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا » .
(وما كان لى عليكم من سلطان) أى وما كان لى قوة وتسلط تجعلنى أجتكم إلى متابعتى على الكفر والمعاصى .

(إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) أى ولكن بمجرد أن دعوتكم إلى الضلال بوسوستى وتزيينى ، أسرعتم إلى إجابتى واتبعتم شهوات النفوس وأطعتم الهوى وخضتم فى مسالك الردى .

(فلا تلومونى ولوموا أنفسكم) لأنه ما كان منى إلا الدعاء وإلقاء الوسوسة ، ولوموا أنفسكم إذ استجبتم لى باختياركم الذى نشأ عن سوء استعدادكم بلا حجة منى ولا برهان بل بتزيينى وتسويلى ، ولم تستجيبوا لربكم وقد دعاكم دعوة الحق المقرونة بالحجج والبيئات .

ثم حكى سبحانه قول الشيطان حين ذلك لأتباعه فقال :
(ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى) أى ما أنا بمفيشكم مما أنتم فيه من العذاب فأزبل صراخكم ، وما أنتم بمفيشى مما أنا فيه من العذاب والنكال .

(إني كفرت بما أشركتمون من قبل) أي إني جحدت اليوم أن أكون شريكا لله فيما أشركتموني فيه من قبل هذا اليوم أي في الدنيا ، وهذا كقوله : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْ كِكُمْ » .

ومعنى كفره بإشراكهم تبرؤه منه واستنكاره له ، وهذا كقوله تعالى : « إِنَّا بَرَأْنَا مِنْكُمْ وَإِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ » .

(إن الظالمين لهم عذاب أليم) أي قال إبليس قطعاً لأطاع الكفار من الإغاثة والنجاة من العذاب ، وإنما حكي الله ذلك عنه ليكون تنبيهاً للسامعين وحضاً لهم على النظر في عاقبة أمرهم والاستعداد لذلك اليوم الذي يقول فيه الشيطان ما يقول ، فيشوبوا إلى رشدهم ويرجعوا عن غيهم ويتذكروا هول ذلك الموقف ورهبته .

ولما جمع سبحانه فريق السعداء والأشقياء في قوله : « وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا » وبالغ في وصف حال الأشقياء من وجوه كثيرة - ذكر حال السعداء وما أعد لهم من نعيم مقيم في ذلك اليوم فقال :

(وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) أي وأدخل الذين صدقوا الله ورسوله فأقروا بوحدايته تعالى ورسالة رسوله ، وعملوا بطاعته فاتهبوا إلى أمره ونهيه ، بساتين تجري من تحتها الأنهار ما كثرين فيها أبدا لا يتحولون عنها ولا يزولون منها .

(بإذن ربهم) أي بتوفيقه تعالى ، إذ وجه نفوسهم في الدنيا لكسب الخيرات والميل إلى العمل بما يرضيه ويرضى رسوله ، وأثار بصائرهم للاعتقاد بأن يوم الجزاء آت لا ريب فيه ، فأعدوا له العدة ، فكان على الله بمقتضى وعده أن يدخلهم جناته كفاء ما جدوا في رضاه ونصبوا في طاعته خوفاً من هول ذلك اليوم العصيب .

(تحييتهم فيها سلام) أي يحييهم الملائكة بالسلام بإذن ربهم تعظيماً لشأنهم وعناية بأمرهم ، وجاء في هذا المعنى قوله تعالى في وصف دخولهم الجنة « حَتَّى إِذَا جَاءهُمَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » وقوله : « وَالْمَلَائِكَةُ

يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » وقوله : « وَيُقَاتُونَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا » كما يحییهم ربهم جلت قدرته إظهاراً لرضاه عنهم وإجلالاً وإكباراً لهم كما قال : « سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ » .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) .

شرح المفردات

المثل : قول في شيء يشبه بقول في شيء آخر لما بينهما من المشابهة ويوضح الأول بالثاني ليم انكشاف حاله به ، ثابت : أي ضارب بعروقه في الأرض ، في السماء : أي جهة العلو ، تؤتي أكلها : أي تعطي ثمرها ، بإذن ربها : أي بإرادة خالقها ، اجتثت : أي استوصلت وأخذت جنتها ، والقرار : الاستقرار ، القول الثابت : أي الذي ثبت عندهم وتمكن في قلوبهم .

المعنى الجملي

بعد أن بين سبحانه حال الأشقياء ومآل أمرهم وما يلاقونه من الشدائد والأحوال في نار جهنم التي لا يجدون عنها محيصاً وذكر أحوال السعداء وما ينالون من فوز عند ربهم - ضرب لذلك مثلاً يبين حال الفريقين ويوضح الفرق بين الفئتين ، وبه ألبس

المعنويات لباس الحسيات ليكون أوقع في النفس وأتم لدى العقل ، والأمثال لدى العرب هي المَهَيِّعُ السلوك والطريق المتبع لإيضاح المعاني إذا أريد تثبيتها لدى السامعين والقرآن الكريم مليٌّ بها والسنة النبوية جرت على منهاجه ، فكثيراً ما تُتَّبَعُ المسائل الهامة بضرب الأمثال لها لتستقر في النفوس وتنقش في الصدور .

الإيضاح

(ألم تر كيف ضرب الله مثلاً) أى ألم تعلم أيها الإنسان علم اليقين ، كيف ضرب الله مثلاً ووضع الموضع اللائق به .

(كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها) أى إن الله جلت قدرته شبه الكلمة الطيبة وهي الإيمان الثابت في قلب المؤمن الذي يُرْفَعُ به عمله إلى السماء كما قال : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » وتُنَالُ بركته وثوابه في كل وقت ، فالمؤمن كلما قال لا إله إلا الله صعدت إلى السماء وجاءت بركتها وخيرها - بالشجرة الطيبة المثمرة الجميلة المنظر الشذية الرائحة التي لها أصل راسخ في الأرض به يؤمن قلعها وزوالها ، وفروعها متصاعدة في الهواء (فيكون ذلك دليلاً على ثبات الأصل ورسوخ العروق ، وعلى بعدها عن عفونات الأرض وقاذورات الأبنية) فتأتى الثمرة نقية خالية من جميع الشوائب وتثمر في كل حين بأمر ربها وإذنه ، وإذا اجتمع لهذه الشجرة كل هذه المميزات كثر رغبة الناس فيها .

وخلاصة ذلك - إنه تعالى شبه كلمة الحكمة والإيمان بشجرة ثبتت عروقها في الأرض وعلت أغصانها إلى السماء وهي ذات ثمر في كل حين ، ذلك أن الهداية إذا حلت قلباً فاضت منه على غيره وملأت قلوباً كثيرة ، فكأنها شجرة أثمرت كل حين ، لأن ثمراتها دائمة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وكل قلب يتلقى عما يشاء كله ويأخذ منه بسرعة أشد من سرعة إيقاد النار في الحشيم أو سريان السكرباء في المعادن أو الضوء في الأثير .

وقد روى عن ابن عباس أن الكلمة الطيبة هي قول « لا إله إلا الله » وأن الشجرة الطيبة : هي النخلة ، وعن ابن عمر قال : « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أخبروني عن شجرة تشبه الرجل المسلم لا يتحات ورقها لا صيفا ولا شتاء وتتوى أكلها كل حين بإذن ربها ، قال ابن عمر فوقع في نفسى أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان ، فكرهت أن أتكلم ، فلما لم يقولوا شيئا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : النخلة . فلما قمنا قلت لعمر : يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسى أنها النخلة ، قال ما منعك أن تتكلم ؟ قلت لم أركم تتكلمون ، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئا ، قال عمر : لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا » رواه البخارى .

ثم نبه سبحانه إلى عظم هذا المثل ليكون ذلك داعية تدبره ومعرفة المراد منه فقال : (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) أى إن فى ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكيرا للناس ، لأن أنس النفوس بها أكثر ، فهى تخرج المعنى من خفى إلى جلى ، ومما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، وبها يطبق المعقول على المحسوس فيحصل العلم التام بالشىء الممثل له .

(ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار) أى ومثل كلمة الكفر وما شاكلها مثل شجرة خبيثة كالحنظل ونحوه مما ليس له أصل ثابت فى الأرض ، بل عروقه لا تتجاوز سطحها ، وقد اقتلعت من فوق الأرض ، لأن عروقه قريبة منه ، أو لاعروق لها فى الأرض ، فكما أن هذه لا ثبات لها ولا دوام ، فكذلك الباطل لا يدوم ولا يثبت بل هو زائل ذاهب ، وثمره مرّ كريه كالحنظل .

وما أقوى الحق وأثبتته وأكثر نفعه للناس ، فهو ثابت الدائم متين الأركان مشر كل حين كالنخل .

وإخلاصة — إن أرباب النفوس العالية وكبار المفكرين هم أصحاب الكلمة الطيبة ، وعلومهم تعطى أمهم نعا وورزقا فى الدنيا ، وهى مستقرة فى نفوسهم ،

وفروعها ممتدة إلى العوالم العلوية والسفلية، وتثمر كل حين لأبناء أمتهم ولغيرهم فيمتدى بها المؤمنون ، وما أشبههم بالنخلة التي لها أصل مستقر وفروع عالية وثمر دائم ويأكل الناس منها صيفا وشتاء .

وأرباب الشهوات والنفوس الضعيفة والمقلدون في العلم هم أصحاب الكلمة الخبيثة التي لا ثبات لها كالحنظل .

وبعد أن وصف الكلمة الطيبة بما سلف أخبر بفوز أصحابها ببغيتهم في الدنيا والآخرة فقال :

(يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) أى يثبتهم بالكلمة الطيبة التي ذكرت صفاتها العجيبة فيما سلف مدة حياتهم ، إذا وجد من يفتنهم عن دينهم ويحاول زلهم كما جرى لبلال وغيره من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد الموت في القبر الذى هو أول منزل من منازل الآخرة ، وفي مواقف القيامة فلا يتاعشون ولا يضطربون إذا سئلوا عن معتقدهم ولا تدهشهم الأهوال .

أخرج ابن أبي شيبة عن البراء بن عازب أنه قال فى الآية : التثبيت فى الحياة الدنيا إذا جاء الملائكة إلى الرجل فى القبر فقالا له من ربك ؟ قال ربى الله ، وقالوا وما دينك ؟ قال دينى الإسلام ، وقالوا وما نبيك ؟ قال نبيى محمد صلى الله عليه وسلم ، وعن عثمان بن عفان قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال : استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يسأل » أخرجه أبو داود .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى سؤال الملائكة للميت فى قبره وفى جوابه عليهم وفى عذاب القبر وفتنته وليس هذا موضعها . نسأل الله التثبيت فى القبر وحسن الجواب بتمنه وكرمه إنه على ما يشاء قدير .

وعلى هذا فالمراد بالحياة الدنيا مدة الحياة ، والآخرة يوم القيامة والعرض للحساب . وبعد أن وصف الكلمة الخبيثة فى الآية المتقدمة بين حال أصحابها بقوله :

(ويضل الله الظالمين) أى ويخلق فيهم الضلال عن الحق الذى ثبت للمؤمنين عليه على حسب إرادتهم واختيارهم لسوء استعدادهم وميلهم مع شهوات النفوس وتدسيتها بصنوف الشرور والمعاصي ، سنة الله فى عباده وإن تجد لسنة الله تبديلا . والمراد بالظالمين هنا الكفار لأنهم ظلموا أنفسهم بتبديلهم فطرة الله التى فطر الناس عليها وعدم اهتدائهم إلى القول الثابت .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس رضى الله عنهما « أن الكافر إذا حضره الموت تنزل عليه الملائكة عليهم السلام يضربون وجهه ودبره ، فإذا دخل قبره أقعد فقيل له من ربك ؟ لم يرجع إليهم شيئا وأنساه الله تعالى ذكر ذلك ، وإذا قيل له من الرسول الذى بعث إليك ؟ لم يهتد له ولم يرجع إليه شيئا ، فذلك قوله تعالى : (ويضل الله الظالمين) » .

(ويفعل الله ما يشاء) أى وييده تعالى الهداية والإضلال على حسب ما تقتضيه سننه العامة التى سنها فى عباده ، وعلى حسب استعداد النفوس وقبولها لكل منهما ، فلا تنكروا قدرته على اهتداء من كان ضالا ولا ضلال من كان منكم مهتديا ، فإن بيده تصريف خلقه وتقليب قلوبهم يفعل فيهم ما يشاء .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ
الْبُورِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبَسَّ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا
عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا
يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ
يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) .

شرح المفردات

البوار : الهلاك يقال رجل بائر وقوم بُورٌ كما قال : « وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا »
ويصلونها : يقاسون حرها ، والأنداد : واحدهم نداء وهو المثل والشبيه ، والمصير :
المرجع ، والبيع : الفدية ، والخلال : الخالة والصداقة .

المعنى الجملى

بعد أن ضرب عز اسمه الأمثال بيانا لحالى الفريقين ، وذكر ما يلهمه من التوفيق فى الدارين للسعداء ، وما ينال الأشقياء من الخذلان والإضلال ، جزاء ما كسبت أيديهم من تدسيتهم لأنفسهم باجتراحهم للشور والآثام ، وبين أن كل ذلك يفعله على حسب ما يرى من الحكمة والمصلحة .

ذكر هنا الأسباب التى أوصلتهم إلى سوء العاقبة معجبا برسوله مما صنعوا من الأباطيل التى لا تكاد تصدر ممن له حظ من الفكر والنظر ، ولم تكن هذه الطامة خصيصى بهم ، بل كانت فتنة شعواء عمدتهم جميعا : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » .

ذاك أنهم بدلوا النعمة كفرا والشكر جحدا وإنكارا ، وليت البلية كانت واحدة بل أضافوا إليها أخرى فاتخذوا لله الأنداد والشركاء ، ثم ثلثوا بإضلال غيرهم فكانوا دعاة الكفر وأعوان الفتنة :

فلو كان هم واحد لاحتملته ولكنه هم وثنان وثالث

ومن ثم كانت عاقبتهم التى لامرد لها العذاب الأليم فى جهنم وبئس المصير ؛ ثم بين لرسوله أن مثل هؤلاء لا تجدى فيهم العظة ، فذرهم يتمتعوا فى هذه الحياة حتى حين ، ثم لا بد لهم من النصيب المحتوم .

وبعد أن أمر الكافرين على سبيل الوعيد والتهديد بالتمتع بنعيم الدنيا أمر عباده المؤمنين بعدم المغالاة فى التمتع بها والجد فى مجاهدة النفس والهوى ببذل النفس والمال فى كل ما يرفع شأنهم ويقر بهم من ربهم وينيلهم الفوز لديه فى يوم لا تنفع فيه فدية ولا صداقة ولا خلة : « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

أخرج عطاء عن ابن عباس أن هؤلاء هم كفار مكة ، وأخرج الحاكم وابن جرير والطبرانى وغيرهم عن على كرم الله وجهه أنه قال فى هؤلاء المبدلين : هم الأفران من قريش بنو أمية وبنو المغيرة ، فأما بنو المغيرة تقطع الله تعالى دابرهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فتمتعوا إلى حين .

الإيضاح

عدد سبحانه الأسباب التي أوقعت هؤلاء الأشقياء ومن شايعهم في سوء المنقلب
وحصرها في ثلاثة :

(١) (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا) أي ألم تعلم وتعجب من قوم بدلوا
شكر النعمة غمطا لها وجحودا بها كأهل مكة الذين أسكنهم الله حرما آمنا يجبي إليه
ثمرات كل شيء وجعلهم قوام بيته ، وشرتهم بإرسال رسوله محمد صلى الله عليه وسلم
فكفروا بتلك النعمة ، فأصابهم الجذب والقحط سبع سنين دأبا وأسروا يوم بدر
وصُفدوا في السلاسل والأغلال وقتل منهم العدد العديد من صناديدهم ورجالاتهم
من كانوا يضمنون بهم ويحتفظون بمواضعهم * ليوم كريهة وسداد نغر *
(وأحلوا قومهم دار البوار) أي وأحلوا من شايعهم على الكفر دار الهلاك
الذي لاهلاك بعده .

ثم بين هذه الدار فقال :

(جهنم يصلونها و بئس القرار) أي هذه الدار هي جهنم دار العذاب التي يقاسون
حر نارها ، و بئس المستقر هي لمن أراد الله به النكال والوبال .
(٢) (وجعلوا لله أندادا) أي واتخذوا لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي
ليس كمثل شيء ، أندادا وشركاء من الأصنام والأوثان ، أشركوهم به في العبادة كما
قالوا في الحج : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك .
(٣) (ليضلوا عن سبيله) أي لتكون عاقبة أمر الذين شايعوهم على ضلالهم ،
الصد والإعراض عن سبيله القويم ودينه الخفيف ، والوقوع في حماة الكفر والضلال .
ولما حكى الله عنهم هذه الهنات الثلاث ، تبديل النعمة ، واتخاذ الأنداد
والأمثال ، وإضلال قومهم ، أمر نبيه أن يقول لهم على سبيل التهديد والوعيد :
سيروا على ما أنتم عليه فإنه لا فائدة في نصحكم وإرشادكم والعاقبة النار .

(قل تمتعوا) أى تمتعوا بما أنتم فيه سادرون مما سيؤدى بكم إلى مهاوى الهلاك من الكفران وعبادة الأوثان والأصنام والسعى فى إضلال الناس والصد عن سبيله .
ثم بين جزاءهم المحتوم فقال :

(فإن مصيركم إلى النار) أى إن مرجعكم وموتلكم إليها كما قال : « نُمَتَّعَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ » وسمى الله تعالى ذلك تمتعا ، لأنهم تَلذذوا به وأحسوا بغبطة وسرور كما يتلذذون بالمشتهيات من النعم ، وهذا الأسلوب التهكمى يستعمل فى التخاطب كثيرا فترى الطبيب يأمر مريضه بالاحتواء من بعض ما يضره ويؤذيه ، ثم لا يرى منه إلا تماديا فى الإعراض عن أوامره واتباعا لشهواته ، فيقول له : كل ما تريد فإن مصيرك إلى الموت ، وما مراده من ذلك إلا التهديد ليرتدع ويقبل ما يقول . وكما يقال لمن سعى فى مخالفة السلطان : اصنع ما شئت فإن مصيرك إلى السيف .

وبعد أن هدد الكفار على انغماسهم فى اللذات ، أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر خلص عباده بإقامة العبادات البدنية وأداء الفرائض المالية فقال :

(قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم) أى قل لهم : أقيموا الصلاة على وجهها وأدوها كما طلب ربكم فهى عماد الدين وهى التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهى المصباح للمؤمن يستضيء به للقرب من ربه ، وأدوا الزكاة شكرا له على نعمه الجزيلة ، رأفة بعباده الفقراء سدا لخلتهم وإيجادا للتضامن والتعاون بين الإخوة فى الدين : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » .

(سرا وعلانية) أى أنفقوا ذلك فى السر والعلن ، ولكل منهما حال تستحب فيها وقد تقدم القول فى تفصيل ذلك .

(من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال) أى من قبل أن يأتى اليوم الذى لا تنفع فيه فدية ولا تجدى فيه صداقة ، فلا يشفع خليل لخليل ولا يصفح عن عقابه لمخالته لصديقه ، بل هناك العدل والقسط كما قال : « فَأَلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ »

وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا « وقال : « أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلاَةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ » .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) .

شرح المفردات

السماء : السحاب وكل ما علا الإنسان فأظله فهو سماء ، والرزق : كل ما ينتفع به ،
والتسخير : التيسير والإعداد ، والفلك : السفن ، دائبين : أى دائمين فى الحركة
لا يفتران ، يقال دأب فى العمل إذا سار فيه على عادة مطردة كما قال : « تَزْرَعُونَ
سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا » آتاكم : أى أعطاكم ، لا تحصوها : لا تطبقوا حصرها ، والإحصاء
العد بالحصى وكان العرب يعتمدونه فى العد كاعتادنا فيه على الأصابع ، ظلوم : أى
لنفسه بإغفال شكر النعمة ، كفار : شديد الكفران والجحود لها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال الكافرين لنعمه حين بدلوا الشكر بالكفر واتخذوا
لله أندادا فكان جزاؤهم جهنم وبئس المهاد ، ثم أمر المؤمنين بإقامة شعائر الدين من
صلاة وزكاة شكر الربهم على ما أوتوا من النعم وحثا لهم على الجهاد فى سبيل كآلهم
ورقيهم ببذل النفس والنفس وهو المال لتكامل لهم السعادة فى الدارين - شرع يذكر

الأدلة المنصوبة في الآفاق والأنفس التي توجب على عباده المثابرة على شكره ودوام الطاعة له ، ويذكر النعم الجسام التي يتقلبون في أعطافها آناء الليل وأطراف النهار ، ليكون في ذلك حث لهم على التدبر فيما يأتون وفيما يذرون ، وفيه عظيم الدلالة على وجوب شكر الصانع لها ، كما فيه أشد التقرع للكافرين الذين أعرضوا عن النظر والتفكر في تلك النعم فكان هذا داعية كفرها وجحودها ، وغمطها وكنودها .

الإيضاح

(الله الذي خلق السموات والأرض) أي الله الذي خلق لكم السموات والأرض وهما أكبر خلقا منكم وفيهما من المنافع لكم ما تعلمون وما لا تعلمون ، وتقدم تفصيل هذا في مواضع متعددة من كتابه الكريم .

(وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) أي وأنزل من السماء غيثا أحيا به الشجر والزرع فأثمرت لكم رزقا تأكلون منه وتعيشون به .

والآية كقوله : « وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى » أي من ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع .

(وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره) أي وذل لكم السفن بأن أقدركم على صنعها وجعلها طافية على وجه الماء تجرى عليه بأمره تعالى وسخر البحر لحملها ، ليقطع المسافرون بها المسافات الشاسعة من إقليم إلى إقليم جلب ما هناك إلى هنا ونقل ما هنا إلى هناك .

(وسخر لكم الأنهار) تشق الأرض شقا من قطر إلى قطر لانتفاعكم بها حيث تشربون منها وتتخذون جداول تسقون بها زروعكم وجناتكم ، وما أشبه ذلك .

(وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) أي دائبين في الحركة لا يفتران إلى انقضاء عمر الدنيا كما قال : « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » وقال : « يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ »

وَالْمُجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .
 (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان ، فالنهار لسعيكم في أمور معاشكم وما
 تحتاجون إليه في أمور دنياكم ، والليل لتسكنوا فيه كما جاء في الآية الأخرى (وَمِنْ رَحْمَتِهِ
 جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) فالشمس والقمر يتعاقبان ،
 والليل والنهار يتعارضان ، فتارة يأخذ هذا من ذلك فيطول ثم يأخذ الآخر من هذا
 فيقصر كما قال تعالى : « يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ
 الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ » .

(وآتاكم من كل ما سألتموه) أى هيا لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع
 أحوالكم من كل الذى هو حقيق أن تسأله سواء أسألتموه أم لم تسأله ، لأن هذه
 الدنيا قد وضع الله فيها منافع يجهلها الناس وهى معدة لهم ، فلم يسأل الله أحداً
 فى الأمم الماضية أن يعطيهم الطائرات والمغناطيس والكهرباء ، بل خلقها وأعطاها
 للناس بالتدريج ، ولم يزل هناك عجائب ستظهر لمن بعدنا .

(وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) أى لا تطيقوا عدّها أنواعها فضلاً عن
 القيام بشكرها .

وفى صحيح البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم
 لك الحمد غير مكفى ولا مودّع ولا مستغنى عنه ربنا » وأثر عن الشافعى أنه قال :
 الحمد لله الذى لا يؤدّى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره
 بها ، وقال شاعرهم :

لو كل جارحة منى لها لغة تثنى عليك بما أوليت من حسن
 لكان مازاد شكرى إذ شكرت به إليك أباغ فى الإحسان والمن

(إن الإنسان لظالم كفار) أى إن الإنسان الذى بدل نعمة الله كفراً لشاكر
 غير من أنعم عليه ، فهو بذلك واضح للشكر فى غير موضعه - ذلك أن الله هو الذى
 أنعم عليه بما أنعم واستحق إخلاص العبادة له ، فعبده هو غيره وجعل له أندادا ليضل

عن سبيله ، وذلك هو ظلمه ، وهو جحود لنعمه التي أنعم بها عليه لصرفه العبادة إلى غير من أنعم بها عليه وتركه طاعة من أنعم عليه .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّانَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي، وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) .

شرح المفردات

واجنبتني : أي أبعدني ، وأصل التجنب أن يكون الرجل في جانب غير ما عليه غيره ثم استعمل في البعد مطلقا ، وتهوى إليهم : أي تسرع شوقا وحببا ، ويقوم الحساب أي يثبت ويتحقق كما يقال قامت السوق والحرب : أي وجدتا .

المعنى الجملى

بعد أن نصب سبحانه الأدلة على أن لا معبود سواه ، وأنه لا يجوز بحال أن يعبد غيره ، وطلب إلى رسوله أن يعجب من حال قومه إذ بدلوا نعمة الله كفرا وعبدوا الأوثان والأصنام .

ذكر هنا أن الأنبياء جميعا حثوا على ترك عبادة الأصنام؛ فإبراهيم صلوات الله عليه وهو أبوم نعى على قومه عبادتها وطلب إلى الله أن يجنبه وبنيه ذلك ، فإنها كانت سببا في ضلال كثير من الناس ، وشكر الله على أن وهب له على كبره ولديه إسماعيل وإسحاق ، ثم ختم مقاله بأن يغفر له ولوالديه والمؤمنين ذنوبهم عند العرض والحساب .

الإيضاح

(وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا) أى واذا كر تقومك مذكرا لهم بأيام الله خير إبراهيم إذ قال : ربي المحسن إلىّ بإجابة دعائى اجعل مكة بلدا آمنا . وقد أجاب الله تعالى دعاءه فجعله حرما لا يسفك فيه دم ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده . ولا يختلى خلاه كما قال : « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » .

(واجنبني وبنى أن نعبد الأصنام) أى وباعدنى وبنى من أن نعبد الأصنام ، أى ثبتنا على ما نحن عليه من التوحيد وملة الإسلام والبعد عن عبادة الأصنام .

وقد استجيب دعاؤه فى بعض بنيه دون بعض ولا ضير فى ذلك .

(رب إنهن أضللن كثيرا من الناس) أى يارب إن الأصنام أزلن كثيرا من الناس عن طريق الهدى وسبيل الحق حتى عبدوهن وكفروا بك .

(فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم) أى فمن تبعنى على ما أنا عليه من الإيمان بك ، وإخلاص العبادة لك والبعد عن عبادة الأوثان - فإنه مستن بسنتى وجار على طريقي ، ومن خالف أمرى فلم يقبل منى ما دعوته إليه وأشرك بك فإنك قادر على أن تغفر له وترحمه بالتوبة عليه وهدايته إلى الصراط المستقيم .

(ربنا إني أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) أى يارب إني أسكنت بعض ذريتى وهم أولاد إسماعيل بواد غير ذى زرع وهو وادى مكة عند بيتك الذى حرمت التعرض له والتهاون به وجعلت ما حوله حرما لمكانه .

(ربنا ليقيموا الصلاة) أى إنما جعلته محرماً ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ويعمره بذكرك وعبادتك .

(فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم) أى فاجعل قلوب بعض الناس محترقة شوقاً إليهم .

(وارزقهم من الثمرات) أى وارزق ذريتي الذين أسكنتهم هناك من أنواع الثمار بأن تجي إليهم ذلك من شاسع الأقطار ، وقد استجاب الله ذلك كما قال : « أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتٌ كُلُّ شَيْءٍ رِزْقًا مِن لَدُنَّا » قال الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا فى كتابه الإسلام والطب الحديث : دعاء سيدنا إبراهيم يفسر ما قلناه ، وهو أن الدعاء سنة طبيعية لا أكثر ولا أقل ، فالنبي يدعو ربه ليبلغ الناس حج البيت ، فهو يستعين بسنة طبيعية ، وهى إلهام الخالق لنا حج البيت مع أنه يعلم أن الله قادر على أن ينزل عليهم رزقاً من السماء ، ولكن النبي ضرب لنا مثلاً فى طريق استعمال الدعاء وقيمتها ، فالدعاء لا يلقى سنة طبيعية ولا يأتى بالمعجزات ، ولكن الداعى يطلب من الخالق الهداية إلى إحدى السنن الطبيعية وسأضرب لك مثلاً بالنسبة للمريض وعلاجه ، فقد أخبرنى البعض أن من يطلب الطبيب لا يستعين بالدعاء ، والحقيقة غير ذلك ، فالوالد الذى يدعو ربه لشفاء ولده ، لفائدة من دعائه إذا كان ولده قد مات أو إذا كان مرضه مميتاً حتماً ، ولكن قد يكون للمرض طرق علاج خاصة ، أو قد يشفى من نفسه فى ظروف خاصة ، فالدعاء فى هذه الحال معناه إلهام المريض ومن حوله من طبيب وغيره استعمال الطريق المؤدى إلى الشفاء ، والطبيب يحتاج دائماً إلى هذا الإلهام ، وكل من مرة يقف فى مفترق الطرق ولا يدري أية ناحية يسلك ، وكل طريق سنة طبيعية تؤدى إلى نتيجة خاصة ، والدعاء هداية إلى السنة المؤدية إلى الشفاء ، وهكذا يكون الدعاء والتطبيب وكل أعمال الإنسان يكمل بعضها بعضاً وليست متناقضة ، فدعاء سيدنا إبراهيم معناه أن يلهم الناس بواسطة القوانين الطبيعية حج البيت ، وقد يقال ولكننا لا نشعر بإلهام

من عند الله ، وكل أفعالنا نتيجة مباشرة لتفكيرنا ، والشخص الذى يحج لا يشعر بإلهام أو شيء خفى ، ولكن الحقيقة أن أفعال الإنسان قد تكون نتيجة تفكيره واختباراته ويكون سبب حركاتها ظاهرا ؛ وقد تكون أفعاله غير منطبقة على تفكيره واختباراته ولكنه مع ذلك يندفع إلى العمل ، وكثيرا ما نشاهد أشخاصا لا يفكرون فى الحج مدة طويلة ، ولكن فجأة وبدون سبب ظاهر يصممون على الحج وينفذون إراداتهم ، وهذا العمل ظاهره الاختيار طبعاً ولكنهم مدفوعون بقوة سيطرة عليهم أشبه بالفريزة أو الوحي .

وقد أجاب الله إبراهيم إلى دعائه فألهم الناس الحج فى آلاف السنين وإلى ما شاء الله ، لافى مدى حياته فحسب ؛ وفى هذا إظهار لقدرة الخالق وصدق وعده اه .
(لعلهم يشكرون) أى رجاء أن يشكروا تلك النعمة بإقامة الصلاة وأداء واجبات العبودية .

وفى هذا إيماء إلى أن تحصيل منافع الدنيا إنما هو ليستعان بها على أداء العبادات وتحصيل الطاعات ، وفى دعائه عليه السلام مراعاة للأدب والمحافظة على الضراعة وعرض الحاجة واجتلاب الرأفة ، ومن ثم من الله عليه بالقبول وإعطاء المستول ، ولا بدع فى ذلك فهو خليل الرحمن وأبو الأنبياء جميعا .

(ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن) أى أنت تعلم ما نخفى قلوبنا حين سؤالك ما نسأل ، وما نعلن من دعائنا فنجهر به .

(وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء) أى لا ما يخفى على الله شيء يكون فى الأرض أو فى السماء ، لأن ذلك كله ظاهر متجل له ، لأنه مدبره وخالقه فكيف يخفى عليه .

(الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق) أى الحمد لله الذى وهب لى وأنا آيس من الولد لكبر سنى — ولدين إسماعيل وإسحاق .

(إن ربي لسميع الدعاء) أى إن ربي لسميع دعائى الذى أدعوه به من قولى :

« أَجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ » وقد كان إبراهيم سألته الولد بقوله : « رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » فلما استجاب الله دعاءه قال الحمد لله الخ .
(رب اجعلني مقيم الصلاة) أى رب اجعلني مؤديا ما ألزمتني من فريضتك التى فرضتها على .

(ومن ذريتي) أى واجعل أيضا من ذريتي مقيمى الصلاة ، وقد خص الصلاة من بين فرائض الدين لأنها العنوان الذى يمتاز به المؤمن من غيره ، ولما لها من المزية العظمى فى تطهير القلوب بترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن .
(ربنا وتقبل دعاء) أى ربنا تقبل عبادتى كما جاء فى قوله : « وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي » .

وجاء فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ : وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » .

(ربنا اغفر لى ولوالدى والمؤمنين يوم يقوم الحساب) أى اغفر لى ما فرط منى من الذنوب ولأبوى ، وقد روى عن الحسن أن أمه كانت مؤمنة : واستغفاره لأبيه كان عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما قال تعالى : « وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ » الآية ، والمؤمنين بك ممن تبعنى على الدين الذى أنا عليه فأطاعك فى أمرك ونهيك - يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم إن خيرا نغير ، وإن شرا فشر .

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ، وَأَفْنَدْتُهُمْ هَوَاهُ (٤٣) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَا تَبِيتُهُمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ

ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرَجْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُنَجِّبُ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوْلَمَ
تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي
مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
لَكُمْ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَ
مَكَرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ ، إِنَّ
اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ
وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي
الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَّابِلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَتَغَشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ
اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ
وَلِيُنذِرُوا بِهِ ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو
الْأَلْبَابِ (٥٢) .

شرح المفردات

تشخص : ترتفع ، مهطعين : مسرعين إلى الداعي ، مقنعي رؤوسهم : أي رافعيها
مع الإقبال بأبصارهم إلى ما بين أيديهم من غير التفات إلى شيء ، لا يرتد : لا يرجع ،
هواء : خالية من العقل والفهم لفرط الخيرة والدهشة ، ويقال للجبان والأحمق قلبه
هواء : أي لاقوة ولا رأى فيه كما قال حسان يهجو أبا سفيان بن حرب :
ألا أبلغ أبا سفيان عني فانت مجوفٌ نخبٌ هواء

من زوال : أي من انتقال من دار الدنيا إلى دار أخرى للجزاء ، وضربنا لكم
الأمثال : أي بينا لكم أنهم مثلكم في الكفر واستحقاق العذاب ، عزيز : أي

غالب على أمره ينتقم من أعدائه لأوليائه ، وبرزوا : أى خرجوا من قبورهم ، مقرنين أى مشدودين ، فى الأصفاد : أى فى القيود واحدها صَفَدَ ، سرايلهم ، واحدها سربال : وهو التميمص ، والقطران : دهن يتحلب من شجر الأبهل والعَرَنْعَرِ والتوت كالزفت تدهن به الإبل إذا جربت . ويقال له الهناء ، وهو أسود اللون منتن الريح تقول هنأت البعير أهنؤهُ إذا طليته بالهناء ، وتغشى وجوههم النار : أى تعلوها وتحيط بها ، بلاغ : كفاية فى العظة والتذكير .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه أن جزاء من بدلوا نعمة الله كفرا وجعلوا له الأنداد جهنم يصلونها و بثس المهاد ، وطلب إلى عباده المؤمنين مجاهدة النفس والهوى وإقامة فرائض الدين - ذكر هنا تسليية لرسوله وتهديدا للظالمين من أهل مكة أن تأخيرهم وتمتعهم بالخطوط الدنيوية ليس بإهمال للمقوبة ولا انغفلة عن حالهم ، وإنما كان لحكمة اقتضت ذلك وهم مرصدون ليوم شديد الهول له من الأوصاف ما يُبَيِّنُ بعدُ ، وعليك أيها الرسول أن تنذر الناس بقرب حلوله ، وأنهم فى ذلك اليوم سيطلبون المرد إلى الدنيا ليجيبوا دعوة الداعى ، وهيئات هيئات .

صاح هل رَيْتَ أَوْ سَمِعْتَ بَرَاعِ رَدَّ فى الضرع ما قرى فى الحلاب
وقد كان لكم معتبر فى تلك المساكن التى تسكنونها فإنها كانت لقوم مثلكم
كفروا بأنعم الله فأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

ألا إن وعد الله لرسوله لا يخلف وهو ناصرهم وخاذل أعدائه كما قال : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا » وقال : « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » ومحاسبهم فى يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، يوم يخرجون من قبورهم للحساب أمام الواحد القهار ، وترى حال الجرمين يبجل عن الوصف .

وهذا الذى قصصته عليكم تبليغ و إنذار ليتذكروا به ذوو العقول الراجحة وليعلموا
أن الله واحد لا شريك له .

الايضاح

(ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) تقدم أن مثل هذا الخطاب من
وإدى قولهم : (إياك أعنى واسمعى يا جاره) فهو فى صورته للنبي صلى الله عليه وسلم
والمراد أمته ، وفيه تسليمة للمؤمنين وتهديد للظالمين بأن الله محص أعمالهم ومحيط بها ،
وسيجزيهم وصفهم فى الحين الذى سبق فى علمه ، وأن عقابهم لا بدآت ، فتركه بمنزلة
حساباته تعالى غافلا عن أعمالهم ، إذ العلم بذلك مستوجب لعقابهم لا محالة .
ثم أوعدهم حلول يوم يحاسبون فيه على أعمالهم وفيه من الهول ما يحير اللب ،
ويدهش العقل فقال :

(إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) أى إنما يمهلهم ويمتعمهم بكثير من
لذات الحياة ولا يعجل عقوبتهم ، ليوم شديد الهول ترتفع فيه أبصار أهل الموقف
وتبقى مفتوحة لا تطرف من الفرع والاضطراب .
(مهطعين) أى يأتون مسرعين إلى الداعى بالذلة والاستكانة كما يسرع الأسير
والخائف .

(مقنعى رهوسهم) أى رافعيها مع دوام النظر من غير التفات إلى شىء .
(لا يرتد إليهم طرفهم) أى لا يرجع إليهم تحريك أجفانهم كما كانوا يفعلون
فى الدنيا فى كل لحظة ، بل تبقى أعينهم مفتوحة لا تطرف من شدة الفرع والخوف .
(وأفتنتهم هواء) أى إنها مضطربة تبيش فى صدورهم ، تجى وتذهب
ولا تستقر فى مكان حتى تبلغ الخناجر ، لشدة ما يرون من هول موقف الحساب .
ثم ذكر مقاتلهم حين يرون هول الموقف وما فيه من العذاب فقال :

(وأندر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل

قريب نجب دعوتك وتبوع الرسل) أى خوف أيها الرسول القوم الظالمين ، وازجرهم عما هم عليه من الظلم شفقة بهم - هول يوم العذاب وشدته حين يقولون من الهلع والجزع : ربنا أرجعنا إلى الدنيا وأمهلنا أمداً قريباً نجب فيه دعوة الرسل إلى توحيدك وإخلاص العبادة لك بعد أن جحدنا ذلك .

ثم رد عليهم مقاتلهم بقوله :

(أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال) أى وحينئذ يقال لهم على سبيل التوبيخ والتفريع : ألم تحلفوا فى الدنيا إنكم إذا متم لا تخرجون لبعث ولا حساب كما حكى الله عنهم : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَإِيْبَعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ » فذوقوا وبال أمركم .

أخرج البيهقي عن محمد بن كعب القرظى أنه قال : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله تعالى فى أربع منها ، فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً يقولون : « رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ، فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ؟ » فيجيبهم الله عز وجل : « ذَلِكَمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ، وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا ، فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » ثم يقولون : « رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » فيجيبهم جل شأنه : « فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا » الآية ، ثم يقولون : « رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُلَ » فيجيبهم تبارك وتعالى : « أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ » الآية . ثم يقولون : « رَبَّنَا أَخْرَجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » فيجيبهم جل جلاله : « أَوْلَمْ نَعْمَرْكُمْ مِمَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » فيقولون : « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ » فيجيبهم جل وعلا : « أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » فلا يتكلمون بعدها إن هو إلا زفير وشهيق وحينئذ ينقطع رجاؤهم ويقبل بعضهم ينبح فى وجه بعض

وتطبق عليهم جهنم . اللهم إنا نعوذ بك من غضبك ونلوذ بك منكفك من عذابك
ونسألك التوفيق للعمل الصالح في يومنا لغدنا ، والتقرب إليك بما يرضيك قبل أن
يخرج الأمر من يدنا اه .

(وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا
لكم الأمثال) أى وأقمتم فيها واطمأنتم وسرتم سيرة من قبلكم في الظلم والفساد
لم تفكروا فيما سمعتم من أخبار من سكنوها قبلكم ولم تعتبروا بأيام الله فيهم وأنه
أهلكهم بظلمهم ، وأنكم إن سرتم سيرتهم حاق بكم مثل ما حاق بهم ، بعد أن
تبين لكم ما فعلنا بهم من الإهلاك والعقوبة بمعابنة آثارهم وتواتر أخبارهم ، ومثلنا
لكم فيما كنتم مقيمين عليه من الشرك الأشباه والنظائر ، فلم ترعوا ولم تتوبوا
من كفركم .

الآن تسألون التأخير للتوبة حين نزل بكم من العذاب ما نزل ؟ فهيات

هيات ، قد فات ما فات ولن يكون ذلك حتى يلج الجمل في سم الخياط .

ثم بين أن حالهم كحال من سبقهم حذو القذة بالقذة فقال :

(وقد مكروا مكرم) أى وقد مكروا فى إبطال الحق وتقرير الباطل مكرم

الذى استفرغوا فيه كل جهدهم وأحكوا أسبابه حتى لم يبق فى قوس الحق منزع .

ثم ذكر بعدئذ أن الله عليم بكل ما دبروا فقال :

(وعند الله مكرم) أى ومكتوب عند الله مكرم وهو لا محالة مجازيهم عليه ،

ومعذبهم من حيث لا يشعرون .

والخلاصة — عند الله جزاؤهم وما هو أعظم منه ، فرأيهم آفن إذ هم سلكوا

طريقا كان ينبغى البعد عنها بعد أن استبان فسادها .

ثم ذكر أن عاقبة مكرم الخسران والبوار فقال :

(وإن كان مكرم لتزول منه الجبال) أى وما كان مكرم لتزول به آيات الله

وشرائعه ومعجزاته الظاهرة على أيدي الرسل التى هى كالجبال فى الرسوخ والثبات .

والخلاصة — تحقير شأن مكرم وأنه ما كان لتزول منه الآيات والنبوات الثابتة ثبوت الجبال ، فليس بمزِيل شيئاً منها مهما قوى وكان غاية في المتانة والعظم
 (فلا تحسبن الله مخلف وعده رساله) هذا الخطاب لرسوله صلى الله عليه وسلم على نهج سالفه ، والمقصود منه تثبيت أمته على تقمهم بوعده ربهم وثيقنهم بإنجازه بتعذيب الظالمين وأنه منزل سخطه بمن كذبه وجحد نبوته .
 (إن الله عزيز ذو انتقام) أى غالب على أمره لا يمتنع منه من أراد عقوبته ، وقادر على كل من طلبه لا يفوته بالهرب منه ، وهو ذو انتقام ممن كفر برسله وكذبهم وجحد نبوتهم وأشرك به واتخذ معه إلهاً غيره .
 ثم ذكر زمان الانتقام فقال :

(يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات) أى إنه تعالى ذو انتقام يوم تبدل الأرض غير الأرض بأن تتطير هذه الأرض كالهباء وتصير كالدخان المنتشر ثم ترجع أرضاً أخرى بعد ذلك ، وتبدل السماوات بانثثار كواكبها وانفطارها وتكوير شمسها وخسوف قرها .

قال ابن عباس رضى الله عنهما هي تلك الأرض إلا أنها تغيرت في صفاتها ، ففسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوى فلا يرى فيها عوج ولا أمت ، وروى عن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يبديل الله الأرض غير الأرض فيبسطها ويمدها مدة الأديم العكاظي فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً » .

وهذه الآية الكريمة من معجزات القرآن التي أيدها العلم الحديث وانطبقت عليه أشد الانطباق ، فعلماء الفلك الآن يقولون إن الأرض والشمس وسائر الكواكب السيارة كانت فيما مضى كرة نارية حارة طائرة في الفضاء ودارت على محورها ملايين السنين ، ثم تكونت منها الشمس ، وبعد ملايين أخرى فصلت منها السيارات ومنها الأرض ، وبعد مئات الألوف انفصلت عنها الأقمار

ولا شك أن هذه الخال بعينها استعداد كرة أخرى : أي إن الأرض والكواكب والشمس بعد ملايين السنين ستتحل مرة أخرى ويذوب ذلك الموجود كله ويتطاير في الفضاء حقبة من الزمن ، ثم تعاد كرة أخرى وتكون شمس غير هذه الشمس وأرض غير هذه الأرض وسموات غير هذه السموات .

روى مسلم عن عائشة قالت : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات - فإين يكون الناس يومئذ يا رسول الله ؟ فقال : على الصراط » .

وروى عن أبي بن كعب أنه قال في معنى التبديل : إن الأرض تصير نيرانا . وعلى الجملة فقد اتفق العلم الحديث مع الآيات والأحاديث على أن الأرض تصير نارا وأن الناس لا يكونون عليها ، بل هناك ما هو أعجب وهو ما روى عن ابن مسعود وأنس رضي الله عنهما من قولهما : يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة ، ولا بدع في أن تكون أرضا جديدة لم يسكنها أحد ، بل تخلق خلقا جديدا . (وبرزوا لله الواحد القهار) أي وخرجوا من قبورهم لحكم الله والوقوف بين يدي الواحد القهار ، فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار سواه .

وفي هذا من تهويل الخطب ما لا يخفى ، لأنهم إذا وقفوا عند ملك عظيم قهار لا يشاركه سواه في سلطانه كانوا على خطر إذ لا منازع له ولا مغيب سواه .

وبعد أن وصف سبحانه نفسه بكونه قهرا - بين عجز المجرمين وذلتهم فقال : (وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفهاد . سراويلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) وصفهم سبحانه بجملة أمور :

(١) إنه يقرب بعضهم إلى بعض في القيود ويضم كل إلى مشاركته في كفره وعمله كما قال تعالى : « وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ » وقال : « فَكُتِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ » وفي الحديث : « أنت مع من أحببت » .

(٢) إن قمصهم التي يلبسونها من قطران ، والمراد من ذلك أن جلود أهل النار تظلي بالقطران حتى يعود طلاؤها كالسراويل ، ليجتمع عليهم أربعة ألوان من العذاب : لذع القطران وحرقته ، وإسراع اشتعال النار في الجلود ، واللون الأسود الموحش ، وتفن الرياح .

(٣) إن وجوههم تملوها النار وتحيط بها وتسعر أجسامهم المسرولة بالقطران ، وإنما ذكرت الوجوه مع أن ذلك يكون لسائر الجسم - لكونها أعز الأعضاء الظاهرة وأشرفها .

ونظير الآية قوله : « أَمَّنْ يَتَّبِعِ بِيُوجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقوله : « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَمَرٍ » .

(ليجزى الله كل نفس ما كسبت) أى فعل الله ذلك بهم جزاء بما كسبوا في الدنيا من الآثام جزاء وفاقا ، كي يثيب كل نفس بما كسبت من خير أو شر فيجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

(إن الله سريع الحساب) فيحاسب جميع العباد في أسرع من لمح البصر ، ولا يشغله حساب عن حساب ، كما لا يشغله رزق زيد عن رزق عمرو .

(هذا بلاغ للناس) أى هذا القرآن الكريم بلاغ للناس أبلغ الله به إليهم في الحججة عليهم وأعذر إليهم بما أنزل فيه من مواعظه وعبره .
(ولينذروا به) عقاب الله ويحذروا به نعمته .

(وليعلموا أنما هو إله واحد) أى وليعلموا بما احتج به عليهم من الحجج فيه أنما هو إله واحد لا آلهة شتى كما يقول المشركون بالله ، وهو الذى سخر لهم الشمس والقمر والليل والنهار وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لهم .

(وليذكر أولو الألباب) أى وليتذكروا ويتعظوا بما احتج الله به من الحجج

فينزجروا عن أن يجعلوا معه إلها غيره ، وفي تخصيص التذكار بأولى الأبواب إعلاء شأنهم ، وإيماء إلى أنهم هم أهل النظر والاعتبار .

وجملة القول إنه سبحانه جعل لهذا البلاغ ثلاث فوائد هي الحكمة من إنزال الكتب والرسول :

(١) إن الرسل يخوفون الناس عقاب الله وينذرونهم بأسه ليكملهم بمعرفة ربهم وتقواه والعمل على طاعته .

(٢) إن الناس ترتقى قوتهم النظرية إلى منتهى كمالها بتوحيد الخالق والاعتراف بأنه مدبر الكون والمسيطر عليه .

(٣) إنهم يستصلحون قوتهم العملية بتدريجهم بلباس التقوى .

فذلكة لمحتويات السورة

(١) هداية الناس إلى معرفة ربهم الخالق للسموات والأرض .

(٢) ذم الكافرين الذين يستحبون الدنيا ويصدون عن الدين القويم .

(٣) بيان أن الرسل إنما يرسلون بلغات أقوامهم ليسهل عليهم فهم الأوامر والنواهي .

(٤) التذكير بأيام الله ببيان ما حدث للرسول مع أقوامهم ليكون في ذلك تسلية لرسوله ، وما هدد به الأمم رسوله من الإخراج والنفي من الديار .

(٥) وعيد الكافرين على كفرهم وذكر ما يلقونه من العذاب ، وضرب الأمثلة لذلك .

(٦) وعد المؤمنين بجنت تجري من تحتها الأنهار ، وضرب المثل لذلك .

(٧) دعوة إبراهيم ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام التي أضلت كثيرا من الناس ، ثم شكره على ما وهبه من الأولاد على كبر سنه ، ثم طلبه المغفرة منه له ولوالديه وللمؤمنين يوم العرض والحساب .

(٨) بيان أن تأخير العذاب عن المجرمين ليوم معلوم ، إنما كان لحكمة اقتضت ذلك ، وحينئذ يرون من الذلة والصغار وسوء العذاب ما يجعل عنه الوصف .
 تم تفسير هذا الجزء بجلوان من أرباض القاهرة في صبيحة يوم الأحد لثلاثين من شهر ربيع الثاني من سنة ثلاث وستين وثلثمائة وألف من الهجرة النبوية .
 والحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه الكرام .

فهرست

أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

المبحث	الصفحة
تولية يوسف رئيسا لحكومة مصر .	٤
اللغة التي كلم بها يوسف ملك مصر .	٥
الجهل وسوء تدبير الثروة أضاعا كثيرا من الممالك الشرقية في القرون الأخيرة .	٦
جىء بيوسف مملوكا فأصبح مالكا ذا نفوذ .	٧
لما ولى يوسف الوزارة ساس البلاد سياسة رشيدة وقت البلاد شر المجاعات .	٩
في سفر التكوين أنه استنبأهم عن أنفسهم متنكرا لهم .	١١
طلب من إخوته إحضار أخيه الشقيق .	١٢
ممانعة الأب في إرسال الأخ ثم الاذن لهم بذلك .	١٣
أخذه العهد والميثاق عليهم .	١٥
مقابلتهم ليوسف بعد إحضار الأخ وحسن معاملته لهم .	١٩
سرقة الصواع .	٢٠
قضت الحكمة الإلهية عقاب إخوة يوسف بما فرطوا في يوسف .	٢١
أصح ما قيل في سرقة يوسف .	٢٣
تشاورهم فيما يفعلون عند رجوعهم إلى أبيهم .	٢٦
لم يصدقهم يعقوب في المعاذير التي أبدوها في عدم رجوع الأخ معهم .	٢٧
سبب ما أصاب يعقوب من ايضاض عينيه .	٢٨
نصيحة أولاد يعقوب له على حزنه الممض .	٢٩
كان لدى يعقوب إلهام بأن يوسف لا يزال حيا .	٣٠
لم يعرف يوسف إخوته بنفسه بادىء بدء ؟ .	٣٤

البحث	الصفحة
تمثل النبي صلى الله عليه وسلم حين فتح مكة بقول يوسف لا تثريب عليكم اليوم .	٣٥
كيف شم يعقوب رائحة يوسف؟	٣٩
تأويل رؤيا يوسف من قبل .	٤١
خرّ يعقوب وأولاده سجدا ليوسف .	٤٣
طلب يوسف من ربه حسن الخاتمة .	٤٥
في ذكر قصص يوسف إثبات لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم .	٤٦
التوسل إلى الله بصالح عباده .	٥٠
الحكمة في إبهام وقت الساعة .	٥١
الدين الإسلامي دين حجة وبرهان لادين تقليد وتسليم .	٥٢
أرسل الله من البشر رسلا من قبل محمد فكيف يعجبون من رسالته عليه السلام؟	٥٣
نصر الله رسله ينزل حين ضيق الحال وانتظار الفرج .	٥٥
قصص يوسف عبرة لذوى البصائر .	٥٦
اهتدى المسلمون بهدى القرآن فامتسكوا أ كثر المعمور .	٦١
الأدلة على وجود الله ووحدانيته وقدرته .	٦٣
تفكروا في آلاء الله ولا تتفكروا في الله .	٦٧
إنكار المشركين للبعث .	٧٠
طلبهم من النبي صلى الله عليه وسلم آية غير القرآن .	٧٢
الرسول نذير لا جبار مسيطر .	٧٣
أقصى المدة التي يبقى فيها الجنين حيا في الرحم .	٧٥
في قوله عالم الغيب والشهادة دليل على وجود عوالم لا ترى بالعين المجردة كالجراثيم التي أثبتها العلم حديثا .	٧٥

الصفحة	المبحث
٧٧	المرء بين أربعة أملاك بالليل وأربعة بالنهار .
٧٧	ليس أمر الحفظة يبعيد من العقل بعد كشف العلم أن كثيرا من الأعمال العامة يمكن إحصاؤها .
٧٨	الظلم مؤذن بخراب العمران .
٨١	وفد عامر بن الطفيل وأزبد بن ربيعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان من أمرهما .
٨٢	كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد تغير لونه حتى يعرف ذلك في وجهه .
٨٥	تأنيب المشركين على اتخاذ الشركاء .
٨٦	من عنده مسكة من عقل لا يعبد ما لا يضر ولا ينفع .
٨٨	مثل الحق والباطل .
٩٥	كان رسول الله يأتي المقابر فيقول: سلام عليكم بما صبرتم فتم عقبي الدار .
٩٦	جزاء ناقضى العهد والميثاق .
٩٨	لا تعلق لبسطة الرزق بإيمان ولا كفر .
٩٩	طلبهم من الرسول آية غير القرآن .
١٠٢	ليس محمد ببدع من الرسل ولا قومه بأول المكذبين .
١٠٥	ليس ما اقترحوه من الآيات مما تقتضيه الحكمة .
١٠٦	اصبر أيها الرسول كما صبر أولو العزم من الرسل .
١٠٨	ليس هناك من دليل عقلي ولا نقلى على وجود الشركاء .
١١٢	مهام الرسالة .
١١٣	إنكار اليهود على النبي صلى الله عليه وسلم كثرة الزوجات مع ذكر الحكمة في ذلك .
١١٤	لاتأتى المعجزات إلا على مقتضى الحكمة .
١١٤	لكل كتاب أجل لا يعدوه .

الصفحة	المبحث
١١٥	مثل الدنيا مثل مصنع رتبت أعماله على نهج معين لا تغيير فيه ولا تبديل .
١١٧	على الرسول البلاغ وعلى الله الحساب .
١١٨	لامعقب لحكم الله .
١٢٤	الله هو خالق الأكوان والمنفرد بالعظمة والسلطان .
١٢٩	الإنسان يجب أن يكون في هذه الحياة بين صبر وشكر .
١٣٣	كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه .
١٤٣	ما أعد الله لعباده السعداء من الثواب .
١٤٥	محاورة بين الشيطان وأتباعه .
١٤٦	مآل المتقين جنات النعيم .
١٤٧	مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة .
١٤٩	فائدة ضرب الأمثال .
١٥٠	سؤال الملوك في القبر .
١٥٤	الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .
١٥٦	نعم الله على عباده .
١٥٧	وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها .
١٥٨	دعاء إبراهيم يجعل مكة بلدا آمنا .
١٦٠	الدعاء سنة طبيعية .
١٦١	إجابة دعاء إبراهيم .
١٦٤	سيطلب المجرمون العودة إلى الدنيا وهيئات هيئات .
١٦٥	وصف حال المجرمين في ذلك اليوم .
١٦٧	حال مشركي قومك كحال من سبقهم .
١٦٨	يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات .
١٦٩	سيكون المجرمون مقرنين في الأصفاد والسلاسل .

تفسير المرآة الخفية

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دارالعلوم سابقاً

الجزء الرابع عشر

كتاب في التاريخ

مجلد

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

دار النشر

دار النشر

الجزء الرابع عشر

سورة الحجر

هي مكية وآياتها تسع وتسعون .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنها افتتحت بمثل ما افتتحت به سابقتها من وصف الكتاب المبين .

(٢) إنها شرحت أحوال الكفار يوم القيامة وتمنيهم أن لو كانوا مسلمين كما

كانت السالفة كذلك .

(٣) إن في كل منهما وصف السموات والأرض .

(٤) إن في كل منهما قصصا مفصلا عن إبراهيم عليه السلام .

(٥) إن في كل منهما تسليية لرسوله صلى الله عليه وسلم بذكر ما لاقاه الرسل

السالفون من أممهم وكانت العاقبة للمتقين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (١) رَبَّ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا

لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرَهُمْ يَا كُلُّوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ فَسَوْفَ

يَعْلَمُونَ (٣) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (٤)
مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) .

شرح المفردات

ربما (بضم الراء وتخفيف الباء وتشديدها) كلمة تدل على أن ما بعدها قليل الحصول ، فإذا قيل ربما زارنا فلان دل على أن حصول الزيارة منه قليل ، يليهم : أى يشغلهم من قولهم : لهيتُ عن الشيء الهى لهيا إذا عرضت عنه ، ماتسبق : أى ما يتقدم زمان أجلها .

الإيضاح

(الر) تقدم منا القول فى بيان معانى هذه الحروف ومبانيها ، فذكرنا أنها حروف تنبيه بمنزلة ألا ، ويا ، وينطق بأسمائها ساكنة فيقال : (ألف . لام . را) .
(تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) أى تلك السورة من آيات ذلك الكتاب الكامل من بين سائر الكتب المنزلة من عند الله ، المبين للرشد من الغى ، والمظهر فى تضاعيفه للحكم والأحكام .

(ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) هذا إخبار من الله عن الكفار بأنهم سيندمون فى الآخرة على ما كانوا عليه من الكفر ، ويتمنون أن لو كانوا فى الدنيا مسلمين . وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا اجتمع أهل النار فى النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا بلى ، قالوا فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا فى النار ؟ قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها ، فسمع الله ما قالوا ، فأمر بمن كان فى النار من أهل القبلة فأخرجوا ، فلما رأى ذلك من بقى من الكفار قالوا يا ليتنا كنا مسلمين

فنخرج كما خرجوا ، قال ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم - الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ، ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . ونحو الآية قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْدِنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » . قال الزجاج : إن الكافر كلما رأى حالا من أحوال العذاب ورأى حالا من أحوال المسلم ود أن لو كان مسلما .

وقصارى ذلك - قد يتمنى الذين كفروا لو كانوا مسلمين حينما يعاينون العذاب وقت الموت : « وَالْمَلَأْنِيكَ بِأَسْطُوعِ أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ » وفي الموقف حينما يرون هول العذاب وقد انصرف المسلمون إلى الجنة وسيقوا هم إلى النار والمسلمون المذنبون عذبوا بذنوبهم ثم خرجوا منها وبقى الكافرون في جهنم .

وقد جاء التقليل على سنة العرب في نحو قولهم : ربما تندم على ما فعلت ، وإنا نندم على ما فعلت ، لا يقصدون التقليل في نحو ذلك ، وإنما يريدون أن الندم لو كان مشكوكا فيه أو لو كان قليلا لحق عليك ألا تفعل هذا الفعل ، إذ العاقل يتحرز من التعرض للغم المظنون كما يتعرض للغم المتيقن ، ويتعد عن القليل منه كما يتعد عن الكثير .

(ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل) أى دعهم أيها الرسول في غفلاتهم كلون كما تأكل الأنعام ويتمتعون بلذات الدنيا وشهواتها ، وتلهيهم الآمال عن الآجال ، فيقول الرجل منهم غدا سأنال ثروة عظيمة وأحظى بما أشتهى ويعلوز كرى ويكثر ولدى ، وأبنى القصور ، وأكثر الدور ، وأقهر الأعداء ، وأفاخر الأنداد ، ونحو ذلك مما يعرق فيه من بحار الأمانى والآمال وطلب المحال .

ثم علل الأمر بتركهم بقوله :

(فسوف يعلمون) سوء صنيعهم إذا هم عاينوا سوء جزائهم ووخامة عاقبتهم . وفي هذا وعيد بعد تهديد وإلزام لهم بالحجة ومبالغة في الإنذار ، وقد

جاء في أمثالهم (أعذر من أنذر) وإيماء إلى أن التلذذ والتنعم وعدم الاستعداد
للآخرة والتأهب لها - ليس من أخلاق المؤمنين .

أخرج أحمد والطبراني والبيهقي عن عمرو بن شعيب مرفوعاً قال : « صلاح أول
هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك آخرها بالبخل والأمل » . وروى عن الحسن أنه
قال : ما أطال عبد الأمل ، إلا أساء العمل ، وروى عن علي أنه قال : إنما أخشى
عليكم اثنتين ، طول الأمل واتباع الهوى ، فإن طول الأمل ينسى الآخرة ، واتباع
الهوى يصد عن الحق .

وبعد أن هدد من كذب الرسول بقوله: ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل،
ذكر سر تأخير عذابهم إلى يوم القيامة وعدم التعجيل به كما فعل بكثير من الأمم
السالفة فقال :

(وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم) أى وما أهلكنا قرية من القرى
بالخسف بها وبأهلها كما فعل ببعضها ، أو بإخلائها من أهلها بعد إهلاكهم كما فعل
بأخرى ، إلا ولها أجل مقدر مكتوب فى اللوح المحفوظ لا ينسى ولا يغفل عنه ولا يتقدم
عن وقته ولا يتأخر .

وخلاصة ذلك - إننا لو شئنا لعجلنا لهم العذاب فصاروا كأمس الدابر، ولكن
لكل أجل كتاب ، وشأننا الإمهال لا الإهمال .

وبعد أن بين سبحانه أن الأمم المهلكة كان لكل منهم وقت معين لهلاكهم
على حسب ما هو مكتوب فى اللوح - بين أن كل أمة منهم ومن غيرهم لها أجل
لا يمكن التقدم عليه ولا التأخر عنه فقال :

(ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) أى لا يجيء هلاك أمة قبل مجيء
أجلها ، ولا يتأخر الهلاك متى حل الأجل .

وفى هذا تنبيه لأهل مكة وإرشادهم إلى الإفلاق عما هم عليه من الشرك والإلحاد

الذي يستحقون به الهلاك ، وزجر لهم بأن هذا الإمهال لا ينبغي أن يغتروا به ،
فالهلاك مدخر لهم لا يتقدم ولا يتأخر .

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا
بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا
بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ
حَافِظُونَ (٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِمْ
مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ
الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا
عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ
أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥) .

شرح المفردات

الذكر : هو القرآن ، و (لوما) مثل (هلا) كلمة تفيد الحث والحض على فعل
ما يقع بعدها ، منظرين : أى مؤخرين ، والشيع : واحدهم شيعة وهى الجماعة المتفقة
على مبدأ واحد فى الدين والمعتقدات ، أو فى المذاهب والآراء . نسلكه : أى ندخله
يقال سلكت الخيط فى الإبرة : أى أدخلته فيها ، يعرجون : يصعدون ، سكرت :
سدت ومنعت من الإبصار ، مسحورون : أى سحرنا محمد بظهور ما أبداه من الآيات .

المعنى الجملى

بعد أن هدد سبحانه الكافرين وبالغ فى ذلك أيمًا مبالغة - شرع يذكر بعض
مقالاتهم فى محمد صلى الله عليه وسلم المتضمنة للكفر بما جاء به ، ثم يذكر ما هم فيه من

جحود وعناد بلغا مدى تفكر معه المشاهدات ، ويدعى معه السحر والخداع حين رؤية المبصرات .

ثم ذكر سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم تسليمة له أن ما صدر منهم من السفه ليس بدعا ، فهذا دأب كل مججوج ، فكثير من الأمم السالفة فعلت مثل هذا مع أنبيائها ، فلك أسوة بهم في الصبر على سفاهتهم وجهلهم .

قال مقاتل : القائلون هذه المقالة هم عبد الله بن أمية والنضر بن الحرث ونوفل ابن خويلد والوليد بن المغيرة من صناديد قريش .

الإيضاح

(وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون) أي قالوا استهزاء وتهكما : أيها الرجل الذي زعم أنه نزل عليه القرآن : إن ما تقوله أملاه عليك الجنون ، وليس له معنى معقول ، وهو مخالف لآرائنا ، بعيد من معتقداتنا ، فكيف نقبل ما لا تقبله العقول ، ولا ترضاه الفحول من رجالنا الفخام ، وعشائرننا العظام ؟ .

(لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين) أي إن كان ما تدعيه حقا وقد أيدك الله وأرسلك ، فما منعك أن تسأله أن ينزل معك ملائكة من السماء يشهدون بصدق نبوتك .

وخلاصة ذلك : إن من يخالف آراءنا إما مجنون وإما له سلطان عظيم من ربه .
وحيث يقيه بالملائكة ليشهدوا بصدقه .

ونحو الآية قوله : « وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ » وقول فرعون في شأن موسى : « فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ أُسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ » وقوله : « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا » .

وقد أجاب الله عن اقتراحهم فقال :

(ما نزل الملائكة إلا بالحق) أى ما نزل الملائكة إلا بالحكمة والفائدة ، وليس في نزول الملائكة من السماء وأنتم تشاهدونهم - فائدة لكم ، لأنكم إذا رأيتموهم قلتم إنهم بشر لأنكم لا تطيقون رؤيتهم إلا وهم على الصورة البشرية إذ هم من عالم غير عالمكم ، وإذا قالوا نحن ملائكة كذبتموهم لأنهم على صورتكم فيحصل اللبس ولا تنتفعون بهم وإلى هذا أشار في سورة الأنعام بقوله : **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ جَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ** .

(وما كانوا إذا منظرين) أى إن في نزول الملائكة ضررا لهم لا محالة ، لأننا نهلكهم ولا نؤخرهم ، إذ قد جرت عادتنا في الأمم قبلهم أنهم إذا اقترحوا آية وأنزلناها عليهم ولم يؤمنوا بها - يكون العذاب في إثرها ، فلو أننا أنزلناهم ولم يؤمنوا بهم لحق عليهم عذاب الاستئصال ولم يُنظَرُوا ساعة من نهار .

والخلاصة - إنه ليس في إنزال الملائكة إليهم فائدة لهم بل فيه اللبس عليهم ، إلى ما فيه من الضرر المحقق لهم وهو الهلاك ، وحينئذ يفوت ما قضينا به من تأخيرهم وإخراج من أردنا لإيمانه من أصلابهم .

ثم أجاب سبحانه عن قولهم الأول وردَّ إنكارهم تنزيل الذكر واستهزاءهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وسلاه على ذلك بقوله :

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) أى إنما أنتم قوم ضالون مستهزون بنبينا ، وليس استهزاؤكم بضائه ، لأننا نحن نزلنا القرآن ونحن حافظوه ، فقولوا إنه مجنون ، ونحن نقول : إنا نحفظ الكتاب الذى أنزلناه عليه من الزيادة والنقص والتغيير والتبديل والتحريف والمعارضة والإفساد والإبطال .

وسياتى فى مستأنف الأزمان من يتولون حفظه والذب عنه ويدعون الناس إليه ويستخرجون لهم ما فيه من عبر وحكم وآداب وعلوم تناسب ما تستخرجه

العقول من الخترعات ، وتستنبطه الأفكار من نظريات وآراء فيستنير بها العارفون ، ويهتدى بهديها المفكرون ، فلا تبتئس أيها الرسول بما يقولون وما يفعلون .

ثم سأل رسول الله على ما أصابه من سفه قومه وادعائهم جنونه - بأن هذا دأب الأمم المكذبة لرسولها من قبل ، فلقد أصابهم مثل ما أصابك من قومك ، فاستهزءوا بهم كما استهزأ قومك بك ، فنصرنا رسلنا وكتبنا أعداءهم وسيكون أمرهم وأمرهم كذلك ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين ، وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) أى إننا أرسلنا قبلك رسلاً لأمم قد مضت ، وما أتى أمة رسول إلا كذبوه واستهزءوا به ، لما جرت به العادة من أن فعل الطاعات وترك اللذات - مستنقل على النفوس - إلى أنهم يدعونهم إلى ترك ما ألفوا من المعتقدات الخبيثة ، وترك عبادة الأوثان الباطلة ، وذلك مما يشق على النفوس ، إلى أن الرسول قد يكون فقيراً لا أعوان له ولا أنصار ، ولا مال ولا جاه ، فلا يقبعه الرؤساء وذوو البأس والقوة ، بل يعملون على مشاكسته ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، إلى أن الله يخذلهم ويلقى دواعى الكفر في قلوبهم على حسب السنن التى سننها لعباده كما يرشد إلى ذلك قوله :
(كذلك نسلكه في قلوب المجرمين ، لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين)

أى كذلك نلقى القرآن في قلوب المجرمين مستهزأً به غير مقبول لديهم ، لأنه ليس في نفوسهم استعداد لتلقى الحق ، ولا تضىء نفوسهم بمصابيح هدايته الربانية ، كما كانت حال الأمم الماضية حين أقيت عليهم الكتب المنزلة من الملأ الأعلى .

وقد جرت سنة الله في الأولين ممن بعث إليهم الرسل أن يخذلهم ويدخل الكفر والاستهزاء في قلوبهم ، ثم يهلكهم وتكون العاقبة للمتقين والنصر حليف رسله والمؤمنين ، فلك أسوة بالرسول قبلك مع أممهم المكذبة ، ولست بأوحدى في ذلك .

وإخلاصة - هكذا نفعل باللاحقين كما فعلنا بالسابقين ، ويستهزئ بك

المجرمون ولا يؤمنون بكتابتنا ، وسيحل بهم مثل ما حل بالأولين وننصرك عليهم بعد حين كما قال : « وَ لَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » .

ثم بين سبحانه عظيم عنادهم ومكابرتهم للحق فقال :

(ولو ففتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) أى ولو ففتحنا على هؤلاء المعاندين بابا من السماء فظلوا فى ذلك الباب يصعدون فيرون من فيها من الملائكة وما فيها من العجائب - لقالوا لفرط عنادهم وغلوهم فى المكابرة : إنما سدت أبصارنا ، فما نراه تخيل لاحقيقة له ، وقد سحرنا محمد بما يظهر على يديه من الآيات .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَ لَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ » .

وخلاصة هذا - هبنا فتحنا عليهم بابا من السماء وقلنا لهم اعرجوا فيه ، أفلا يقولون فى أنفسهم ويقول بعضهم لبعض : إنما سحرنا محمد كما يفعل علماء السيمياء إذ يفعلون أفعالا تخيل للإنسان أنه طائر وليس بطائر ، وكما يفعل علماء التنويم المغناطيسى فى هذه الأيام ، فالمنوِّم يقول المنوِّم . أنت ملك . أنت امرأة . أنت كذا فيصدق كل ما قيل له . وهكذا فى النوع البشرى أقوام لهم قدرة على استهواء العقول فيخيلون للإنسان ما لاحقيقة له ، وقد أصبح هذا العلم فنا يدرس فى معاهد أوروبا وأمريكا . فكيف يكون مثل هذا دليلا أو موجبا للتصديق ؟ كلا فإن أمثال ذلك لايقوم بهداية نوع الإنسان .

وبعد فكيف يقترح هؤلاء عليك الآيات ، ويفرمون بما يخرق العادات ، من ملائكة يرونها ، وعجائب ينظرونها ، وهل تغنى تلك الآيات ، وهل النوع الإنسانى يكفيه ما يخالف العادات ؟ فما يشبهه على الناس بأفعال السحرة والمشعوذين يوقعهم

في اللبس ، فكم من نبي أيدناه بمثل تلك الآيات ولم يؤمن به من قومه إلا قليل منهم وما الآيات إلا ما تفهمه العقول ، وتمحصه القرائح درسا وتحليلا ، وبحثا واستنباطا .

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠)

شرح المفردات

البروج : واحدها برج وهي النجوم العظام ومنها نجوم البروج الاثني عشر المعروفة في علم الفلك ، للناظرين : أي المفكرين المستدلين بذلك على قدرة مقدرها ، وحكمة مدبرها ، وحفظناها : أي منعناها ، والرجيم : أي المرجوم المرمى بالرجام : أي الحجارة والمراد بالرجيم هنا المرمى بالنجوم ، واسترق من السرقة ، وهي أخذ الشيء خفية ، شبه به خطفتهم اليسيرة من الملاء الأعلى ، والسمع : المراد به ما يسمع ، والشهاب : الشعلة الساطعة من النار الموقدة ومن السحاب في الجو ، وتبعت القوم تبعاً وتباعة بالفتح : أي مشيت خلفهم أو مروا بك فمضيت معهم ، وأتبعت القوم إذا كانوا قد سبقوك فلحقهم ، مددناها : أي بسطناها ، والرواسي : واحدها راسية وهي الجبال الثوابت ، موزون : أي مقدر بمقدار معين تقتضيه الحكمة والمصلحة .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر شديد جحودهم وأنهم مهما أوتوا من الآيات لم يفهم ذلك شيئاً حتى بلغ من أمرهم أن ينكروا المشاهدات ويدعوا الخداع حين رؤية المبصرات

- أعقب هذا ببيان أنهم قد كانوا فى غنى عن كل هذا ، فإن فى السماء وبروجها العالية ، وشموسها الساطعة ، وأقمارها النيرة ، وسياراتها الدائرة ، وثوابتها الباسقة ، عبرة لمن اعتبر ، وحجة لمن اذكر ، فهلاً نظروا إلى الكواكب وحسابها ونظامها ومداراتها ، وكيف حدثت بها الفصول والسنون ، وكيف كان ذلك بمقادير محدودة وأوقات معلومة ؟ لا تغيير فيها ولا تبادل ، فبأمثال هذا يكون اليقين ، وبالتدبر فيه تقوى دعائم الدين ، ويشتد أزر سيد المرسلين .

وهلا رأوا الأرض كيف مدت ، وثبتت جبالها ، وأنبتت نباتها ، بمقادير معلومة موزونة فى عناصرها وأوراقها ، وأزهارها وثمارها ، وجعل فيها معاش للانسان والحيوان ، أفلا يعتبرون بكل هذا ؟ « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ » .

الإيضاح

(ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين) أى ولقد خلقنا فى السماء نجوماً كباراً ثوابت وسيارات ، وجعلناها وكواكبها بهجة لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من عجائبها الظاهرة ، وآياتها الباهرة التى يحار الفكر فى دقائق صنعها ، وقدرة مبدعها .

ونحو الآية قوله تعالى : « إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ » .

(وحفظناها من كل شيطان رجيم) أى ومنعنا كل شيطان رجيم من القرب منها كما قال فى آية أخرى : « وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ » أى وحفظناها من كل شيطان خارج من الطاعة برميهِ بالشهب كما تحفظ المنازل من متجسس يخشى منه الفساد .

(إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) أى لكن من أراد اختطاف شىء من عالم الغيب مما يتحدث به الملائكة فى الملأ الأعلى - تبعه كوكب مشتعل

نارا ظاهرا للبصرين فأحرقه ، ولم يصل إلى معرفة شيء مما يدبر في ملكوت السموات ، وبهذا المعنى قوله : « لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ »

وجاء بمعنى الآية قوله في سورة الجن حكاية عنهم : « وَأَنَا كُنَّا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَمِتَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ، وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا » وقوله في سورة الملك : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِنَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ » .

وبعدُ فالكتاب الكريم أخبر بأن الشياطين أرادوا أن يختطفوا شيئاً من أخبار الغيب مما لدى الملائكة الكرام ، فسلطت عليهم الشهب المشتعلة والنجوم المتقدة فأحرقتهم ، ولا نبحت عن معرفة كنه ذلك ، ولا نعلم في النظر لنذكر حقيقته ، لأننا لم نؤت من الوسائل والأسباب ما يمكننا من معرفة ذلك معرفة صحيحة ، نجعلنا نؤمن به إيماناً مبنياً على البرهان بوسائله المعروفة ، وليس لنا إلا التصديق بما جاء في الكتاب وأوحى به إلى النبي الكريم ، والبحث وراء ذلك لا يقفنا على علم صحيح بل على حدس وتخمين لاحاجة للمسلم به للاطمئنان في دينه ، فالأحرى به أن يعرض عنه لئلا يحميد عن القصد ويضل عن سواء السبيل .

وبعد أن ذكر الدلائل السماوية على وحدانيته أتبعها بذكر الدلائل الأرضية فقال : (والأرض مددناها) أي وقد بسطنا الأرض وجعلناها ممتدة الطول والعرض والعمق ، ليتمكن الانتفاع بها على الوجه الأكمل ، وهذا فيما يظهر في مرأى العين ، فلا يدل على نفى الكروية عن الأرض ، لأن الكرة العظيمة ترى كالسطح المستوي (وألقينا فيها رواسي) أي وجعلنا فيها جبالا ثوابت خوف أن تضطرب بسكانها كما قال في آية أخرى : « وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ » وقد سبق تفصيل ذلك في سورة الرعد .

(وأنبثنا فيها من كل شيء موزون) أى إن كل نبات قد وزنت عناصره وقدرت تقديرا ، فترى العنصر الواحد يختلف فى نبات عنه فى آخر بوساطة امتصاص الغذاء من العروق الضاربة فى الأرض ومنها يرفع إلى الساق والأغصان والأوراق والأزهار ، والذى حدد هذا الاختلاف ، تلك الفتحات الشعرية التى فى ظواهر الجذور ، وثقوب كل نبات لاتسع إلا المقدار اللازم لها من العناصر وتطرد ما سواه ، لأنه لا يلائمها ، إذ هى قد كونت على هيئة خاصة بحيث لا تتبلع إلا تلك المقادير بعينها .

وهناك عنصر البوتاس تره يدخل فى حب الذرة الذى نأكله بمقدار ٠.٣٢٪ وفى القصب ٠.٣٤٣٪ وفى البرسيم بمقدار ٠.٣٤٦٪ وفى البطاطس بمقدار ٠.٦١٥٪ وبهذا التفاوت صلح القصب لأن يكون سكرا ، والبرسيم لأن يكون قوتا للبهائم ، والذرة والبطاطس لأن تكونا قوتا للانسان .

وحسبك دليلا على ذلك ما تجده فى سورة الرحمن من قوله : « وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ » كما نظم سبحانه الكواكب فى سيرها وفى أوضاعها وفى حركاتها وفى أضوائها ، ووزن عناصرها بمقادير يتناسب بعضها مع بعض . فلك الحمد ربنا جعلت كل شيء فى الحياة موزونا بقدر معلوم لتتدبر نظم الحياة فنعرف قدرة منشىء العالم وأنه لم يخلق شيئا فيه جزافا ، بل قدره بقدر معلوم ، ليكون فيه دليل على قدرة المبدع والمدبر له حال وجوده .

(وجعلنا لكم فيه معاش) أى إن أنواع معاشكم من غذاء وماء ولباس ودواء قد سخرناها لكم فى الأرض ، فلا السمك فى البحر غذيتموه ، ولا الطير فى الجوّ ربيتموه ، ولا غيرها من أشجار الجبال والغابات وحيوان البر والبحر خلقتموه . (ومن لستم له برازقين) أى وجعلنا لكم فيها من لستم رازقيه من العيال والماليك والخدم والدواب ، وفى هذا إيحاء إلى أن الله يرزقهم وإياهم لا أنهم يرزقون منهم ، وفى ذلك عظيم المنّة وجزيل الفضل والعطاء وواسع الرحمة لعباده .

وخلاصة هذا — إنه سبحانه يسر لكم أسباب المكاسب ، وصنوف المعاش
وسخر لكم الدواب التي تركبونها ، والأنعام التي تأكلونها ، والعبيد التي
تستخدمونها ، فكل أولئك رزقهم على خالقهم لاعليكم ، فلكم منها المنفعة ورزقها
على الله تعالى .

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزَلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١)
وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَا كَوْمَهُ وَمَا أَنْتُمْ
لَهُ بِمُخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَخْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ
عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ
يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) .

شرح المفردات

الخزائن : واحدها خزانة وهي المكان الذي يحفظ فيه نفائس الأموال ،
واللواقح : واحدها لاقح أي ذات لقاح وحمل ، وأسقينا كومه : أي جعلناه لكم
سقيا لمزارعكم ومواشيكم ، تقول العرب إذا سقت الرجل ماء أولبنا سقيته وإذا أعدوا
له ماء لشرب أرضه أو ماشيته قالوا أسقيته أو أسقيت أرضه أو ماشيته ، والمستقدمين :
من ماتوا ، والمستأخرين : الأحياء الذين لم يموتوا بعد .

المعنى الجملي

بين سبحانه فيما سلف أنه أنزل النبات وجعل لنا فيه معاش في هذه الحياة
وهنا أتبعه بذكر ما هو كالسبب في ذلك ، وهو أنه تعالى مالك كل شيء ، وأن كل
شيء سهل عليه ، يسير لديه ، فإن عنده خزائن الأشياء من النبات والمعادن النفيسة
وال مخلوقات البديعة مما لا حصر له .

الإيضاح

(وإن من شيء إلا عندنا خزائنه) أى ما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاد الإِنعام به متى أردنا دون أن يكون تأخير ولا إبطاء ، فخرائن ملكنا مليئة بما تحبون من النفائس ، غير محجوبة عن الباحث الساعى إلى كسبها من وجوهها على حسب السنن التى وضعناها ، والنظم التى قدرناها ، ولا يمنعها مانع ، ولا يستطيع دفعها دافع ، فهى تحت قبضة الطالب لها إذا أحسن المسعى ، وأحكم الطلب كما قال : « فَاْمَشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » .
 (وما نزله إلا بقدر معلوم) أى وما نعطى ذلك إلا بقسط محدود نعلم أن فيه الكفاية لدى الحاجة ، وفيه الرحمة بالعباد كما قال : « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » .

وقد جرت سنة القرآن بأن يسمى ما يصل إلى العباد بفضل الله وجوده إنزالاً كما قال : « وَأُنزِلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ » وقال : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ » .
 ثم فصل بعض ما فى خزائنه من النعم فقال :

(وأرسلنا الرياح لواقح) أى إن من فضله على عباده وإحسانه إليهم أن أرسل إليهم الرياح لواقح ، ويكون ذلك على ضروب :

(١) أن يرسلها حاملات للسحاب فتلقح بها الأشجار بما تنزل عليها من الأمطار فتغيرها من حال إلى حال فتعطيها حياة جديدة؛ إذ تزدهر أزهارها ، وتثمر أغصانها ، بعد أن كانت قد ذبلت وصوحت وأصبحت فى مرأى العين كأنها ميتة لاحتيا فيها كما قال تعالى : « وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ » .

(٢) أن يرسلها ناقلة لقاح الأزهار الذكور إلى الأزهار الإناث لتخرج النمر والقواكه للناس .

(٣) أن يرسلها لتزيل عن الأشجار ماعلق بها من الغبار لينفذ الغذاء إلى مسامها فيكون ذلك رياضة للشجر والزرع كرياضة الحيوان .

(فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه) أى فأنزلنا من السحاب مطرا فأسقيناكم ذلك المطر لشرب زرعكم ومواشيكم ، وفي ذلك استقامة أمور معاشكم وتديير شئون حياتكم إلى حين كما قال : « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا » .

(وما أتم له بخازنين) أى ولستم بخازنى للماء الذى أنزلناه فتمنعوه من أن أسقيه من أشياء ، لأن ذلك بيدى وهو خاضع لسلطانى ، إن شئت حفظته على سطح الأرض وإن شئت غار فى باطنها وتخلل طبقاتها ، فلا أبقى منه شيئا ينفع الناس والحيوان ويسقى الزرع الذى عليه عماد حياتكم .

والخلاصة — نحن القادرون على إيجاده وتخزينه فى السحاب وإزاله ، وما أتم على ذلك بقادرين .

وبعد أن ذكر نظم المعيشة فى هذه الحياة ذكر إحياء الإنسان وإماتته فقال : (وإنا لنحن نحي ونميت ونحن الوارثون) أى وإنا لنحي من كان ميتا إذا أردنا ، ونميت من كان حيا إذا شئنا ، ونحن نرث الأرض ومن عليها فنميتهم جميعا ولا يبقى حتى سوانا ، ثم نبعثهم كلهم ليوم الحساب فيلاقى كل امرئ جزاء ما عمل إن خيرا وإن شرا .

ثم أقام الدليل على إمكان ذلك وأثبت قدرته عليه فقال :

(ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) أى ولقد علمنا من مضى منكم وأحصيناهم وما كانوا يعملون ، ومن هو حى ومن سيأتى بعدكم ، فلا تخفى علينا أحوالكم ولا أعمالكم ، فليس باليسير علينا جمعكم يوم التناد للحساب والجزاء يوم ينفخ فى الصور كما قال :

(وإن ربك هو يحشرهم) فيجمع الأولين والآخرين عنده يوم القيامة ، من أطاعه منهم ومن عصاه ويمجزي كلا بما عمل على حسب ما وضع من السنن ، وقدر من ارتباط المسببات بأسبابها ، وجعل لكل عمل جزاء له .

نم أكد هذا وزاده إيضاحا فقال :

(إنه حكيم عليم) أى إنه تعالى باهر الحكمة واسع العلم ، فهو يفعل ما يشاء على ممتضى الحكمة والعدل ، وما يؤيده من سعة العلم والفضل .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ
 خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ الْمَلَائِكَةَ إِنِّي
 خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ
 فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ
 أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ
 يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ
 لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَخْرُجْ
 مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ
 رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧)
 إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي
 الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ
 هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ

اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ
أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤) .

شرح المفردات

صلصال : أى طين يابس يصلصل ويصوت إذا نقر وهو غير مطبوخ ، فإذا طبخ فهو فخار ، وحما : أى طين تغير واسود من مجاورة الماء له واحده حماة ، ومسنون : أى مصور مفرغ على هيئة الإنسان كالجواهر المذابة التى تصب فى القوالب ، والجآن أى هذا الجنس كما أن الإنسان يراد به ذلك ، فإذا أريد بالإنسان آدم أريد بالجآن أبو الجن ، ونار السموم : هى النار الشديدة الحرارة التى تقتل وتنفذ فى المسام ، بشرا : أى إنسانا وسمى بذلك لظهور بشرته أى ظاهر جده ، سويته : أى أتممت خلقه وهياته لنفخ الروح فيه ، والنفخ : إجراء الريح من الفم أو غيره فى تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها ، ويراد به هنا إضافة مابه الحياة على المادة القابلة لها ورجيم : أى مرجوم مطرود من كل خير وكرامة ، اللعنة : الإبعاد على سبيل السخط يوم الدين : أى يوم الجزاء ، فأنظرنى : أى أمهلنى وأخرنى ولا تمتنى ، ويوم الوقت المعلوم : هو وقت النفخة الأولى حين تموت الخلائق كما روى عن ابن عباس ، والإغواء : الإضلال ، هذا صراط على : أى هذا صراط حق لا بد أن أراعيه ، مستقيم : أى لا انحرف فيه فلا يعدل عنه إلى غيره ، والسلطان : التصرف والتصرف بالإغواء ، سبعة أبواب : أى سبع طبقات ، جزء مقسوم : أى فريق معين مفروز من غيره :

الإيضاح

(ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون) أى ولقد خلقنا أول فرد من أفراد الإنسان من طين يابس يصلصل ويصوت إذا نقر ، أسود متغير مفرغ فى قالب ليحف ويبيس كالجواهر المذابة التى تصب فى القوالب .

ونحو الآية قوله : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ » وقد جاء خلق آدم على أطوار مختلفة فكان أولاً تراباً كما قال : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ » ثم كان طيناً كما قال : « إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ » ثم كان صلصالاً من حمأ مسنون كما جاء في هذه الآية وإنما خاقه على ذلك الوضع ليكون خلقه أعجب وأتم في الدلالة على القدرة .

(والجنان خلقناه من قبل من نار السموم) أى وخلقنا هذا الجنس من قبل خلق آدم من نار الريح الحارة التى لها لفتح وتقتل من أصابته .

وعن ابن مسعود هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من السموم التى خلق منها الجن ثم قرأ : (والجن خلقناه من قبل من نار السموم) وقد ورد فى الصحيح « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجن من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم . » وفى الآية إيماء إلى شرف آدم عليه السلام وطيب عنصره وطهارة محبته ، وعلينا أن نؤمن بأن الجن خلقت من النار، ولكننا لانعرف كنه ذلك ولا حقيقته ، فذلك ما لا سبيل إلى معرفته إلا من طريق الوحي .

و بعد أن ذكر سبحانه فى معرض الدليل على قدرته - خلق الإنسان الأول ، ذكر بعده مقاله للملائكة والجن بشأنه فقال :

(وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين . قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون) أى واذكر أيها الرسول لقومك حين نوه ربكم بذكر أيكم آدم فى ملائكته قبل خلقه ، وتشريفه بأمر الملائكة بالسجود له ، وتخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة حسداً وعناداً واستكباراً بالباطل فقال : لم أكن لأسجد الخ .

وحكى عنه في آية أخرى أنه قال : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » .

وتقدم هذا القصص في سورة الأعراف وقلنا هناك : إن الأمر بالسجود أمر تكليفي ، وأنه قد وقع حوار بين إبليس وربه ، ويرى كثير من العلماء أن القصة بيان لغرائز البشر والملائكة والشيطان ، إذ جعل الملائكة وهم المدبرون لأموال الأرض بإذن ربهم مسخرون لآدم وذريته ، وجعل هذا النوع مستعدا للانتفاع بالأرض كلها لعلمه بسنن الله فيها وعمله بهذه السنن ، فانتفع بثمارها وهوائها ومعادنها ونباتها وحيوانها وكهر بائها ونورها ، وبذا أظهر حكمة الله في خلقها ، واصطفى بعض أفرادهم وخصهم بوحيه ورسالته وجعلهم مبشرين ومنذرين ، وجعل الشيطان عاصيا متمردا على الإنسان وعدوا له ، وجعل النفوس البشرية وسطا بين النفوس المملكية المفطورة على طاعة الله وإقامة سننه في صلاح الخلق ، وبين أرواح الجن الذين يغلب على شرارهم - الشياطين - التمرد والعصيان .

وقد ذكر سبحانه حجج إبليس وذكر سبب امتناعه عن السجود لآدم بأنه خير منه فإنه خلق من النار وآدم من الطين والنار خير من الطين وأشرف منه ، والشريف لا يعظم من دونه ولو أمره ربه بذلك .

وفي هذا ضروب من الجهالة وأنواع من الفسق والعصيان فإنه :

- (١) اعترض على خالقه بما تضمنه جوابه .
- (٢) احتج عليه بما يؤيد به اعتراضه .
- (٣) إنه جعل امثال الأمر موقوفا على استحسانه وموافقته لهواه ، وهذا رفض لطاعة الخالق وترفع عن مرتبة العبودية .

(٤) استدلاله على خيريته بالمادة التي منها التكوين ، وخيرية المواد بعضها على بعض أمر اعتباري تختلف فيه الآراء ، إلى أن الملائكة خلقوا من النور وهو قد خلق من النار ، والنور خير من النار ، وهم قد سجدوا امتثالا لأمر ربهم .

(٥) إنه قد جهل ما خص به آدم من استعداده العلي والعملي أكثر من سواه، ومن تشريفه بأمر الملائكة بالسجود له، فكان بذلك أفضل منهم، وهم أفضل من إبليس بعنصر الخلق والطاعة لأبهم .

(قال فأخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين . قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم) أمره سبحانه أمرا كونيا لا يخالف بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملائكة الأعلى ، ثم جعله مرجوما مطرودا وأتبعه لعنة لاتزال متواصلة لاحقة به متواترة عليه إلى يوم القيامة وهو يبعث الخلق من قبورهم فيحشرون لموقف الحساب وهو وقت النفخة الأولى ، فلما تحقق النظر .

(قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين) أي قال إبليس : رب بسبب إغوائك إياي وإضلالي لأزينن لندرية آدم وأحببت إليهم المعاصي وأرغبهم فيها ولأغوينهم كما أغويتني وقدرت علي ذلك إلا من أخلص منهم لطاعتك ، ووقفته لهدايتك ، فإن ذلك ممن لاسلطان لي عليه ولا طاقة لي به .

ثم هدده سبحانه وأوعده بقوله :

(قال هذا صراط علي مستقيم) أي قال هذا طريق مرجعه إلى فأجازي كل امرئ بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، كما يقول القائل لمن يتوعده ويتهدده : طريقك علي . وأنا علي طريقك : أي لا مهرب لك مني ، ونظير الآية قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ » .

وهذا رد لما جاء في كلام إبليس حيث قال : « لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ » الآية .
(إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) أي إن عبادي

لاسلطان لك على أحد منهم سواء أكانوا مخلصين أم غير مخلصين ، لكن من اتبعك باختياره صار من أتباعك .

وقال سفيان بن عيينة : ليس لك عليهم قوة ولا قدرة على أن تلقهم في ذنب يضيق عنه عفوى .

والخلاصة — إن إبليس أومأ أن له على بعض عباد الله سلطانا بقوله لأزبين لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ، فأكذبه الله بقوله إن عبادى الخ .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن إبليس : « وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي » وقوله : « إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ . » (وإن جهنم لموعدهم أجمعين) أى وإن جهنم موعدهم جميع من اتبع إبليس وهى مقرهم وبئس المهاد جزاء ما اجترحوا من السيئات وكفء ما دنسوا به أنفسهم من قبيح المعاصى .

(لها سبعة أبواب) أى لها سبع طبقات ينزلونها على حسب مراتبهم فى الغواية والضلالة .

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها : جهنم والسعير ولظى والحطمة وسقر والجحيم والهاوية وهى أسفلها .

(لكل باب منهم جزء مقسوم) أى كتب لكل باب منها فريق معين من أتباع إبليس يدخلونه ولايحيد لهم عنه على حسب أعمالهم واختلاف مراتبهم فى النار . قال ابن جريج : النار سبع دركات وهى جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية ؛ فأعلاها للعصاة للموحدين ، والثانية لليهود ، والثالثة للنصارى ، والرابعة للصابئين ، والخامسة للمجوس ، والسادسة للمشركين ، والسابعة للمناقين ، فجهم أعلى الطبقات ثم ما بعدها تحتها وهكذا .

وروى عن ابن عباس أن جهنم لمن ادعى الربوبية ، ولظى لعبد النار ، والحطمة لعبد الأصنام ، وسقر لليهود ، والسعير للنصارى ، والجحيم للصابئين ، والهاوية للموحدين العصاة ، وهؤلاء يرجى لهم ولا يرجى لغيرهم أبدا . وليس في هذا أثر مرفوع يمكن أن يركن إليه ويجعل حجة فيه .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ (٤٦)
وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) .

شرح المفردات

المتقون : هم الذين اتقوا الكفر والفواحش ولهم ذنوب من الصفائر تكفرها الصلوات وغيرها ، جنات : أى بساتين ، وعيون : أى أنهار جارئة ، بسلام : أى بسلامة من الآفات وأمن من المخافات ، والغل : الحقد الكامن في القلب ، والسرر : واحدها سرير وهو مجلس رفيع مهيب للسرور ، والنصب : الإعياء والتعب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال أهل الغواية وبين أنهم في نار جهنم يخلدون فيها أبدا وأنهم يكونون في طبقات بعضها أسفل من بعض بمقدار ما اجترحوا من السيئات ، واقترفوا من المعاصي - أردفه بذكر حال أهل الجنة وما يتمتعون به من نعيم مقيم ، ووافق بعضهم مع بعض ، لاضغن بينهم ولا حقد ، وهم يتحدثون على سرر متقابلين ولا يجدون مس التعب والنصب ، ولا يخرجون منها أبدا .

الإيضاح

(إن المتقين في جنات وعيون) أى إن الذين اتقوا الله وخافوا عقابه فأتاعوا أوامره واجتنبوا نواهيه - يتمتعون في جنات تجري من تحتها الأنهار كما قال : « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ » الآية .

(ادخلوها بسلام آمنين) أى ويقال لهم : ادخلوها وأنتم سالمون من الآفات والمنغصات ، آمنون من سلب تلك النعم التي أنعم بها ربكم عليكم وأكرمكم بها ولا تخافون إخراجا ولا فناء ولا زوالا .

(ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين) أى وأخرجنا ما في صدور هؤلاء المتقين الذين ذكرت صفتهم - من حقد وضعفينة بعضهم لبعض .

روى القاسم عن أبي أمامة قال : يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن ، حتى إذا توفوا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غل ثم قرأ : (ونزعنا ما في صدورهم من غل) .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن علي كرم الله وجهه أنه قال لابن طلحة : إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله تعالى (ونزعنا ما في صدورهم) الآية . فقال رجل من همدان : إن الله سبحانه أعدل من ذلك ، فصاح على صيحة تداعى لها القصر ، وقال : فمن إذا إن لم تكن نحن أولئك .

والخلاصة - إن الله طهر قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة ونزع منها كل غل وألغى فيها التواد والتحاب والتصافي ، والمراد بكونهم على سرر متقابلين أنهم في رفعة وكرامة ، وقد روى أن الأسرة تدور بهم حيثما داروا فهم في جميع أحوالهم متقابلين لا ينظر بعضهم إلى أفضية بعض ، وهم يجتمعون ويتنادمون ويتزاورون ويتواصلون .

(لا يمسهم فيها نصب) أى لا يلحقهم فى تلك الجنات مشقة ولا أذى ، لأنهم ليسوا فى حاجة إلى ما يوجب ذلك من السعى فى تحصيل ما لا بد لهم منه ، لحصول كل ما يشتهون من غير مزاوله عمل .

روى الشيخان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله أمرنى أن أبشر خديجة بيوت فى الجنة من قصب لاصخب فيه ولا نصب .

(وما هم منها بمخرجين) أى وهم خالدون فيها أبدا لا يبرحونها ، يشعرون بلذة النعيم ودوامه ، فهم فى خلود بلا زوال ، وكال بلا نقصان ، وفوز بلا حرمان .

والخلاصة — إن المسرة بالنعيم لا تتم إلا إذا توافرت أمور :

(١) أن يكون مقرونا بالتعظيم ، وإلى ذلك الإشارة بقوله : (ادخلوها بسلام آمنين) .

(٢) أن يكون خالصا من شوائب الضرر ، روحانية كانت كالحقد والحسد والغضب ، وإلى ذلك الإشارة بقوله (ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا) أو جسمانية كالإعياء والتعب ، وإلى ذلك الإشارة بقوله (لا يمسهم فيها نصب) .

(٣) أن يكون دائما غير قابل للزوال ، وإلى ذلك الإشارة بقوله (وما هم منها بمخرجين) .

نَبِيِّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ
الْأَلِيمُ (٥٠) وَنَبَّأَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا
قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣)
قَالَ أَبَشِّرْهُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمِمْ تُبَشِّرُونِ (٥٤) قَالُوا بَشِّرْنَاكَ
بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ

إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا
 إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٦٩) إِلَّا أَمْرًا تَهُ
 قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنَ الْعَابِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ
 إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ
 (٦٣) وَآتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ
 وَاتَّبِعْ أَذْيَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥)
 وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هُوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) وَجَاءَ
 أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هُوْلَاءِ ضِئِبِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨)
 وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوْ لِمَ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ؟ (٧٠) قَالَ
 هُوْلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ
 (٧٢) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُّشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا
 عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّمَا
 لِبَسْبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ
 الْأَيْكَةِ لظَّالِمِينَ (٧٨) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) وَلَقَدْ
 كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا
 مُّعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذْتَهُمُ
 الصَّيْحَةَ مُّصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) .

شرح المفردات

تقول : أنبات القوم إنباء ونبأتهم تنبئة : إذا أخبرتهم ، والأفصح في كلمة الضيف :
 ألا تثنى ولا تجمع حين تستعمل للمثنى والجمع والمؤنث بل تستعمل بلفظ واحد لكل
 ذلك ، والوجل : اضطراب النفس لخوفها من توقع مكروه يصيبها ، عليم : أى
 ذى علم كثير ، بالحق : أى بالأمر المحقق الذى لا شك فى وقوعه ، وقنط من كذا :
 أى يئس من حصوله ، والضالون : الكفار الذين لا يعرفون كمال قدرته تعالى وسعة
 رحمته ، وخطبكم : أى أمركم وشأنكم الذى لأجله أرسلتم ، قدرنا : أى قضينا وكتبنا ،
 يقال قضى الله عليه كذا وقدره عليه : أى جعله على مقدار الكفاية فى الخير والشر ،
 وقدر الله الأقوات : جعلها على مقدار الحاجة ، والغابرين : أى الباقين مع الكفار
 ليهلكوا معهم ، وأصله من الغبرة وهى بقية اللبن فى الضرع ، منكرون : أى
 لا أعرفكم ولا أعرف من أى الأقوام أنتم ؟ ولأى غرض دخلتم على ؟ ويمترون :
 أى يشكون ويكذبون به ، فأسر بأهلك : أى اذهب بهم ليلا ، والتقطع من الليل :
 الطائفة منه كما قال :

افتحى الباب وانظرى فى النجوم كم علينا من قطع ليل بهيم

اتبع أدبارهم : أى كن على إثرهم لتسرع بهم وتطلع على أحوالهم ، وقضينا :
 أى أوحينا ، ودابرهم : آخرهم ، ومقطوع : أى مهلك مستأصل ، مصبحين : أى
 فى وقت الصباح ، والمدينة : هى سدُوم (بالذال المعجمة) مدينة قوم لوط ، والاستبشار :
 إظهار السرور ، والفضيحة : إظهار ما يوجب العار ، والخزى : الذل والهوان ، والعمُر
 والعمُر (بالفتح والضم) : الحياة ، وهو حين القسم بالفتح لاغير ، سكرتهم ، غوايتهم ،
 يعمهون : أى يتعجبون ، والصيحة : الصاعقة ، وكل شىء أهلك به قوم فهو صيحة
 وصاعقة أخرجه ابن المنذر عن ابن جرير ، ومشرقين : أى داخلين فى الشروق
 وهو بزوغ الشمس ، والسجيل : الطين المتحجر وهو معرّب لاعرّبي فى المشهور ،

للمتوسمين : أى المتفرسين الذين يتثبتون فى نظرهم ليعرفوا سمة الشئ ، وعلامته ، يقال
توسمت فى فلان خيرا : أى ظهرت لى منه علاماته ، قال عبد الله بن رواحة يمدح
النبي صلى الله عليه وسلم :

إنى توسمت فىك الخير أعرفه والله يعلم أنى ثابت البصر

لبسبيل مقيم : أى لبطريق واضح معلم ليس بخفى ولا زائل ، وأصحاب الأيكة :
قوم شعيب عليه السلام ، والأيكة : الغيضة ، وهى الشجر الملتف بعضه على بعض
وقد كانوا فى مكان كثير الأشجار كثيف الغبار ، لبامام مبين : أى لبطريق واضح
وأصل الإمام ما يؤتم به سعى به الطريق لأنه يؤتم ويقع ، وأصحاب الحجر : هم ثمود ،
والحجر : واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه ، ويسمى كل مكان أحيط بالحجارة
حجرا ومنه حجر الكعبة ، وآياتنا : هى الناقة وفيها آيات كثيرة كعظم خلقها وكثرة
لبنها وكثرة شربها ، والإمام : ما يؤتم به ومن جملة ذلك الطريق التى تسلك .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أوعده به أهل الغواية فى يوم القيامة من دخول جهنم ،
وذكر أنها دركات لأولئك الغاوين على حسب اختلاف أحوالهم بمقدار ما دنسوا به
أنفسهم من اتخاذ الأنداد والشركاء وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ،
ثم أعقبه بذكر ما أعد لعباده المؤمنين من الجنات والعيون والنعيم المقيم والراحة التى
لا نصب بعدها ولا تعب ، والجلوس بعضهم مع بعض يتنادمون ويتجادبون أطراف
الأحاديث وهم فى سرور وحبور على سرر متقابلين - أردف ذلك بفذلكة وخلاصة
لما سبق ، فأمر نبيه أن يبلغ عباده أنه غفار لذنوب من تابوا وأنابوا إلى ربهم ، وأن
عذابه مؤلم لمن أصروا على المعاصى ولم يتوبوا منها ، ثم فصل ذلك الوعد والوعيد
فذكر البشارة لإبراهيم بغلام عليم ، وذكر إهلاك قوم لوط بما اجتروا من كبرى
الموبقات ، وفضيع الجنائيات ، بفعلهم فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، حتى

صاروا كأمس الدابر وأصبحوا أثرا بعد عين ، وإهلاك أصحاب الأيكة قوم شعيب جزاء ظلمهم بشركهم بالله ونقصهم للمكاييل والموازن ، فانتقم الله منهم بعذاب يوم الظلة ، وإهلاك أصحاب الحجر وهم ثمود الذين كذبوا صالحا وكانوا ذوى حول وطول وغنى ومال وقوة وبطش ، فأعرضوا عن آيات ربهم حينما جاءتهم على يدي رسوله ، فأخذتهم الصيحة وقت الصباح ولم يغن عنهم ما لهم من دون الله شيئا حين جاء أمره .

أخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق عطاء بن أبي رباح عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : « طلع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الباب الذى يدخل منه بنو شيبه فقال : (ألا تراكم تضحكون) ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا الفهقرى فقال : إني لما خرجت من الباب جاء جبريل عليه السلام فقال يا محمد إن الله يقول لك : لِمَ تَقْنِطُ عِبَادِي (نبي عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم) » .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه قال فى قوله (نبي عبادى) الآية : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام ، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لبيع نفسه » .

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله سبحانه خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة ، فلو يعلم الكافر كل الذى عنده من رحمة لم ييأس من الرحمة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله تعالى من العذاب لم يأمن من النار » .

الإيضاح

(نبي عبادى أنى أنا الغفور الرحيم) أى أخبر أيها الرسول عبادى أنى أنا الذى يستر ذنوبهم إذا تابوا منها وأنا بترك فضيحتهم بها وعقوبتهم عليها ،

الرحيم بهم أن أعذبهم بعد توبتهم منها . وفي قوله (نبي عبادي) إيماء إلى أنه ينبيء كل من كان معترفا بعبوديته ، فيشمل ذلك المؤمن المطيع والمعاصي ، وغير خاف مافي ذلك من تغليب جانب الرحمة من قبله تعالى على جانب العقاب .

(وأن عذابي هو العذاب الأليم) أي وأخبرهم أيضا بأن عذابي لمن أصر على معاصي وأقام عليها ولم يتب منها - هو العذاب المؤلم الموجه الذي لا يشبهه عذاب آخر ، وفي هذا تهديد شديد وتحذير لخلقه أن يقدموا على معاصيه ، ومن الأمر لهم بالإبادة والتوبة .

وإخلاصة - إن الله جمع لعباده بين التبشير والتحذير ليكونوا على قدمي الرجاء والخوف وحال الأانس والهيبة .

ثم ذكر سبحانه قصصا تقدم مثله بأسلوب آخر في سورة هود وبدأ بقصص إبراهيم عليه السلام فقال :

(ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما) أي أخبر عبادي عن ضيوف إبراهيم خليل الرحمن وهم الملائكة الذين أرسلهم الله إلى قوم لوط ليستأصلوا شأقتهم ويبيدوهم على ظلمهم ، فقالوا حين دخلوا عليه سلاما : أي سلمت من الآفات والآلام سلاما .

(قال إنا منكم وجلون) أي قال إبراهيم للضيف : إنا خائفون منكم ، لأنهم دخلوا عليه بلا إذن وفي وقت لا يجيء في مثله طارق ، أو لأنه حين قرب إليهم المعجل الحنيد لم يأكلوا منه ، والضيف إذا لم يأكل مما يقدم له من الطعام يظن أنه لم يأت خبير ، ويؤيد هذا قوله في سورة هود : « فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً » .

(قالوا لا توجل) أي قال الضيف لإبراهيم : لا تخف ولا يمح حول ساحتك الحزن والهلع .

ثم علل النهى عن الوجع بقوله :

(إنا نبشرك بغلام عليم) أى إنا جئناك بالبشرى بغلام ذى علم وفطنة وفهم
لدين الله ، وسيكون له شأن لأنه سيصير نبيا .

ونحو الآية قوله : « وَبَشِّرْ نَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا » .

ثم قال إبراهيم متعجبا من محبىء ولد من شيخ وعجوز :

(أبشرتمنى على أن مسنى الكبر ؟) أى أبشرتمنى بذلك مع مس الكبر
وتأثيره فى ، وتلك حال تنافى هذه البشرى .

(فبم تبشرون) أى فبأى أعجوبة تبشرون ؟ إذ لا سبيل فى العادة إلى مثل
ذلك ، وكأنه عليه السلام أراد أن يعرف : أيعطى هذا الولد مع بقاءه على حاله من
الشيخوخة التامة ، أو يُرجع شابا ثم يعطى الولد ، لما جرت به العادة من أن الولد
لا يكون إلا حين الشباب .

فأجابه مؤكدين ما بشروه به تحقيقا لما قالوا وليكون بشارة بعد بشارة .

(قالوا بشرنك بالحق فلا تكن من القانطين) أى قال ضيف إبراهيم له :
بشرنك بما يكون حقا ، وإنا لنعلم أن الله قد وهب لك غلاما ، فلا تكن من الذين
يقنطون من فضل الله فيياسوا من خرق العادة ، بل أبشر بما بشرنك به
واقبل البشرى .

والخلاصة — إنه عليه السلام استعظم نعمة الله عليه فاستفهم هذا الاستفهام
التعجبى المبني على السنن التى أجزاها الله بين عباده ، لأنه استبعد ذلك على قدرة
الله ، فهو أجلّ من ذلك قدرا ، ويؤيد هذا جوابه عليه السلام .

(قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) أى قال إبراهيم للضيف : لا يئأس
من رحمة الله إلا من أخطأ سبيل الصواب ، وغفل عن رجاء الله الذى لا يخيب من
رجاه ، فضل بذلك عن الرأى القيم ، وهذا كقول يعقوب : « لَا يَيْئَاسُ مِنْ رَوْحِ
اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » .

وخلاصة مقاله — إنه نفى القنوط عن نفسه على أتم وجه ، فكأنه قال : ليس
بى قنوط من رحمته تعالى ، لكن حالى تنافى فيض تلك النعم الجليلة التى غمرنى بها ،
وتوالى المكرمات التى شملت آل هذا البيت .

و بعد أن تحقق عليه السلام مصداق هذه البشرى ورأى أنهم أتوا مختلفين على
غير ما عهد عليه ملك الوحي ، سألهم عن أمرهم ليزول عنه الوجل .

(قال فما خطبكم أيها المرسلون) أى قال لهم : ما الأمر العظيم الذى جئتم لأجله
سوى البشرى ، وكأنه عليه السلام فهم من مجرى حديثهم فى أثناء الحوار أن ليست
هذه البشرى هى المقصودة ، بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا لأنهم كانوا عدداً والبشارة
لا تحتاج إلى مثل هذا العدد ، ومن ثم اكتفى بالواحد فى بشارة زكريا ومريم عليهما
السلام ؛ وأيضا لو كانت البشارة هى المقصودة لابتدءوا بها ، فأجابوه .

(قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) أى قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين من
قوم لوط ، واكتفوا بهذا القدر من الجواب ، لأن إبراهيم يعلم أن الملائكة إذا أرسلوا
إلى المجرمين كان ذلك لهلاكهم وإبادتهم . ومما يرشد أن يفهم هذا الفهم قولهم .
(إلا آل لوط إنا لمنجهم أجمعين) أى إلا أتباع لوط فى الدين فلن نهلكهم
بل ننجيهم من العذاب الذى أمرنا أن نعذب به قوم لوط .

(إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين) أى لانهلاك آل لوط وأتباعه إلا امرأته
فقد قضى الله أنها من الباقين مع الكفرة ثم هى مهلكة بعد ذلك معهم ،
وقد أضاف الملائكة هذا التقدير إلى أنفسهم مع أنه لله تعالى ، بيانا لمزيد قربهم من
ربهم واختصاصهم به تعالى كما يقول خاصة الملك : دبرنا كذا وأمرنا بكذا ، والمدبر
الأمر هو الملك .

و بعد أن بشروا إبراهيم عليه السلام بالولد وأخبروه بأنهم مرسلون بعذاب قوم
مجرمين — ذهبوا إلى لوط وآله كما قال سبحانه .

(فلما جاء آل لوط المرسلون . قال إنكم قوم منكرون) أى فلما خرج المرسلون من عند إبراهيم وجاءوا قرية لوط أنكرهم لوط ولم يعرفهم وقال لهم : من أى الأقوام أنتم ، ولأى غرض جئتم ؟ وإنى أخاف أن تمسونى بمكروه .

ونحو الآية قوله : « وَكَلَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا » وإنما قال هذه المقالة ، لأنه لم يشاهد من المرسلين حين مقاساة الشدائد ومعاناة المكاييد من قومه الذين يريدون بهم ما يريدون - إعانة ولا مساعدة فيما يأتى وما يندر حين تجشم الأهوال فى تخليصهم فأنكر خذلانهم له وتركهم نصره حين المضايقة التى حلت به بسببهم حتى اضطر إلى أن يقول : « لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ » كما جاء فى سورة هود .

(بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) أى قال له الرسل : ما جئناك بما خطر ببالك من المكروه ، بل بما فيه سرورك وهو عذابهم الذى كنت تحذرهم منه وهم يكذبونك فيه قبل مجيئه ، فأتى لك بعد هذا أن يعتريك مساءة وضيق ذرع ؟ .

وخلاصة ما أرادوا أن يقولوا - ماخذلناك وما خلىنا بينك وبينهم ، بل جئناك بما يدمرهم ويهلكهم من العذاب الذى كنت تتوعدهم به وهم يكذبونك .

واختاروا هذا الأسلوب ولم يقولوا جئناك بعذابهم لإفادة ذلك شيئين : تحقق عذابهم وتحقق صدقه عليه السلام بعد أن كابد منهم كثيرا من الإنكار والتكذيب . (وأتيناك بالحق وإنا لصادقون) أى وجئناك بالأمر المحقق المتيقن الذى لا مجال فيه للامتراء والشك وهو العذاب الذى كتب وقدر لقوم لوط ، وإنا لصادقون فيما أخبرناك به .

ثم شرعوا يرتبون له مبادئ النجاة قبل حلول العذاب بقومه فقالوا له : (فأسر بأهلك بقطع من الليل) أى فسر بأهلك ببقية من الليل ، وأهلك على ما روى هم بنتاه .

(واتبع أديبارهم) أى وكن من وراء أهلك الذين تسرى بهم ، وعلى إثرهم لتذود عنهم وتسرع بهم وتراقب أحوالهم حتى لا يتخلف منهم أحد لغرض فيصيبه العذاب .

(ولا يلتفت منكم أحد) فيرى ما ينزل بقومه فيرق قلبه لهم ، وليوطن نفسه على الهجرة ويطيب نفسا بالانتقال إلى المسكن الجديد ، ثم أكد هذا النهى بقوله : (وامضوا حيث تؤمرون) أى وامضوا حيث يأمركم الله غير ملتفتين إلى ما وراءكم كالذى يتحسر على مفارقة وطنه ، فلا يزال يلوى له أخاذه كما قال أبو تمام :

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى وجعت من الإصغاء ليتاً وأخذعاً

والخلاصة — إنهم أمروا بمواصلة السير ونهوا عن التواني والتوقف ، ليكون ذلك أقطع للعوائق ، وأحق بالإسراع للوصول إلى المقصد الحقيقى وهو بلاد الشام .

(وقضينا إليه ذلك الأمر) أى وأوحينا إليه أن ذلك الأمر مقضى مبدوت فيه ؛ ثم فصل ذلك الأمر فقال :

(أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) أى إن آخر قومك وأولهم مجذوذ مستأصل صباح ليلتهم ولا يبقى منهم أحد ، ونحو الآية قوله : « فَفَطِّعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا » .

ثم شرع يذكر ماصدر من القوم حين علموا بقدم الأضياف وما ترتب عليه مما أشير إليه أولاً على سبيل الإجمال فقال :

(وجاء أهل المدينة يستبشرون) أى وجاء أهل سدوم حين سمعوا أن ضيفاً قد ضافوا لوطاً - مستبشرين بنزولهم مدينتهم طمعا فى ركوب الفاحشة منهم .

وفى هذا إيماء إلى فظاعة فعالمهم ، إذ هم خالفوا ماجرى به العرف وركب فى الأذواق السليمة من إكرام الغريب وحسن معاملته ، وقصدوا بهم الفاحشة التى لم يسبتهم بها أحد من العالمين .

روى أن امرأة لوط أخبرتهم بأنه نزل بلوط ثلاثة من المُرْد مارأينا قط أصبح
منهم وجها ولا أحسن شكلا ، فذهبوا إلى دار لوط طلبا لهم مظهرين اغتباطا
وسرورا بهم .

ثم أخبر عن مقالة لوط لقومه حين رآهم يقصدون بهم السوء .
(قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحوني) أى قال لوط لقومه : إن هؤلاء الذين
جشموهم تريدون منهم الفاحشة ضيفي ، وحق على الرجل إكرام ضيفه فلا تفضحوني
فيهم وأكرموني بترك التعرض لهم بمكروه .
ثم زاد النهي توكيدا بقوله :

(واتقوا الله ولا تخزون) أى وخافوا الله فى وفى أنفسكم أن يحل بكم عقابه ،
ولا تهينوني فيهم بالتعرض لهم بالسوء ، وهذه الجملة آكد فى الغرض من سابقتها ،
إذ التعرض للجار بعد حمايته والذب عنه أجلب للعار ، ومن ثم عبر عن لجابهم
ومجاهرتهم بمخالفته بالخزى وأمرهم بتقوى الله فى ذلك .
ثم أبانوا له أنه السبب فى التضيحة وفى هذا الخزى .

(قالوا أو لم ننهك عن العالمين ؟) أى قال قومه له : أو لم ننهك أن تضيف أحدا
من العالمين أو تؤويه فى قريتنا ، إذ هم كانوا يتعرضون لكل غريب بالسوء ، وكان
لوط ينهاهم عن ذلك على قدر حوله وقوته ويحول بينهم وبين من يعرضون له ، وكانوا
قد نهوه عن التعرض لهم فى مثل ذلك .

وخلاصة مقالهم — إن ما ذكرت من الخزى والتضيحة أنت مصدره والجالب له ،
فلولا تعرضك لنا ما أصابك ما أصابك .

ولما رآهم متمادين فى غيهم ، لا يراعون عن غوايتهم ولا يقلعون عما هم عليه .
(قال إن هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين) أى قال لوط لقومه : تزوجوا النساء
ولا تفعلوا ما قد حرم الله عليكم من إتيان الرجال إن كنتم فاعلين ما أمركم به ، منتهين
إلى أمرى ، وقد سمي نساء قومه بناته ، لأن رسول الأمة كالأب لهم كما قال تعالى :
« النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » .

ثم أبان له الرسل أنه لا أمل في ارجعائهم عن غيرهم فقالوا :
 (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) أى قالت الملائكة للوط : وحياتك أيها
 الرسول إن قومك لفي ضلالتهم التى جعلتهم حيارى ولا يعرفون ما أحاط بهم
 من البلاء ، ولا ماذا يصيبهم من العذاب المنتظر ، لما أصابهم من عمى البصيرة فهم
 لا يميزون الخطأ من الصواب ، ولا الحسن من القبيح .

ثم ذكر عاقبة أمرهم فقال :

(فأخذتهم الصيحة مشرقين) أى فنزل بهم العذاب المنتظر وأخذتهم الصاعقة
 وقت الشروق ، وكان ابتداءؤها من الصبح وانتهائها حين الشروق ، ومن ثم قال
 أولاً مصبحين وقال هنا مشرقين ، وأخذ الصيحة قهرها لهم وتمكنها منهم ومن ثم
 يقال للأسير أخيد .

ثم بين كيفية أخذها لهم ولقريتهم فقال :

(فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) أى فجعلنا على المدينة
 وهو ما على وجه الأرض سافلها فانقابت عليهم وأمطرنا عليهم أثناء ذلك حجارة من
 طين متحجر ، وقد تقدم ذكر ذلك فى سورة هود .

وخلاصة ذلك — إنه تعالى أرسل عليهم ثلاثة ألوان من العذاب .

(١) الصيحة المنكرة الهائلة والصوت المنزع الخفيف .

(٢) إنه قلب عليهم القرية فجعل عاليها سافلها .

(٣) إنه أمطر عليهم حجارة من سجيل .

ثم ذكر أن فى هذا القمص عبرة لمن اعتبر فقال :

(إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) أى إن فيما فعلناه بقوم لوط من الهلاك والعذاب

لدلالات للمفكرين الذين يعتبرون بما يحدث فى الكون من عظمات وعبر ، ويستدلون

بذلك على ما يكون لأهل الكفر والمعاصى من عقاب بثيس بما كانوا يكسبون .

أخرج البخارى فى التاريخ والترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو نعيم

وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى ، ثم قرأ : إن في ذلك لآيات للمتوسمين » .

والفراسة على نوعين :

- (١) ما يوقعه الله في قلوب الصلحاء فيعلمون بذلك أحوال الناس بالحدس والظن
- (٢) ما يحصل بدلائل التجارب والأخلاق .

وقد صنف الناس في القديم والحديث كتباً في ذلك و بعض العلماء يجعلها دليلاً يحكم به كما فعل إياس بن معاوية (كان قاضياً ذكياً في عهد التابعين) .

ثم لفت أنظار أهل مكة إلى الاعتبار بها لو أرادوا فقال :

(وإنما لبسبيل مقيم) أى وإن هذه المدينة - مدينة سدوم - التى أصابها ما أصابها من العذاب - لبطريق واضح لا تخفى على السالكين ، فأثارها باقية إلى اليوم لم تندثر ولم تخف ، فالذين يمرون عليها من الحجاز إلى الشام يشاهدون آثارها كما قال فى الآية الأخرى « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَ بِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ » .

ثم آياس من اعتبارهم بها ، إذ هى لا يعتبر بها إلا المؤمنون فقال :

(إن فى ذلك لآية للمؤمنين) أى إن فيما فعلناه بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطاً وأهله - لدلالة جلية للمؤمنين المصدقين بالله ورسله ، إذ هم يعرفون أن ذلك إنما كان انتقاماً من الله لأنبيائه من أولئك الجهال الذين عصوا أمر ربهم وكفروا برسله ولم يراعوا عن غيهم وضلالهم بعد إنذارهم ونصحهم .

أما الذين لا يؤمنون بالله فيجعلون ذلك حوادث كونية لأسباب فلكية وشؤون أرضية ، جعلت الأرض تنهار لحدوث فراغ فى بعض أجزائها ، كما يشاهد اليوم فى البلاد ذات البراكين من اختفاء بلاد فى باطن الأرض وابتلاع الأرض لها كما حدث فى مدينة مسينا بإيطاليا سنة ١٩٠٩ و ظهور جزائر فى وسط المحيطات لم تكن من قبل .

و بعد أن ذكر قصص قوم لوط أتبعه بقصص قوم شعيب عليه السلام فقال :
(وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين) أى وإن أصحاب الأيكة كانوا يجلبتهم
ظالمين كفاراً ليس لديهم استعداد للإيمان بالله ورسوله ، أرسل الله إليهم وإلى أهل
مدين شعيباً فكذبوه .

أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم « إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيباً » .
(فانتقمنا منهم) جزاء ما دنسوا به أنفسهم من الكفر والمعاصي ، فسلب على
أصحاب الأيكة الحر سبعة أيام لا يُظِلُّ منه ظلٌّ ، ولا يمنعهم منه شيء ، ثم أرسل
عليهم سحابة فخلوا تحتها يلتمسون الروح منها ، فبعث عليهم منها نارا فاضطربت
عليهم فأكلتهم ، فذلك عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ، وأما أهل مدين
فقد أخذتهم الصيحة .

ثم ذكر أنه قد كان من حق قريش أن يعتبروا بهما فقال :
(وإنهما لبإمام مبين) أى وإن مدينة أصحاب الأيكة ومدينة قوم لوط
- لبطريق واضح يأتون به فى سفرهم - ويهتدون به فى مسيرهم .
ثم ذكر سبحانه قصة صالح بقوله :

(ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) أى ولقد كذبت ثمود بنبيهم صالحاً
عليه السلام ، ومن كذب رسولا من رسل الله فكأنما كذب الجميع ، لانفاق كلمتهم
على التوحيد والأصول العامة التى لا تختلف باختلاف الأمم والأزمان .

(وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين) أى وأريدناهم حججنا الدالة على نبوة
صالح عليه السلام من الناقة وغيرها فأعرضوا عنها ولم يعتبروا بها .

(وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين) من هدمها ونقب اللصوص لها
أو تخريب الأعداء لها لقوة أسرها وبديع إحكامها ، وقد تقدم تفصيل ذلك
فى سورة الأعراف .

ثم ذكر ميقات هلاكهم فقال :

(فأخذتهم الصيحة مصبحين) أى فأخذتهم صيحة الهلاك حين كانوا فى ضحوة اليوم الرابع من اليوم الذى أوعدوا فيه بالعذاب كما جاء فى قوله : « وَقِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرٍ مَّكَذُوبٍ » .

(فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى فما دفع عنهم ما نزل بهم ما كانوا يكسبون من نحت البيوت وجمع الأموال وكثرة العدد وجمع العدد ، بل خروا جاثمين هلكى حين حل بهم قضاء الله .

روى البخارى وغيره عن ابن عمر « أن النبى صلى الله عليه وسلم مرّ بالحجر وهو ذاهب إلى تبوك ففنع رأسه وأسرع براحته وقال لأصحابه : لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تبكوا فتبا كوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم » . وأخرج ابن مردويه عنه قال : « نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تبوك بالحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من مياه الآبار التى كانت تشرب منها ثمود وعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم ، فأمرهم بإهراق القدور وعلف العجين للإبل ، ثم ارتحل عن البئر التى كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال : إني أخشى عليكم أن يصيبكم مثل الذى أصابهم فلا تدخلوا عليهم » .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦) .

شرح المفردات

بالحق : أى بالحكمة والمصلحة ، والساعة يوم القيامة ، والصفح : ترك التثريب واللوم ، والصفح الجميل : ما خلا من العتب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى القصص السالف إهلاك الأمم المكذبة لرسلمها وعذابها بشتى أنواع العذاب كفاء ما دنسوا به أنفسهم من فظائع الشرك وأنواع المعاصى التى تقوض دعائم الإخلاص لبارى' النسمة وتهتد أركان نظم المجتمع ؛ بعبادة الأصنام والأوثان ، وتطفيىف للكيل والميزان ، وإتيان الفاحشة التى تشمئز منها النفوس وتنفر منها الأذواق السليمة - أرشد هنا إلى أنهم بعملهم هذا قد تركوا ما قضت به الحكمة والمصلحة من خلق السموات والأرض لعبادة خالقها وطاعته واستقرار نظم المجتمع على وجه صالح صحيح ، ودأبوا على عبادة غيره من الأصنام والأوثان ، فكان من العدل تطهير الأرض منهم دفعا لشروهم وإصلاحا لمن يأتى بعدهم .

الايضاح

(وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) أى وما خلقنا الخلائق مما فى الأرض والسماء وما بينهما إلا بالعدل والإنصاف لا بالظلم والجور ، فإهلا كنا للأمم التى كذبت رسلمها وقصصنا عليك قصصها ، وتعجيل النعمة لهم لم يكن ظلما بل كان عدلا وحكمة .

وفى هذا إيماء إلى أن ما يصيب غيرهم من المكذبين لك من العذاب فى الآخرة فيه عدل ومصلحة للبشر .

ثم هدد العصاة وتوعدهم فقال :

(وإن الساعة لآتية) أى إن يوم القيامة لآت لا ريب فيه ، وحينئذ ينتقم الله ممن يستحق العذاب ويحسن إلى من يستحق الإحسان ، فأرض بما يكون لهم من شديد العقاب .

(فاصفح الصفح الجميل) أى فأعرض عنهم إعرضا جميلا واحتمل أذاهم ، وعاملهم معاملة الصفوح الخليم .

وخلاصة ذلك — خالقهم بخلق حسن ، وتأن عليهم ، واحلم عنهم وأنذرهم وادعهم إلى ربك قبل أن تقاتلهم .

(إن ربك هو الخلاق العليم) أى إن ربك هو الذى خلقهم وخلق كل شيء وهو العليم بهم وبما يأتون وما يذرون ، وهو المدبر لأمرهم والمقدر لها على وجه الحكمة والمصلحة .

وقصارى ذلك — إنه خالقك وخالقهم ، وعليم بأحوالك وأحوالهم ، ولا يخفى عليه شيء مما جرى بينك وبينهم ، نخلق بك أن تكل الأمور إليه ، ليحكم بينك وبينهم ، وقد علم أن الصفح الجميل أولا أولى بهم إلى أن يحكم السيف بينك وبينهم .

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَأُصْدِعْ بِمَا تُوَفِّرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمَشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)

شرح المفردات

المثاني : واحدها مثنى من التثنية وهو التكرير والإعادة ، ومد عينيه إلى مال فلان : اشتهاه وتمناه ، والأزواج : واحدها زوج وهو الصنف ، وخفض الجناح :

يراد به التواضع واللين، وأصل ذلك أن الطائر إذا أراد أن يضم فرخه إليه بسط جناحيه له، والجناحان من الإنسان: جانباؤه، والندير: الخوف بعقاب الله من لم يؤمن به، وعضين: أى أجزاء واحدها عضه من عضيت الشاة جعلتها أعضاء وأقساماً، فاصدع بما تؤمر: أى اجهر به من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً، يضيق صدرك: أى ينقبض من الحسرة والحزن، والساجدين: أى المصلين، واليقين: الموت وسمى به لأنه أمر متيقن لا يشك فيه.

المعنى الجملى

بعد أن أمر رسوله أن يصبر على أذى قومه وأن يصفح عنهم الصفح الجميل - أردف ذلك بذكر ما أولاه من النعم، وما أغدق عليه من الإحسان، ليسهل عليه الصفح، ويكون فيه سلوة له على احتمال الأذى، فذكر أنه آتاه السبع المثاني - الفاتحة - والقرآن العظيم الجامع لما فيه هدى البشر وصلاحهم فى دنياهم وآخرتهم. وبعد أن ذكر له تظاهر نعمه عليه نهاه عن الرغبة فى الدنيا ومد العينين إليها بتمنى ما فيها من متاع، ونهاه عن الحسرة على الكفار إن لم يؤمنوا بالقرآن وبما جاء به وأمره بالتواضع لفقراء المسلمين، و بإنذار قومه المشركين بتبليغهم ما أمر به الدين وما نهى عنه، بالبيان الكافى، والإعذار الشافى، و بيان عاقبة أمرهم بتحذيرهم أن يحل بهم ما حل بالمتكسبين - اليهود والنصارى - الذين جعلوا القرآن أقساماً فأمنوا بما وافق التوراة وكفروا بما عدا ذلك، و يبين لهم أنه سيسألهم ربهم عن جريرة أعمالهم.

ثم أمره أن يعلن ما أمر به من الشرائع، ولا يلتفت إلى لوم المشركين وتثريبهم له ولا يبالي بما سيكون منهم، فالله تعالى كفاه أمر المستهزئين به وأزال كيدهم، وإذا ساوره ضيق الصدر من سماع سفههم واستهزائهم كما هو دأب البشر، فليسبح ربه.

وليحمده وليكثر الطاعة له ، فالعبد إذا حزبه أمر نزع إلى طاعة ربه وقد كفل سبحانه أن يكشف عنه ما أهمه .

الإيضاح

(ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم) أى ولقد أكرمناك بسبع آيات هي الفاتحة التي تثنى وتكرر في كل صلاة ، وهذا قول عمر وعلى وابن مسعود لما روى عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أم القرآن السبع المثاني التي أعطيتها » أو لأنها قسمت قسمين : ثناء ودعاء ، وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين » وأكرمناك أيضا بالقرآن العظيم .

وتخصيص الفاتحة بالذكر من بين القرآن الكريم لمزيد فضلها على نحو ما جاء في قوله تعالى : « وَمَلَأْنَا كِتَابَهُ وَرُسُلَهُ وَجِبْرِيْلَ وَمِيكَالَ » .
وبعد أن عرّف سبحانه رسوله العظيم نعمه عليه فيما يتعلق بالدين - نهاه عن الرغبة في الدنيا فقال :

(لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم) أى لا تمنين أيها الرسول ماجعلنا من زينة الدنيا متاعا للأغنياء من اليهود والنصارى والمشركين ، فإن من وراء ذلك عقابا غليظا .

والخطاب وإن كان موجها إلى النبي صلى الله عليه وسلم - تعليم لأُمَّته كما تقدم مثله كثيرا ، يؤيد هذا ما روى أنه أتت من بصرى وأذرعات سبع قوافل لقرينة والنسير في يوم واحد فيها أنواع من البرز (الأقمشة) والطيب والجواهر ، فقال المسلمون : لو كانت لنا لتقويننا بها ولأنفقناها في سبيل الله .

وخلاصة ذلك - لقد أوتيت النعمة العظمى التي إذا قيست بها كل النعم كانت حقيرة ، فقد أوتيت سبع آيات هي خير من السبع القوافل .

(ولا تحزن عليهم) إذ لم يؤمنوا ليقوى بمكانهم الإسلام وينتعمش بهم المؤمنون ؛ وقد كان صلى الله عليه وسلم يود أن يؤمن به كل من بعث إليه ، ويتمنى لمزيد شفقتة عدم إصرار الكفار على كفرهم .

وبعد أن نهاه عن الالتفات إلى الأغنياء من الكفار أمره بالتواضع لفقراء المسلمين فقال :

(واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) أى وأن جانبك وارفق بمن آمن واتبعك ، ولا تجفُ بهم ولا تغلظ عليهم .

ونحو الآية قوله تعالى : « أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ » وقوله فى صفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » ثم بين وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال :

(وقل إني أنا النذير المبين) أى أنا النذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تماديهم فى غيهم كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسالتها فانتقم الله منهم بإزالة العذاب بهم .

وفى الصحيحين عن أبى موسى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال يا قوم : إني رأيت الجيش بعينى وإني أنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدجلوا وانطلقوا على مهالهم فنجوا ، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبتهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق » .

(كما أنزلنا على المقتسمين . الذين جعلوا القرآن عضين) أى ولقد آتيناك سبعا من المثاني كما آتينا من قبلك من اليهود والنصارى التوراة والإنجيل ، وهم الذين اقتسموا القرآن وجزءوه أجزاء فآمنوا ببعضه الذى وافق كتابيهما ، وكفروا ببعضه

وهو ما خالفهما - أخرج ذلك البخاري وسعيد بن منصور والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس من طرق عدة .

وبعد أن بين وظيفة الرسول ذكر أن الحساب على الأعمال موكول إلى الله لا إليه فقال :

(فور بك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون) أى فلنسألن الكفار جميعا سؤال تأنيب وتوبيخ لهم على ما كانوا يقولون ويفعلون فيما بعثناك به إليهم وفيما دعوناهم إليه من الإقرار بى وبتوحيدي والبراءة من الأنداد والأوثان ، روى أبو جعفر عن الربيع عن أبي العالية فى تفسير الآية قال : يسأل الله العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة عما كانوا يعبدون ، وعماذا أجابوا المرسلين .

وعن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا معاذ إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه ، وعن فتات الطينة بإصبعه ، فلا ألقينك يوم القيامة وأحد غيرك أسعد بما آتاك الله منك » .

وبعد أن ذكر أن وظيفته التبليغ شدد عليه فى الجهر به جهد المستطاع فقال :
(فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) أى اجهر بإبلاغ ما أمرت به من الشرائع وواجه به المشركين ، ولا تلتفت إلى ما يقولون ولا تبال بهم ولا تحفهم ، فإن الله كافيكهم وحافظك منهم .

ولما كان هذا الصدع شديدا عليه لكثرة ما يلاقيه من أذى المشركين ذكر أنه حارسه وكالته منهم فلا يخشى بأسهم فقال :

(إنا كفيناك المستهزئين) أى إنا كفيناك شر المستهزئين الذين كانوا يسخرون منك ومن القرآن ، وهم طائفة من المشركين لهم قوة وشوكة كانوا كثيرى السفاهة والأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين يرونه أو يمر بهم ، أفناهم الله وأبادهم وأزال كيدهم ؛ وقد اختلف فى عدتهم فقوم يقولون هم خمسة : الوليد بن المغيرة والعاص ابن وائل وعدى بن قيس والأسود بن عبد يغوث والأسود بن عبد المطلب ، وقد ماتوا

جميعا بأهون الأسباب ، فتعلق بثوب الوليد منهم فتكبر أن يبعده عنه فأصاب عرقا في عقبه فمات ، ومات العاص بشوكة في إخص قدمه ، وأصاب عدى بن قيس مرض في أنفه فمات ، وأصيب الأسود بن عبد يغوث بداء وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات (هذه أعراض حمى التيفوس فيغلب أن يكون قد أصيب بها) وعنى الأسود بن عبد المطلب .

وقوم يقولون هم سبعة من أشراف قريش ومشركيها .

ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك فقال :

(الذين يجعلون مع الله إلها آخر) أى هم الذين اتخذوا إلها آخر مع الله يعبدونه . وفي وصفهم بهذا الوصف تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وتهوين للخطب عليه ، إذ أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء بمقام النبوة ، بل تعدوه إلى الإشراك بربهم المدبر لأمرهم والمحسن إليهم .

ثم توعدهم على ما كانوا يصنعون فقال :

(فسوف يعلمون) عاقبة أمرهم حين يحل بهم عذاب ربهم ، يوم تجزى كل نفس بما عملت ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

وبعد أن سلاه بكفاية شرهم ودفع مكرهم ذكر تسلية أخرى له فقال :

(ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) من كلمات الشرك والاستهزاء كما هو دأب الطبيعة البشرية حين ينوب الإنسان ما يؤلمه ويحزنه ، أن يرى في نفسه انتقباضا وضيقا في الصدر وأسى وحسرة على ما حل به .

ثم أمره سبحانه بأن يفزع لكشف ما ناباه من ضيق الصدر إلى تسبيح الله وحمده فقال :

(فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) أى إذا نزل بك الضيق ووجعت نفسك فافزع إلى ربك ، ونزهه عما يقولون ، حامدا له

على توفيقك للحق ، وهدايتك إلى سبيل الرشاد ، وصل آناء الليل وأطراف النهار ، فإن في مناجاة ربك ما يقربك إلى حضرة القدس ، ويسمو بنفسك إلى الملائكة الأعلى كما ورد في الحديث « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، ودم على ما أنت عليه طالبا المزيد من فضله ، حتى يأتيك الموت ، فهناك الجزاء بلا عمل ، وهنا العمل ولا جزاء .

وقصارى ذلك — إنه تعالى أرشده إلى كشف ما يجده في نفسه من الغم بفعل الطاعات ، والإكثار من العبادات وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر واشتد عليه خطب ، فزع إلى الصلاة ، روى أحمد عن ابن عمار أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالى يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره » .

وقد حكى الله عن أهل النار أنهم يقولون : « لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ . وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَائِضِينَ . وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ » .

وفي هذا دلالة على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على المرء مادام ثابت العقل ، روى البخارى عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صل قائما ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنب » .

اللهم وفقنا لطاعتك ، واهدنا لعبادتك ، واجعلنا من المتقين الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

خلاصة ما اشتملت عليه السورة الكريمة من الحكم والأحكام

- (١) وصف القرآن الكريم .
- (٢) الإعراض عن المشركين حتى يحل بهم ريب المنون .
- (٣) استهزاء المشركين وإنكارهم لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم لما يروونه من الآيات .
- (٤) إقامة الأدلة على وجود الله بما يروونه من الآيات في خلق السموات والأرض وفي خلق الإنسان .
- (٥) عصيان إبليس أمر ربه في السجود لآدم وذكر الحوار بينه وبين ربه ، وطلبه الإِنظار إلى يوم الدين .
- (٦) بيان حالى أهل الجنة وأهل النار يوم القيامة .
- (٧) قصص بعض الأنبياء وذكر ما أهلك الله به كل أمة من الأمم المكذبة لرسولها .
- (٨) بيان أن الحكمة في خلق السموات والأرض هي عبادة الله وحده وإقامة العدل والنظام في المجتمع .
- (٩) ذكر ما أنعم الله به على نبيه من السبع المثاني والقرآن العظيم .
- (١٠) نهى نبيه والمؤمنين عن تمنى زخرف الدنيا وزينتها .
- (١١) أمره صلى الله عليه وسلم بخفض الجناح والرفق بمن اتبعه من المؤمنين .
- (١٢) التذكير بنعمة الله عليه بإهلاك أعدائه المستهزئين الذين جعلوا القرآن عضين .
- (١٣) الأمر بالدعوة للدين جهرا والصدع بها وعدم المبالاة بالمشركين .
- (١٤) أمره صلى الله عليه وسلم بالتسبيح والعبادة إذا ضاق صدره باستهزاء المشركين والطمع فيه وفي كتابه الكريم .

سورة النحل

هذه السورة مكية سوى ثلاث آيات من آخرها فإنهن نزلن بين مكة والمدينة
منصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحد .
وعدد آياتها ثمان وعشرون ومائة .

ووجه ارتباطها بما قبلها أنه لما قال في السورة السالفة : « فَوَرَبُّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ » كان ذلك تنبيها إلى حشرهم يوم القيامة وسؤالهم عما فعلوه في الدنيا ،
فقال : « أَلَمْ يَأْمُرُ اللَّهُ » وأيضا فإن قوله في آخرها : « وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ
الْيَقِينُ » شديد الالتئام بقوله أنى أمر الله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَنى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ
الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) .

شرح المفردات

أنى أمر الله : أى قرب ودنا ، ويقال فى مجرى العادة لما يجب وقوعه قد أنى
وقد وقع ، فىقال لمن طلب مساعدة حان مجيئها ، جاءك الغوث ، وأمر الله عذابه
للكافرين ، والروح : الوحى وهو قائم فى الدين مقام الروح من الجسد ، فهو محيى
القلوب التى أماتها الجهل ، من أمره : أى بأمره ومن أجله ، أنذروا : أى خوفوا ،
فاتقون : أى خافوا عقوبتى لمخالفة أمرى وعبادة غيرى .

المعنى الجملى

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخوف المشركين تارة بعذاب الدنيا من قتل وأسر كما حدث يوم بدر ، وتارة بعذاب الآخرة ، ثم إنهم لما لم يشاهدوا شيئاً من ذلك احتجوا بذلك على تكذيبه وطلبوا منه الإتيان بذلك العذاب روى أنه لما نزل قوله تعالى: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ» قال الكافرون حين خلوا إلى شياطينهم إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن ، فلما تأخرت قالوا ما نرى شيئاً مما تخوفنا به فنزل قوله تعالى: «اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ» فأشفقوا وانتظروا ، فلما امتدت الأيام قالوا يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوفنا به فنزل قوله: (أتى أمر الله) فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رءوسهم فنزل قوله: (فلا تستعجلوه) .

الإيضاح

(أتى أمر الله فلا تستعجلوه) أى قرب عذاب المشركين وهلاكهم ، أما إتيانه بالفعل وتحققه فنوط بحكم الله النافذ وقضائه الغالب على كل شيء ، فهو يأتي في الحين الذى قدره وقضاه .

ونظم سبحانه المتوقع في صورة المحقق إيذاناً بأنه واجب الوقوع ، والشىء إذا كان بهذه المثابة يسوغ فى عرف التخاطب أن يعد واقعا ، ومعنى قوله فلا تستعجلوه لا تطلبوا حصوله قبل حضور الوقت المقدر فى علمه تعالى .

وفى هذا تهديد من الله لأهل الكفر به وبرسوله وإعلام منه لهم بقرب عذابهم وهلاكهم الذى لا بد منه .

(سبحانه وتعالى عما يشركون) أى تبرأ الله تعالى عن الشريك والشفيع الذى يدفع الضر عنكم ، وفى هذا رد لمقالمهم حين قالوا : لئن حكم الله علينا بإنزال العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة - لتشفعن لنا هذه الأصنام التى نعبدتها من دونه .

وخلاصة هذا — إن تلك الجمادات الخسيسة التي جعلتموها شركاء لله وعبدتموها هي أحقر الموجودات وأضعف المخلوقات ، فكيف تجعلونها شريكة لله في التدبير والشفاعة في الأرض والسموات .

ثم أجاب عن شبهة لهم إذ قالوا : هب الله قضى على بعض عباده بالشر وعلى آخرين بالخير ، فمن يعرف هذه الأسرار التي لا يعلمها إلا هو؟ فقال :
(ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) أى ينزل سبحانه ملائكته بالوحي إلى من يريد من عباده المصطفين الأخيار ، أن أنذروا عبادى أن إله الخلق واحد لا إله إلا هو ، وأنه لا تنبغى الألوهية إلا له ، ولا يصلح أن يعبد شيء سواه ، فاحذروه وأخلصوا له العبادة ، فإن فى ذلك نجاتكم من الهلكة ، وقد جاء ذكر الروح بمعنى الوحي فى قوله : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » وفى قوله : « يُبَلِّغِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » .

والمراد بقوله من أمره — بيان أن ذلك التنزيل والنزول لا يكونان إلا بأمره تعالى كما قال حكاية عن الملائكة : « وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ » وقال : لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ » وقال : « يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » وقال : « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » فى كل ذلك دليل على أن الملائكة لا يقدمون على عمل إلا بأمره تعالى وإذنه .

وفى الآية إيماء إلى أن الوحي من الله إلى أنبيائه لا يكون إلا بوساطة الملائكة ، ويؤيد ذلك قوله : « وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ » فقد بدأ بذكر الملائكة لأنهم هم الذين يتلقون الوحي من الله بلا وساطة ، وذلك الوحي هو الكتب ، وهم يوصلون هذا الوحي إلى الأنبياء — لاجرم جاء الترتيب على هذا الوضع .

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ
 الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا
 دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ
 تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا أِشْقٌ
 الْأَنْفُسِ ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ
 لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا
 جَاءُكُمْ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ
 مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ
 وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
 لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
 وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢)
 وَمَا ذَرَأْنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ
 يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا
 وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ
 غَضَلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ
 بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ
 يَهْتَدُونَ (١٦) .

شرح المفردات

أصل النطفة : الماء الصافى ويراد بها هنا مادة التلقيح ، والخصيم : بمعنى الخاصم كالخليط بمعنى الخالط ، والعشير : بمعنى المعاشر والمراد به المنطق الجادل عن نفسه المنازع للخصوم ، والمبين : المظهر للحجة ، والدف : ما يستدفأ به من الأكسية ، والمنافع : هي درّها وركوبها والحرف بها وحملها للماء ونحو ذلك ، جمال : أى زينة فى أعين الناس وعظمة لديهم ، تريحون : أى تردونها بالعشى من المرعى إلى مرايحها يقال أراح الماشية إذا ردها إلى المراح ، تسرحون : أى تخرجونها غدوة من حظائرها ومبيتها إلى مسارحها ومراعيها ، والأثقال : واحدها ثقل وهو متاع المسافر ، وشق الأنفس : مشقتها وتعبها ، القصد : الاستقامة ، يقال سبيل قصد وقاصد إذا أدك إلى مطلوبك ، وجائر : أى مائل عن الحجة منحرف عن الحق ، وتسيمون : أى ترعون يقال أسام الماشية وسومها جعلها ترعى ، وذراً : خلق ، ألوانه : أى أصنافه ، مواخر واحدها ماخرة : أى جارية من مخر الماء الأرض أى شقتها ، والميد : الحركة والاضطراب يمينا وشمالا ، وعلامات : أى معالم يستدل بها السابلة من نحو جبل ومنهل ورائحة تراب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه منزّه عن الشريك والولد وأنه لا إله إلا هو وأمر بتقواه وإخلاص العبادة له - ذكر هنا أدلة التوحيد واتصاف ذاته الكريمة بصفات الجلال والإكرام بأسلوب بديع جمع فيه بين دلالة المصنوع على الصانع والنعمة على المنعم ، ونبه بذلك إلى أن كل واحد من هذا كاف فى صرف المشركين عما هم عليه من الشرك ، وكلما بصرهم طائفة مما يرون ويشاهدون بكنههم على ما يقولون ويفعلون وبين لهم كفرانهم نعمتى الرعاية والهداية ، فاحتج على وجوده بخلق الأجرام الفلكية ،

ثم ثنى بذكر أحوال الإنسان ، ثم ثلث بذكر أحوال الحيوان ، ثم رابع بذكر أحوال النبات ، ثم اختتم القول بذكر أحوال العناصر الأربعة .

الإيضاح

(خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون) أى خلق سبحانه العالم العلوى وهو السموات والعالم السفلى وهو الأرض بما حوت - بالحق أى على نهج تقتضيه الحكمة ولم يخلقهما عبثا ، منفردا بخلقهما لم يشركه فى إنشأتهما وإحداثهما شريك ، ولم يعنه على ذلك معين ، تعالى الله عن ذلك ، إذ ليس فى قدرة أحد سواه أن ينشئ السموات والأرض فلا تليق العبادة إلا له .

وبعد أن ذكر أدلة الأكوان ذكر خلق الإنسان فقال :

(خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين) أى خلق الإنسان من نطفة أى من ماء مهين - خلقا عجيبا فى أطوار مختلفة ، ثم أخرجه إلى ضياء الدنيا بعد ماتم خلقه ونفخ فيه الروح فغذاه ونماه ورزقه القوت حتى إذا استقل ودرج نسي الذى خلقه خلقا سويا من ماء مهين ، بل خاصمه فقال : « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ » وعبد ما لا يضر ولا ينفع : « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَاهِرًا » .

(والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) امتن سبحانه على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهى الإبل والبقر والغنم كما تقدم تفصيل ذلك فى سورة الأنعام إذ عدها ثمانية أزواج ، وبما جعل لهم فيها من المنافع من الأصواف والأوبار والأشعار ، لباسا وفراشا ، ومن الألبان شرابا ، ومن الأولاد أكلا .

(ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون) أى ولكم فى هذه الأنعام زينة حين تردونها بالعشى من مسارحها إلى منازلها التى تأوى إليها ، وحين إخراجها من مراحها إلى مسارحها وخصص هذين الوقتين بالذكر ، لأن الألفية تتزين بها

ويتجاوب ثفاؤها ورغاؤها حين الذهاب والإياب فيعظم أربابها في أعين الناظرين إليها ، وقدم الإراحة على السرح مع تأخرها في الوجود ، لأن الجمال فيها أظهر ، وجلب السرور فيها أكمل ، ففيها حضور بعد غيبة وإقبال بعد إدبار على أحسن ما يكون ، إذ تكون ملأى البطون حافلة الضروع .

(وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) أى وهى أيضا تحمل أمتعتكم وأحمالكم من بلد إلى آخر لم تكونوا بالغيه بدونها إلا بكلفة ومشقة وجهد شديد .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ » وقوله : « اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ » (إن ربكم لرؤوف رحيم) ومن ثم أسبغ عليكم نعمه الجليلة ، ويسر لكم الأمور الشاقة العسيرة ، ومن رأفته ورحمته بكم أن خلق لكم الأنعام لمنافعكم ومصالحكم كما قال : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ؟ » .

(والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) أى وخلق لكم الخيل والبغال والحمير أيضا لتركبوها ، وجعلها لكم زينة تزينون بها - إلى مالكم فيها من منافع أخرى . (ويخلق ما لا تعلمون) غير هذه الدواب مما يهدى إليه العلم وتستنبطه العقول كالقطر البرية والبحرية والطائرات التى تحمل أمتعتكم وتركبوها من بلد إلى آخر ومن قطر إلى قطر ، والمطاود الهوائية التى تسير فى الجو والغواصات التى تجرى تحت الماء إلى نحو أولئك مما تعجبون منه ويقوم مقام الخيل والبغال والحمير فى الركوب والزينة .

وبعد أن شرح سبحانه دلائل وحدانيته أرشد إلى أنه كفيل ببيان الطريق السوي لمن أرادته فقال :

(وعلى الله قصد السبيل) أى وعلى الله بيان الطريق المستقيم الموصل من سلكه إلى الحق بنصب الأدلة وإرسال الرسل عليهم السلام وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإتاما يضل عليها .

ونحو الآية قوله : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » وقوله : « هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ » .

(ومنها جائز) أى ومن السبل سبيل جائز عن الاستقامة معوج زائغ عن الحق ؛ فالسبيل المقاصد هو الإسلام، والجائز منها هو غيره من الأديان الأخرى سماوية كانت أو أرضية .

وخلاصة هذا — إن ثمة طرقا تسلك للوصول إلى الله ، وليس يصل إليه منها إلا الطريق الحق وهى الطريق التى شرعها ورضيها وأمر بها وهى طريق الإسلام له والإختبات إليه وحده كما أرشد إلى ذلك بقوله : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَدِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » وما عداها فهو جائز ، وعلى الله بيان ذلك ليتهدى إليه الناس ويتعدوا عن سواه .
ثم أخبر سبحانه بأن الهداية والضلال بقدرته ومشيتته فقال .

(ولو شاء لهداكم أجمعين) أى ولو شاء سبحانه لجمعكم كالتل والنحل فى حياتكم الاجتماعية أو جمعكم كالملائكة مغطورين على العبادة وتقوى الله ، فلا تتجه نفوسكم إلى المعصية ولا تسعى إلى الشر ، ولكنه شاء أن يجعلكم تعملون أعمالكم باختياركم وتسعون إليها بعد بحثها وفحصها من سائر وجوهها ثم ترجحون منها ما تميل إليه نفوسكم وترون فيه الفائدة لكم كما قال عز من قائل : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ

- طريق الخير والشر - إِمَّا شَا كِرًا وَإِمَّا كَافُورًا » وقد تقدم إيضاح هذا عند قوله : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا » وعند قوله : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » .

و بعد أن ذكر نعمته عليهم بتسخير الدواب والأنعام - شرع يذكر نعمته عليهم

في إنزال المطر فقال :

(هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمية) أى إن الذى خلق لكم الأنعام والحيل وسائر البهائم لمنافعكم ومصالحكم - هو الذى أنزل المطر من السماء عذبا زلالا تشربون منه وتسقون أشجاركم ونباتكم التى تسمون فيها أنعامكم وفيها ترمى .

(ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات) أى ينبت لكم بالماء الذى أنزله من السماء زرعكم وزيتونكم ونخيلكم وأعنابكم ومن كل الثمرات غير ذلك - أرزاقا لكم وأنواتا نعمة منه عليكم وحجة على من كفر به .

(إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) أى إن فيما ذكر من إنزال الماء وغيره لأدلة وحججاً على أنه لا إله إلا هو لقوم يعتبرون مواعظ الله ويتفكرون فيها حتى تطمئن قلوبهم بها وينبجج نور الإيمان فيها ، فيضىء أفئدتهم ويزكى نفوسهم ، فمن فكر فى أن الحبة والنواة تقع فى الأرض وتصل إليها نداوة منها تنفذ فيها فينشق أسفلها فيخرج منه عروق تنبسط فى الأرض ويخرج منها ساق ينمو وتخرج فيه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الأشكال والألوان والخواص والطباع - علم أن من هذه آثاره لا يمكن أن يشبهه شيء فى صفات كماله فضلا عن أن يشاركه فى أخص صفاته وهى الألوهية واستحقاق العبادة .

ولله در القائل :

تأمل في رياض الورد وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات على أهدابها ذهب سبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك
(وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) أى ومن
نعمه تعالى عليكم مضافة إلى النعم التي سلف ذكرها - أن سخر لكم الليل والنهار
يتعاقبان خِلفَةً لمنامكم واستراحتكم وتصرفكم في معاشكم وسعيكم في مصالحكم ،
وسخر لكم الشمس والقمر يدأبان في سيرهما وإنارتتهما أصالة وخلافة ، وأدائهما ما نيظ
بهما من تربية الأشجار والزرع وإنضاج الثمرات وتلوينها إلى نحو ذلك من الآثار
والمنافع التي ربطها سبحانه بوجودهما ، وبهما يعرف عدد السنين والشهور ،
وفي ذلك صلاح معاشكم ، وسخر لكم النجوم بأمره تجرى في أفلاكها بحركة مقدره
لا تزيد ولا تنقص ، لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر .

(إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) أى إن في ذلك التسخير لدلالات واضحات
لقوم يعقلون حجج الله ويفهمون ما نبههم إليه بها .

وعبر هنا بالعقل وفي خاتمة الآية السالفة بالتفكير ، من قبيل أن الآثار العلوية
متعددة ، ودلالة ما فيها من عظيم القدرة والعلم والحكمة على الوجدانية ظاهرة لا تحتاج
إلا إلى العقل من غير تفكير ولا تأمل ، بل تدرك بالبديهية ، بخلاف الآثار السفلية
من الزرع والنخيل والأعشاب فهي تحتاج في دلالتها على وجود الصانع إلى فكر
وتدبر ونظر شديد .

(وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه) أى وما خلق لكم في الأرض من
عجائب الأمور ومختلف الأشياء من معادن ونبات وحيوان على اختلاف أجناسها
وأشكالها ومنافعها وخواصها .

(إن في ذلك لآية لقوم يذكرون) آلاء الله ونعمه فيشكرونه على ما أنعم
ويحبتون إليه على ما تفضل به وأحسن .

وبعد أن ذكر أنواع النعم في البر شرع يفصل نعمه في البحر فقال :
(وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا) أى وهو الذى سخر لكم
البحر - الماء المالح والعذب - لتأكلوا منه سمكا تصطادونه .

وفى وصفه بالطراوة تنبيه إلى أنه ينبغي المسارعة إلى أكله ، لأنه يسرع إليه
الفساد والتغير ، وقد أثبت الطب أن تناوله بعد ذهاب طراوته من أضر الأشياء ،
فسبحان الخبير بخلقهم ومعرفة ما يضر استعماله وما ينفع ، وفيه أيضا إيحاء إلى كمال قدرته
تعالى فى خلقه العذب الطرى فى الماء المر الذى لا يشرب .

وقد كره العلماء أكل الطافي منه على وجه الماء وهو الذى يموت حتف أنفه
فى الماء فيطفو على وجهه لحديث جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم : « مانضب عنه الماء
فكأوا ، وما لفظه الله فكأوا ، وما طفا فلا تأكلوا » فالمراد من ميتة البحر فى الحديث
« هو الطهور ماؤه الحل ميتته » ما لفظه لا مامات فيه من غير آفة .

(وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) كاللؤلؤ المخلوق فى صدفه العائش فى البحار
ولاسيا المحيط الهندى ، والمرجان الذى ينبت فى قيعانها ، وتوجد حقول من المرجان
فى البحر الأبيض المتوسط أمام تونس والجزائر ، متى تم ينعمها حصدها الدولة الفرنسية
وباعتها للمسلمين وهم لا يعلمون شيئا من أمرها ، وكأنهم لم يقرءوا القرآن وكأنهم
لم يخلقوا فى هذه الأرض ، وكأنهم يقولون : ربنا لا نستخرج ، بل نشترى من
المستخرجين من الأرض ، وكأنهم ليسوا مخاطبين بالاستخراج المباح ، وبذا حرموا
على أنفسهم ما أباحه الله لهم ، وقد بلغ ما استخرج من المرجان سنة ١٨٨٦ م ٧٧٨ ألف
كيلو جرام ثمنها خمسة ملايين وسبعائة وخمسون ألف فرنك .

(وترى الفلك مواخر فيه) أى وترى السفن جوارى فيه تشقه بجزوها ومقدمها
مقبلة مدبرة من قطر إلى قطر ومن بلد إلى آخر ، ومن إقليم إلى إقليم جلب ما هناك
إلى هنا ، وما هنا إلى هناك ومن ثم قال :

(ولتبتغوا من فضله) أى ولتطلبوا فضل الله ورزقه بركوبه للتجارة .
 (ولعلكم تشكرون) أى ولتشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم ، إذ جعل ركوب
 البحر مع كونه مظنة للهلاك سبباً للانتفاع وحصول المعاش مع عدم الحاجة إلى الخل
 والترحال والاستراحة والسكون ، والله در القائل :

وإنانى الدنيا كركب سفينة نظن وقوفا والزمان بنا يسرى
 (وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم) أى وألقى فى الأرض جبلاً ثوابت
 لتقر ولا تضطرب بما عليها من الحيوان ، فلا يهنا لهم عيش بسبب ذلك كما قال :
 « وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا » وما الأرض إلا كسفينة على وجه الماء ، فإذا لم يكن فيها أجرام
 ثقيلة تضطرب وتميل من جانب إلى جانب بأدنى الأسباب ، وإذا وضعت فيها أجرام
 ثقيلة تستقر على حال واحدة ، فكذا الأرض لو لم يكن عليها هذه الجبال لاضطربت
 وقد تقدم إيضاح هذا وسيأتى بعد .

(وأنهارا) أى وجعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى آخر رزقاً للعباد ، فهى
 تنبع فى مواضع وهى رزق لأهل مواضع أخرى ، فهى تقطع البقاع والبرارى وتخترق
 الجبال والآكام حتى تصل إلى البلاد التى سخر لأهلها أن تنتفع بها كما يشاهد فى نهر
 النيل ، إذ ينبع من أواسط أفريقية ويمر بجبال ووهاد فى السودان ويستفيد منه الفائدة
 الكبرى أهل مصر دون سواها ، وكل ذلك بتقدير اللطيف الخبير .

(وسبلا) أى وكذلك جعل فيها سبلاً أى طرقاً نسلك فيها من بلاد إلى أخرى ،
 وقد تحدث ثلثة فى الجبل لتكون ممراً وطريقاً كما قال تعالى فى وصف الجبال :
 « وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا » الآية .

(لعلكم تهتدون) بتلك السبل إلى ما تريدون فلا تضلون .
 (وعلامات) أى وجعل فيها علامات أى دلائل يهتدى بها السارى من جبال
 كبار وآكام صغار ونحو ذلك حتى إذا ضل الطريق كانت عوناً له وهدته إلى السبيل
 السوى فى البر أو فى البحر .

(وبالنجم هم يهتدون) بالليل في البرارى أو في البحار ، وفي الآية إيماء إلى أن مراعاة النجوم أصل في معرفة الأوقات والطرق والقبلة ، ويحسن أن تتعلم من علم الفلك ما يفيد تلك المعرفة .

قال قتادة : إنما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء : لتكون زينة للسماء ، ومعالم للطرق ، ورجوما للشياطين ، فمن قال غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به .

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا
نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ
وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ
يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَهُكُمْ
إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ
(٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) .

شرح المفردات

المراد بمن يخلق: الله سبحانه وتعالى ، ومن لا يخلق : الملائكة وعيسى والأصنام ،
وما يشعرون : أى لا يعلمون ، وأيان : كمتى كلمتان تدلان على الزمن ، لا جرم :
أى حقا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الدلائل على وجود الإله القادر الحكيم على أحسن ترتيب
وأكمل نظام ، وكان في ذلك تفصيل وإيضاح لأنواع النعم ووجوه الإحسان - قفى على
ذلك بتبكييت الكفار وإبطال لشركهم وعبادتهم غير الله من الأصنام والأوثان ،

لما يلزم ذلك من المشابهة بينه تعالى وبينها ، ثم أردف ذلك ببيان أن لهذا الخالق نعماً لا تحصى على عباده ، وأنهم مهما بالغوا في الشكر واجتهدوا في العبادة فليسوا ببالغين شيئاً مما يجب عليهم نحوه ، ولكنه يستر عليهم ما فرط من كفرانها ، ويرحمهم بفيض النعم عليهم مع عدم استحقاقهم لها ، ثم أعقب هذا بذكر خواص الألوهية وهي علم السر والنجوى والخلق وهذه الأصنام ليس لها شيء من ذلك فهي مخلوقة لاخالقة ولا شعور لها بحشر ولا نشر ، ومن هذا كله يعلم أن الإله واحد لا شريك له ، ثم ذكر الأسباب الداعية إلى الإشراك وهي تحجر القلوب وإنكار التوحيد فهي لا ترغب في الثواب ولا ترهب العقاب وتستكبر عن عبادة الواحد الديان - لاجرم بقيت مصرة على ما كانت عليه من الجهل والضلال .

الإيضاح

(أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ؟) أى أفمن يخلق هذه الخلائق العجيبة التى عدناها عليكم وينعم هذه النعم العظيمة - كمن لا يخلق شيئاً ولا ينعم نعماً صغيرة ولا كبيرة ، أفلا تذكرون هذه النعم وهذا السلطان العظيم والقدرة على ما شاء من الحكمة ، وعجز أوثانكم وضعفها ومهانتها ، وأنها لا تجلب إلى نفسها نفعاً ولا تدفع ضراً ، فتعرفوا بذلك خطأ ما أنتم عليه من عبادتها وإقراركم لها بالألوهية .

وخلاصة هذا - الإنكار عليهم ورميهم بالجهل وسوء التقدير وقلة الشكر لمن أنعم عليهم بما لا يحصى من النعم ، مع وضوح ذلك وقلة احتياجه إلى تدبر وتفكر وإطالة نظر ، بل يكفي فيه تنبيه العقل ليعلم أن العبادة لا تليق إلا لمنعم بكل هذه النعم ، أما هذه الأصنام التى لا تفهم لها ولا قدرة ولا اختيار فلا تنبغى عبادتها ولا الاشتغال بطاعتها .

قال قتادة فى الآية : الله هو الخالق الرازق ، لاهذه الأوثان التى تعبد من دون الله لا تخلق شيئاً ولا تملك لأهلها ضراً ولا نفعاً .

وبعد أن نبههم سبحانه إلى عظمتهم بذكرهم بنعمه عليهم وإحسانه إليهم فقال :
(وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) أى وإن تعدوا نعم الله لا تضبطوا عددها
فضلا عن أن تستطيعوا القيام بشكرها ، فإن العبد مهما أتعب نفسه فى طاعته ،
وبالغ فى شكران نعمه ، فإنه يكون مقصرا ، فنعم الله كثيرة ، وعقل الخلق قاصر عن
الإحاطة بها ، ومن ثم فهو يتجاوز عن ذلك التقصير ، وإلى ذلك أشار بقوله :
(إن الله لغفور) فيستر عليكم تقصيركم فى القيام بشكرها .

(رحيم) بكم فيفيض عليكم نعمه مع استحقاقكم للقطع والحرمان بما تأتون
وما تدرؤن من أصناف الكفر والعصيان ، ومن أفضع ذلك وأعظمه جرما المساواة
بين الخالق والمخلوق .

قال بعض الحكماء : إن أى جزء من البدن إذا اعتراه الألم نفص على الإنسان
النعم ، وتمنى أن ينفق الدنيا لو كانت فى ملكه حتى يزول عنه ذلك الألم ، وهو سبحانه
يدبر جسم الإنسان على الوجه الملائم له ، مع أنه لا علم له بوجود ذلك ، فكيف يطبق
حصر نعمه عليه أو يقدر على إحصائها ، أو يتمكن من شكر أدناها ؟ .

ربنا هذه نواصينا بيدك ، خاضعة لعظم نعمك ، معترفة بالمعجز عن تأدية الشكر
لشئ منها ، لانحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، ولا نطبق التعبير
بالشكر لك ، فتجاوز عنا ، واغفر لنا ، وأسبل ذبول سترك على عوراتنا ، فإنك إلا
تفعل نهلك ، لتقصيرنا فى شكر نعمك ، فكيف بما فرط منا من التساهل فى الأثمار
بأوامرك ، والانتها عن مناهيك :

الغفو يرجى من بنى آدم فكيف لا يرجى من الرب اه

وبعد أن أبطل عبادة الأصنام ، من قبل أنها لاقدرة لها على الخلق والإنعام ،
أبطل عبادتها بوجه آخر وهو أن الإله يجب أن يكون علما بالسر والعلانية ، وهذه
الأصنام جماد لا معرفة لها بشئ فكيف تجمل عبادتها ؟ وإلى ذلك أشار بقوله :

(والله يعلم ما تسرون وما تعلنون) أى والله يعلم ما تسرونه فى ضمائرهم وتخفونه
عن غيركم وما تبدونه بالسننكم وجوارحكم وأفعالكم ، وهو محص ذلك كله عليكم

فيجازيكم به يوم القيامة ، فيجازى المحسن بإحسانه ، والمسيء منكم بإساءته ، وهو سائلكم عما كان منكم من الشكر في الدنيا على النعم التي أنعمها عليكم فيها ، ما أحصيتم منها وما لم تحصوا .

ثم وصف سبحانه هذه الأصنام بصفات تجعلها بمعزل عن استحقاق العبادة تنبيها إلى كمال حماقة المشركين وأنهم لا يفهمون ذلك إلا بالتصريح دون التلويح فقال :

(١) (والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون) أى والأوثان التى تعبدونها من دون الله لا تخلق شيئا بل هى مخلوقة ، فكيف يكون إلها ما يكون مصنوعا ، وغيره هو الذى دبر وجوده ؛ ونحو الآية قوله : « أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ؟ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » .

(٢) (أموات غير أحياء) أى هى أموات ولا تعترىها الحياة بوجه ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ، وفائدة قوله غير أحياء بيان أن بعض ما لاهياة فيه قد تدركه الحياة بعد كالنطفة التى ينشئها الله تعالى حيوانا ، وأجساد الحيوان التى تبعث بعد موتها ، أما هذه الأصنام من الحجارة والأشجار فلا يعقب موتها حياة وذلك أتم فى نقصها .

(٣) (وما يشعرون أيان يبعثون) أى وما تدرى هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله متى تُبعث عبدتها .

ولا يخفى ما فى ذلك من التهمك بها ، لأن شعور الجراد بالأمور الظاهرة بديهى الاستحالة لدى كل أحد ، فكيف بما لا يعلمه إلا العليم الخبير ؛ كما أن فيه تهكما بالمشركين من قبل أن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم ليجازوهم على عبادتهم إياهم ، وفيه تنبيه إلى أن البعث من لوازم التكليف لأنه جزاء على العمل من خير أو شر ، وأن معرفة وقته لا بد منه فى الألوهية .

ولما أبطل طريق عبدة الأصنام وبين فساد مذهبهم صرح بالمدعى ونلخص النتيجة بعد إقامة الحجة فقال :

(إلهكم إله واحد) أى معبودكم الذى يستحق العبادة وإفراد الطاعة له دون

سائر الأشياء - معبود واحد لاتصلح العبادة إلا له ، فأوردوا له الطاعة وأخلصوا له العبادة ولا تجعلوا معه شريكا سواه .

ثم ذكر الأسباب التي لأجلها أمر الكفار على الشرك وإنكار التوحيد فقال :
(فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون) أى والذين لا يصدقون بوعد الله ولا وعيده ، ولا يقرون بالمعاد إليه بعد المات - قلوبهم جاحدة لما قصصناه عليكم من قدرة الله وعظمته وجزيل نعمه عليهم ، وأن العبادة لاتصلح إلا له والألوهية ليست لشيء سواه ، فلا يؤثر فيها وعظ ، ولا ينجع فيها تكبير ؛ وهم مستكبرون عن قبول الحق ، متعظمون عن الإذعان للصواب ، مستمررون على الجحد تقليدا لما مضى عليه آباؤهم من الشرك به كما حكى سبحانه عنهم قولهم : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ » وقولهم : « أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ؟ إِنَّ هَذِهِ لَشَيْءٌ مُّجْتَبَأٌ » وقال : « وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » .

ثم ذكر وعيدهم على أعمالهم فقال :

(لاجرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) أى حقا إن الله يعلم ما يسر هؤلاء المشركون من إنكارهم لما قصصته عليك واستكبارهم على الله ، ويعلم ما يعلنون من كفرهم به وافترائهم عليه .

ثم علل سوء صنيعهم بشدة استكبارهم فقال :

(إنه لا يجب المستكبرين) أى إن الله لا يجب المستكبرين عن توحيدده والاستجابة لأنبياؤه ورسوله ، بل يبغضهم أشد البغض وينتقم منهم أعظم الانتقام .
أخرج مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل

النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، فقال رجل : يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر من بطل الحق ، وغمص الناس . وفي الصحيح « إن المتكبرين أمثال الذر يوم القيامة تطوهم الناس بأقدامهم لتكبرهم » .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤)
 لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ
 عِلْمٍ ، الْأَسَاءَ مَا يَزُرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ
 بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ
 حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ
 الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ ؟ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ
 وَالشُّوْءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ،
 فَالْقُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ، بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ
 تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى
 الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) .

شرح المفردات

الأساطير : واحدها أسطورة كأرجوحة وأراجيح، وهي الترهات والأباطيل ،
 والأوزار : الآثام واحدها وزر ، ساء ما يزرعون : أى بئس شيئاً يحملونه ، والمكر :
 حرف غيرك عما يريد به بحيلة ، ويراد به هنا مباشرة الأسباب وترتيب المقدمات ،
 فأتى الله بنيانهم من القواعد : أى أهلكه وأفناه كما يقال أتى عليه الدهر، والقواعد:

الدعائم والعمد : واحدها قاعده ، خرّ : سقط ، يخزيهم : يذلهم ويهينهم ، وتشاقون أى تخاصمون وتنازعون الأنبياء وأتباعهم فى شأنهم ، وأصله أن كلا من المتخاصمين فى شق وجانب غير شق الآخر ، والذين أوتوا العلم : هم الأنبياء ، والسلم : الاستسلام والخضوع ، بلى : بمعنى نعم ، والمثوى : مكان الثواء والإقامة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر دلائل التوحيد ونصب البراهين الواضحة على بطلان عبادة الأصنام ، أردف ذلك بذكر شبهات من أنكروا النبوة مع الجواب عنها ، وبين أنهم ليسوا ببدع فى هذه المقالة فقد سبقتهم أم قبلهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، فأهلكهم فى الدنيا وسيخزيهم يوم القيامة بما فعلوا ، ثم ذكر أنهم حين يشاهدون العذاب يستسلمون ويقولون ما كنا نعمل من سوء ، ولكن الله عليم بهم وبما فعلوا ، ولا مثوى لأمثال هؤلاء المتكبرين إلا جهنم وبئس المثوى هى :

الإيضاح

(وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) أى وإذا قيل لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من المشركين : أى شىء أنزله ربكم ؟ قالوا لم ينزل شيئاً ، إنما الذى يتلى علينا أساطير الأولين أى هو مأخوذ من كتب المتقدمين .
ونحو الآية قوله حكاية عنهم : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » وكانوا يفترون على الرسول صلى الله عليه وسلم أقوالاً مختلفة ؛ فتارة يقولون إنه ساحر ، وأخرى إنه شاعر أو كاهن ، وثالثة إنه مجنون ، ثم قر قرارهم على ما اختلقه زعيمهم الوليد بن المغيرة المخزومي كما حكى عنه الكتاب الكريم : « إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . . . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ » أى ينقل ويحكى ، ففترقوا معتقدين

حجة قوله ، وصدق رأيه ، قبحهم الله ، وكان المشركون يقتسمون مداخل مكة ينفرون
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سألهم وفود الحاج ويقولون هذه المقالة .

ثم بين عاقبة أمرهم فقال :

(ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) أى
وإنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ، لتكون عاقبتهم أنهم يتحملون آثامهم وآثام
الذين يتبعونهم ويوافقونهم أى يصير عليهم خطيئة ضلالهم فى أنفسهم ، وخطيئة
إغوائهم وإضلالهم لغيرهم واقتدائهم بهم كما جاء فى الحديث « من دعا إلى هدى كان
له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة
كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » .

ونحو الآية قوله تعالى « وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » والمراد من قوله (كاملة) أنه لا ينقص منها شيء
ولا يكفر بنحو نكبة تصيبهم فى الدنيا ، ولإطاعة مقبولة تكفر بعض تلك الأوزار
كما هو حال المؤمنين .

وفائدة قوله بغير علم - بيان أنهم يضلون من لا يعلم أنهم ضلال وأنهم على الباطل ،
وفى ذلك تنبيه إلى أن كيدهم لا يروج على ذى لب ، وإنما يقلدهم الجهلة الأغبياء ،
وزيادة تعبير وذب لهم ، إذ كان عليهم إرشاد الجاهلين لا إضلالهم .

وقصارى القول - إن هؤلاء قد دنسوا أنفسهم واختاروا لها الكيد لرسول
الله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين ، فكانوا السبب فيما احتملوه من الأوزار والآصار ،
كما كانوا واسطة فى تحمل من اتبعوهم هذه الأوزار أيضا ، والله تعالى لم يظلمهم فيما
جازاهم به ، بل هم الذين قسطوا وجاروا على أنفسهم فاستحقوا هذا الجزاء .

ثم هددهم وتوعدهم فقال :

(ألا ساء ما يزرون) أى بشئ شيئا يرتكبونه من الإثم والذنب ما يفعلون .

ثم بين لهم أن غائلة مكرهم عائدة إليهم ، ووبال ذلك لاحق بهم كدأب من قبلهم من الأمم الخالية الذين أصابهم من العذاب ما أصابهم بتكذيبهم لرسولهم فقال : (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) أى إن حال من قبلهم وقد دبروا الحيل ونصبوا الحبائل ليمكروا بها رسل الله فأبطلها الله وجعلها سبيلا لهلاكهم ، كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالأساطين ، فضعفت أساطينه وسقط عليهم السقف فهلكوا تحته من حيث لا يشعرون بسقوطه - فما نصبوه من الأساطين وظنوه سبب القوة والتحصين فى البنيان صار سبب الهلاك ، كذلك هؤلاء كانت عاقبة مكرهم وبالاً عليهم ، ونحو الآية قولهم فى المثل : من حفر لأخيه جباً ، وقع فيه منكباً .

وخالصة ذلك — إن الله أحبط أعمالهم وجعلها وبالاً عليهم ونقمة لهم .

و بعد أن بين سبحانه ما حل بأصحاب المكر فى الدنيا من العذاب والهلاك ،

بين حالهم فى الآخرة فقال :

(ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم) أى ثم إن ربك يوم القيامة يخزيهم بعذاب أليم ، ويقول لهم حين ورودهم عليه على سبيل الاستهزاء والسخرية : أين الذين كنتم تزعمون فى الدنيا أنهم شركائى ، وهلا تحضرونهم اليوم ليدفعوا عنكم ما يحل بكم من العذاب ، فقد كنتم تعبدونهم فى الدنيا وتتولونهم ، والولى ينصر وليه .

والمراد من المشاقة فيهم مخاصمة الأنبياء وأتباعهم فى شأنهم وزعمهم أنهم شركاء حقاً حين بينوا لهم ذلك ، والمراد بالاستفهام عن ذلك الاستهزاء والتبكيك والاحتقار لشأنهم ، إذ كانوا يقولون : إن صح ما تدعون إليه من عذابنا فالأصنام تشفع لنا .
وخالصة — إنه لا شركاء ولا أما كن لهم .

ثم ذكر مقال الأنبياء والمرسلين فى شأنهم يوم القيامة .

(قال الذين أوتوا العلم إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين) أى قال الذين

أوتوا العلم بدلائل التوحيد وهم الأنبياء صلوات الله عليهم والمؤمنون الذين كانوا يدعونهم في الدنيا إلى دينهم ، فيجادلون وينكرون عليهم : إن الذل والهوان والعذاب يوم الفصل على الكافرين بالله وآياته ورسوله - ومرادهم بهذه المقالة الشماتة وزيادة الإهانة للكافرين .

ثم بين أن الكافرين الذين يستحقون هذا العذاب هم الذين استمر كفرهم إلى أن تتوفاهم الملائكة وهم ظالمو أنفسهم فقال :
(الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) أى الكافرين الذين تقبض ملائكة الموت أرواحهم وهم ظالمو أنفسهم ومعرضوها للعذاب الخلد بكفرهم ، وأى ظلم للنفس أشد من هذا الكفر .

ثم ذكر حالهم حينئذ من الخضوع والمذلة فقال :
(فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء) أى فاستساموا وانقادوا حين عاينوا العذاب قائلين : ما كنا نشرك بربنا أحدا ، وهم قد كذبوا على ربهم واعتصموا بالباطل رجاء النجاة ، ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم : « وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » .

ثم أ كذبهم سبحانه فيما قالوا فقال :
(بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون) أى بل كنتم تعملون أعظم السوء وأقبح الآثام والله عليم بذلك ، فلا فائدة لكم في الإنكار والله مجازيكم بأفعالكم .
ثم بين ما يترتب على قبيح أفعالهم فقال :

(فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين) أى فادخلوا طبقات جهنم وذوقوا ألوانا من العذاب ، بما دنستم به أنفسكم من الإشراك بربكم واجترأكم عظيم الموبقات والمعاصي - خالدين فيها أبدا ، وبئس المقييل والمقام دار الذل والهوان لمن كان متكبرا عن اتباع الرسل والاهتداء بالآيات التي أنزلت عليهم ، وما أفضلها من دار ، وصفها ربنا بقوله : « لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا » .

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا خَيْرًا، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا
 فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ، وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠)
 جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ،
 كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ
 يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢).

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أحوال المكذبين بالله ورسوله الذين ينكرون وحيه ويقولون
 إن محمداً قد لفق أساطير الأولين وترهاتهم ونقلها للناس وادعى أنها من رب الأرض
 والسموات ، وذكر ما سينالهم من النكال والوبال إذ يدخلون جهنم خالدين فيها كفاء
 ما اجترحت أيديهم من الآثام وكسبته من المعاصى - أردف ذلك بوصف المؤمنين
 الذين إذا سئلوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً ، وبذكر ما أعده لهم من الخير والسعادة
 في جنات تجري من تحتها الأنهار جزاء وفاقاً لما أحسنوا من العمل وأتوا به من
 جميل الصنع .

الإيضاح

(وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً) أى وقيل للذين خافوا عقاب
 ربهم : أى شئ أنزله ربكم؟ قالوا أنزل خيراً وبركة ورحمة لمن اتبع دينه وآمن برسوله.
 روى ابن أبى حاتم عن السدى قال : اجتمعت قريش فقالوا إن محمداً
 رجل حلو اللسان إذا كلمه الرجل ذهب بعقله ، فانظروا ناساً من أشرفكم
 المعدودين المعروفة أنسابهم فابعثوهم فى كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة
 أو ليلتين ، فمن جاء يريده فردوه عنه ، فخرج ناس فى كل طريق ، فكان إذا أقبل

الرجل وافدا لقومه ينظر ما يقول محمد ، ووصل إليهم قال أحدهم أنا فلان بن فلان فيعرفه نسبه ويقول له : أنا أخبرك عن محمد . إنه رجل كذاب لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لاخير فيهم ، وأما شيوخ قومه وخيارهم فمفارقون له ، فيرجع الوafd ، فذلك قوله تعالى : (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) فإن كان الوafd ممن عزم الله له الرشاد فقالوا له مثل ذلك ، قال : بنس الوafd لقومي إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل وأنظر ما يقول وآتى قومي ببيان أمره ، فيدخل مكة فيلقى المؤمنين فيسألهم ماذا يقول محمد ؟ فيقولون خيرا .

ثم فصلوا هذا الخير فقالوا .

(للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) أى للذين آمنوا بالله ورسوله وأطاعوه في هذه الدنيا ، ودعوا عباده إلى الإيمان والعمل بما أمر به - مثوبة حسنة من عند ربهم كفاء ما قدموا من عمل صالح .

ونحو الآية قوله : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

ثم ذكر جزاءهم في الآخرة وما فيه من جزيل النعم فقال :

(ولدنار الآخرة خير) من الحياة الدنيا ، والجزاء فيها أتم من الجزاء في تلك . ونحو الآية قوله : « وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَسَّكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا » الآية ، وقوله : « وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » وقوله لرسوله : « وَاللَّآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ » .

وفصل هذا الجزاء بقوله :

(ولنعم دار المتقين . جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار) أى ولنعمت

الدار للمتقين جنات إقامة تجري من بين قصورها وأشجارها الأنهار ، حسنت مستقرا ومقاما .

ثم بين أن نعمها غير ممنوعة ولا مقطوعة فقال :

(لهم فيها ما يشاءون) أى للذين أحسنوا في هذه الدنيا في جنات عدن ما يشاءون مما تشتهى أنفسهم وتقرّ به أعينهم كما قال : « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

ثم ذكر أن هذا جزاء على إحسان الأعمال فقال :

(كذلك يجزى الله المتقين) أى مثل ذلك الجزاء الأوفى يجزى الله الذين اتقوا الشرك والمعاصي .

وفي هذا حث للمؤمنين على الاستمرار على التقوى وحث لغيرهم على تحصيلها . ثم وصف الله المتقين بقوله :

(الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) قال الراغب : الطيب من الناس من تعرى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الخصال ، وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال ، وهذا إيضاح لقول مجاهد : الطيب من تزكو أقواله وأفعاله .

(وطيبين) كلمة مختصرة جامعة لكثير من المعاني ، يدخل فيها إتيانهم بكل ما أمروا به واجتنابهم كل ما نهوا عنه ، واتصافهم بفضائل الأخلاق وجميل السجايا ، وبرائتهم من ذمير الرذائل ، وتوجههم إلى حضرة القدس ، وعدم اشتغالهم بعالم الشهوات واللذات الجسمانية ، ويتبع ذلك أنه يطيب لهم قبض أرواحهم ، لأنها لم تقبض إلا مع البشارة بالجنة حتى كأنهم مشاهدوها ، ومن هذه حاله لا يألوم بالموت كما قال : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نَزَّلْنَا مِنْ غَمُورٍ رَجِيمٍ » .

ثم ذكر ما تقوله لهم الملائكة تبشيرا لهم فقال :

(يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) أى تقول لهم الملائكة : سلام عليكم لا يحيق بكم مكروه بعد ، ادخلوا الجنة التى أعدها لكم ربكم ووعدكموها بما قدمتم من عمل ، وبما دأبتم على تقواه وطاعته ؛ والمراد من قوله (ادخلوا الجنة) البشارة بالدخول فيها بعد البعث إذا أريد الدخول بالأرواح والأبدان ، فإن أريد الدخول بالأرواح فحسب كان ذلك حين التوفى كما يشير إليه قوله صلى الله عليه وسلم « القبر إما روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار » .

أخرج ابن جرير والبيهقى عن محمد بن كعب القرظى قال : إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال : السلام عليك ياولى الله ، الله يقرأ عليك السلام وبشره بالجنة اه .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ ، كَذَلِكَ
فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣)
فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤) .

شرح المفردات

ينظرون : ينتظرون ، وأمر ربك : هو الهلاك وعذاب الاستئصال ، وحق بهم أى أحاط بهم ، وخص استعمالا بإحاطة الشر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر طعن المشركين فى القرآن بنحو قولهم : إنه أساطير الأولين ، وإنه قول شاعر ، ثم هددهم بضروب من التهديد والوعيد ، ثم أتبعه بالوعد بالثواب لمن صدق به - قفى على ذلك ببيان أن الكفار لا يزدجرون عن أباطيلهم إلا إذا جاءتهم

الملائكة قابضة أرواحهم ، أو يأتيهم عذاب الاستئصال فلا يبقى منهم أحدا ، ثم أتبعه بيان أن هؤلاء ليسوا ببدع في الأمم ، فقد فعل من قبلهم مثل فعلهم فأصابهم الهلاك جزاء ما فعلوا ، وما ظلمهم الله ولكن هم قد ظلموا أنفسهم : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » .

الإيضاح

(هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة) أى ما ينتظر كفار مكة الذين قالوا إن القرآن أساطير الأولين ، إلا أن تأتيهم الملائكة تقبض أرواحهم .
 (أو يأتى أمر ربك) بالعذاب فى الدنيا كما فعل بأسلافهم من الكفار ، فيرسل عليهم الصواعق أو يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ، وهذا تهديد لهم على تماديهم فى الباطل واغترارهم بالدنيا .
 وخلاصة هذا — حثهم على الإيمان بالله ورسوله ، والرجوع إلى الحق قبل أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم من السالفين المكذبين لرسولهم .
 ثم ذكر أنهم ليسوا بأول من كذب الرسل فقال :
 (كذلك فعل الذين من قبلهم) أى هكذا تمادى أسلافهم فى شركهم حتى ذاقوا بأسنا وحل بهم عذابنا ونكالنا .
 ثم ذكر أن ما يصيبهم جزاء لما كسبت أيديهم فقال :
 (وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى وما ظلمهم الله بإنزال العذاب بهم ، لأنه أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه ، ولكن ظلموا أنفسهم بمخالفة الرسل وتكذيبهم ما جاءوا به .
 ثم أعتبه بذكر ما ترتب على أعمالهم فقال :
 (فأصابهم سيئات ما عملوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى فلهذا أصابتهم

عقوبة الله على ما فعلوا وأحاط بهم عذابه الأليم جزاء ما كانوا يسخرون من الرسل حين توعدوهم بمقابله .

ونحو الآية قوله : « هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُسَكَّدُونَ » .

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (٣٦) إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٧) .

شرح المفردات

الطاغوت: كل معبود دون الله من شيطان وكاهن وصنم وكل من دعا إلى ضلال ويقع على الواحد كقوله « يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا كَمَا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ » وعلى الجمع كقوله « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءَهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ » حقت: وجبت وثبتت بالقضاء السابق في الأزل لإصراره على الكفر والعناد .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر سبحانه أن هؤلاء المشركين لا يزدجرون إلا إذا جاءتهم الملائكة بالتهديد والوعيد أو أتاهم عذاب الاستنصال كما حدث لمن قبلهم من الأمم جزاء استهزائهم برسول الله - قفى على ذلك بيان أنهم طعنوا في إرسال الأنبياء جملة وقالوا

إنا مجبورون على أعمالنا فلا فائدة من إرسالهم ، فلو شاء الله أن تؤمن به ولا نشرك به شيئاً ونحل ما أحله ولا نحرّم شيئاً مما حرّمنا لكان الأمر كما أراد ، لكنه لم يشأ إلا ما نحن عليه ، فما يقوله الرسل إنما هو من تلقاء أنفسهم لا من الله .
وقد رد الله عليهم مقالهم بأنه كلام قد سبق بمثله المكذبون من الأمم السالفة ، وما على الرسل إلا التبليغ وليس عليهم الهداية ، ولم يترك الله أمة دون أن يرسل إليها هادياً يأمر بعبادته وينهاهم عن الضلال والشرك ، فمنهم من استجاب دعوته ومنهم من أضله الله على علم ، فحقت عليهم كلمة ربك وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ثم أمرهم بالضرب في الأرض ليروا آثار أولئك المكذبين الذين أخذوا بذنوبهم ، ثم ذكر رسول الله بأن الحرص على إيمانهم لا ينفك شيئاً ، فإن الله لا يخلق الهداية جباً وقسراً فيمن يختار الضلالة لنفسه ، كما لا يجد أحداً يدفع عنه بأس الله ونعمته .

الإيضاح

(وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آبائنا ولا حرّمنا من دونه من شيء) أي وقال الذين أشركوا بالله فعبدوا الأصنام والأوثان من دون الله معتذرين عما هم عليه من الشرك محتجين بالقدر : ما نعبد هذه الأصنام إلا لأن الله قد رضى عبادتنا لها ، ولا حرّمنا ما حرّمنا من البحائر والسوائب والوصائل ونحو ذلك إلا لأن الله قد رضى ذلك منا ، ولو كان كارهاً لما فعلنا لهدانا إلى سواء السبيل ، أو لعجل لنا العقوبة وما مكننا من عبادتها .

وقد رد الله عليهم شبهتهم بقوله :

(كذلك فعل الذين من قبلهم) أي ومثل ذلك الفعل الشنيع فعل الذين من قبلهم من الأمم واستن هؤلاء سنتهم وسلكوا سبيلهم في تكذيب الرسول واتباع أفعال آبائهم الضلال .

ثم بين خطأهم فيما يقولون ويفعلون فقال :

(فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) أى فهل على الرسل الذين أمروا بتبليغ رسالات ربهم من أمره ونهيه إلا إبلاغ الرسالة وإيضاح طريق الحق وإظهار أحكام الوحي التى منها أن مشيئته تعالى تتعلق بهداية مَنْ وَجَّهَ هِمَّتَهُ إِلَى تَحْصِيلِ الْحَقِّ كَمَا قَالَ « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » وليس من وظائفهم إلقاء الناس إلى الإيمان شاءوا أو أبوا ، فإن ذلك ليس من شأنهم ولا من الحكمة التى عليها مدار التكليف حتى يستدل بعدم ظهور آثارها على عدم حقيقة الرسل أو على عدم تعلق مشيئة الله بذلك .

وقصارى هذا— إن الثواب والعقاب لا بد فيهما من أمرين : تعلق مشيئته تعالى بوقوع أحدهما ، وتوجيه همه العبد إلى تحصيل أسبابه وصرف اختياره إلى الدأب على إيجاده ، وإلا كان كل من الثواب والعقاب اضطراريا لا اختياريا ، والرسل ليس من شأنهم إلا تبليغ الأوامر والنواهي ، أما العمل بها إلقاء وقسرا فليس من وظائفهم لافى كثير ولا قليل .

ثم بين سبحانه أن بعثة الرسل أمر جرت به السنة الإلهية فى الأمم كلها ، وجعلت سببا لهدى من أراد الله هدايته وزيادة ضلال من أراد ضلاله كالغذاء الصالح ينفع المزاج السوى ويقويه ويضر المزاج المنحرف ويفنيه فقال :

(ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) أى ولقد أرسلنا فى كل أمة سلفت قبلكم رسولا كما بعثنا فيكم رسولا ، فقال لهم : اعبدوا الله وحده لا شريك له واحذروا أن يغويكم الشيطان ويصدكم عن سبيل الله فتضلوا . ونحو الآية قوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » وقوله : « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ؟ » .

وإجمال القول — إن المشيئة الشرعية للكفر منتفية ، لأنه تعالى نهاهم عن ذلك على أسنة رسوله ، والمشية الكونية وهى تمكين عباده من الكفر وتقديره لهم

على حسب اختيارهم وصرف همتهم إلى تحصيل أسبابه ، لاجحة لهم فيها ، لأنه تعالى خلق النار وجعل أهلها من الشياطين وأهل الكفر ، وهو لا يرضى لعباده الكفر ، وله في ذلك حجة ناصعة وحكمة بالغة .

ثم بين سبحانه أنه أنكر على عباده المكذبين كفرهم بإنزال العقوبة بهم في الدنيا بعد إنذار الرسل فقال :

(فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) أى فمن بعثنا فيهم رسلنا من هداه الله ووقفه لتصديقتهم وقبول إرشادهم والعمل بما جاءوا به ، فجازوا وأفلحوا ونجوا من عذابه ، ومنهم من جاروا عن قصد السبيل فكفروا بالله وكذبوا رسله واتبعوا الطاغوت فأهلكهم بعقابه وأنزل بهم شديد بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين .

(فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أى فسيروا فى الأرض التى كان يسكنها القوم الظالمون ، والبلاد التى كانوا يعمرونها كديار عاد وثمود ومن سار سيرتهم ممن حقت عليه الضلالة ، وانظروا إلى آثار سخط الله عليهم ، لعلمكم تعتبرون بما حل بهم .

ثم خاطب سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم مسلياً له عما يراه من جحود قومه وشديد إعراضهم ومبالغتهم فى عنادهم مع حذبه عليهم وعظيم رغبته فى إيمانهم ، ومبيناً له أن الأمر بيد الله وليس له من الأمر شيء فقال :

(إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل) أى إن تحرص أيها الرسول على هداية قومك - لا ينفعمهم حرصك إذا كان الله يريد إضلالهم بسوء اختيارهم وتوجيه عزائمهم ، إلى عمل المعاصى والإشراك بربهم .

ونحو الآية قوله : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » وقوله حكاية عن مقالة نوح لقومه : « وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ » وقوله : « مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

ومجمل القول — إن من اختار الضلالة ووجه همته إلى تحصيل أسبابها فالله سبحانه لا يخلق فيه الهداية قسرا وإجاء ، لأن مدار الإيمان والكفر الاختيار لا الإجاء والاضطرار .

(وما لهم من ناصرين) أى وما لهم ناصر ينصرهم من الله إن أراد عقوبتهم كما قال : « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ » .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ، بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠) .

شرح المفردات

الجهد ، بفتح الجيم : المشقة : وبضمها : الطاقة ، وجهد أيمانهم : أى غاية اجتهادهم فيها ، وبلى : كلمة جواب كنتم لكنها لاتقع إلا بعد النفي فتثبت ما بعده ، وعدا عليه حقا : أى وعد ذلك وعدا عليه حقا ، أى ثابتا متحققا لا شك فيه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه حججهم وقولهم إنه لا حاجة إلى الأنبياء جميعا ، لأننا مجبورون فيما نعمل ، وأنه لو شاء الله أن نهتدى لكان ، دون حاجة إلى إرسال الأنبياء ، وردة عليهم بأن الحاجة إليهم إنما هي فى تبليغ ما أمر به وترك ما نهى عنه ولا يلزمون أحدا بإيمان ولا كفر — أردف هذا بشبهة أخرى لهم ، إذ قالوا إنما نحتاج إلى الأنبياء لو كان لنا عودة إلى حياة جديدة بعد الموت فيها ثواب وعقاب ، ولكن

العودة إلى حياة أخرى غير ممكنة ولا معقولة - ذاك أن الجسم إذا تفرق وذهبت أجزاؤه كل مذهب امتنع أن يعود بعينه ليحاسب ويعاقب ، فرد الله عليهم ما قالوا بأن هذا ممكن وقد وعد عليه وعدا حقا ، وأنه فعل ذلك ليميز الخبيث من الطيب والعاصي من المطيع ، وأيضا فياجده تعالى للأشياء لا يتوقف على سبق مادة ولا آلة ، بل يقع ذلك بمحض قدرته ومشيئته وليس لقدرته دافع ولا مانع .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه فكان فيما تكلم به ، والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا وكذا ، فقال له المشرك : إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت ، وأقسم جهد يمينه لا يبعث الله من يموت ، فأنزل الله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) الآية . وأخرج هؤلاء عن أبي هريرة قال : « قال الله سبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يسبني ، وكذبني ولم يكن ينبغي له أن يكذبني ، فأما تكذبيه إياي فقال (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) وقلت : (بلى وعدا عليه حقا) وأماسبه إياي فقال : (إن الله ثالث ثلاثة) وقلت : (هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد) » .

الإيضاح

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) أي إنهم اجتهدوا في الخلف وأغلظوا في الأيمان أنه لا يقع بعث بعد الموت ، وهذا استبعاد منهم لحصوله ، من جرأه أن الميت يفنى ويعدم ، والبعث إعادة له ، وإعادة المعدوم مستحيلة . وقد رد الله عليهم وكذبهم بقوله :

(بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أي بلى سيبعثه الله بعد مماته وقد وعد بذلك وعدا حقا لا بد منه ، ولكن أكثر الناس لجهلهم بشئون الله وصفات كماله من علم وقدره وحكمته ونحوها ، لا يعلمون أن وعد الله لا بد من نفاذه

وأنه باعثهم بعد مماتهم يوم القيامة أحياء ، ومن قبل هذا جرؤوا على مخالفة الرسل ووقعوا في الكفر والمعاصي .

ثم ذكر سبحانه الحكمة في المعاد ، وقيام الأجساد يوم التناد فقال :

(ليبين لهم الذي يختلفون فيه) أى بل يبعثهم ليبين لهم وجه الحق فيما جاء به الرسل وخالفتهم فيه أممهم ، فيمتاز الخبيث من الطيب والمطيع من العاصي والظالم من المظلوم ، إلى نحو أولئك مما كان مدار دعوة أولئك الرسل وأنكرته الأمم الذين أرسلوا إليهم ، ويجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

(وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) أى وليعلم الذين جحدوا وتوعدوا بالبعث والجزاء أنهم كانوا كاذبين في قولهم : لا يبعث الله من يموت ، وسيدعون إلى نار جهنم دعاً وتقول لهم الزبانية : « هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ . أُنْسِجْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصِرُونَ . أَضَلُّوْهَا فَاضْبِرُّوْا أَوْ لَا تَضْبِرُّوْا سَوَاءَ عَلَيكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

ثم أخبر سبحانه عن كامل قدرته وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء فقال :

(إِنَّمَا قَوْلُنَا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) أى إنا إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب في إحيائه ولا بعثه ، لأننا إذا أردنا ذلك فإنما نقول له : كن فيكون ، لامعانة فيه ولا كلفة علينا .

ونحو الآية قوله : « فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » وقوله : « وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » وقوله : « مَا خَلَقْكُمْ وَلَا بَعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » .

وخلاصة هذا — إنه تعالى مثل حصول المقدورات وفق مشيئته وسرعة حدوثها

حين إرادته ، بسرعة حصول المأمور حين أمر الأمر وقوله دون هوادة ولا تراخ .

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ،
وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) .

المعنى الجملى

بعد أن حكي سبحانه أن الكفار أقسموا بالله جهد أيمانهم على إنكار البعث والقيامة، وتماديهم في النفي والضلالة، (ومن هذه حاله فليس بالعسير عليه أن يقدم على إيذاء المؤمنين بألوان من الإيذاء حتى يضطروهم إلى الهجرة عن الديار ومفارقة الأهل والأوطان) - ذكر هنا حكم تلك الهجرة وبين ما لهؤلاء المهاجرين من حسنات في الدنيا وأجر في الآخرة، من جَرَاء أنهم فارقوا أوطانهم وصبروا وتوكلوا على الله، وفي هذا ترغيب لغيرهم في الهجرة واحتمال كل أذى في سبيل الله احتساباً للأجر. أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في هذه الآية قال: هؤلاء أصحاب محمد ظلهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة، ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين.

الإيضاح

(والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوتهم في الدنيا حسنة) أى والذين فارقوا قومهم ودورهم وأوطانهم وذهبوا إلى بلاد أخرى احتساباً لأجر الله ونيلاً لمرضاته من بعد ما نالهم من الكفار من أذى في أنفسهم وأموالهم - لنسكنهم في الدنيا مساكن حسنة يرضونها، إذ هم لما تركوا مساكنهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله عوضهم خيراً منها في الدنيا، فسكن لهم في البلاد، وحكمهم في رقاب العباد، وصاروا أمراء وحكاماً، وكل منهم للمتقين إماماً.

ثم أخبر سبحانه أن ثوابه لهم في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا فقال :

(ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) أى ولثواب الله إياهم على هجرتهم من أجله في الآخرة أكبر ، لأن ثوابه إياهم هنالك الجنة التى لا يفتنى نعيمها ولا يزول خيرها .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله فى الدنيا ، وما ذخره لك فى الآخرة أفضل ثم تلا هذه الآية .

(الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) أى هؤلاء هم الذين صبروا على ما نالهم من أذى قومهم ولم يرجعوا التهقيرى ، وعلى مفارقة الوطن المحبوب ، وعلى احتمال الغربة بين ناس لم تجمعهم بهم ألفة نسب ولا جوار فى دار ، وقد فوضوا أمرهم إلى ربهم الذى أحسن لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة ، وأعرضوا عن كل ما سواه .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ
 إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ
 لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا
 السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ
 لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ
 يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧) أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى
 مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ
 دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ

وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠) .

شرح المفردات

أهل الذكر : أهل الكتاب كما قال : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ
الذِّكْرِ » أى التوراة ، والبينه : هى المعجزات الدالة على صدق الرسول ، والزبر :
واحدها زبور ، وهى كتب الشرائع والتكاليف التى يبلغها الرسل إلى العباد ، والذكر :
القرآن ، لتبين للناس : أى لتوضح لهم ما خفى عليهم من أسرار التشريع ، والمكر :
السعى بالفساد خفية ، والسيئات : أى الأعمال التى تسوءهم عاقبتها ، يخسف بهم
الأرض : أى يزيلها من الوجود وهم على سطحها ، فى قلبهم : أى فى أسفارهم وسيرهم
فى البلاد البعيدة للسعى فى أرزاقهم كما قال : « لَا يَغْرَنَّاكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا
فِي الْبِلَادِ » بمعجزين : أى بفائتين الله تعالى بالهرب والفرار ، والتنقص :
من قولهم تخوفت الشيء وتخيفته إذا تنقصته ، والمراد أنه ينقص أموالهم وأنفسهم
قليلا قليلا حتى يأتى عليها الفناء جميعا ، ويتفياً : من الفء يقال فاء الظل يفتىء فيئا
إذا رجع وعاد بعد ما أزاله ضياء الشمس ، والظلال : واحدها ظل وهو ما يكون
أول النهار قبل أن تناله الشمس ، قال رؤبة : كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه
فهو فىء ، ومالم يكن عليه الشمس فهو ظل ، واليمين والشمال : جانبا الشيء الكثيف
من الجبال والأشجار وغيرها ، والسجود : الاتقياد والخضوع من قولهم سجدت
النخلة إذا مالت لكثرة الحمل ، ومنه قوله : « واسجد لقرء السوء فى زمانه » أى اخضع
له ، داخرون : أى صاغرون منقادون واحدهم داخر وهو الذى يفعل ما تأمره به شاء
أو أبى ، يخافون ربهم : أى يخافون عقابه ، من فوقهم : أى بالقهر والغلبة كما قال :
« وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ » .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جلت قدرته ما قاله المشركون من أنهم لا حاجة بهم إلى الأنبياء ، لأن الحاجة إليهم إنما تدعو لو كانت هناك حياة أخرى يحاسبون فيها وهم لا يصدقون بها وليس من المعقول أن تكون - أردف ذلك بشبهة أخرى لهم إذ قالوا هب الله أرسل رسولا فليس من الجائز أن يكون بشرا فالله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحدا من البشر ، فلو بعث إلينا رسولا لبعثه ملكا ، ثم أجاب عن هذه الشبهة بأن سنة الله أن يبعث رسوله من البشر ، وإن كنتم في شك من ذلك فاسألوا أهل الكتاب عن ذلك ، ثم هددهم أن يخسف بهم الأرض كما خسف بقارون ، أو يأتيهم بعذاب من السماء فيهلكهم بغتة كما فعل بقوم لوط ، أو يأخذهم وهم يتقلبون في أسفارهم ومعايشهم ، أو يأخذهم طائفة بعد أخرى ؛ ثم أعتب هذا بما يدل على كمال قدرته في تدبير أحوال العالم العلوى والسفلى على أتم نظام وأحكم تقدير .

الإيضاح

(وما أرسلنا من قبلك إلا رجلا نوحى إليهم) أى وما أرسلنا من قبلك رسلا إلى أممهم للدعوة إلى توحيدنا والالتقاء إلى أمرنا - إلا رجلا من بنى آدم نوحى إليهم لاملائكة .

ومجمل القول - إننا لم نرسل إلى قومك إلا مثل الذين كنا نرسلهم إلى من قبلهم من الأمم أى رسلا من جنسهم وعلى منهاجهم ؛ روى الضحاك عن ابن عباس أن الله لما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم أنكر العرب ذلك وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا فأنزل الله : « أَكَانَ لِلنَّاسِ مَجْبَأً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ » الآية .

ونحو الآية قوله : « وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ » وقوله : « مَا هَذَا

إِلَّا بَشَرًا مِثْلَكُمْ يَا كُلُّ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ. وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا تُخَاسِرُونَ « وقوله : « وَقَالُوا كَوَلَا نُؤْتِرُكَ عَلَيهِ مَلَكَ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا » .

(فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) أى فاسألوا أهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى : أبشرا كانت الرسل إليهم أم ملائكة ؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم وإن كانوا بشرا فلا تنكروا أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم رسولا .

(بالبينات والزبر) تقول العرب زبرت الكتاب : أى كتبته كما قال تعالى « وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ » أى وما أرسلنا رسلا إلا رجلا بالأدلة والحجج التى تشهد لهم بصدق نبوتهم ، والكتب التى تشمل التكاليف والشرايع التى يبلغونها من الله إلى العباد .

(وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) أى وأنزلنا إليك القرآن تذكيرا وعظة للناس ، لتعرفهم ما أنزل إليهم من الأحكام والشرايع وأحوال القرون المهلكة بأفانين العذاب جزاء عنادهم مع أنبيائهم ، وتبين لهم ما أشكل عليهم من الأحكام وتفصل لهم ما أجل على حسب مراتبهم فى الاستعداد والفهم لأسرار التشريع .

(ولعلمهم يتفكرون) أى وتوقعا منك وانتظارا لتفكرهم فى هاتيك الأسرار والعبر ، وإبعادا لهم عن سلوك سبيل الغابرين من المكذبين حتى لا يصيبهم مثل ما أصابهم .

ثم حذرهم وخوفهم مغبة ما هم فيه من العصيان والكفر فقال :

(أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون . أو يأخذهم فى تقلبهم فأمم بمعجزين . أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم) أى أفأمن الذين مكروا برسول الله من أهل مكة ، وراموا صد أصحابه عن الإيمان بالله أن يصيبهم بعقوبة من عنده :

(١) إما بأن يخسف بهم الأرض ويبيدهم من صفحة الوجود كما فعل بقارون

من قبل .

(٢) وإما بأن يأتيهم بعذاب من السماء فجأة من حيث لا يشعرون كما صنع بقوم لوط .

(٣) وإما بأن يأخذهم بعقوبة وهم في أسفارهم يكدحون في الأرض ابتغاء الرزق ، وما هم بممتنعين عليه فانتين له بالهرب والفرار كما قال : « وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى ليملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

(٤) وإما بأن يخيفهم أولاً ثم يعذبهم بعد ذلك ، بأن يهلك طائفة فتخاف التي تليها حتى يأتي عليهم جميعاً ، ويكون هذا أشد عليهم إيلاماً ووحشة .

وختم الآية بما ختم به ، لبيان أنه لم يأخذهم بعذاب معجل ، بل أخذهم بحالات يخاف منها كالرياح الشديدة والصواعق والزلازل ، وفي ذلك امتداد وقت ومهلة يمكن فيها تلافى التقصير ، وهذا من آثار رحمته بعباده .

ثم ذكر آثار قدرته على خلقه فقال :

(أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفياً ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون) أى ألم ينظر هؤلاء الذين مكروا السيئات إلى ما خلق الله من الأجسام القائمة كالأشجار والجبال التي تتفياً ظلالها وترجع من موضع إلى موضع عن اليمين والشمائل ، فهي في أول النهار على حال ثم تتقلص ثم تعود إلى حال أخرى في آخر النهار مائلة من جانب إلى جانب ومن ناحية إلى أخرى ، صاغرة منقادة لربها خاضعة لقدرته .

ثم ذكر ما هو كالدليل لما سلف فقال :

(والله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون) أى والله يخضع ما فى السموات وما فى الأرض مما يدب عليها ، وكذلك ملائكته الذين فى السماء وهم لا يستكبرون عن التبذل والخضوع له .

(يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) أى يخاف هؤلاء الملائكة

والدواب التي في الأرض ربهم الذي هو من فوقهم بالقوة والقهر - أن يعذبهم إن عصوه ، ويفعلون ما أمرهم به ، فيؤدون حقوقه ويحتمنون سخطه .

ونحو الآية قوله : « وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ » .

ومجمل القول - إنه تعالى نبه إلى أنه لعظمته وكبريائه تدين له المخلوقات بأسرها جمادها ونباتها وحيوانها ومكفوها من الإنس والجن والملائكة .

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ، فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ (٥١) وَآلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآلَهُ الدِّينُ وَأَصِيبًا، أَفَعَبِيرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ؟ (٥٢) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ قَالَ إِلَيْهِ تُجَاءرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضَّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) .

شرح المفردات

الرهبة : الخوف ، والدين : الطاعة ، والواصب : الدائم كما قال : « لَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ » وتجأرون : أى تتضرعون لكشفه . وأصل الجوار : صياح الوحش ثم استعمل في رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة .

المعنى الجملى

لما بين سبحانه في الآيات السالفة أن كل ما سواه من جماد وحيوان وإنس ورجن وملك - منقاد له وخاضع لسلطانه - أتبع ذلك بالنهي عن الشرك به ، وبيان أن كل ما سواه فهو ملكه وأنه مصدر النعم كلها ، وأن الإنسان يتضرع إليه إذا مسه

الضر ، فإذا كشفه عنه رجع إلى كفره ، وأن الحياة الدنيا قصيرة الأمد ثم يعلم الكفار عدتذ ما يحل بهم من النكال والوبال جزاء لهم على سيء أعمالهم وقبيح أفعالهم .

الإيضاح

(وقال الله لا تتخذوا إلهين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون) أى وقال الله لعباده : لا تتخذوا لى شريكاً ولا تعبدوا سواى ، فإنكم إذا عبدتم معى غيرى جعلتموه لى شريكاً ، ولا شريك لى ، إنما هو إله واحد ، ومعبود واحد ، وأنا ذاك ، فاتقونى وخافوا عقابى ، بمعصيتكم إياى ، ياشرأكم بى غيرى ، أو عبادتكم سواى .

وإنما ذكر العدد مع أن صيغة التثنية مغنية عنه ، للدلالة على أن المنهى عنه هى الاثنينية وأنها منافية للألوهية ، كما أن وصف الإله بالوحدة فى قوله (إنما هو إله واحد) للدلالة على أن المقصود إثبات الوحداية وأنها من لوازم الألوهية ، أما الألوهية فغير منكورة ولا متنازع فيها .

وإخلاصة — إنه تعالى أخبر أنه لا إله إلا هو وأنه لا تنبغى العبادة إلا له وحده (وله ما فى السموات والأرض وله الدين واصباً) أى والله ملك ما فى السموات والأرض من شىء ، لا شريك له فى شىء من ذلك ، وهو الذى خلقهم ، وهو الذى يرزقهم ، ويبيده حياتهم وموتهم ، وله الطاعة والإخلاص على طريق الدوام والثبات . ثم ذكر ما هو كالنتيجة لذلك فقال :

(أفغير الله تتقون) أى أبعد أن علمتم هذا ترهبون غير الله وتحذرون أن يسلبكم نعمة أو يجلب لكم أذى ، أو ينزل بكم نقمة إذا أتمم أخلصتم العبادة لربكم ، وأفردتم الطاعة له ، وما لكم نافع سواه .

وإجمال ذلك — إنكم بعد أن عرفتم أن إله العالم واحد ، وعرفتم أن كل

ما سواه فهو في حاجة إليه في وجوده وبقائه ، كيف يعقل أن يكون لامرئ رغبة
أو رهبة من غيره ؟

ولما بين أن الواجب ألا يتقى غير الله — ذكر أنه يجب ألا يشكر إلا
هو فقال :

(وما بكم من نعمة فمن الله) أى وما بكم من نعمة في أبدانكم من عافية وصحة
وسلامة ، وفي أموالكم من نماء وزيادة ، فالله هو المنعم بها عليكم ، والمتفضل بها
لا سواه ، فبيده الخير وهو على كل شيء قدير ، فيجب عليكم أن تشكروه على هذه
النعم المتواصلة ، وإحسانه الدائم الذى لا ينقطع .

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

(ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون) أى ثم إذا أصابكم في أبدانكم سقم ومرض
أو حاجة عارضة ، أو شدة وجهد في العيش ووسائل الحياة ، فإليه تصرخون بالدعاء
وتستغيثون به ليكشف ذلك عنكم ، علما منكم أنه لا يقدر على إزالة ذلك إلا هو .

(ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم يشركون) أى ثم إذا
وهب لكم ربكم العافية ، ورفع عنكم ما أصابكم من مرض في أبدانكم ، أو شدة
في معاشكم بتفريج البلاء عنكم إذا جماعة منكم يجعلون لله شريكا في العبادة ،
فيعبدون الأوثان ، ويذبحون لها الذبائح ، شكرا لغير من أنعم بالفرج ، وأزال
من الضر .

ونحو الآية قوله : (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ ،
فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضُوا وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا » .

قال السيد الألوسى في تفسيره : وفي الآية ما يدل على أن صنيع العوام اليوم
من الجوار إلى غير الله تعالى ممن لا يملك لهم بل ولا لنفسه نفعاً ولا ضراً — عند
إصابة الضر بهم وإعراضهم عن دعائه تعالى بالكلية — سفه عظيم وضلال جديد

لكنه أشد من الضلال القديم ، ومما تقشعر منه الجلود ، لحصوله ممن يؤمن باليوم الموعود .

إن بعض المتشيعين قال لي وأنا صغير : إياك ثم إياك أن تستغيث بالله إذا خطب دهاك ، فإن الله تعالى لا يعجل في إغاثتك ، ولا يهتمه سوء حالتك ، وعليك بالاستغاثة بالأولياء السالقين ، فإنهم يعجلون في تفريج كربك ، ويهتمهم سوء ما حل بك ، ففج ذلك سمعى ، وهمى دمعى ، وسألت الله تعالى أن يعصمى والمسلمين من أمثال هذا الضلال المبين ، ولكثير من المتشيعين اليوم كلمات مثل ذلك اه .

(ليكفروا بما آتيناهم) أى قيضنا لهم ذلك لتكون عاقبة أمرهم أن يجحدوا نعم الله عليهم ، وأنه هو المسدى لها ، وأنه هو الكاشف للنقم عنهم . وقد فعلوا ذلك لسوء استعدادهم وخبث طويتهم ، وبما ران على قلوبهم من الكفر والعصيان ، فجحدوا فضل الملك الديان ، وإحسان صاحب الطول والإحسان .

ثم توعدهم على سوء صنيعهم وأبان لهم عاقبة أمرهم فقال :

(فتمتعوا فسوف تعلمون) أى فتمتعوا فى هذه الحياة الدنيا إلى أن توافيكم آجالكم ، وتبلغوا الميقات الذى وقت لحياتكم وتمتعكم فيها ، وبعدئذ ستصيرون إلى ربكم ، فتعلمون عند لقائه وبال ما كسبت أيديكم سوء مغبة عملكم ، وتندمون حين لا ينفع الندم .

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَنْفَعُهُمْ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا
 كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ
 (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨)
 يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ، أَيْمَسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدْمُسُهُ

فِي التُّرَابِ ؟ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
مَثَلُ السَّوْءِ ، وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) .

شرح المفردات

تفترون: أى تكذبون ، سبحانه: أى تنزيها له عن النقائص ؛ والبشارة فى أصل اللغة إلقاء الخبر الذى يؤثر فى تغير بشرة الوجه ، ويكون فى السرور والحزن فهو حقيقة فى كل منهما ، وعلى هذا جاءت الآية ، ثم خص فى عرف اللغة بالخبر السار ، ويقال لمن لقي مكروها قد اسود وجهه غما وحزنا ، ولمن ناله الفرح والسرور استنار وجهه وأشرق ، والكظيم: الممتلى غما وحزنا ؛ والكظم مخرج النفس يقال أخذ بكظمه إذا أخذ بمخرج نفسه ، ومنه كظم غيظه أى حبسه عن الوصول إلى مخرج النفس ، ويتوارى: أى يستخفى ؛ وقد كان من عادتهم فى الجاهلية أن يتوارى الرجل حين ظهور آثار الطلق بامرأته ، فإن أخبر بذكر ابتهج ، وإن أخبر بأثى حزن وبقى متواريا أياما يدبر فيها ما يصنع ، ويمسكه: أى يحبسه كقوله (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) والهون: الهوان والذل ، ويدسه: أى يخفيه ، ومثل السوء: أى الصفة السوء ، وهى احتياجهم إلى الولد وكرهاتهم للبنات خوف الفقر والعار ، والله المثل الأعلى: أى الصفة العليا وهى أنه لا إله إلا هو ، وأن له جميع صفات الجلال والكمال .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه سخف أقوال أهل الشرك ، أردف ذلك بذكر قبائح أفعالهم التى تمجها الأذواق السليمة .

الإيضاح

حكى سبحانه بعض قبائح المشركين الذين عبدوا الأوثان والأصنام وعدد منها:
(١) (ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم) أى ويجعل هؤلاء المشركون

للأصنام التي لا يعلمون منها ضرا ولا نفعا نصيبا مما رزقناهم من الحرث والأنعام وغيرهما مما خلق الله يتقربون به إليها ، وهذا إشرارك منهم لما لا يعلمون منه الفائدة بالذي يعلمون أنه الذي هو خلقهم وهو الذي رزقهم وهو الذي ينفعهم وهو الذي يضرهم دون غيره ، وقد سبق تفصيل ذلك فيما حكى الله عنهم في سورة الأنعام بقوله : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ يَمًّا ذَرَأً مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » .

ثم توعدهم على ما فعلوا فقال :

(تالله لتسألن عما كنتم تفترون) أى أقسم لأسألكم عما افتروا يتموه واختلقتموه من الباطل ، ولأعاقبنكم على ذلك عقوبة تكون كفاء كفرانكم نعمى ، وافترائكم على ونحو الآية قوله : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وهذا السؤال إنما هو سؤال تأنيب وتقرع لهم على ما اجترحوا من أقوال وأفعال (٢) (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون) أى ولقد بلغ من جهل هؤلاء المشركين وعظيم أباطيلهم أن افتروا على من خلقهم ، ودبر شؤونهم ، واستحق شكرهم على جزيل نعمائه — البنات فقالت خزاعة الملائكة بنات الله كما قال عز اسمه : « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً » وعبدوها مع الله وقد أخطئوا فى ذلك خطأ كبيرا وضلوا ضلالا بعيدا ، إذ نسبوا إليه الأولاد ولا أولاد له ، وأعطوه منها أحسبها وهى البنات وهم لا يرضونها لأنفسهم ، بل لا يرضون إلا البنين كما قال تعالى : « أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى ؟ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى » وقال : « أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ؟ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ » .

والمراد من قوله ولهم ما يشتهون : أنهم يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون من البنات التي نسبوها إلى الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

قال ابن عباس يقول : تجعلون لى البنات ، ترتضونهن لى ولا ترتضونهن
لأنفسكم .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من
سوء ما بشر به ، أي مسكه على هون أم يدسه فى التراب) أى وإذا بشر أحد هؤلاء
الذين جعلوا لله البنات بولادة أنثى ظل وجهه مسودا كثيبا من الهم ممتلئا غيظا وحنقا
من شدة ما هو فيه من الحزن ، يتوارى من الناس خجلا واستحياء ، ولا يود أن
يراه أحد من مساءته بما بشر بها ، ويدور بخلده أحد أمرين : إما أن يمسكها ويبقيها
بقاء ذلة وهوان فلا يورثها ولا يعنى بها بل يفضل الذكور عليها ، وإما أن يدسها
فى التراب ويدفنها وهى حية ، وذلك هو الواد المذكور فى قوله تعالى « وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ
سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ » .

ومعنى قوله (ألا ساء ما يحكمون) بئس ما قالوا وبئس ما قسموا وبئس ما نسبوه
أليه ، فإنهم بالغوا فى الاستنكاف من البنت من وجوه :

(١) اسوداد الوجه .

(٢) الاختفاء من القوم من شدة نفرتهم منها .

(٣) إنهم يقدمون على قتلها ووأدها خشية العار أو خوف الجوع والفقر .

ثم جعل تذييلا لما تقدم قوله :

(للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء) أى للذين لا يصدقون بالمعاد والثواب
والعقاب من المشركين ، صفة السوء التى هى كالمثل فى القبح من حاجتهم إلى الولد
ليقوم مقامهم بعد موتهم ، وتفضيلهم للذكور للاستظهار بهم ، ووأدهم للبنات خشية
العار أو الفقر ، وذلك يرمى إلى العجز والقصور والشح البالغ أقصى غاية .

(والله المثل الأعلى) أى وله تعالى الصفة العليا ، وهى أنه الواحد المنزه عن الولد
وأنه لا إله إلا هو ، وله صفات الكمال والجلال من القدرة والعلم والإرادة ونحو ذلك .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو المنيع تكبرا وجلالا لا يغلبه غالب ، الحكيم الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة البالغة .

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكُوا عَلَى ظُهُرِهِمْ دَابَّةً وَلا كِنَّ
يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً
وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَسِنَّتَهُمُ الْكُذِبَ
أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ (٦٢) تَاللَّهِ لَقَدْ
أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي
اختلفوا فيه وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) .

شرح المفردات

المراد من الناس: العصاة ، والأجل المسمى: يوم القيامة ، ويجعلون: يثبتون
وينسبون إليه ، وما يكرهون: هى البنات ، وتصف أسنتهم الكذب: أى يكذبون؛
كما يقال عينها تصف السحر أى ساحرة ، وقدّها يصف الهيف أى هى هيفاء ،
لاجرم: أى حقا ، مفرطون: أى مقدمون معجل بهم إليها من أفرطته إلى كذا أى
قدمته ، ويقال لمن تقدم إلى الماء لإصلاح الدلاء والأرسان فارط وفرط ، وليهم:
ناصرهم ومساعدتهم ، اليوم: أى فى الدنيا .

المعنى الجملى

لما حكى سبحانه عن المشركين عظيم كفرهم وقبيح أفعالهم — بين هنا حمله
بخلفه مع ظلمهم وأنه يمههم بالعقوبة إظهارا لفضله ورحمته ، ولو أخذهم بما كسبت

أيديهم ما ترك على ظهر الأرض دابة ، أما الظالم فيظلمه وأما غيره فبشؤمه كما قال سبحانه : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » ولكنه سبحانه يعلم ويستر وينظر إلى أجل مسمى ، ثم سلى رسوله صلى الله عليه وسلم عما كان يناله من أذى عشيرته بأن قومه ليسوا يبدع في الأمم فقد أرسلنا رسلا إلى أمم من قبلك فكذبوهم فلنك بهم أسوة ، فلا يحزنك تكذيبهم ولا تبخع نفسك عليهم أسي وحسرة.

الإيضاح

(ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة) أى ولو يؤاخذ الله عصاة بنى آدم بمعاصيهم ما ترك على ظهر الأرض دابة .

أخرج البيهقي وغيره عن أبى هريرة أنه سمع رجلا يقول : إن الظالم لا يضر إلا نفسه ، فقال لا والله بل إن الجبارى فى وكرها لتموت من ظم الظالم .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه كاد الجمل (الجران) يهلك فى جحره بذنب ابن آدم ثم قرأ الآية .

وأخرج أحمد عن أبى هريرة أنه قال : ذنوب ابن آدم قتلت الجمل فى جحره ثم قال إى والله زمن غرق قوم نوح عليه السلام .

(ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) أى ولكن بجله يؤخر هؤلاء الظلمة فلا يعاجلهم بالعقوبة إلى أجل سماه الله لعذابهم ، فإذا جاء الوقت الذى وقت لهلاكهم لا يستأخرون عن الهلاك ساعة فيمهلون ولا يستقدمون قبله حتى يستوفوا أعمارهم ، وقد تقدم نظير هذا .

(ويجعلون لله ما يكرهون) أى وينسب هؤلاء المشركون إلى الله سبحانه ما يكرهون لأنفسهم من البنات والشركاء فى الرياسة .

(وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى) أى ويكذبون فيما يدعون إذ يزعمون

أن لهم العاقبة الحسنى عند الله وهى الجنة على تقدير وجودها ، فقد روى أنهم قالوا :
 إن كان محمد صادقا فى البعث فلنا الجنة بما نحن عليه ، فرد الله عليهم مقابلهم بقوله :
 (لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون) أى حقا إن لهم النار وليس بعد عذابها
 عذاب ، وأنه معجل بها إليهم وهم مقدمون لها .

ثم بين سبحانه أن هذا الصنيع الذى صدر من قريش قد حدث مثله من الأمم
 السالفة فى حق أنبيائهم فقال مسلماً رسوله فيما كان يناله من الغم بسبب جهالاتهم .
 (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم
 ولهم عذاب أليم) أى والله لقد أرسلنا رسلا من قبلك إلى أممهم بمثل ما أرسلناك به
 إلى أمتك من الدعاء إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له ، وخلع الأنداد والأوثان ،
 فحسن لهم الشيطان ما كانوا عليه مقيمين من الكفر به وعبادة الأوثان ،
 فكذبوا رسالهم وردوا عليهم ما جاءوا به من عند ربهم ، وما كان ناصرهم فيما
 اختاروا إلا الشيطان وبئس الناصر والمعين ، ولهم فى الآخرة عذاب أليم حين ورودهم
 إلى ربهم ، إذ لا تنفعهم إذ ذاك ولاية الشيطان كما لم تنفعهم فى الدنيا .

ثم ذكر سبحانه أنه ما أهلك من أهلك ، إلا بعد أن أقام الحجة ، وأزاح
 العلة فقال :

(وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم
 يؤمنون) أى وما أنزلنا عليك كتابنا وما بعثناك به إلى عبادنا إلا لتبين لهم
 ما اختلفوا فيه من دين الله ، فيعرفوا الحق من الباطل ، وتقيم عليهم حجة الله التى
 بعثك بها ، وهو هدى للقلوب الضالة ، ورحمة لقوم يؤمنون به فيصدقون بما فيه ،
 ويقرون بما تضمنه من أمر الله ونهيه ويعملون به .

وخلاصة ذلك — إن هذا الكتاب هو الفاصل بين الناس فيما يتنازعون فيه ،
 وأنه الهادى لهم إلى سبيل الرشاد .

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩).

شرح المفردات

المراد بحياة الأرض: إنباتها الزرع والشجر وإخراجها الثمر، يسمعون: أى يسمعون سماع تدبر وفهم. قال الفراء والزجاج: النعم والأنعام واحد يذكر ويؤنث، ولهذا تقول العرب هذه نعم واردة، ورجحه ابن العربي فقال إنما يرجع التذكير إلى معنى الجمع والتأنيث إلى معنى الجماعة وقد جاء بالوجهين هنا وفي سورة المؤمنين، والعبرة: الاعتبار والعظة، والفرت: كثيف ما يبقى من الماء كقول في السكرش والمعنى، خالصا: أى مصفى من كل ما يصحبه من مواد أخرى، سائغا: أى سهل المرور فى الحلق، يقال ساع الشراب فى الحلق وأساعه صاحبه قال تعالى: «وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ» والسكر: الخمر، والرزق الحسن: الخل والرُبُّ والتمر والزبيب ونحو ذلك، وأوحى: ألهم وعلم، وبيوتها: أى أوكارا؛ وأصل البيت مأوى الإنسان واستعمل هنا فى الوكر الذى تبنيه النحل لتعسل فيه لما فيه من دقة الصنع وجميل الهندسة، ويعرشون: أى يرفعون من الكروم والسقوف، والسبل: الطرق واحدها سبيل، والذلل واحدها ذلول: أى

منقادة طائفة ، والشراب العسل ، مختلف ألوانه من أبيض إلى أصفر إلى أسود على حسب اختلاف المرعى .

المعنى الجملى

بعد أن وعد المؤمنين بجنات تجري من تحتها الأنهار ، وأوعد الكافرين بنار تلظى جزاء ما دنسوا به أنفسهم من الإشراف بربهم ونسبة البنات إليه وافترائهم عليه ما لم ينزل به سلطانا — عاد إلى ذكر دلائل التوحيد من قبل أنه قطب الرعى فى الدين الإسلامى وكل دين سماوى ، ويليه إثبات النبوات والبعث والجزاء ، فبين أنه أنزل المطر من السماء لتحيا به الأرض بعد موتها ، وثنى بإخراج اللبن من الأنعام ، وثالث باتخاذ الحمر والنحل والدبس من الأعناب والنخيل ، وربّع بإخراج العسل من النحل وفيه شفاء للناس ، وقد بين أثناء ذلك كيف ألهم النحل بناء البيوت والبحث عن أرزاقها من كل فج .

الإيضاح

(والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون) نبه سبحانه عباده إلى الحجج الدالة على توحيده ، وأنه لا تنبى الألوهية إلا له ، ولا تصلح العبادة لشيء سواه ، فبين أن ذلك المعبود هو الذى أنزل من السماء مطرا ، فأثبت به أنواعا مختلفة من النبات فى أرض ميتة يابسة ، لزرع فيها ولا عشب ، إن فى ذلك الإحياء بعد الموت لدليلا واضحا ، وحجة قاطعة على وحدانيته تعالى وعلمه وقدرته لمن يسمع هذا القول سماع تدبر وفهم لما يسمع ، إذ لا عبرة بسمع الآذان ، فهو أشبه بسمع الحيوان .

وبعد أن ذكر نزول الماء من السحاب ذكر خروج اللبن من الضرع ، وفيه أكبر الأدلة على قدرة القادر فقال :

(وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين) أى وإن لكم أيها الناس لعظة فى الأنعام دالة على باهر قدرتنا ، وبديع صنعنا ، وواسع فضلنا ، ورحمتنا بعبادنا ، فإننا نسقيكم مما فى بطونها من اللبن الخالص من شائبات المواد الغريبة ، السهل التناول ، اللذيذ الطعم ، وهو متولد من بين فرث ودم .

فان الله جلت قدرته جعل الحيوان يتغذى بما يأكل من نبات ولحوم ونحوها حتى إذا هضم الماء كحول يتحول بإذنه تعالى إلى عصارة نافعة للجسم وفضلات تطرد إلى الخارج ، ومن هذه العصارة يتكون الدم الذى يسرى فى عروق الجسم لحفظ الحياة وبعض هذا الدم يذهب إلى الغدد التى فى الضرع فتحولها إلى لبن ، فكان الصانع الحكيم جعلها مصنعا ومعملا لتحويل الدم إلى لبن ، وهكذا فى الجسم غدد أخرى كالغدد الأنفية للمخاط والغدد الدمعية للعين ، والغدد المنوية التى تحول الدم إلى مادة التلقيح .

وبعد أن ذكر اللبن و بين أنه جعله شرابا سائغا للناس ، ثلث بذكر ما يتخذ من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب فقال :

(ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا) أى ولكم أيضاً عبرة فيما نسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب مما تتخذونه خمرا وخلا ودبسا (عسل التمر) وتمر .

روى عن ابن عباس أنه قال : السَّكَّر ما حرم من ثمرتيهما ، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما كالنخل والرُّب (المربة) والتمر والزبيب ونحو ذلك .

(إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون) أى إن فى ذلك لآية باهرة لمن يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل فى الآيات ويعتبرون بما يستخلص من العبر .

(وأوحى ربك إلى النحل) أى وأهم ربك النحل وألقى فى رُوعها ، وعلمها أعمالا يتخيل منها أنها ذوات عقول .

وقد تتبع علماء المواليد أحوالها وكتبوا فيها المؤلفات بكل اللغات ، وخصصوا لها مجلات تنشر أطوارها وأحوالها ، وقد وصلوا من ذلك إلى أمور :

(١) إنها تعيش جماعات كبيرة قد يصل عدد بعضها نحو خمسين ألف نحلة ، وتسكن كل جماعة منها في بيت خاص يسمى خلية .

(٢) إن كل خلية يكون فيها نحلة واحدة كبيرة تسمى الملكة أو العسوب ، وهي أكبرهم جثة وأمرها نافذ فيهم ، وعدد يتراوح بين أربعائة نحلة وخمسةائة يسمى الذكور ، وعدد آخر من خمسة عشر ألفا إلى خمسين ألف نحلة ، ويسمى الشغالات أو العاملات .

(٣) تعيش هذه الفصائل الثلاث في كل خلية عيشة تعاونية على أدق ما يكون نظاما ، فعلى الملكة وحدها وضع البيض الذي يخرج منه نحل الخلية كلها ، فهي أم النحل ، وعلى الذكور تلقيح الملكات وليس لها عمل آخر ، وعلى الشغالات خدمة الخلية وخدمة الملكات وخدمة الذكور ، فتنتقل في المزارع طوال النهار لجمع رحيق الأزهار ثم تعود إلى الخلية فتفرز عسلا يتغذى به سكان الخلية صغارا وكبارا ، وتفرز الشمع الذي تبني به بيوتها سداسية الشكل تخزن في بعضها العسل ، وفي بعض آخر منها تربى صغار النحل ، ولا يمكن المهندس الحاذق أن يبني مثل هذه البيوت حتى يستعين بالآلات كالمسطرة والفرجار (البرجل) . قال الجوهري : ألهمها الله أن تبني بيوتها على شكل مسدس حتى لا يحصل فيه خلل ولا فرجة ضائعة ، كما عليها أن تنظف الخلية وتمحق بأجنحتها لتساعد على تهويتها ، وعليها أيضا الدفاع عن المملكة وحراستها من الأعداء كالنمل والزنابير وبعض الطيور ، ثم فسر سبحانه ما أوحى به إليها بقوله :

(أن آخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون) أى اجعلى لك بيوتا في الجبال تأوين إليها، أو في الشجر أوفيا يعرش الناس ويبنون من البيوت والسقف والكروم ونحوها .

(ثم كلى من كل الثمرات) أى ثم كلى أيتها النحل من كل ثمرة تشتهينها ،
حلوة أو مرّة أو بين ذلك .

(فاسلكى سبيل ربك ذللاً) أى فاسلكى الطرق التى أهلك الله أن تسلكيها
وتدخل فيها لطلب الثمار ولا تعسر عليك وإن توعدت ، ولا تضل عن العودة منها
وإن بعدت .

وبعد أن خاطب النحل أخبر الناس بفوائدها لأن النعمة لأجلهم فقال :
(يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه) أى يخرج من بطونها عسل مختلف
الألوان ، فتارة يكون أبيض وأخرى أصفر ، وحينئذ أحمر على حسب اختلاف المرعى .
(فيه شفاء للناس) لأنه نافع لكثير من الأمراض ، وكثيراً ما يدخل فى تركيب
العقاقير والأدوية .

روى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقال : إن أخى استطلق بطنه فقال له رسول الله (اسقه عسلاً)
فسقاه عسلاً ، ثم جاء فقال يا رسول الله : سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً ، قال
(اذهب فاسقه عسلاً) فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال يا رسول الله ما زاده ذلك
إلا استطلاقاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (صدق الله وكذب بطن أخيك
اذهب فاسقه عسلاً) فذهب فسقاه عسلاً فبرى .

وعلل هذا بعض الأطباء الماضين قال : كان لدى هذا الرجل فضلات فى
المعدة ، فلما سقاه عسلاً تحللت فأسرعت إلى الخروج فزاد إسهاله ، فاعتقد الأعرابي
أن هذا يضره وهو فائدة لأخيه ، ثم سقاه فزاد التحلل والدفع ، وكلما سقاه حدث
مثل هذا حتى اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن ، فاستمسك بطنه ، وصاح
مزاجه ، وزالت الآلام والأسقام بإرشاده عليه السلام .

وروى البخارى عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الشفاء في ثلاثة : في شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو كية بنار ، وأنهى أمتي عن الكي » .

وقد أثبت الطب الحديث ما للعسل من فوائد أدع الكلام فيها ليتولى شرحها النطاسي الكبير المرحوم عبد العزيز إسماعيل باشا قال في كتابه : [الإسلام والطب الحديث] .

ما أصدق الآية الكريمة! « فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ » إن التركيب الكيماوي للعسل كما يلي :

من ٢٥ — ٤٠ ٪ دكستروز (جلوكوز) .

» ٣٠ — ٤٥ ٪ ليفيلوز .

» ١٥ — ٢٥ ٪ ماء .

والجلوكوز الموجود فيه بنسبة أكثر من أي غذاء آخر ، وهو سلاح الطبيب في أغلب الأمراض واستعماله في ازدياد مستمر بتقدم الطب ، فيعطى بالقم وبالحقن الشرجية وتحت الجلد وفي الوريد ، ويعطى بصفته مقويا ومغذيا ، وضد التسم الناشئ من مواد خارجية كالزرنينخ والزنبق والذهب والكلوفرم والمورفين الخ ، وضد التسم الناشئ من أمراض أعضاء الجسم مثل التسم البولي والناشئ من أمراض الكبد ، والاضطرابات المعدية والمعوية ، وضد التسم في الحميات ، مثل التيفويد والالتهاب الرئوي والسحائي الخ والحصبة ، وفي حالات ضعف القلب ، وحالات الذبحة الصدرية ، وبصفة خاصة في الارتشاحات العمومية الناشئة من التهابات الكلى الحادة وفي احتقان المخ وفي الأورام الخمية الخ .

وقد يقال : وما أهمية هذه الآية مع أن كل أنواع الغذاء لها فوائد ، وقد ذكر العسل لأنه غذاء لذيذ الطعم وبطريق المصادفة .

فالحقيقة هي أن أنواع الغذاء الأخرى لا تستعمل كعلاج إلا فيما ندر من الأمراض الناشئة عن نقصها في الغذاء فقط ، وهذه الفواكه التي تشبه العسل في الطعم فإن

السكر الذى فيها هو سكر القصب أو أنواع أخرى ، وليس فيها إلا نسبة ضئيلة من (الجلوكوز) الذى هو أهم عناصر العسل .

وإذا علمنا أن الجلوكوز يستعمل مع الأنسولين حتى فى حالة التسمم الناشئ^٤ عن مرض البول السكرى — علمنا مقدار فوائده ، وأن القرآن الكريم لم يذكره بطريق المصادفة ، ولكنه تنزيل من خلق الإنسان والنحل ، وعلم كلا منهما علاقته بالآخر اه .

كيف يتكون العسل

تمتص الشغالة رحيق الأزهار ، فينزل ويجمع فى كيس فى بطنها ، وهناك يتمزج بعصارة خاصة فيتحول إلى عسل ، والله در أبى العلاء إذ يقول :

والنحل يجنى المر من زهر الربا فيعود شهدا فى طريق رضابه

ثم تعود النحلة إلى الخلية فتفرز العسل من فمها فى البيوت الشمعية التى خصصت بتخزين العسل ، وكلما امتلأ بيت منها غطاء النحل بطبقة من الشمع وانتقل إلى بيت آخر .

شمع النحل

تفرز الشغالة صفحات رقيقة صلبة من الشمع تخرجها من بين حلقات بطنها ، ثم تمضغها بفيها حتى تلين ، ويسهل تشكيلها على حسب ما تريد ، فتستعملها فى بناء بيوتها السداسية الشكل .

فوائد النحل

(١) نأخذ منها العسل الذى هو غذاء لذيذ الطعم يحوى مقدارا كبيرا من المواد المفيدة للجسم .

(٢) نأخذ منها الشمع الذى تصنع منه شموع الإضاءة .

(٣) تساعد على تلقيح الأزهار فتكون سبباً في زيادة الثمار وجودة نوعها .
 (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) أي إن في إخراج الله من بطون النحل
 الشراب المختلف الألوان وهو شفاء للناس — لدلالة واضحة على أن من سخر
 النحل ، وهداها لأكل الثمرات التي تأكلها ، واتخاذها البيوت في الجبال والشجر
 والعروش ، وأخرج من بطونها ما أخرج مما فيه شفاء للناس ، على أنه هو الواحد
 القهار الذي ليس كمثل شيء ، وأنه لا ينبغي أن يكون له شريك ، ولا تصح
 الألوهة إلا له .

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ
 لَكِنَّهُ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَاللَّهُ فَضَّلَ
 بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ، فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَى رِزْقِهِمْ عَلَى
 مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ، أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَاللَّهُ جَعَلَ
 لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً
 وَرِزْقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ
 يَكْفُرُونَ (٧٢)

شرح المفردات

أرذل العمر : أردؤه وأخسه ؛ يقال رذل الشيء يرذل رذالة وأرذله غيره قال تعالى
 حكاية عما قاله قوم شعيب له : « وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ » والحفدة : أولاد الأولاد على
 ما روى عن الحسن والأزهري وواحدهم حافد ككتبة وكاتب : من الحفد وهو الحففة
 في الخدمة والعمل ؛ يقال منه حفد يحفد حفدا وحفودا وحفدانا : إذا أسرع كما جاء

في القنوت (وإليك نسعى ونحفد) والطيبات : اللذائذ ، والمراد بالباطل : منفعة الأصنام وبركتها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عجائب أحوال الحيوان ، وما فيها من نعمة للإنسان ؛ كالأنعام التي يتخذ من ضرعها اللبن والنحل التي يشتار منها العسل ويؤخذ منها الشمع للإضاءة - أردف ذلك ببيان أحوال الناس ، فذكر مراتب أعمارهم وأن منهم من يموت وهو صغير ، ومنهم من يُعمر حتى يصل إلى أرذل العمر ويصير نساءً لا يحفظ شيئاً ، وفي ذلك دليل على كمال قدرة الله ووحدانته ، ثم ثنى بذكر أعمال أخرى لهم وهي تفضيل بعضهم على بعض في الرزق ، فقد يرى أكيس الناس وأكثرهم عقلاً وفهما يفنى عمره في طلب القليل من الدنيا وقل أن يتيسر له ، بينما ترى أقل الناس علماً وفهما تتفتح له أبواب السماء ويأتيه الرزق من كل صوب ، وذلك دليل على أن الأرزاق قد قسمها الخلاق العليم كما قال : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقال الشافعي رحمه الله :

ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق
ثم ثلث بذكر نعمة نالها عليهم ، إذ جعل لهم أزواجاً من جنسهم وجعل لهم من هذه الأزواج بنين وحفدة ورزقهم الأطعمة الطيبة من النبات كالتمار والحبوب والأشربة ، أو من الحيوان على اختلاف أنواعها .

الإيضاح

(والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) أى والله أوجدكم ولم تكونوا شيئاً أنتم ولا آهتكم التي تعبدونها من دون الله ، ثم وقت أعماركم بأجال مختلفة فمنكم من تعجل وفاته ، ومنكم من يهرم ويصير إلى أرذل العمر وأخسه ، فتتقص قواه

وتفسد حواسه ويكون في عقله وقوته كالطفل كما قال : « وَمَنْ نَعِمَّ رُحْمُهُ نُفِكَسَتْهُ فِي الْخُلُقِ » .

أخرج البخارى وابن مردويه عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في دعائه : « أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة الحيا والممات » وثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ بالله أن يرد إلى أرذل العمر ، ونقل عن على كرم الله وجهه أن أرذل العمر خمس وسبعون سنة ، وهذا ليس بالمطرود ولا بالكثير .

(لكي لا يعلم من بعد علم شيئا) أى إنمارده إلى أرذل العمر ليعود جاهلا كما كان حين طفولته وصباه لا يعلم شيئا مما كان يعلمه في شبابه ، لأن الكبر قد أضعف عقله وأنساه ، فلا يعلم شيئا مما كان يعلم ، وقد انسلخ من عقله بعد أن كان كامل العقل .
وخلاصة ذلك — إنه يكون نساء ، فإذا كسب علما فى شيء لم يلبث أن ينساه ويزول من ساعته ، فيقول لك من هذا ؟ فتقول له هذا فلان ، فلا يمكنك إلا هنيهة ثم يسألك عنه مرة أخرى .

(إن الله عليم قدير) أى إن الله عليم بكل شيء ، فيعلم وجه الحكمة فى الخلق والتوفى والرد إلى أرذل العمر ، ولا ينسى شيئا من ذلك ، وهو قدير على كل شيء فلا يعجزه شيء أراد .

ومجمل القول — إن ما يعرض فى الحرم من ضعف القوة والقدرة وانتفاء العلم يتنزه عن مثله المولى جل شأنه ، فهو كامل العلم تام القدرة لا يتغير شيء منهما بمرور الأزمنة كما يتغير علم البشر وقدرتهم .

ولما ذكر سبحانه تفاوت الناس فى الأعمار ذكر تفاوتهم فى الأرزاق فقال :
(والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق) أى والله تعالى جعلكم متفاوتين فى أرزاقكم ، فمنكم الفنى ومنكم الفقير ، ومنكم المملوك ومنكم المالك ، وأعطاكم من الرزق أكثر مما أعطى مما اليكم ، ولم يجعل ذلك بحسن الحيلة وفضل العقل ، فكثيرا

ما نرى الحوَالِ القُلُوبَ لا يحصل إلا على الكفاف من الرزق بعد الجهد الجهد ، بينما نرى الأحق يتقلب في نعيم العيش وزخرف الدنيا ، والله درّ سفیان بن عینة إذ يقول :
 كم من قوی قوی في قلبه مهذب الرأي عنه الرزق منحرف
 ومن ضعيف ضعيف العقل مختلط كأنه من خليج البحر يعترف
 (فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء) أى
 فما الذين فضلوا بالرزق وهم الموالى بجاعلى رزقهم من الأموال وغيرها - شركة بينهم
 وبين ممالئهم بحيث يساؤونهم في التصرف فيها ويشاركونهم في تدبيرها .

والخلاصة - إن الله جعلكم متفاوتين في الرزق ، فرزقكم أكثر مما رزق
 ممالئكم وهم بشر مثلكم وإخوانكم ، فكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم
 وتتساووا وإياهم في اللبس والمطعم والمسكن ، لكنكم لم ترضوا بهذه المساواة مع أنهم
 أمثالكم في البشرية والمخلوقية لله عز وجل ، فما بالكم تشركون بالله فيما يليق إلا
 به من الألوهية والمعبودية بعض عباده بل أخس مخلوقاته .

وهذا مثل ضربه الله سبحانه لبيان قبح ما فعله المشركون من عبادة الأصنام
 والأوثان تقرعهم لهم .

ونحو الآية قوله : « هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا
 رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ؟ » .

(أفبنعمة الله يحدون ؟) إذ أضافوا بعض تلك النعم الفائضة عليهم من مولاهم
 إلى شركائهم وجعلوها أندادا لله ، وهى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا .

ثم ذكر ضربا آخر من ضروب نعمه على عباده تنبئها إلى جليل إنعامه بمثل
 تلك النعم التى هى زينة الحياة فقال :

(والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة)
 أى والله سبحانه جعل لكم أزواجا من جنسكم تأنسون بهن وتقوم بهن جميع مصالحكم

وتدبير معاشكم ، وجعل لكم منهن بنين وحفدة أى أولاد أولاد يكونون زهرة الحياة الدنيا وزينتها ، وبهم التفاخر والتناصر والمساعدة لدى البأساء والضراء .

(ورزقكم من الطيبات) أى ورزقكم من لذيذ المطاعم والمشارب وجميل الملابس والمسكن مما تتذوقون فيه إلى أقصى الحدود وأبلغ الغايات .

(أفبالباطل يؤمنون) أى إنهم بعد هذا البيان الواضح والدليل الظاهر يوقنون بأن الأصنام شركاء لربهم تنفعهم وتضرهم وتشفع لهم عنده ، وأن البحائر والسوانب والوصائل حرام عليهم كما حرمها لهم أولياء الشيطان .

وليس بعد هذا تأنيب وتوبيخ ، إذ ساقه مساق ما فيه الشك وطلب الجواب منهم عنه .

(وبنعمة الله هم يكفرون؟) أى وبهذه النعم المتظاهرة عليهم من ربهم يكفرون فيضيفونها إلى غير الخالق وينسبونها إلى غير موجدها من صنم أو وثن؟

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمٰوٰتِ
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَجِيبُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ، إِنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا مِّمَّا كَفَرْتُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى
شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ
يَسْتَوُونَ؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا
رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا
يُوجَّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦)

شرح المفردات

رزق السماء : هو المطر ، ورزق الأرض : النبات والثمار التي تخرج منها ، فلا تضربوا لله الأمثال : أى لا تجعلوا له الأنداد والنظراء فهو كقوله : « فَلَا تَجْمَلُوا اللَّهَ أَنْدَادًا » وضرب المثل للشئ : ذكر الشبيه له ليوضح حاله المبهمة ويزيل ما عرض من الشك فى أمره ، والبكم إما ناشئ من صمم خلقي وإما لسبب عرض ولا علة فى أذنيه فهو يسمع لكن لسانه معتقل لا يطيق الكلام ، فكل من ولد غير سميع فهو أبكم ، لأن الكلام بعد السماع ولا سماع له ، وليس كل أبكم يكون أصم صمما طبيعيا ، فإن بعض البكم لا يكونون صمما ، والكَلُّ : الغليظ الثقيل من قولهم كَلَّتِ السكينة إذا غلظت شفرتها فلم تقطع ، وكل عن الأمر : ثقل عليه فلم يستطع عمله يوجهه : أى يرسله فى وجه معين من الطريق ، يقال وجهته إلى موضع كذا فتوجه إليه ، على صراط مستقيم : أى طريق عادل غير جائر .

المعنى الجملى

بعد أن بين عزت قدرته دلائل التوحيد البيان الشافى فيما سلف - أردف ذلك بالرد على عابدى الأوثان والأصنام ، فضرب لذلك مثلين يؤكد بهما إبطال عبادتها: أولهما العبد المملوك الذى لا يقدر على شئ ، والحر الكريم الفنى الكثير الإيقاق سرا وجهرا ، ولفت النظر إلى أنهما هل يكونان فى نظر العقل سواء مع تساويهما فى الخلق والصورة البشرية ؟ وإذا امتنع ذلك فكيف ينبغى أن يسوى بين القادر على الرزق والإفضال ، والأصنام التى لا تملك ولا تقدر على النفع والضرر . والثانى مثل رجلين أحدهما أبكم عاجز لا يقدر على تحصيل خير وهو عبء ثقيل على سيده ، وثانيهما حول قلب ناطق كامل القدرة ، أيستويان لدى أرباب الفكر مع استوائهما فى البشرية ؟ وإذا فكيف يدور بخلد عاقل مساواة الجماد برب العالمين فى الألوهية والعبادة ؟ .

قال ابن عباس نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان ومولى له كافر يسمى أسيد ابن أبي العاص كان يكره الإسلام وكان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المثونة وكان الآخر ينهيه عن الصدقة والمعروف .

الإيضاح

(ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون) أى ويعبد هؤلاء المشركون بالله من دونه أو ثانا لا يملك لهم رزقا من السموات ، فلا تقدر على إنزال القطر منها لإحياء الميت من الأرضين ، ولا يملك لهم رزقا منها فلا تقدر على إخراج شيء من نباتها ولا ثمارها ، ولا على شيء مما ذكر في سالف الآيات مما أنعم الله به على عباده ، ولا يستطيعون أن يملكوا ذلك ولا يمكنهم .

وفائدة قوله (ولا يستطيعون) أن من لا يملك شيئا قد يكون فى استطاعته أن يملكه بوجه ، فبين بذلك أن هذه الأصنام لا يملك وليس فى استطاعتها تحصيل الملك . وبعد أن بين ضعفها وعجزها رتب على ذلك ما هو كالنتيجة له فقال :
(فلا تضربوا لله الأمثال) أى فلا تجعلوا لله مثلا ولا تشبهوه بخلقه ، فإنه لا مثل له ولا شبيهه .

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال فى الآية : أى لا تجعلوا معى إلها غيرى فإنه لا إله غيرى .

ثم هددهم على عظيم جرمهم وكبير ما اجترحوا من الكفر والمعاصى فقال :
(إن الله يعلم وأتم لا تعلمون) أى إن الله يعلم كنه ما تفعلون من الاجرام وعظيم الآثام وهو معاقبكم عليه أشد العقاب ، وأتم لا تعلمون حقيقته ولا مقدار عقابه ، ومن صدر ذلك منكم وتجاسرتم عليه ونسبتم إلى الأصنام ما لم يصدر منها ولا هى منه فى قليل ولا كثير .

وبعد أن نهام عن الإشراف عقبه بمثل يكشف عن فساد ما ارتكبه من الحماقات والجهالات فقال :

(ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون) أى إن مثلكم فى إشرافكم بالله الأوثان مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف ، وحر مالك ما لا ينفق منه كيف يشاء ويتصرف فيه كما يريد ، والفطرة الأولى تشهد بأنهما ليسا سواء فى التجارة والاحترام مع استوائهما فى الخلق والصورة — فكذلك لا ينبغى لعقل أن يسوى بين الإله القادر على الرزق والإفضال والأصنام التى لا تملك ولا تقدر على شيء البتة .

ثم ذكر ما هو كالنتيجة لما سلف فقال :

(الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) أى الحمد الكامل لله خالصا دون ما تدعون من دونه من الأوثان ، فإياه فاحمدوا دونها ، ما الأمر كما تفعلون ولا القول كما تقولون ، فليس للأوثان عندكم من يد ولا معروف فتحمد عليه ، إنما الحمد لله ولكن أكثر هؤلاء الكفار الذين يعبدونها لا يعلمون أن ذلك كذلك ، فهم بجهلهم بما يأتون وما يذرون يجعلونها لله شركاء فى العبادة والحمد .

ثم ضرب مثلا آخر يدل على ما يدل عليه المثل السابق على وجه أظهر وأوضح فقال :

(وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم؟) أى ضرب الله مثلا لنفسه والآلهة التى يعبدونها من دونه مثل رجلين أحدهما أخرس أصم لا يفهم ولا يفهم ، لا يقدر على شيء مما يتعلق بنفسه أو بغيره لسوء فهمه وإدراكه ، وهو عيال على من يعوله وبلى أمره ، حيثما يرسله مولاه فى أمر لا يأت

بنجح ولا كفاية مهمّ — وثانيتها رجل سليم الحواس عاقل ينفع نفسه وينفع غيره ،
 يأمر الناس بالعدل وهو على سيرة سالحة ودين قويم — هل يستويان ؟
 كذلك الصنم لا يسمع شيئاً ولا ينطق لأنه إما خشب منحوت وإما نحاس
 مصنوع لا يقدر على نفع من خدمه ولا دفع ضرر عنه ، وهو كل على من يعبده ،
 يحتاج أن يحمله ويضعه ويخدمه ، وهو لا يعقل ما يقال له فيأتمر بالأمر ، ولا ينطق
 فيأمر وينهى ، هل يستوى هو ومن يأمر بالحق ويدعو إليه وهو الله الواحد القهار
 الذي يدعو عباده إلى توحيده وطاعته ! وهو مع أمره بالعدل على طريق مستقيم
 لا يعوج عن الحق ولا يزول عنه .

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ
 أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ
 بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ
 وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ
 فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
 يُؤْمِنُونَ (٧٩)

شرح المفردات

الساعة: الوقت الذي تقوم فيه القيامة ، سميت بذلك لأنها تفجأ الإنسان في ساعة ما
 فيموت الخلق بصيحة واحدة ، ولمح : البصر رجع الطرف من أعلى الحدقة إلى
 أسفلها ، والأفئدة واحدها فؤاد وهي القلوب التي هيأها الله للفهم وإصلاح البدن ،
 والجو : الهواء بين الأرض والسماء .

المعنى الجملى

بعد أن مثل سبحانه نفسه بمن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ، ومستحيل أن يكون كذلك إلا إذا كان كامل العلم والقدرة — أردف ذلك بما يدل على كمال علمه ، فأبان أن العلم بغيوب السموات والأرض ليس إلا له ، وبما يدل على كمال قدرته فذكر أن قيام الساعة فى السرعة ككلح البصر أو أقرب ، ثم عاد إلى ذكر الدلائل على توحيده وأنه الفاعل المختار، فذكر منها خلق الإنسان فى أطواره المختلفة ، ثم الطير المسخر بين السماء والأرض ، وكيف جعله يطير بجناحين فى جو السماء ما يمسكه إلا هو بكامل قدرته .

الإيضاح

(والله غيب السموات والأرض) أى والله علم ماغاب عن أبصاركم فى السموات والأرض مما لا اطلاع لأحد عليه إلا أن يطلعه الله ، والمراد به جميع الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين التى لا سبيل إلى إدراكها حسا ولا إلى فهمها عقلا .

(وما أمر الساعة إلا ككلح البصر أو هو أقرب) أى وما شأنها فى سرعة الحجب إلا كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها ، أو هو أقرب من هذا وأسرع ، لأنه إنما يكون بقول (كن فيكون) .

ونحو الآية قوله « وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَمَفْجِعٍ بِالْبَصْرِ » أى فيكون ما يريد كطرف العين ، وقريب من هذا قوله « مَا خَلَقْتُمْ وَلَا بَعَثْتُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » .

والمخلاصة — إن قيام القيامة ومجيء الساعة التى ينتشر فيها الخلق للوقوف فى موقف الحساب — كمنظرة من البصر وطرفة من العين فى السرعة .

وخص قيام الساعة من بين الغيوب ، لأنه قد كثرت فيه الماراة فى جميع

الأزمنة والعصور، ولدى كثير من الأمم، فأنكره كثير من البشر وجعلوه مما لا يدخل في باب الممكنات .

ثم ذكر ما هو كالبهران على إمكان حدوثها وسرعة وقوعها فقال :
(إن الله على كل شيء قدير) أى إن الله قادر على ما يشاء ، لا يمتنع عليه شيء ، أرادته ، فهو قادر على إقامتها في أقرب من لمح البصر .
ثم ذكر سبحانه منته على عباده بإخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً ، ثم رزقهم السمع والأبصار والأفئدة فقال :

(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) أى والله جعلكم تعلمون ما لا تعلمون بعد أن أخرجكم من بطون أمهاتكم ، فرزقكم عقولاً تفقهون بها وتميزون الخير من الشر والهدى من الضلال والخطأ من الصواب ، وجعل لكم السمع الذى تسمعون به الأصوات ، فيفقه بعضهم عن بعض ما تتحاورون به بينكم ، والأبصار التى تبصرون بها الأشخاص فتتعارفون بها وتميزون بعضها من بعض ، والأشياء التى تحتاجون إليها فى هذه الحياة ، فتعرفون السبل وتسلكونها للسعى على الأرزاق والسلع لتختاروا الجيد وتتركوا الردى ، وهكذا جميع مرافق الحياة ووجوهها .

(لعلكم تشكرون) أى رجاء أن تشكروه باستعمال نعمه فيما خلقت لأجله ، وتمكنوا بها من عبادته تعالى ، وتستعينوا بكل جارحة وعضو على طاعته .

روى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تعالى : من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألتنى لأعطيته ، ولئن دعانى لأجيبته ، ولئن استعاذنى لأعيذته ، وما ترددت فى شيء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت

وأكره مساءته ، ولا بد له منه « أى إن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل ، فلا يسمع إلا الله ، ولا يبصر إلا الله أى لما شرعه الله له ، ولا يبسط ولا يمشى إلا فى طاعته عز وجل ، مستعيناً به فى ذلك كله .

ثم نبه عباده إلى دليل آخر على كمال قدرته فقال :

(ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله) أى ألم ينظروا إلى الطير مذلللات فى الهواء بين السماء والأرض ما يمسكهن فى الجوع عن الوقوع إلا الله عز وجل بقدرته الواسعة ، وقد كان فى ثقل جسدها ، ورقة الهواء ما يقتضى وقوعها إذ لاعلاقة من فوقها ، ولا دعامة من تحتها ، ولو سلبها ما أعطاها من قوة الطيران لم تقدر على النهوض ارتفاعاً ، وقد كان العلماء قديماً يعلمون تخلخل الهواء فى الطبقات العالية فى الجو وهى نظرية لم تدرس فى العلوم الطبيعية إلا حديثاً ، فقد أثر عن كعب الأحرار أنه قال : إن الطير يرتفع فى الجو اثنى عشر ميلاً ولا يرتفع فوق ذلك .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) أى إن فى ذلك التسخير فى الجو والإمساك فيه — لدلالات على أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنه لاحظ للأوثان والأصنام فى الألوهية — لمن يؤمن بالله ، ويقر بوجود ما تعابنه أبصارهم ، وتحسه حواسهم .

وخصص هذه الآيات بالمؤمنين ، لأنهم هم المنتفعون بها ، وإن كانت هى آيات

لجميع العقلاء .

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا خَلْقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ،

وَسَرَّائِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ، كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)

شرح المفردات

سكنا أى مسكنا ، والظنن (بالسكون والفتح) السير فى البادية لِنُجْعَةٍ أو طلب ماء أو مرتع ، والأصواف : للضأن ، والأوبار : للابل ، والأشعار : للمعز ، والأثاث : متاع البيت كالفرش والثياب وغيرها ، ولا واحد له من لفظه ، والمتاع : ما يتمتع وينتفع به فى المتجر والمعاش ، إلى حين : أى إلى انقضاء آجالكم ، والظلال : ما يستظل به من الغمام والشجر والجبال وغيرها ، والأكنان واحدها كن : وهو الغار ونحوه فى الجبل ، والسراييل واحدها سربال : وهو القميص من القطن والكتان والصوف وغيرها ، وسراييل الحرب الجواشن والدروع ، والبأس : الشدة ، ويراد به هنا الحرب.

المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الأدلة على توحيدده . قفى على ذلك بذكر ما أنعم به على عباده ، فجعل لهم بيوتاً يأوون إليها وتكون سكناً لهم ، وجعل لهم من جلود الأنعام بيوتاً يستخفون حملها فى أسفارهم ، ويجعلونها خياماً فى السفر والحضر ، وجعل لهم فى الجبال الحصون والمعازل ، وجعل لهم الثياب التى تقيهم الحر ، والدروع والجواشن من الحديد لتقى بعضهم أذى بعض فى الحرب .

وقصارى هذا — إنه امتن على عباده ، فبدأ بما يخص المقيمين بقوله : وجعل لكم من بيوتكم سكناً ، ثم بما يخص المسافرين منهم ممن لهم قدرة على ضرب الخيام بقوله : وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً ، ثم بمن لا قدرة لهم على ذلك ولا يأويهم

إلا الظلال بقوله ، وجعل لكم مما خلق ظلالا ، ثم بما لا بد منه لكل أحد بقوله :
وجعل لكم سراييل الخ ، ثم بما لاغنى عنه في الحروب بقوله : وسراييل
تقيمكم بأسمكم .

الايضاح

(والله جعل لكم من بيوتكم سكنا) أى والله الذى جعل لكم من بيوتكم التى
هى من الحجر والمدر مسكنا تقيمون فيه وأنتم فى الحضر .

(وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم)
أى وجعل لكم قبابا وفساطيط من شعر الأنعام وأصوافها وأوبارها ، تستخفون حملها
يوم ترحالكم من دوركم وبلادكم وحين إقامتكم بها .

(ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين) أى وجعل لكم من
أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز أثاثا لبيوتكم تكتسون به وتستعملونه
فى الغطاء والفراش ، ومتاعا من مال وتجارة إلى أجل مسمى ، وهو حين
انقضاء آجالكم .

(والله جعل لكم مما خلق ظلالا) أى ومن نعمه تعالى عليكم أن جعل لكم
مما خلق من الأشجار وغيرها ظلالا تستظلون بها من شديد الحر .

(وجعل لكم من الجبال أكنانا) أى وجعل لكم من الجبال مواضع تستكنون
فيها كالمغارات والكهوف ونحوها .

(وجعل لكم سراييل تقيمكم الحر) أى وجعل لكم ثيابا من القطن والكتان
والصوف ونحوها تقيمكم الحر الشديد الذى فى بلادكم وهو مما يذيب دماغ الضبّ حين
حمارة القيظ .

(وسراييل تقيمكم بأسمكم) أى وجعل لكم دروعا وجواشن تقيمكم بأس السلاح
وأذاه حين الحرب وحين يتقدم القرن إلى قرنه للمصاولة والطعن والضرب والرمى بالنبال .

تنبيه — لما كانت بلاد العرب شديدة الحر وحاجتهم إلى الظل أزم ذكر هذا في معرض النعم العظيمة ، إلى أن ما يبق من الحريقى من البرد أيضا فكان ذكر أحدهما مغنيا عن ذكر الآخر ، قال الشهاب الخفاجى فى الریحانة : فى الآیة نكتة لطيفة لم ينهوا عليها وهى أنه إنما اقتصر على الحر لأنه أهم هنا لما عرف من غلبة الحر على ديار العرب ، ثم إن ما بقی الحر یحصل به برودة فى الهواء فى الجملة ، فوقایة الحر إنما هى لتحصيل البرد ، وهذا فىه من اللطف ما هو أطف من النسيم ، فله در التنزیل فكم فىه من أسرار لاتنهای اه .

(كذلك يتم نعمته عليكم) أى كما خلق هذه الأشياء لكم وأنعم بها عليكم ، يتم نعمة الدنيا والدين عليكم ويجعلكم ملوكا وأمراء فيما تفتحون من البلاد والأصقاع ويجعل رائدكم فيما تعملون وجه الله وإصلاح الأمم والشعوب كما قال : « وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » .

(لعلمكم تسلمون) أى توقعوا للنظر فيما أسيغ عليكم من النعم ، فتعرفون حق المنعم بها فتؤمنون به وحده وتذرون ما أتم به مشركون فتسلمون من عذابه ، فإن العاقل إذا أسدى إليه المعروف شكر من أنعم به عليه كما قال المتنبي :

وقيدت نفسى فى ذراك محبة ومن وجد الإحسان قيذا تقيدا

وبعد أن عدد ما أنعم به عليهم من النعم ذكر ما يتبع معهم إذا هم أصروا على عنادهم واستكبارهم ولم تنفعهم الذكرى فقال :

(فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين) أى فإن استمروا على إعراضهم ولم يقبلوا ما ألقى إليهم من البينات فلا يضيرك ذلك ، ولا تبخع نفسك عليهم أمسى وحسرة ، فإنك قد أديت رسالتك كاملة غير منقوصة ، وما هى إلا البلاغ الموضح لمقاصد الدين وبيان أسرار وحكمه ، وقد فعلته بما لامزيد عليه .

وجملة القول — إنهم إن أعرضوا وتولوا فليست بقادر على خلق الإيمان فى قلوبهم فإنما عليك البلاغ فحسب .

ثم بين أن سبب هذا التولى والإعراض لم يكن الجهل بهذه النعم بل كان العتو والاستكبار والإنكار لها فقال :

(يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) أى إنهم يعرفون أن هذه النعم كلها من الله ثم هم ينكرونها بأفعالهم ، إذ لم يخصصوا المنعم بها بالعبادة والشكر ، بل شكروا غيره معه ، إذ قالوا إن هذه النعم إنما حصلت بشفاعه هذه الأصنام .

(وأكثرهم الكافرون) أى إن أكثرهم جاحد معاند يعلم صدق الرسول ولا يؤمن به عتوا واستكبارا ، وقليل منهم كان يجهل صدقه ولم يظهر له كونه نبيا حقا من عند الله ، لأنه لم ينظر فى الأدلة النظر الصحيح الذى يودى إلى الغاية ، أو لم يعرف الحق لنقص فى العقل فهو لا يسلك سبيله ، أو لم يصل حد التكليف فلا تقوم عليه حجة .

وهذا من صادق أحكام القرآن على الأمم والشعوب ، فهو لا يرسل القول إرسالا بل يزنه بميزان الحقيقة الواقعة التى لا تتجانف الصواب وليس فيها جور ولا ظلم .

وَيَوْمَ نَبَعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ
وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَائِهِمْ قَالُوا رَبَّنَا
هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ
لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَا لَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ
الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) وَيَوْمَ نَبَعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا

عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ
تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)

شرح المفردات

الأمة : الجيل من الناس، وشهيد كل أمة نبيها ، ثم لا يؤذن للذين كفروا : أى
إنهم يستأذنون فلا يؤذن لهم ، ويقال استعته وأعتبه : إذا رضى عنه ، قال الخليل :
العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموحدة ؛ وعاتبه معاتبه وعتابا وأعتبه : سره بعد
ما ساءه ، ينظرون : أى يمهلون ويؤخرون ، والشركاء : الأصنام والأوثان والشياطين
والملائكة ، وتدعو : نعبد ، والسلم : الاستسلام والانقياد ، وضل : ضاع وبطل
والمراد بهؤلاء أمته الحاضر منهم عصر التنزيل وغيرهم إلى يوم القيامة ، وتبينا : أى
بيانا لأموال الدين إمانا فيها أو ببيان الرسول واستنباط العلماء المجتهدين فى كل عصر.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال هؤلاء المشركين وأنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها - ففى على
ذلك بوعيدهم فذكر حالهم يوم القيامة ، وأنهم يكونون أذلاء لا يؤذن لهم فى الكلام
لتبرئة أنفسهم ولا يمهلون ، بل يؤخذون إلى العذاب بلا تأخير ، وإذا رأوا معبوداتهم
من الأصنام والأوثان والملائكة والادميين قالوا هؤلاء معبوداتنا ، فكذبتهم تلك
المعبودات واستسلموا لربهم وانقادوا له وبطل ما كانوا يفترونه ، ثم ذكر ذلك اليوم
وهوله وما منح نبيه من الشرف العظيم وأنه أنزل عليه الكتاب ليبين للناس ما أشكل
عليهم من مصالح دينهم ودنياهم ، ويهديهم سواء السبيل وفيه البشرى للمؤمنين
بجنت النعيم .

الإيضاح

(ويوم نبعث من كل أمة شهيدا) أى وخوف أيها الرسول هؤلاء المشركين يوم نبعث من كل أمة شاهدا عليها بما أجابت داعى الله وهو رسولها الذى أرسل إليها ، إما بالإيمان وطاعة الله ، وإما بالكفر والعصيان .

(ثم لا يؤذن للذين كفروا) أى ثم لا يسمع كلام الكافرين بعد شهادة أنبيائهم ولا يلتفت إليه ، إذ فى تلك الشهادة ما يكتفى للفصل فى أمرهم والقضاء عليهم ، والله عليم بما كانوا يفعلون ، ولكن فى تلك الشهادة تأنيب لهم وتوبيخ على ما اجترحوا من الفسوق والعصيان والكفر بربهم الذى أنعم عليهم .

ونحو الآية قوله : « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » .

(ولا هم يستعتبون) أى ولا يطلب منهم أن يزيلوا عتب ربهم أى غضبه بالتوبة وصالح العمل ، فالآخرة دار جزاء لا دار عمل ، والرجوع إلى الدنيا مما لا يكون بحال .

(وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون) أى وإذا عاين هؤلاء الذين كذبوا وجحدوا نبوة الأنبياء وهم من كانوا على نهج قومك من المشركين - عذاب الله فلا ينجيهم منه شيء ، إذ لا يؤذن لهم بالاعتذار فيعتذرون ، فيخفف عنهم بهذا العذر الذى يدعون ، ولا يرجئون بالعقاب ، لأن وقت التوبة والإجابة قد فات ، وإنما ذلك وقت الجزاء على الأعمال : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

ونحو الآية قوله : « وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا » وقوله : « إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَفِيضًا وَزَفِيرًا ، وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ، لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا » ، الثبور : الهلاك .

ثم أخبر عن إلقاء المشركين تبعة أعمالهم على معبوداتهم فقال :

(وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك) أى وإذا رأى هؤلاء المشركون بالله يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله من الأوثان والآلهة التى عبدوها - قالوا هؤلاء شركاؤنا فى الكفر بك ، والذين كنا ندعوهم آلهة من دونك ، وربما يكونون قد قالوا هذه المقالة طمعا فى توزيع العذاب بينهم ، أو إحالة الذنب على الشركاء تعلقا بذلك واسترواحا مع كونهم يعلمون أن العذاب واقع بهم لا محالة ، ولكن الغريق يتعلق بكل ما تقع يده عليه .

ثم ذكر تبرأ آلهتهم منهم ، وهم أحوج ما يكونون إلى نصرتهم لو كانوا ينصرون .

(فالتقوا إليهم القول إنكم لكاذبون) أى قالت لهم الآلهة : كذبتما نحن أمرناكم بعبادتنا ، ونحو الآية قوله : « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ، وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ » وقوله : « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ، كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » .

(وألقوا إلى الله يومئذ السلم) أى واستسلم العابد والمعبود لله ، فلا أحد إلا وهو سامع مطيع ، ونحو الآية قوله : « أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا » أى ما أسمعهم وأبصرهم حينئذ ، وقوله : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا » وقوله : « وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ » أى خضعت واستسلمت .

(وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى وذهب عنهم ما كانوا يعبدونه افتراء على الله ، فلا ناصر ولا معين ولا شفيع ولا ولى مما كانوا يزعمونه فى الدنيا كما قال حكاية عنهم : « هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ » .

(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا

يفسدون) أى الذين جحدوا نبوتك وكذبوك فيما جتتهم به من عند ربك ، وصدوا عن الإيمان بالله ورسوله من أراده ، زدناهم عذابا فوق عذابهم الذى يستحقونه بكفرهم ، بسبب استمرارهم على الإفساد بالصد عن سبيل الله .

وخلاصة ذلك — إنهم يعذبون عذابين: عذابا على الكفر ، وعذابا على الإضلال وصد الناس عن اتباع الحق ، ونحو الآية قوله : (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ) أى وهم ينهون الناس عن اتباعه ، وهم يبتعدون منه أيضا ، روى الحاكم والبيهقى وغيرهم عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن أهل النار إذا جزعوا من حرها استغاثوا بضحضاح فى النار ، فإذا أتوه تلقاهم عقارب كأنهن البغال الدم ، وأفاع كأنهن البخاتى (أنواع من ضخام الإبل) تضر بهم فذلك الزيادة » .

وفى الآية دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ودرجاتهم فيها .

ثم خاطب سبحانه عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم فقال :

ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء) أى واذكر أيها الرسول ذلك اليوم وهوله يوم يبعث الله نبي كل أمة شاهدا عليهم ، فيكون أقطع للمعذرة ، وأظهر فى إتمام الحجة عليهم ، وجئنا بك شهيدا على أمتك الذين أرسلتك إليهم ، بما أجابوك وبما عملوا فيما أرسلتك به إليهم .

وهذه الآية شبيهة بالآية التى انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم صدر سورة النساء ، فلما وصل إلى قوله « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « حسبك » فقال ابن مسعود فالتفت فإذا عيناه تذرفان .

(ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)
أى ونزلنا عليك أيها الرسول هذا القرآن تبيانا لكل ما بالناس إليه حاجة من معرفة

الحلال والحرام والثواب والعقاب ، وهدى من الضلالة ورحمة لمن صدق به وعمل بما فيه من حدود الله وأمره ونهيه ، فأحل حلاله وحرم حرامه ، وبشرى لمن أطاع الله وأتاب إليه بجزيل الثواب في الآخرة وعظيم الكرامة .

ووجه ارتباط هذا بما قبله بيان أن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك ، سائلك يوم القيامة عن ذلك كما قال : فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ « وقال « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وقال « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ » أي إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه وسائلك عن أداء ما فرض عليك .

وتبيان القرآن لأمر الدين إما مباشرة وإما ببيان الرسول ، وقد أمرنا باتباع هذا البيان في قوله « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » وقوله « لَتَتَّبِعِنَ لِّلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » ولقوله صلى الله عليه وسلم : « إني أوتيت القرآن ومثله معه » وإما ببيان الصحابة والعلماء المجتهدين له ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي ، عضوا عليها بالنواجذ » وقد كان كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم فاجتهد الأئمة ووطئوا طرق البحث في أمور الدين لمن بعدهم ، واستنبطوا من الكتاب والسنة مذاهب وآراء في العبادات ومعاملات الناس بعضهم مع بعض ، ودونوا تشريعا ينهل منه المسلمون في كل جيل ويرجع إليه القضاة ليحكموا بين الناس بالعدل ، وكان أجل تشريع أخرج للناس كما اعترف بذلك أر باب الديانات الأخرى ومن لم يتدين منهم بدين .

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا
بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ

عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي
 نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ
 أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً
 وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ
 تَعْمَلُونَ (٩٣)

شرح المفردات

العدل لغة : المساواة في كل شيء من غير زيادة ولا غلو ولا نقصان فيه ولا تقصير ،
 والمراد به هنا المكافأة في الخير والشر ، والإحسان : مقابلة الخير بأكثر منه ، والشر
 بالنعو عنه ، وإيتاء ذى القربى : أى إعطاء الأقارب حقهم من الصلة والبر ، والفحشاء :
 ما قبح من القول والفعل ، فيدخل فيه الزنا وشرب الخمر والحرص والطمع والسرقة
 ونحو ذلك من الأقوال والأفعال المذمومة ، والمنكر : ما تنكره العقول من دواعى القوة
 الغضبية كالضرب الشديد والقتل والتطاول على الناس ، والبغى : الاستعلاء على
 الناس والتجبر عليهم بالظلم والعدوان ، والوعظ : التنبيه إلى الخير بالنصح والإرشاد ،
 والعهد : كل ما يلتزمه الإنسان باختياره ، ويدخل فيه الوعد ، ونقض اليمين : الخنث فيها
 وأصله فك أجزاء الجسم بعضها من بعض ، وتوكيدها : توثيقها والتشديد فيها ، كفيلا :
 أى شاهدا ورقيبا ، والغزل : ما غزل من صوف ونحوه ، والقوة : الإبرام والإحكام ،
 والأنكاث ، واحدها نكت ، وهو ما ينكت فتله وينقض بعد غزله ، والدخل : المسكر
 والخديعة . وقال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحا فهو دخل ، ويراد به أن يظهر
 الوفاء بالعهد ويبطن النقض ، أربى : أى أكثر وأوفر عددا .

المعنى الجملى

بعد أن بالغ سبحانه في الوعد للمتقين والوعيد للكافرين ، وعاد وكرر في الترغيب والترهيب إلى أقصى الغاية ، أردف ذلك بذكر هذه الأوامر التي جمعت فضائل الأخلاق والآداب وضروب التكاليف التي رسمها الدين وحث عليها لما فيها من إصلاح حال النفوس ، وصلاح حال الأمم والشعوب ، ثم ضرب الأمثال لمن يحميد عنها وينفر من فعلها .

ثم أبان أن أمر الهداية والإضلال بيد الله ، والله قد قدره على حسب استعداد النفوس للصالح والغواية ، وسيجازى يوم القيامة كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب .

أخرج البخارى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم والبيهقى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « أعظم آية في كتاب الله تعالى : الله لا إله إلا هو الحي القيوم » وأجمع آية في كتاب الله للخير والشر الآية التي في النحل « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » وأكثر آية في كتاب الله تفويضا « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » وأشد آية في كتاب الله رجاء « يَا عِبَادِ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا » وعن عكرمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد ابن المغيرة هذه الآية فقال له يابن أخى أعد على فأعادها عليه ، فقال له الوليد : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقوله البشر .

وأخرج البيهقى في شعب الإيمان عن الحسن رضى الله عنه أنه قرأ هذه الآية « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الآية ثم قال إن الله عز وجل جمع لكم الخير كله والشركه في آية واحدة ، فوالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئا إلا جمعه وأمر به ، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغى من معصية الله شيئا إلا جمعه وزجر عنه .

قال الحافظ أبو يعلى في كتاب معرفة الصحابة عن علي بن عبد الملك بن عمير عن أبيه قال : بلغ أكرم بن صيفي مخرج النبي صلى الله عليه وسلم فأراد أن يأتيه فأبى قومه أن يدعوه وقالوا : أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه ، قال فليأتته من يبلغه عنى و يبلغنى عنه ، فانتدب رجلان فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فقالا : نحن رسل أكرم بن صيفي وهو يسألك من أنت وما أنت ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما من أنا ؟ فأنا محمد بن عبد الله ، وأما ما أنا ؟ فأنا عبد الله ورسوله ، قال ثم تلا عليهم : إن الله يأمر بالعدل والإحسان الآية .

قالوا ردّد علينا القول فردده عليهم حتى حفظوه ، فأتيا أكرم فقالا أبي أن يرفع نسبه ، فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكى النسب وسطا في مضر ، وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها ، فلما سمعنا أكرم قال : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملامتها ، فكونوا في هذا الأمر رهوسا ولا تكونوا فيه أذنا ، وكونوا فيه أولا ، ولا تكونوا فيه آخرا .

وقال سعيد بن جبير عن قتادة في قوله (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به ، وليس من خلق سيء كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه ، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها .

الإيضاح

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان) أى إن الله يأمر في هذا الكتاب الذى أنزله إليك أيها الرسول بالعدل والإنصاف ، ولا نصفة أجل من الاعتراف بمن أنعم علينا بنعمه ، والشكر له على إفضاله ، وحمده وهو أهل للحمد ، ومنع ذلك عن ليس له بأهل ، فالأوثان والأصنام لا تستحق شيئا منه ، فمن الجهل عبادتها وحمدها

وهي لا تنعم فنشكر ، ولا تنفع فتعبد ، ومن ثم وجب أن نشهد أن لا إله إلا الله وحده .

أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي أنه قال : دعاني عمر بن العزيز فقال : صف لي العدل ، فقلت بئح سألت عن أمر جسيم ، كن لصغير الناس أباً ولكبيرهم ابناً ، وللمثل منهم أخاً ، وللنساء كذلك ، وعاقب الناس على قدر ذنوبهم وعلى قدر أجسامهم ، ولا تضربن لفضبك سوطاً واحداً فتكون من العادين .

وأخرج البخاري في تاريخه أن علي بن أبي طالب مرّ بقوم يتحدثون ، فقال فيم أنتم ؟ فقالوا نتذاكر المروءة فقال : أو ما كفاكم الله عز وجل ذلك في كتابه إذ يقول : إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، فالعدل الإنصاف ، والإحسان : التفضل ، فما بقي بعد هذا ؟ .

وأعلى مراتب الإحسان الإحسان إلى المسيء ، وقد أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى عن الشعبي أنه قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك . وقد صح من حديث ابن عمر في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

(وإبتاء ذى القربى) أى وإعطائهم ما تدعو إليه الحاجة ، وفي الآية إرشاد إلى صلة الأقارب والأرحام وترغيب في التصديق عليهم ، وهذا وإن دخل فيما سلف من الإحسان — فقد خصص للاهتمام به والعناية بشأنه .

وبعد أن ذكر الثلاثة التي أمر بها أتبعها بالثلاثة التي نهى عنها فقال :-

(وينهى عن الفحشاء) وهي الغلو في الميل إلى القوة الشهوانية كالزنا وشرب الخمر والسرقه والطمع في مال الناس .

(والمنكر) وهو ما تنكره العقول من المساوى الناشئة من الغضب كالضرب والقتل والتطاول على الناس .

(والبغى) وهو ظلم الناس والتعمدى على حقوقهم .

وخلاصة ماسلف — إن الله يأمر بالعدل ، وهو أداء القدر الواجب من الخير ،
وبالإحسان ، وهو الزيادة فى الطاعة والتعظيم لأمر الله والشفقة على خلقه ، ومن أشرف
ذلك صلة الرحم .

وينهى عن التعالى فى تحصيل اللذات الشهوانية التى يابها الشرع والعقل ،
وعن الإفراط فى اتباع دواعى الغضب بإيصال الشر إلى الناس وإيذائهم وتوجيه
البلاء إليهم ، وعن التكبر على الناس والترفع عليهم وتصعير الخد لهم .

(يعظكم لعلكم تذكرون) أى أمركم بثلاث ومنها كم عن ثلاث ، كى تتمظوا
فتعملوا بما فيه رضاه سبحانه وتعالى ، وما فيه صلاحكم فى دنياكم وآخرتكم .
وبعد أن ذكر المأمورات والمنهيات بطريق الإجمال فى الآية الأولى — ذكر
بعضها على سبيل التخصيص فقال :

(وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) أى وأوفوا بميثاق الله إذا واثقتموه ، وعقدتموه
إذا عاقدتموه ، فأوجبتم به على أنفسكم حقا لمن عاقدتموه وواثقتموه عليه ، ويدخل
فى ذلك كل عهد يلتزمه الإنسان باختياره ، والوعد من العهد ، ومن ثم قال ميمون
ابن مهران : من عاهدته وفء بعهده ، مسلما كان أو كافرا ، فإنما العهد لله تعالى .
(ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) أى لا تخالفوا
ما عاقدتم فيه الأيمان وشددتم فيه على أنفسكم ، فتحنثوا فيه وتكذبوا وتنقضوه
بعد إبرامه ، وقد جعلتم الله بالوفاء بما تعاقدتم عليه راعيا يرعى الموفى منكم بالعهد
والناقض له بالجزاء عليه .

ثم وعد وأوعد فقال :

(إن الله يعلم ما تفعلون) فى العهود التى تعاقدون الله الوفاء بها ، والأيمان التى
تؤكدونها على أنفسكم ، أتبرون فيها أم تنقضونها ؟ وهو محص ذلك كله عليكم
وسائلكم عنه وعماعلمتكم فيه ، فاحذروا الله أن تلقوه وقد خالفتكم أمره ونهيه ،
فتستوجبوا منه ما لا قبل لكم به من أليم عقابه .

أخرج ابن جرير عن مَزِيدَةَ بن جابر أن الآية نزلت في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم كان من أسلم يبايع على الإسلام ، فقال تعالى : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) فلا تحملنكم قلة محمد وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام ، وإن كان في المسلمين قلة وفي المشركين كثرة .

ثم أكد وجوب الوفاء وتحريم النقض مع ضرب المثل فقال :
 (ولا تكونوا كالتى نقضت غزوها من بعد قوة أنكاثا) أى ولا تكونوا أيها القوم فى نقضكم أيمانكم بعد توكيدها ، وإعطائكم ربكم العهود والمواثيق كمن تنقض غزوها بعد إبرامه وإحكامه ، وتنفضه بعد أن جعلته طاقات ، حماقة منها وجهلا .
 قال السُّدِّيُّ : هذه امرأة خرقاء كانت بمكة ، كلما غزلت غزلا نقضته بعد إبرامه .

والخلاصة — إنه تعالى شبه حال الناقض للعهد بحال من تنقض غزوها بعد فتلها وإبرامه ، تحذيرا للمخاطبين وتنبها إلى أن هذا ليس من فعل العقلاء ، وصاحبه فى زمرة الحق من النساء .

(تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة) أى تجعلون أيمانكم التى تحلفون بها على أنكم موفون بالعهد لمن عاقدتم — خديعة وغرورا ليطمئنوا إليكم ، وأنتم مضمرون لهم الغدر وترك الوفاء بالعهد ، والنقلة إلى غيرهم من أجل أنهم أكثر منهم عَدَدًا وَعُدَدًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ، بل عليكم بالوفاء باليهود والمحافظة عليها فى كل حال .
 قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز نفرا فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز نفرا فنهوا عن ذلك ، وقيل هو تحذير للمؤمنين أن يغتروا بكثرة قریش وسعة أموالهم فينقضوا بيعة النبي صلى الله عليه وسلم .

(إنما يبلوكم الله به) أى إنما يعاملكم الله معاملة المختبر بأمره إياكم بالوفاء بعهده

إذا عاهدتم ، لينظر أتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله تعالى وبيعة رسوله ، أم تغفرون
بكثرة قريش وشوكتهم ، وقلة المؤمنين وضعفهم على حسب ظاهر الحال .

ثم أنذر وحذر من خالف الحق وركن إلى الباطل فقال :

(وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) أى وليبينن لكم ربكم يوم القيامة
إذا وردتم عليه لمجازاة كل فريق منكم على عمله فى الدنيا ، الحسن منكم بإحسانه ،
والمسئء بإساءته — ما كنتم تختلفون فيه فى الدنيا من إقرار المؤمن بوحداية ربه ،
ونبوة نبيه ، والوحى إلى أنبيائه ، والكافر بكذبه بذلك كله .

وبعد أن أبان أنه كفهم الوفاء بالعهد ، وتحريم نقضه أتبعه ببيان أنه قادر على
جمعهم على هذا الوفاء وعلى سائر أبواب الإيمان فقال :

(ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهذى من يشاء)
أى ولو شاء الله لجمع الناس على دين واحد بمقتضى الغريزة والفطرة ولم يجعل لهم
اختيارا فيما يفعلون ، فكانوا فى حياتهم الاجتماعية أشبه بالنمل والنحل ، وفى حياتهم
الروحية أشبه بالملائكة ، مغطورين على طاعة الله واعتقاد الحق ، وعدم الميل إلى
الزيغ والجور ، لكنه تعالى خلقهم كاسبين لاملهمين ، وعاملين بالخيار لا مغطورين
وجعلهم متفاوتين فى الاستعداد وكسب العلم ، فلانسان اختيار أوتيه على حسب
استعداده الأزلى وهو مجبور فيه ، والثواب والعقاب يترتبان على هذا الاختيار الذى
يشاهد ، وتكون عاقبته الجنة أو النار .

(ولتسألن عما كنتم تعملون) أى ولتسألن يوم القيامة جميعا سؤال محاسبة
ومجازاة ، لاسؤال استفهام واستفسار ، وقد تكرر ذكر هذا المعنى فى سور كثيرة .

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا
وَتَذُوقُوا الشَّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤)

وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِنْدَ كُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)

شرح المفردات

زلة القدم بعد ثبوتها : مثل يقال لمن وقع في محنة بعد نعمة ، وبلاء بعد عافية ،
والحياة الطيبة : هي القناعة وعدم الحرص على لذات الدنيا ، لما في ذلك من
الكد والعناء .

المعنى الجملى

بعد أن حذر سبحانه من نقض العهود والأيمان على الإطلاق — حذر في هذه
الآية من نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها وهي نقض عهد رسول الله على الإيمان
به ، واتباع شرائعه جريا وراء خيرات الدنيا وزخارفها ، وأبان لهم أن كل ذلك زائل
وما عند الله باق لا ينفد ، ثم هو بعدُ يجزيهم الجزاء الأوفى .

الإيضاح

(ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم) أى ولا تجعلوا أيمانكم خديعة تفرون بها
الناس ، والمراد بذلك نهى المخاطبين بذلك الخطاب عن نقض أيمان مخصوصة
أقدموا عليها .

ذاك أنهم بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام وحلفوا على ذلك
أو كد الأيمان ثم نقضوا ما فعلوا لقله أهله وكثرة أهل الشرك ، فنهوا عن ذلك .

(فنزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم) أى إنكم بعملكم هذا تكونون قد وقعتم فى محظورات ثلاثة .

(١) إنكم تضلون وتبعدون عن محجة الحق والهدى بهد أن رسخت أقدامكم فيها .

(٢) إنكم تكونون قدوة لسواكم وتستنون سنة لغيركم ، فيها صد عن سبيل الحق ، ويكون لكم بها سوء العذاب فى الدنيا بالقتل والأسر وسلب الأموال والجلاء عن الديار .

(٣) إنكم ستعاقبون فى الآخرة أشد العقاب جزاء ما اجترحتم من مجافاة الحق والإعراض عن أهله ، والدخول فى زمرة أهل الشقاء والضلال .

ثم أكد هذا التحذير بقوله :

(ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا) أى ولا تأخذوا فى مقابلة نقض العهد عوضا يسيرا من الدنيا ، وقد كان هذا حال قوم ممن أسلموا بمكة ، زين لهم الشيطان أن ينقضوا ما بايعوا رسول الله عليه ، جزعا مما رأوا من غلبة قريش ، واستضعافهم للمؤمنين ، وإيذائهم لهم ، ولما كانوا يعدونهم به من البذل والعطاء إن هم رجعوا إلى دينهم ، فنبههم الله بهذه الآية ونهاهم عن أن يستبدلوا الخير العميم والنعيم المقيم فى الآخرة بما وعدوهم به من عرض الدنيا وزينتها .

ثم بين سبحانه قلة ما أخذوا ، وعظيم ما تركوا بقوله :

(إن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون) أى إن ما خبأه الله لكم ، وادخره من جزيل الأجر والثواب هو خير لكم من ذلك العرض القليل فى الدنيا ، إن كنتم من ذوى العقول الراجحة ، والأفكار الثاقبة التى تزن الأمور بميزان الفائدة وتقدر الفرق بين العوضين .

ثم بين وجه خيريته ورجاحة شأنه بقوله :

(ما عندكم ينفد وما عند الله باق) أى إن ما تتمتمون به من نعيم الدنيا بل

الدنيا وما فيها تنفذ وتنقضى وإن طال الأمد وجل العدد ، وما في خزائن الله باق لا نفاذ له ، فلما عنده فاعملوا ، وعلى الباقي الذى لا يفنى فاحرصوا .

ثم رغب سبحانه المؤمنين فى الصبر على ما التزموه من شرائع الإسلام فقال :
(ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) أى ولنثيبن الذين صبروا على أذية المشركين وعلى مشاق الإسلام التى تتضمن الوفاء بالعهود والمواثيق ، الثواب العظيم الذى هم له أهل كفاء صبرهم وهو أحسن أعمالهم ، إذ كل التكليف محتاجة إليه وهو أس الأعمال الصالحة .

وفى الآية عدة جميلة باغتفار ما عسى أن يكون قد فرط منهم أثناء ذلك من جزع يعترتهم على حسب الطبيعة البشرية .

ثم رغبهم فى المثابرة على أداء الطاعات وعمل الواجبات الدينية فقال :

(من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) أى ومن عمل صالح الأعمال وأدى فرائض الله التى أوجبها عليه وهو مصدق بثوابه الذى وعد به أهل طاعته ، وبعقاب أهل المعصية على عصيانهم ، فلنجينه حياة طيبة ، تصحبها القناعة بما قسم الله ، والرضا بما قدره وقضاه ، إذ هو يعلم أن رزقه إنما حصل بتدبيره ، والله محسن كريم لا يفعل إلا ما فيه المصلحة ، ويعلم أن خيرات الدنيا سريعة الزوال ، فلا يقيم لها فى نفسه وزنا ، فلا يعظم فرحه بوجودها ، ولا غمه بفقدها .

ثم هو بعد ذلك يجزى فى الآخرة أحسن الجزاء ، ويثاب أجمل الثواب ، جزاء ما قدم من عمل صالح ، وتحلى به من إيمان صادق .

أما من أعرض عن ذكر الله فلم يؤمن ولم يعمل صالحا فهو فى عناء ونكد ، إذ يكون شديد الحرص والطمع فى الحصول على لذات الدنيا ، فإن أصابته محنة أو بلاء استعظم أمره ، وعظمت أحزانه ، وكثر غمه وكدره ، وإذا فاتته شىء من خيراتها عبس وبسر ، وامتلا قلبه أسى وحسرة ، لأنه يظن أن السعادة كل السعادة

فى الحصول على زخرف هذه الحياة والتمتع بمتاعها . فإذا هو لم ينل منه ما يريد فقد حرم كل ما يحلم به ، ويقدره من وافر السعادة وعظيم الخير ، والإنسان بطبعه جزوع هلوع ممنوع (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول « اللهم قننى بما رزقتنى وبارك لى فيه ، واخلف على كل غائبة لى بخير » ، وأخرج الترمذى والنسائى من حديث فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قد أفلح من هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به » .
وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافا ، وقننه الله بما آتاه » .

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)

شرح المفردات

قرأت القرآن : أى أردت قراءته كما تقول إذا أكلت فقل باسم الله ، وإذا سافرت فتأهب ، والرجيم : المرجوم المبعد من رحمة الله ، والسلطان : التسلط والاستيلاء ، والتولى : الطاعة يقال توليته أى أطعته ، وتوليت عنه أى أعرضت .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه يجزى المؤمنين بأحسن أعمالهم ، أرشد إلى العمل الذى به تخلص أعمالهم من وساوس الشيطان .

الإيضاح

(فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) أى إذا شرعت فى قراءة القرآن فاسأل الله سبحانه أن يعيدك من وساوس الشيطان الرجيم ، لئلا يلبس عليك قراءتك ، ويمنعك من التدبر والتفكير كما قال « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » وإذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم مع عصمته منه فما بالك بسائر أمته ثم بين أن الناس فريقان فريق لا تسلط له عليهم وهم الذين وصفهم الله بقوله :

(إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) أى إنه لا تسلط للشيطان على الذين يصدقون بقاء الله ويفوضون أمورهم إليه ، وبه يعوذون وإليه يلتجئون ، فلا يقبلون ما يوسوس به ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته . وعن سفيان الثورى أنه قال : ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يغفر لهم - يريد أنهم أمروا بالاستعاذة منه ليحفظهم الله من وساوسه التى ربما جرهم إلى الوقوع فى صغائر الآثام متى تقع على سبيل النذرة أو الغفلة .
وللفريق الثانى الذين عناهم بقوله :

(إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) أى إنما تسلطه بالغواية والضلالة على الذين يجعلونه نصيرا لهم فيحبونه ويطيعونه ويستجيبون دعوته ، والذين هم بسبب إغوائه يشركون بربهم .

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ

أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا
 لِّسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ
 وَبِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ
 اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)

شرح المفردات

التبديل : رفع شيء ووضع غيره مكانه ، وتبديل الآية : نسخها بآية أخرى ،
 وروح القدس : جبريل عليه السلام ؛ سمي بذلك لأنه ينزل بالقدس أى بما يظهر
 النفوس : من القرآن والحكمة والفيض الإلهي ، بالحقق : أى بالحكمة المقتضية له ،
 بشر : هو جبر الرومي غلام ابن الحضرمي كان قد قرأ التوراة والإنجيل وكان النبي
 صلى الله عليه وسلم يجلس إليه إذا آذاه أهل مكة ، والإلحاد : الميل يقال لحد وألحد
 إذا مال عن القصد ، ومنه سمي العادل عن الحق ملحدا ، لسان : أى كلام ؛ ويقال
 رجل أعجم وامرأة عجماء إذا كانا لا يفصحان عن مرادهما ، والأعجمى والأعجم : الذى
 فى لسانه عجمة ، من العجم كان أو من العرب ، ومن ذلك زياد الأعجم كان عربيا
 فى لسانه لسكنة .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بالاستعاذة من وسوسة الشيطان الرجيم حين قراءة القرآن ،
 أردف ذلك بذكر باب من أبواب فتنته ووسوسته بإلقاء الشبهات والشكوك لدى
 منكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر منها شبهتين :

(١) إنه قد تنزل آية من آيات الكتاب تنسخ شريعة ماضية فيعيرون

محمدًا بذلك .

(٢) إنهم قالوا إن ما جاء به إنما هو تعليم من البشر من بعض أهل الكتاب لامن الله ، فأبطل هذه الشبهة بأنه كلام عربي مبين وما نسبتم إليه تعليمه أعجمي ، فكيف به يعلمه الكلام العربي الفصيح الذي أعجز العرب قاطبة أن يأتوا بمثله .

الإيضاح

(وإذا نزلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون) أي وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكم آية أخرى ، والله أعلم بالذي هو أصلح لخلقه فيما يبديل من أحكامه - قال المشركون المكذبون لرسوله : إنما أنت متقول على الله تأمر بشيء ثم تنهى عنه ، وأكثرهم لا يعلمون مافی التبديل من حكم بالغة ، وقليل منهم يعلمون ذلك وينكرون الفائدة عنادا واستكبارا .

وفي قوله (والله أعلم بما ينزل) توييح لهم وإيماء إلى أن التبديل لم يكن للهوى بل كان لحكمة اقتضته ودعت إليه من تغير الأحوال والأزمان ، ألا ترى أن الطبيب يأمر المريض بدواء بعينه ، ثم إذا عاد مرة أخرى نهاه عن ذلك الدواء وأمره بضده أو بما لا يقرب منه على حسب ما يرى من حال المريض .

وهكذا الشرائع إنما توضع مشاكلة للزمان والمكان والأحوال الملازمة لها ، وقد يطرأ ما يغيرها ويستدعى وضع تشريع آخر يكون أصلح للأحوال المفاجئة ، والمشاهدة تدل على صدق هذا ، فإننا نرى القوانين الوضعية تغير آنا بعد آنا إذا جد ما يستدعى ذلك ، وقد تقدم بسط هذا في سورة البقرة .

ثم بين لهؤلاء المعارضين على حكمة النسخ الزاعمين أن ذلك لم يكن من عند الله وأن رسوله صلى الله عليه وسلم قد افتراه فقال :

(قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) أي قل لهم : قد جاء جبريل من عند ربي بما أتوه عليكم واقتضته الحكمة البالغة من تثبيت المؤمنين وتقوية إيمانهم بما فيه من أدلة قاطعة وبراهين ساطعة على

وحدانية خالق الكون و باهر قدرته و واسع علمه ، وحث على النظر فى ملكوت السموات و الأرض ، و تشريع يرقى بالأمة فى أخلاقها و آدابها و معارفها إلى مستوى لاتدانيها فيه أمة أخرى .

وإخلاصة — إنه نافع كل النفع لهم فى دينهم و دنياهم ، فإذا هم رأوا ذلك رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم ، كما أن فيه هداية لهم من الزيغ و الضلالات ، ففيه ما يهذب النفوس و يكبح جماح الطغيان و يرد المظلوم عن ظلمه و يدفع عدوان الناس بعضهم على بعض ، و فيه بشرى للمسلمين بما سيلقونه من الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار جزاء أعمالهم و كدهم و نصيبهم إرضاء لربهم .
وفى هذا إيماء إلى أن هؤلاء المشركين لهم من الصفات ضد هذا فهم متزلزلون ضالون لهم خزي و نكال فى الدنيا و الآخرة .

ثم حكى عنهم شبهة ثانية فقال :

(ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر) أى و إنا لنعلم أن هؤلاء المشركين يقولون جهلا : إنما يعلم محمدا هذا الذى يتلوه بشر من بنى آدم و ليس بالوحى من عند الله .

فرد الله عليهم و كذبهم فى قائلهم فقال :

(لسان الذى يلحدون إليه أعجمى و هذا لسان عربى مبين) أى إن لسان الذى تميئون إليه بأنه يعلم محمدا — أعجمى فهو عبد رومى فيما تزعمون ، و القرآن لسان عربى مبين ، فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن فى فصاحته و بلاغته و معانيه الشاملة من رجل أعجمى ؟ لا يقول هذا من له أدنى مُسكة من عقل .

وإخلاصة هذا — إن ما يسمعه من ذلك البشر كلام أعجمى لا يفهمه هو ولا أنتم و القرآن كلام عربى تفهمونه بأدنى تأمل فكيف يكون هو ما تلقفه منه ؟ هبه تعلم منه المعنى باستماع كلامه ، فهو لم يلقف منه اللفظ ، لأن ذلك أعجمى و هذا عربى ، و القرآن كما هو معجز باعتبار المعنى هو معجز من حيث اللفظ — إلى أن العلوم الكثيرة

التي في القرآن لا يمكن تعلمها إلا بالدرس والتلقين من أخصائيين مع الاختلاف إليهم مددا متطاولة ، فليس من اليسور ولا مما يجد العقل اطمئنانا إليه أن يتعلم مثل هذا من غلام سُوقى سمع منه أخبارا بلغة أعجمية لعله لم يكن يعرف معناها .
وعلى نحو آخر كأنه قيل لهم : أنتم أفصح الناس بيانا ، وأقواهم حجة وبرهانا ، وأقدرهم على الكلام نظما وثرنا ، وقد عجزتم وعجز جميع العرب أن يأتوا بمثله ، فكيف تنسبونه إلى أعجمي الكن .

وفي التشبث بأمثال هذه المطاعن الركيكة والخرافات الساذجة أبلغ دليل على أنهم بلغوا غاية العجز ، ونهاية السخف .

فدعهم يزعمون الصبح ليلا أيعمى الناظرون عن الضياء

ثم توعدهم على ما قالوا بالعقاب في الدنيا والآخرة فقال :

(إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم) أى إن الذين لا يصدقون بأن هذه الآيات من عند الله ، بل يقولون فيها ما يقولون ، فيقولون تارة إنها مفتريات ، ويقولون أخرى إنها من أساطير الأولين - لا يهديهم الله إلى معرفة الحق الذى ينجيهم من عذاب النار ، لما يعلم من سوء استعدادهم بما اجترحوا من السيئات ودنسوا به أنفسهم من ارتكاب الموبقات ، ولهم فى الآخرة إذا وردوا إلى ربهم عذاب مؤلم موجه كفاء ما نصبوا له أنفسهم من العدا لرسوله والتكذيب لآيات الكتاب .

ثم لما نسبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الافتراء رد الله عليهم بقوله :

(إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) أى إنما يتخرص الكذب ويتقول الباطل الذين لا يصدقون بحجج الله وآياته التى نصبها فى الكون وأقامها أدلة على وجوده ووحدانيته ، لأنهم لا يرجون على الصدق ثوبا ، ولا يخشون على الكذب عقابا ، وهذه صفاتكم أيها المشركون لاصفات النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ومن ثم حكم عليهم بالكذب حكما صريحا فقال :

(وأولئك هم الكاذبون) أى وأولئك الذين كفروا من رجال قريش القائلين
 لك أيها الرسول : إنما أنت مفترهم الكاذبون لأنك أنت .
 وهذا تصريح بنسبة الكذب إليهم بعد التعريض ، ليكون ميسم خزى وعار لهم .

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ
 بِالْإِيمَانِ ، وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ
 وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ
 وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أَوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى
 قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ لَهُمْ
 فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩)

شرح المفردات

أكره : أى على التلفظ بكلمة الكفر ، والاطمئنان : سكون النفس بعد انزعاجها ؛
 والمراد الثبات على ما كان عليه بعد إزعاج الإكراه ، شرح بالكفر صدرا : أى اعتقده
 وطاب به نفسا ، استحبوا الحياة الدنيا : أى آثروها وقدموها ، لا جرم : أى حقا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآيات السالفة أن قريشا كفروا برسول الله صلى الله
 عليه وسلم وتقولوا عليه الأقاويل فوصفوه بأنه مفتر وأن الكتاب الذى جاء به
 هو من كلام البشر لا من عند الله ، ثم هددهم على ذلك أعظم تهديد - قفى على ذلك
 ببيان حال من يكفر بلسانه وقلبه ملىء بالإيمان .

أخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الدلائل « أن المشركين أخذوا عمار ابن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر آهتهم بخير ، فلما أتى رسول الله قال له ما وراءك؟ قال شر ما تركت ، نلتُ منك وذكر آهتهم بخير ، قال كيف تجرد قلبك؟ قال : مطمئن بالإيمان ، قال إن عادوا فعد فنزلت : إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان» ، وروى «أن قريشاً أكرهوا عماراً وأبويه ياسراً وسمية على الارتداد فأبوا ، فربطوا سمية بين بعيرين ووجئت بحربة في موضع عفتها وقالوا إنما أسلمت من أجل الرجال فقتلوا وقتلوا ياسراً وهما أول قتيلين في الإسلام ، وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه ، فقيل يا رسول الله إن عماراً كفر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلا إن عماراً مليءٌ إيماناً من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال : مالك؟ إن عادوا فعد لهم بما قلت .»

الإيضاح

(من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) أى إن من كفر بالله بعد الإيمان والتبصر فعليه غضب من الله إلا إذا أكره على ذلك وقلبه مليءٌ بالإيمان من الله والتصديق برسوله ، فلا تثيرب عليه كما فعل عمار بن ياسر .
(ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) أى ولكن غضب الله وشديد عقابه لمن طابت أنفسهم بالكفر ، واعتقدوه طائعين مختارين ، لعظيم جرمهم وكبير إثمهم .
ثم بين سبب هذا الغضب فقال :

(ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة) أى ذلك الغضب من الله ، والعذاب العظيم من أجل أنهم آثروا الحياة الدنيا وزيتها على نعيم الآخرة .
(وأن الله لا يهدي القوم الكافرين) أى وأن الله لا يوفق من يجحد آياته

ويصرّ على إنكارها ، لأنه قد فقد الاستعداد لسبل الخير بما زينت له نفسه ، وسولت له من عظيم الجرم ، واختار من عظيم الإثم ، فأصبح قلبه مليئاً بما يشغله عن دواعي الإيمان بما يمليه عليه الشيطان .

(أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون) أى أولئك الذين اتصفوا بما تقدم ذكره — هم الذين طبع الله على قلوبهم فلا يؤمنون ولا يهتدون ، وأصم أسماعهم فلا يسمعون داعى الله إلى الهدى ، وأعمى أبصارهم فلا يبصرون بها حجج الله إِبصار معتبر وتمعن ، وأولئك هم الساهون عما أعد لأمثالهم من أهل الكفر ، وقد تقدم ذكر (الطبع) فى آى كثيرة .

(لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون) أى حقا إنهم فى الآخرة هم المهالكون الذين غبنوا أنفسهم حظوظها ، وصرفوا أعمارهم فيما لا يفضى بهم إلا إلى العذاب المخلد والله در من قال :

إذا كان رأس المال عمرك فاحترس عليه من الإنفاق فى غير واجب
فما المرء فى هذه الحياة إلا كالتاجر ، يشتري بطاعة ربه سعادة الآخرة ، فإذا لم يفعل من ذلك شيئاً خسرت تجارتته ، وعاد ذلك عليه بالوبال والنكال فى جهنم وبئس القرار .

وقد حكم الله على هؤلاء الكافرين بستة أشياء :

- (١) إنهم استوجبوا غضب الله .
- (٢) إنهم استحقوا عقابه العظيم .
- (٣) إنهم استحبوا الحياة الدنيا .
- (٤) إن الله حرمهم من الهداية للطريق القويم .
- (٥) إنه طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم .
- (٦) إنه جعلهم سبحانه من الغافلين .

قال مجاهد : أول من أظهر الاسلام سبعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وأبو بكر وخباب وصهيب وبلال وعمار وسمية .

أما الرسول فجاه أبو طالب ، وأما أبو بكر فجاه قومه ، وأخذ الآخرون وألبسوا دروع الحديد ، ثم اجلسوا في الشمس ، فبلغ منهم الجهد ببحر الحديد والشمس ، وأتاهم أبو جهل يشتمهم ويوبخهم ويشتم سمية ثم طعنها بحربة في مامس العفة ، وقال الآخرون ما نالوا به منهم ، إلا بلالا فإنهم جعلوا يعذبونه فيقول : أحدٌ أحدٌ حتى ملوا ، فكتفوه وجعلوا في عنقه جبلا من ليف ، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به ، حتى ملوه فتركوه .

وقال عمار : كلنا تكلم بالذي أرادوا غير بلال فإن نفسه هانت عليه فتركوه ، وقال خباب : لقد أوقدوا لي نارا ما أطفأها إلا ودك (دهن) ظهري .

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا
إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ
نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظَالَمُونَ (١١١)

شرح المفردات

أصل الفتن : إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، ثم استعمل في المحنة والابتلاء يصيب الانسان ، تجادل : أى تدفع وتسمى في خلاصها ، والنفس الأولى الجثة والبدن ، والنفس الثانية عينها وذاتها ، وتوفى : تعطى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف حال من كفر بالله من بعد إيمانه وحكم بأنه استحق غضب الله وعذابه الأليم يوم القيامة ، ثم ذكر حال من أكره على إجراء كلمة الكفر على لسانه وقلبه ملىء بالايمن — أردف ذلك بذكر طائفة من المسلمين كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم فوافقوا المشركين على الفتنة في الدين والرجوع إلى دين آبائهم وأجدادهم ثم فروا وتركوا بلادهم وأهليهم ابتغاء رضوان الله وطلب

غفرانه ، وانتظموا فى سلك المسلمين وجاهدوا معهم الكافرين ، فحكم ربهم بقبول
توبتهم ودخولهم فى زمرة الصالحين وتمتعهم بجنات النعيم يوم العرض والحساب .
أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة أن عياشا رضى الله عنه (وكان أخا أبى جهل من
الرضاعة) وأبا جندل بن سهيل وسامة بن هشام وعبد الله بن سلمة الثقفى ، فتنهم
المشركون وعذبوهم فأعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم ، ثم إنهم بعد ذلك
هاجروا وجاهدوا فنزلت فيهم الآية .

الإيضاح

(ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من
بعدها لغفور رحيم) أى إن ربك أيها الرسول للذين هاجروا من ديارهم وتركوا
مساكنهم وعشائرهم من أهل الشرك ، وانتقلوا عنهم إلى ديار الاسلام من بعد
ما فتنهم المشركون الذين كانوا بين ظهرانيهم قبل هجرتهم ، ثم جاهدوا المشركين بعد
ذلك بأيديهم بالسيف ، وبألسنتهم بالبراءة منهم وما يعبدون من دون الله وصبروا
على جهادهم — إن ربك من بعد أفعالهم هذه لذو ستر على ما كان منهم من إعطاء
المشركين ما أرادوا منهم من كلمة الكفر بألسنتهم ، وهم لغيرها مضمرون ، وللإيمان
معتقدون ، رحيم بهم أن يعاقبهم عليها مع إنابتهم إليه ، وجميل صنعهم من بعد .

(يوم تاتى كل نفس تجادل عن نفسها) أى إن ربك لغفور رحيم بهؤلاء يوم
تاتى كل نفس تخاصم عن نفسها وتحتاج عنها وتسعى فى خلاصها بما أسلفت فى الدنيا
من عمل ، ولا يهتمها شأن غيرها من ولد ووالد وقريب .

(وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون) وتعطى كل نفس جزاء ما عملت
فى الدنيا من طاعة أو معصية ، فيجزى المحسن بما قدم من إحسان ، والمسيء بما
أسلف من إساءة ، ولا يعاقب محسن ولا يثاب مسيء .

والخلاصة - إن كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره كما قال :
« لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » .

وجاء في بعض الآثار : « إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول : رب نفسي نفسي حتى إن إبراهيم الخليل ليفعل ذلك » .

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا
مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ
بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ
الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣)

المعنى الجملى

بعد أن هدده الله الكافرين بالعذاب الشديد فى الآخرة - أردف ذلك بالوعيد
بآفات الدنيا من جوع وفقر وخوف شديد بعد أمن واطمئنان وعيش رغد .

الإيضاح

(وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان
فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ولقد جاءهم
رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون) أى بين الله صفة قرية كان
هلها آمنين من العدو والقتال والجوع والسبي ، يأتيها الرزق الكثير من سائر البلدان
فكفروا بنعم الله فعمهم الجوع والخوف ، وذاقوا مرارتها بعد سعة العيش والطمأنينة
وقد جاءهم رسول من جنسهم يعرفونه بأصله ونسبه ، فكذبوه فيما أخبرهم به من

وجوب الشكر على النعمة ، فأخذهم العذاب واستأصل شأقتهم لالتباسهم بالظلم وهو الكفر وتكذيب الرسول .

وفى هذا إيماء إلى تماديهم فى الكفر والعناد ، وإلى أن ترتيب العذاب على تكذيب الرسول جاء على سنة الله فى أنه لا يعذب أمة إلا إذا أنذرها ، وبعث إليها رسولا يعظها ويرشدها كما يدل على ذلك قوله « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » وهكذا حال أهل مكة ، فإنهم كانوا فى حرم آمن يتخطف الناس من حولهم ، ولا يمر بهم طيف من الخوف ولا يزعج قلوبهم مزعج ، وكانت تجبى إليهم ثمرات كل شىء ، وقد جاءهم رسول من أنفسهم فأنذروهم وحذروهم فكفروا بأنهم الله وكذبوا رسوله فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر وأذاقهم لباس الجوع والخوف بدعاء رسوله إذ قال : « اللهم اشد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » فاضطروا إلى أكل الجيف والكلاب الميتة والعظام المحرقة ، وكان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع ، وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا يغيرون على مواشيهم وعيرهم وقوافلهم ، ثم أخذهم يوم بدر ما أخذهم من العذاب ، وقد جعل الله الجوع والخوف اللذين خالط أذاهما أجسامهم - لباسا لهم ، لأن أثرها وضررها قد أحاط بهم من كل جانب فأشبهها اللباس الذى يغطى الجسم ويحيط به ، وحعل إصابتهم بهما إذاعة دلالة على شدة تأثيرها الشديد الذى حدث فيهم كما يكون ذلك حين ذوق شىء مرّ بشع كربه ، إذ يجد الذائق تقززا واشمئززا .

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنَّ
كُنْتُمْ لِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ
الْخِنْزِيرِ وَمِمَّا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ

غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمُ الْكَذِبَ هَذَا
 حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ
 الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى
 الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ
 كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوءَ بِجَهَالَةٍ
 ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩)

شرح المفردات

يقولون : له وجه يصف الجمال ، وعين تصف السحر ، يريدون أنه جميل وأن
 عينه تفتن من رآها ؛ لأنه لما كان وجهه منشأ للجمال وعينه منبعاً للفتنة والسحر
 كان كل منهما كأنه إنسان عالم بكنههما محيط بحقيقتيهما يصفهما للناس أجمل وصف
 ويعرفهما أتم تعريف ، وعلى هذا الأسلوب جاء قوله تعالى : ولا تقولوا لما تصف
 ألسنتكم الكذب ، إذ جعل الكذب كأنه حقيقة مجهولة وكلامهم الكذب يشرح
 تلك الحقيقة ويوضحها ، كأن ألسنتهم لكونها موصوفة بالكذب هي حقيقة ومنبعه
 الذي يعرف منه ، وعليه قول أبي العلاء المعري :

سرى برق المعرّة بعد وهن فبات برامة يصف الكلالا

أى إن سرى ذلك البرق يصف الكلال والإعياء .

لتفتروا : أى لتكون العاقبة ذلك، والجهالة هنا: الطيش وعدم التدبر في العواقب.

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه حال من كفروا بأنعم الله وكذبوا رسوله وأنه قد حل بهم
 العذاب من جوع وخوف بسبب ظلمهم لأنفسهم وصددهم عن سبيل الله - قفى على

ذلك بأمر المؤمنين بأكلهم من الحلال الطيب وشكرهم لنعمة الله عليهم وطاعتهم للرسول فيما به أمر وعنه نهى كيلا يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم ، ثم بيان ما حرمه من المآكل ، وأن التحليل والتحریم لا يكونان إلا بنص من الدين لا بالهوى والتشهى ، لأن ذلك افتراء على الله ، ومن يفتر عليه لا يفلح ، وأن ما حرم على اليهود قد ذكره فيما نزل عليه من قبل في سورة الأنعام ، وأن من يعمل السوء لعدم تدبره في العواقب كغلبة الشهوة عليه ثم يتوب من بعد ذلك ويصلح أعماله ، فإن الله غفور لزلاته ، رحيم به فيثيبه على طاعته .

الإيضاح

(فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون)
 أى فكلوا يا معشر المؤمنين مما رزقكم الله من بهائم الأنعام التى أحلها لكم وذروا الخبائث وهى الميتة والدم ، واشكروا الله على ما أنعم به عليكم بتحليله ما أحل لكم ، وبسائر نعمه المتظاهرة عليكم ، إن كنتم تعبدونه فتطيعونه فيما يأمركم به وتتنبهون عما ينهاكم عنه ، والمراد بذلك الحث على اتباع أوامره والمداومة عليها .

وبعد أن أمرهم بالأكل من الطيبات بين لهم ما حرم عليهم فقال :

(إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به) أى إنما حرم عليكم ربكم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح للأنصاب فسمى عليه بغير اسمه تعالى ، فإن ذلك من ذبائح من لا يحل أكل ذبيحته .

والتلخيص — إن ما سمي عليه غير الله عند الذبح سواء كان صنفا أو وثنا أو روحا خبيثا من جن أو روحا طيبا من إنس كالنبي والولى حيا أو ميتا ، فأكله حرام لما جاء فى الحديث « ملعون من ذبح لغير الله » سواء سمي الله عند ذبحه أو لم يسم ، لأن هذا الحيوان قد انتسب إلى غيره تعالى ، فمن ذبح للسيد البدوى أو لإبراهيم الدسوقى أو للسيدة زينب لا يجوز أكل هذا الذبيح .

ثم ذكر الحال التي يسوغ فيها تناول شيء من هذه المحرمات فقال :

(فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم) أى فمن اضطر إلى تناول شيء من هذه المحرمات لمجاعة حلت به ، وضرورة دعته إلى أخذ شيء منها ، غير باغ على مضطر آخر ولا متعمد قدر الضرورة وسد الرمق - فالله لا يؤاخذة على ذلك وهو الذى يستر ما يصدر منهم من الهفوات ، وهو الرحيم بهم أن يعاقبهم على مثل ذلك ، أما ما حرموه غير ذلك من البجائر والسوائب والوصائل ونحوها مما تقدم فى سورة الأنعام فهو محض افتراء على الله ، وقد تقدم مثل هذه الآية فى سور البقرة والمائدة والأنعام وفيها حصر المحرمات فى هذه الأربع فحسب .

ثم أكد حصر المحرمات فى هذه الأربع ونهى عن التحريم والتحليل بالأهواء فقال :

(ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام) أى ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام بالرأى والهوى ، فلا تقولوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، ولا تحلوا الميتة والدم ولحم الخنزير الخ .

وخلاصة ذلك - لا تحلوا ولا تحرموا لمجرد وصف ألسنتكم الكذب وتصويرها له دون استناد إلى داييل ، وكأن ألسنتكم لأنها منشأ الكذب وينبوعه شخص عالم بحقيقته ومحيط بكنهه يصفه للناس ويوضحه لهم أتم إيضاح .

(لتفتروا على الله الكذب) أى لتكون عاقبة أمركم إسناد التحريم والتحليل إلى الله كذبا من غير أن يكون ذلك منه ، فالله لم يحرم من ذلك ما تحرمون ولا أحل كثيرا مما تحلون .

وإجمال ذلك - لانسوا ما لم يأتكم حله ولا حرمة عن الله ورسوله حالالا وحراما فتكونوا كاذبين على الله ، لأن مدار الحل والحرمة ليس إلا حكمه تعالى .

عن أبى نضرة قال : قرأت هذه الآية فى سورة النحل فلم أزل أخاف الفتيا إلى

يومى هذا - وقد صدق فكل من أفتى بخلاف ما فى كتاب الله وسنة رسوله لجهله بما فيهما فقد ضل وأضل من يفتيهم ، والله در القائل :

كبهيمة عمياء قاد زمامها أعمى على عوج الطريق الخائر

أخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال : عسى رجل يقول إن الله أمر بكذا أو نهى عن كذا فيقول الله عز وجل كذبت ، أو يقول إن الله حرم كذا أو أحل كذا فيقول الله له كذبت .

ثم أوعد الله المقتربين وهددهم أشد التهديد فقال :

(إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) أى إن الذين يتخرون الكذب على الله فى أمورهم صغيرها وكبيرها لا يفوزون بخير فى المطالب التى لأجلها كذبوا على ربهم ، إذ هم متى عرفوا بالكذب مجهم الناس وانصرفوا عنهم وعاشوا أذلة بينهم ممقوتين ويكونون مضرب الأمثال فى الهوان والصغار - إلى ما يصيبهم من الخزي والوبال يوم القيامة .

ثم بين أن ما يحصل لهم من المنافع بالافتراء على الله ليس شيئا مذكورا إذا قيس بالمضار التى تنجم منه فقال :

(متاع قليل ولهم عذاب أليم) أى إن المنافع التى قد تحصل لهم على ذلك فى الدنيا لا يعتد بها فى نظر العقلاء إذا ووزن بينها وبين المضار التى فى الآخرة ، فما متاع الدنيا إلا ظل زائل ثم يفتى ويبقى لهم العذاب الأليم حين مصيرهم إلى ربهم بما اجترحوا من السيئات ، ودنسوا به أنفسهم من أضرار الإثم والفجور والكذب على بارئهم الذى خلقهم وصورهم فأحسن صورهم . ونحو الآية قوله : « نَمْتَعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَطُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ » .

وبعد أن بين ما يحل وما يحرم لأهل الإسلام أتبعه ببيان ما خص به اليهود من المحرمات فقال :

(وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل) أى وحرمنا من قبلك

أيها الرسول على اليهود ما أنبأناك به من قبل في سورة الأنعام : « وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شَحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ » .

ثم بين السبب في ذلك التحريم عليهم فقال :

(وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى وما ظلمناهم بتحريم ذلك عليهم ، ولكن ظلموا أنفسهم بمعصيتهم لربهم وتجاوزهم حدوده التى حدها لهم وانتهاك حرمانه ، فعوقبوا بهذا التحريم كما قال فى آية أخرى : « فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ » الآية .

وفى هذا إيماء إلى أن ذلك التحريم إنما كان للظلم والبغى عقوبة وتشديدا ، وبه يعلم الفرق فى التحريم بينهم وبين غيرهم ، فإنه لهم عقوبة ، ولنا للمضرة فحسب . ثم بين أن الافتراء على الله وانتهاك حرمانه لا يمنع من التوبة التى يتقبلها الله منهم ويغفر لهم زلاتهم رحمة منه وفضلا فقال :

(ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) أى إن ربك للذين افترؤا عليه وأشركوا به سواه وركبوا ما لا يليق من المعاصى بسبب الجهالة التى تحملهم على انتهاك حرمان الدين كالقتل للغيرة أو للعصبية كما جاء فى الخبر « اللهم إني أعوذ بك من أن أجهل أو يجهل على » . وقال عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

إنه لغفور رحيم بهم إذا هم تابوا وندموا على ما فرط منهم وأصلحوا أعمالهم ففعلوا ما يجب الله ورسوله .

وفى قوله : بجهالة ، إيماء إلى أن من يأتى الذنوب قلما يفكر فى العاقبة لغلبة الشهوة عليه أو لجهالة الشباب والعليش .

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)
 شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ
 فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
 أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ
 السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤) أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ
 وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ
 ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ
 مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ
 وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ
 (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨) .

شرح المفردات

الأمة : الجماعة الكثيرة، وسمى إبراهيم أمة لأنه قد جمع من الفضائل والكمالات
 ما لو تفرق لكفى أمة ، ألا ترى أبا نواس إذ يقول لهرون الرشيد مادحا :
 وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

والقانت : المطيع لله القائم بأمره ، والحنيف : المائل عن الدين الباطل إلى الدين
 الحق ، واجتباؤه : اختاره واصطفاه ، والحسنة : هي محبة أهل الأديان جميعا له إجابة
 لدعوته لربه « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » وجعل السبت لليهود : فرض
 تعظيمه والتخلي فيه للعبادة وترك الصيد ، والحكمة : المقالة المحكمة المصحوبة بالدليل

للموضح للحق المزيل للشبهة ، والموعظة الحسنة : الدلائل الظنية المتقنة للعامة ، والجدل : الحوار والمناظرة لإقناع المعاند ، والعقاب في أصل اللغة : المجازاة على أذى سابق ثم استعمل في مطلق العقاب ، والضيق (بفتح الضاد وكسرهما) الغم وانقباض الصدر.

المعنى الجملى

بعد أن زيف سبحانه مذاهب المشركين في إثبات الشركاء والأنداد لله ، وفي طعنهم في نبوة الأنبياء والرسل بنحو قولهم: لو أرسل الله رسلاً لأرسل ملائكة. وفي تحليلهم أشياء حرمها الله ، وتحريم أشياء أحلها الله ، وبالغ في رد هذه المعتقدات . ختم السورة بذكر إبراهيم رئيس الموحدين الذى كان المشركون يفتخرون به ، ويقرون بوجوب الاقتداء به ، ليصير ذكر طريقته حاملاً لهم على الإقرار بالتوحيد والرجوع عن الشرك ، ثم بأمر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم باتباعه ، ثم بجعل الأسس التى يبني عليها دعوته هى الحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالحسنى ، ثم بأمره باللين فى العقاب إن أراه أو بترك العقاب ، وهو أفضل للصابرين ، ثم بأمره بجعل الصبر رائده فى جميع أعماله ، ونهيه عن الحزن على كفر قومه وأنهم لم يجيبوا دعوته ، وأنهم يمكرون به ، فالله ينصره عليهم ويكفيه أذاهم ، فقد جرت سنته بأن العاقبة للمتقين ، والخذلان للعاصين الخائنين .

الإيضاح

(إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً ولم يك من المشركين. شاكرًا لأنعمه اجتناباً. وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) مدح الله عبده ورسوله وخليفه إبراهيم إمام الحنفاء ، ووالد الأنبياء بجملة صفات من صفات الكمال :

(١) إنه وحده كان أمة ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : إنه كان عنده عليه

السلام من الخير ما كان عند أمة ، فهو رئيس الموحدين ، كسر الأصنام ، وجادل الكفار ، ونظر في النجوم ، ودرس الطبيعة الكونية ليطمئن قلبه بالإسلام .

(٢) إنه كان قانتاً أي مطيعاً لله قائماً بأمره .

(٣) إنه كان حنيفاً أي مائلاً عن الباطل ، متبعاً للحق لا يفارقه ولا يحمده عنده .

(٤) إنه ما كان من المشركين في أمر من أمور دينهم ، بل كان من الموحدين

في الصغر والكبر ، فهو الذي قال للملك في عصره « رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ »

وهو الذي أبطل عبادة الأصنام والكواكب بقوله : « لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ » وكسر

الأصنام حتى ألقوه لأجلها في النار فكانت عليه برداً وسلاماً .

وعلى الجملة فقد كان غارقاً في بحار التوحيد مستغرقاً في حب الإله المعبود ،

وفي ذلك رد على كفار قريش إذ قالوا نحن على ملة إبراهيم ، وعلى اليهود الذين

أشركوا وقالوا عزير ابن الله ، مع زعمهم أن إبراهيم كان على مثل ما هم عليه ؛ ونحو الآية

قوله : « مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا

كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

(٥) إنه كان شاكراً لأنعم الله عليه كما قال : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى » أي قام

بجميع ما أمره الله تعالى به ، وفي هذا تعريض بكفار قريش الذين جحدوا بأنعم الله

فأصابهم الجوع والخوف كما تقدم ذكره في المثل السابق .

(٦) إنه اجتباه ربه واختاره للنبوة كما قال : « وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ

مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ » .

(٧) إنه هداه إلى صراط مستقيم ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له مع إرشاد

الخلق إلى ذلك والدعوة إليه .

(٨) إن الله حببه إلى جميع الخلق ، فجميع أهل الأديان مسلميهم ونصاراهم

ويهودهم يعترفون به ، وكفار قريش لا تخف لهم إلا به ، وقد أجاب الله دعاءه في قوله

« وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » .

(٩) إنه في الآخرة في زمرة الصالحين وهو معهم في الدرجات العلى من الجنة ،
 إجابة لدعوته قال « رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » .
 وبعد أن وصف إبراهيم بهذه الصفات الشريفة التي بلغت الغاية في علو المرتبة .
 أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم باتباعه فقال :

(ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) أى ثم
 أوحينا إليك أيها الرسول وقلنا لك : اتبع ملة إبراهيم الحنيفة السليمة البريئة من
 عبادة الأوثان والأنداد التي يعبدها قومك ، كما تبرأ إبراهيم من مثلها من قبل ،
 فأنت متبع له وسائر على قدمه ، وقومك ليسوا كذلك ، لأنهم يحلون ويحرمون
 من عند أنفسهم .

ونحو الآية قوله في سورة الأنعام : « قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .
 دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

وخلاصة ذلك — إنه عليه السلام أمر باتباع ملة إبراهيم بنفى الشرك وإثبات
 التوحيد ، وإن كان قد ثبت ذلك بالدليل العقلي ، ليظهر الدليل النقلى الدليل العقلى .
 وقوله (وما كان من المشركين) تكرر لزيادة التوكيد وتقرير لنزاهته عليه
 السلام عما هم عليه من عقيدة وعمل .

ثم نعى على اليهود ما اختلفوا فيه وهو يوم السبت فقال :
 (إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ، وإن ربك ليحكم بينهم يوم
 القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) أى إنما جعل وبال يوم السبت وهو المسخ على الذين
 اختلفوا فيه ، فأحلوا الصيد فيه تارة وحرموه أخرى ، وكان من الحتم عليهم أن
 يتفقوا فيه على كلمة واحدة بعد أن أمروا بالكف عن الصيد فيه . كما أن وبال
 التحريم والتحليل من المشركين من عند أنفسهم واقع عليهم لا محالة .

وإن ربك ليفصل بين الفريقين فى الخصومة والاختلاف ، ويجازى كل فريق
 بما يستحق من ثواب وعقاب .

وإيراد هذه العبارة بين سابق الكلام ولاحقه — إنذار للمشركين وتهديد لهم بما في مخالفة الأنبياء من عظيم الوبال والنكال ، كما ذكر مثل القرية فيما سلف ، إلى أن في هذا حثا على إجابة الدعوة التي تضمنها سابق الكلام وأمروا بها في لاحقه؛ ثم فصل سبحانه ما أمر باتباع إبراهيم فيه فقال :

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)
 أى ادع أيها الرسول من أرسلك إليهم ربك بالدعاء إلى شريعته التي شرعها لخلقه بوحى الله الذى يوحى إليك ، وبالعبير والمواعظ التي جعلها فى كتابه حجة عليهم ، وذكرهم بها فى تنزيله كالذى عدده فى هذه السورة . وخاصهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها بأن تصفح عما نالوا به عرضك من أذى ، وترفق بهم بحسن الخطاب ، كما قال فى آية أخرى : « وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ » الآية ، وقال أمرا موسى وهرون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » .

ثم توعد سبحانه ووعد فقال :

(إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) أى إن ربك أيها الرسول هو العليم بمن جار عن قصد السبيل من المختلفين فى السبت وغيره ، وأعلم بمن كان منهم سالكا قصد السبيل ومحجة الحق ، وهو مجازيهم جميعا حين ورودهم إليه على حسب ما يستحقون .

وخلاصة ذلك — اسلك فى الدعوة والمناظرة الطريق المثلى وهي الدعوة بالتي هي أحسن ، وليس عليك غيرها .

أما الهداية والضلال والمجازاة عليهما فإلى الله سبحانه لا إلى غيره ، إذ هو أعلم بحال من لا يعوى عن الضلال لسوء اختياره ، وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء لما ينطوى بين جنبيه من الخير ، فما شرعه لك فى الدعوة هو الذى تقتضيه الحكمة وهو كاف فى هداية المهتدين وإزالة عذر الضالين .

ولما أمر رسوله بالدعوة و بين طريقها وكانت تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع
عن دين آبائهم وأسلافهم والحكم عليهم بالكفر والضلالة ، وذلك مما يحمل أكثرهم
على إيذاء الداعى إما بقتله أو بضره أو بشتمه ، كما أن الداعى يدعو طبعه إلى
تأديب أولئك السفهاء تارة بالقتل وأخرى بالضرب ، لا جرم أمر الله المحققين برعاية
العدل والإنصاف فى العقاب وترك الزيادة فيه فقال :

(وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) أى

وإن عاقبتهم أيها المؤمنون من ظلمكم فلكم فى العقاب إحدى طريقتين :

(١) أن تعاقبوه بمثل الذى نالكم به ظالمكم من العقوبة .

(٢) أن تصبروا وتتجاوزوا عما صدر منه من الذنب ، وتصفحوا عنه ، وتحسبوا

عند الله ما نالكم به من الظلم ، وتكلموا أمركم إليه ، والله يتولى عقوبته ، والصبر خير

للصابرين من الانتقام ، لأن الله ينتقم من الظالم بأشد مما كان ينتقم منه لنفسه .

والخلاصة — إنكم إن رغبت فى القصاص فاقنعوا بالمثل ولا تزيدوا عليه فإن

الزيادة ظلم ، والظلم لا يحبه الله ولا يرضى به ، وإن تجاوزتم عن العقوبة وصفحتم

فذلك خير وأبقى ، والله هو الذى يتولى عقاب الظالم ويأخذ بناصر المظلوم .

ثم أمر رسوله بالصبر صراحة بعد أن نذب إليه غيره تعريضا ، لأنه أولى الناس

بمعزائم الأمور ، لزيادة علمه بشؤونه تعالى فقال :

(واصبر وما صبرك إلا بالله) أى واصبر على ما أصابك منهم من أذى فى الله

ومن إعراض عن الدعوة ، وما صبرك إن صبرت إلا بمعونة الله وحسن توفيقه ومشيبته

المبينة على الحكم البالغة التى تنتهى إلى عواقب حميدة .

وفى هذا تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم وتهوين لمشاق الصبر عليه وتشريف له

على لا مزيد عليه .

(ولا تحزن عليهم) أى ولا تحزن على إعراض المشركين الذين يكذبونك

وينكرون ما جئتكم به .

(ولا تك في ضيق مما يمكرون) أى ولا يضق صدرك بما يقولون من الجهل بنسبتك إلى السحر والكهانة والشعر احتيالا وخديعة لمن أراد الإيمان بك ، وصدا عن سبيل الله .

وقصارى ذلك — إنه نهى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يضيق صدره مما يلقي من أذى المشركين على تبليغهم وحى الله وتنزيله كما قال : « فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ » وقال « فَدَعَلَكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَاتِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » .

فالله كافيك أذاهم ، وناصرك عليهم ، ومؤيدك ومظهرك عليهم ، فهما حاولوا إيصال الأذى بك ، فإن الله مبعده عنك ، ومحبط ما صنعوا وهم لا يشعرون .
(إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) أى إن الله مع الذين اتقوا محارمه فاجتنبوها خوفا من عقابه ، والذين يحسنون رعاية فرائضه ، والقيام بحقوقه ، ولزوم طاعته فيما أمرهم به ، وفي ترك ما نهاهم عنه .

ونحو الآية قوله لموسى وهرون : « لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى » وقول النبي صلى الله عليه وسلم للصدیق وهما فى الغار فيما حكى الله عنه : « لَا تَحْزَنُ إِنْ اللَّهُ مَعَنَا » .

وقصارى ذلك — إن الله تعالى ولى الذين تبتلوا إليه وأبعدوا الشواغل عن أنفسهم ، فلم يحزنوا لقوت مطلوب ، ولم يفرحوا لنيل محبوب ، والذين هم محسنون أعمالهم برعاية فرائض الله وأداء حقوقه على النحو اللائق بجلاله وكاله ، وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

والله نسأل أن يهدينا إلى سواء السبيل ، وأن يوقفنا للفقهاء فى دينه ، ويفتح لنا خزائن أسرارهم ، بحرمة كتابه ، وكنوز شريعته التى أنزلها على رسوله النبي الأمى ، والمجد لله رب العالمين ، وصلاته وسلامه على سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

بمجل ما حوته السورة الكريمة من الآداب والأحكام

- (١) استعجال المشركين للساعة .
- (٢) ذكر الأدلة على التوحيد بخلق العالم العلوى والسفلى وخلق الإنسان .
- (٣) الامتنان على عباده بخلق الأنعام وما فيها من المنافع من أكل وحمل أثقال إلى البلاد البعيدة .
- (٤) النعى على المشركين فى عبادة الأصنام والأوثان .
- (٥) إنذار المشركين بأن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من المثلث وبما آتاهم من العذاب من حيث لا يشعرون .
- (٦) احتجاج المشركين بعدم الحاجة إلى إرسال الرسل بأن ما هم فيه من كفر وضلال مقدر مكتوب عليهم ، فلا فائدة فى إرسالهم ، وقد رد الله عليهم بأن وظيفة الرسل البلاغ والإنذار لخلق الهداية والإيمان .
- (٧) إجمال دعوة الأنبياء بأنها عبادة الله واجتناب الطاغوت ، ومن الناس من استجاب لدعوتهم ومنهم من حقت عليه الضلالة .
- (٨) إنكار المشركين للبعث والنشور وحلفهم على ذلك ، وتكذيب الله لهم فيما يقولون .
- (٩) إنكارهم بعث محمد صلى الله عليه وسلم بأنه رجل لأمك ، فكذبهم الله بأن الأنبياء جميعا كانوا رجالا لأملائكة .
- (١٠) إنذار المشركين بعذاب الخسف .
- (١١) جعلهم الملائكة بنات مع حزنهم إذا بشر أحدهم بالأنثى .
- (١٢) رحمة الله بعباده وعدم مؤاخذتهم بذنوبهم ، وأنه لو أخذهم ما ترك على ظهر الأرض دابة .
- (١٣) ذكر نعمه على عباده بإنزال اللبن من بين الفرث والدم ، وأخذ الثمرات من النخيل والأعناب والعسل من النحل .

- (١٤) تفاضل الناس في الأعمار والأرزاق .
- (١٥) ضرب الأمثال لدحض الشركاء والأنداد من دون الله .
- (١٦) الامتنان على عباده بخلق السمع والبصر وتسخير الطير في جو السماء وجعل البيوت سكنا ، وجعله لنا سراييل تقي الحر وسراييل تقي بأس العدو .
- (١٧) جعل الأنبياء شهداء على أممهم وعدم الإذن للكافرين في الكلام وعدم قبول معذرتهم .
- (١٨) الأمر بالعدل والإحسان وصلة الأرحام والنهي عن الفحشاء والمنكر والبنغي ، والأمر بالوفاء بالعهود والوعود وضرب الأمثال لذلك .
- (١٩) الأمر بالاستعاذة من الشيطان وبيان أن سلطانه على المشركين .
- (٢٠) تكذيبهم للرسول إذا جاءهم بحكم لم يكن في شريعة من قبله من الأنبياء وادعاؤهم بأن هذا القرآن إنما هو تعليم من عبد رومي ورد الله عليهم ذلك .
- (٢١) إنه لا ضير على من كفر بالله وقلبه مطمئن بالإيمان دون من شرح بالكفر صدرا .
- (٢٢) دفاع كل نفس عن نفسها يوم القيامة وجزاء كل نفس بما عملت .
- (٢٣) ذكر ما حرمه الله من المطاعم والنهي عن تقوّلهم على الله بغير علم .
- (٢٤) ذكر ما حرمه على اليهود بسبب ظلمهم .
- (٢٥) مدح إبراهيم عليه السلام ووصفه بصفات لم يوصف بها نبي غيره ، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم باتباعه وسلوك طريقته في العقاب والصبر على الأذى .
- وقد انتهى تصنيف هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة عصر يوم الأربعاء الثلاثين من جمادى الآخرة من سنة ثلاث وستين وثلاثمائة من هجرة سيد ولد عدنان .

فهرست

أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٦	صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ويهلك آخرها بالبخل والأمل .
٧	اتهمهم الرسول بالجنون .
٩	الله نزل كتابه وتكفل بحفظه .
١٠	ما أرسل رسول إلا استهزأ به قومه .
١٢	أراد الشياطين أن يخطفوا شيئاً من أخبار الغيب فأحرقتهم الشهب المشتعلة .
١٤	الأدلة الكونية على وحدانية الله .
١٧	إرسال الرياح لواقع لم يعرف إلا حديثاً .
٢٢	حجاج إبليس عن امتناعه عن السجود ، وفيه ضروب من الجهالة .
٢٣	تهديده سبحانه لإبليس .
٢٥	ما أعد للمتقين من جنات النعيم .
٢٧	ضيف إبراهيم .
٣٣	بشارة إبراهيم بإسحاق .
٣٧	مقالة لوط لقومه .
٣٨	أرسل الله على قوم لوط ثلاثة ألوان من العذاب .
٣٩	ضروب الفراسة .
٤٥	نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن تمنى زينة الحياة الدنيا .
٤٧	أمره صلى الله عليه وسلم بالجرم بالدعوة .
٤٨	المستهزون بالرسول والقرآن .

الصفحة	المبحث	الصفحة
٥٥	دلالة المصنوع على الصانع .	٥٥
٥٦	فوائد الأنعام .	٥٦
٦١	لله نعم في البحر كما له نعم في البر .	٦١
٦٣	فوائد النجوم .	٦٣
٦٦	في عبادة الأصنام ضرور من الحماقة .	٦٦
٦٩	ذكر شبهات من أنكروا النبوات .	٦٩
٧١	من حفر لأخيه جُبًا وقع فيه منكبا .	٧١
٧٧	المشركون ليسوا ببدع في الأمم .	٧٧
٨٠	الرسول مبلغ وليس بمسيطر .	٨٠
٨٨	قالوا هب الله أرسل رسولا فلن يكون بشرا .	٨٨
٩٠	آثار قدرته سبحانه .	٩٠
٩٣	العوام يفعلون اليوم ما تقشع منه الأبدان .	٩٣
٩٦	قالت خزاعة : الملائكة بنات الله .	٩٦
٩٧	وأد البنات خوف الفقر والعار .	٩٧
١٠٣	كيف يتكون اللبن في الضرع .	١٠٣
١٠٤	معيشة النحل في الخلايا .	١٠٤
١٠٦	ما أثبتته الطب الحديث من الفوائد للعسل .	١٠٦
١٠٨	الأعمار والأرزاق .	١٠٨
١١٣	ضرب الأمثال وفوائده .	١١٣
١٢١	من الله على عباده .	١٢١
١٢٥	الرسول شهداء على أممهم .	١٢٥
١٢٦	الأصنام تتبرأ من عبدتها يوم القيامة .	١٢٦

الصفحة	المبحث
١٣٠	الهداية والضلال على مقدار استعداد النفوس للصلاح والنجاة .
١٣١	ليس من خلق حسن إلا أمر به الله .
١٣٢	الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك .
١٣٣	الوفاء بالعهد .
١٣٤	ناقضة الغزل من بعد قوة .
١٣٨	المؤمن يحيا حياة طيبة تصحبها القناعة .
١٤٣	قالوا ما جاء به محمد من تعليم البشر .
١٤٥	من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان .
١٤٧	أول من أظهر الإسلام .
١٤٩	من هاجر وتاب من بعد ما قن .
١٥٠	مثل القرية التي كانت آمنة مطمئنة .
١٥٣	ما حرم من الماء كل .
١٥٨	ما مدح به إبراهيم من صفات السكال .
١٦٠	أمر الرسول صلى الله عليه وسلم باتباع ملة إبراهيم .
١٦٢	شرع الدين إحدى طريقين في العقاب .
١٦٤	مجل ما حوته سورة النحل من الحكم والآداب .

تَفْسِيرُ الْمُرَاعِي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دارالعلوم سابقا

الجزء الخامس عشر

لجنة التفتيش
على الحسابات
بمصر

مصر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

مصر

مصر

الجزء الخامس عشر

سورة الإسراء - سورة بني إسرائيل

هي مكية كما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس ، وقال مقاتل إلا ثمانى آيات من قوله : وإن كادوا ليفتنونك إلى آخره .

وعدد آياتها عشر ومائة . أخرج أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر ، وأخرج البخاري وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قال في هذه السورة والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادى .

ووجه مناسبتها لسورة النحل وذكرها بعدها أمور :

(١) إنه سبحانه ذكر في سورة النحل اختلاف اليهود في السبت ، وهنا ذكر شريعة أهل السبت التي شرعها لهم في التوراة ، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل .

(٢) إنه لما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر ونهاه عن الحزن وضيق الصدر من مكرم في السورة السالفة - ذكر هنا شرفه وعلو منزلته عند ربه .

(٣) إنه ذكر في السورة السالفة نعماً كثيرة حتى سميت لأجلها سورة النعم ، ذكر هنا أيضاً نعماً خاصة وعامة .

(٤) ذكر هناك أن النحل يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس - وهنا ذكر: وتنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين .
 (٥) إنه في تلك أمر بإيتاء ذى القربى ، وكذلك هنا مع زيادة إيتاء المسكين وابن السبيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)

شرح المفردات

سبحان الله : أى تنزيها له من كل ما لا يليق بجلاله وكلامه ، والإسراء كالسرى : السير بالليل خاصة ، والمسجد الحرام : مسجد مكة ، والمسجد الأقصى : بيت المقدس وهو أقصى وأبعد بالنظر إلى من بالحجاز .

الإيضاح

(سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) أى تنزيها للذى أسرى بعبده محمد صلى الله عليه وسلم ، فى جزء من الليل من المسجد الحرام إلى بيت المقدس ورجع فى ليلته ، وتبرئة له مما يقوله المشركون من أن له من خلقه شريكا وأن له صاحبة وولدا .
 (الذى باركنا حوله) أى الذى جعلنا حوله البركة لسكانه فى معاشهم وأقواتهم وحروثهم وغروهم .

(لتريه من آياتنا) أى كى ترى عبدنا محمدا من عبرنا وأدلتنا ما فيه البرهان الساطع والدليل القاطع على وحدانيتنا وعظم قدرتنا .
 (إنه هو السميع البصير) أى إن الذى أسرى بعبده هو السميع لما يقول هؤلاء المشركون من أهل مكة فى سرى محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس ، البصير بما يفعلون ، لا تخفى عليه خافية من أمرهم ولا يعزب عنه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، فهو محيط به علما ومحصيه عددا وهو لهم بالمرصاد ، وسيجزئهم بما هم له أهل .

تحقيق ما قيل فى الإسراء والمعراج

اعلم أن هاهنا أمرين :

- (١) إسراء النبي صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى بيت المقدس ، وهذا هو الذى ذكر فى هذه السورة .
- (٢) العروج به والصعود إلى السماء الدنيا ثم إلى مستوى سمع فيه صريف الأقدام بعد وصوله إلى بيت المقدس ، ولم يذكر ذلك هنا ، وسيأتى بيانه فى سورة النجم ونفصل فيه القول تفصيلا إن شاء الله .

آراء العلماء فى الإسراء

هاهنا أمور — مكان الإسراء — زمانه — هل كان الإسراء بالروح والجسد أو بالروح فحسب ؟ :

- (١) يرى جمع من العلماء أن الإسراء كان من المسجد الحرام — وقيل أسرى به من دار أم هانئ بنت أبي طالب .
- (٢) أما زمانه فقد كان ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة وعن أنس والحسن البصرى أنه كان قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم .

(٣) أكثر العلماء على أن الإسراء كان بالروح والبدن يقظة لامناما ، ولهم على ذلك أدلة :

(أ) إن التسبيح والتعجب في قوله : سبحان الذي أسرى بعبده - إنما يكون في الأمور العظام - ولو كان ذلك مناماً لم يكن فيه كبير شأن ولم يكن مستعظماً .

(ب) إنه لو كان مناماً ما كانت قريش تبادر إلى تكذيبه ، ولما ارتد جماعة ممن كانوا أسلموا ، ولما قالت أم هانيء لا تحدث الناس فيكذبوك ، ولما فضل أبو بكر بالتصديق ، وجاء في الحديث عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي ، فسألتنى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها (لم أعرفها حق المعرفة) فكُربت كرباً ما كربت مثله قط ، فرفعه الله لي أنظر إليه ، فما سألتني عن شيء إلا أنبأتهم به » الحديث .

(ح) إن قوله (بعبده) يدل على مجموع الروح والجسد .

(د) إن ابن عباس قال في قوله : « وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ » هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به ويؤيده أن العرب قد تستعمل الرؤيا في المشاهدة الحسية ألا ترى إلى قول الراعي يصف صائداً :
وكبر للرؤيا وهش فؤاده وبشر قلباً كان جما بلابله

(هـ) إن الحركة بهذه السرعة ممكنة في نفسها ، فقد جاء في القرآن أن الرياح كانت تسير بسليمان عليه السلام إلى المواضع البعيدة في الأوقات القليلة ، فقد قال تعالى في صفة سير سليمان عليه السلام : « غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ » وجاء فيه أن الذي عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر كما قال تعالى : « قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » وإذا جاز هذا لدى طائفة من الناس جاز لدى جميعهم .

ويرى آخرون أن الإسراء كان بالروح فحسب ، ولهم على ذلك حجج :
 (أ) إن معاوية بن أبي سفيان كان إذا سئل عن سرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان رؤيا من الله صادقة - وقد ضعف هذا بأن معاوية يومئذ كان من المشركين فلا يقبل خبره في مثل هذا .

(ب) إن بعض آل أبي بكر قال : كانت عائشة تقول ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أسرى بروحه ، ونقدوا هذا بأن عائشة يومئذ كانت صغيرة ولم تكن زوجا لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(ح) إن الحسن قال في قوله (وما جعلنا الرؤيا) الآية إنها رؤيا منام رآها (والرؤيا تختص بالنوم) .

قال أبو جعفر الطبرى : الصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله أسرى بعبد محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما أخبر الله عباده وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله حمله على البراق حتى أتاه به وصلى هناك بمن صلى من الأنبياء والرسل فأراه ما أراه من الآيات ولا معنى لقول من قال أسرى بروحه دون جسده ، لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن في ذلك ما يوجب أن يكون دليلا على نبوته ولا حجة له على رسالته ، ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك كانوا يدفعون به عن صدقه فيه ، إذ لم يكن منكرا عندهم ولا عند أحد من ذوى الفطرة الصحيحة من بنى آدم أن يرى الرأى منهم في المنام ما على مسيرة سنة ، فكيف ما هو مسيرة شهر أو أقل - وبعد فإن الله إنما أخبر في كتابه أنه أسرى بعبده ، ولم يخبرنا بأنه أسرى بروح عبده ، وليس جائزا لأحد أن يتعدى ما قال الله إلى غيره - إلى أن الأدلة الواضحة والأخبار المتتابعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله أسرى به على دابة يقال لها البراق ، ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق ، إذ كانت الدواب لا تحمل إلا الأجساد اهـ .

وإخلاصة — إن الذي عليه المعول عند جمهرة المسلمين أنه أسرى به عليه السلام يقظة لامناما من مكة إلى بيت المقدس راكبا البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله يصلي في قبلته تحية المسجد ركعتين ثم ركب البراق وعاد إلى مكة بفلس .

إلمامة في المعراج

يرى بعض العلماء أن عروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى السموات السبع كان بحسده وروحه يقظة لامناما لدليلين :

(١) آية الإسراء إذ صرح فيها بأنه أسرى بعبده ، والعبد مجموع الروح والجسد ، فوجب أن يكون الإسراء حاصلًا بهما .

(ب) الحديث المروي في الكتب الصحاح كالبخاري ومسلم وغيرها ، وهو يدل على أن الذهاب من مكة إلى بيت المقدس ثم منه إلى السموات العلى ثم إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام .

وأنكره آخرون وأثبتوا أن المعراج كان بالروح فحسب لوجوه :

(١) إن الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد غير معقولة .

(٢) إنه لو صح ذلك لكان أعظم المعجزات وكان يجب أن يظهر حين اجتماع الناس حتى يستدل به على صدقه في ادعاء النبوة ، فأما أن يحصل ذلك في وقت لا يراه فيه أحد ولا يشاهده فيه مشاهد ، فإن ذلك عبث لا يليق بحكمة الحكيم .

(٣) إن الصعود بالجسم إلى العالم العلوي فوق طبقات معينة مستحيل ، لأن الهواء معدوم فلا يمكن أن يعيش فيه الجسم الحى أو يتنفس فيه .

(٤) إن حديث المعراج اشتمل على أشياء في غاية البعد :

(١) شق بطنه وتطهيره بماء زمزم ، والذي يغسل بالماء هو النجاسات العينية ، ولا تأثير لذلك في تطهير القلب عن العقائد الزائفة والأخلاق المذمومة .

(ب) ركوب البراق ولا حاجة له بذلك لأن العالم العلوى فى غنى عن ذلك .
 (ح) إنه تعالى أوجب خمسين صلاة ، ولم يزل محمد صلى الله عليه وسلم يتردد بين الله وموسى إلى أن عاد الخمسون إلى خمس بسبب شفقة موسى عليه السلام — وهذا غير جائز كما قال القاضى أبو بكر الباقلانى لأنه يقتضى نسخ الحكم قبل العمل به وهذا بدء محال على الله .

(د) لم يقل أحد من المسلمين بأن الأنبياء أحياء بأجسادهم فى العالم العلوى ، وإنما الحياة هناك حياة روحية لا جسمانية ، والتخاطب والكلام معهم والصلاة بهم من الأمور الروحية لا الجسمية ، إذ لا يعقل غير هذا — وبهذا يثبت المعراج الروحى لا الجسمانى .

ويمكن أن يجيب الأولون عن الاستبعادات العقلية بأن هذه معجزة ، والله تعالى قادر على خرق سننه بسنة أخرى ككل معجزات الأنبياء من انقلاب العصا حية ثم عودتها فى مدة قصيرة عصا صغيرة كما كانت .

ويبقى أمر الحديث واشتماله على أمور غريبة لا حاجة إليها فى تصديق النبوة ، والمحاوراة فى فرض الصلوات وانتقالها من خمسين إلى خمس مما يستدعى رد الحديث وعدم النظر إليه لاضطراب متنه كما قال القاضى أبو بكر الباقلانى وإن صححه رواية الحديث باعتبار سنده .

عظة وذكرى

إننا لنقف قليلا لدى هذين الحادثين الجليبين لنستخلص منهما أموراً هى الغاية فى العظة والاعتبار :

(١) إن هاتين الرحلتين الرحلة الأرضية (الإسراء) والرحلة السماوية (المعراج) حدثتا فى ليلة واحدة قبل الهجرة بسنة ليخص الله المؤمنين ويبين منهم صادق الإيمان ومن فى قلبه منهم مرض ، فيكون الأول خليقا بصحبة رسوله الأعظم إلى

دار الهجرة والانضواء تحت لوائه وجديرا بما يحتمله من أعباء عظام وتكاليف شاقة من حروب دينية وقيام بدعوة عظيمة تستتبع همة قعساء وإنشاء دولة تبتلع المعمور في ذلك الحين شرقا وغربا .

(٢) إن الله أطلع رسوله على ما في هذا الكون أرضيه وسماويه من العظمة والجلال ليكون ذلك درسا عمليا لتعليم رسوله بالمشاهدة والنظر، فإن التعليم بالمشاهدة أجدى أنواع التعليم ، فهو وإن لم يذهب إلى مدرسة أو يجلس إلى معلم أو يسبح في أرجاء المعمورة أو يصعد بالآلات العلمية إلى السماء — فقد كفل له ربه ذلك بما أراه من آياته الكبرى وما أطلعه عليه من مشاهدة تلك العوالم التي لا تصل أذهاننا إلى إدراك كنهها إلا بضرب من التخيل والتوهم ، فأنى لنا أن نصل إلى ذلك وقد حبس عنا الكثير من العلم ولم نوث إلا قليله « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا »

(٣) إن ما يجتد كل يوم من ضروب المخترعات والتوسل بها إلى طي المسافات بوسائل الطائرات وقطع المحيطات في قليل الساعات من قارة إلى قارة ومن قطر إلى قطر ليجعلنا نعتقد أن ما جاء في وصف هاتين الرحلتين من الأمور الميسورة التي ليست بالعزيزة الحصول أو الأمور المستحيلة .

(٤) إن روحانية الأنبياء تغلب على كثافة أجسامهم ، فما يخيل إلينا من العوائق العملية من صعوبة الوصول إلى الملاء الأعلى لتخلخل الهواء واستحالة الوصول إلى الطبقات العليا من السماء ، فهو إنما يكون بالنظر إلى الأجرام والأجسام المشاهدة في عالم الحس ، وإن لروحانية الأنبياء والملائكة أحكاما لم يصل العقل البشري إلى تحديدها وإبداء الرأي فيها وإنها لفوق مستوى إدراكه ، فأجدر بنا ألا نطيل البحث فيها ولا التعمق في استقصاء آثارها .

(٥) إن ما جاء في الحديث من أن الرسول صلى الله عليه وسلم صلى إماما بالأنبياء في عالم السموات ليرشد إلى أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء بشريعة

ختمت الشرائع السالفة كلها ، وأتمتها ومن أوتوها ألقوا الزعامة إليه وصاروا مؤتمين به .

(٦) إن في هذا مغزى جديرا بطويل التأمل والتفكير وهو أن جميع الأنبياء كانوا في وفاق ووئام في الملكوت الأعلى بالقرب من ربهم الذى أرسلهم — أفلا يجدر بمتبعيهم أن يقتفوا سنة رسلهم وأن يجعلوا أمرهم بينهم سلما لاجربا ، وأن يجعلوا الشريعة الأخيرة والقانون الذى جاءت به هو الشريعة التى يقضى بها بين الناس ، كما هو المتبع فى القوانين الوضعية فإن الذى يجب العمل به هو القانون الأخير وهو يلغى جميع ما سبقه .

وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ، وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨)

شرح المفردات

الكتاب: هو التوراة، وكيلا أى كفيلا تكون إليه أموركم ، شكورا أى كثير الشكر ، وقضينا أى أعلمنا بالوحي ، لتعلن أى لتستكبرن عن طاعة الله ، والوعد أى الموعود به وهو العقاب ، والبؤس والبأس والبأساء : الشدة والمكروه كما قال الراغب إلا أن البؤس كثر استعماله فى الفقر والحرب ، والبأس والبأساء فى النكاية بالعدو ، جاسوا الديار: توسطوها وترددوا بينها، والكرة : الدولة والغلبة؛ وأصل الكرم العطف والرجوع ، والنفير والنافر: من ينفِر مع الرجل من عشيرته وأهل بيته، والتنبير : الهلاك وهى كلمة نبطية كما روى عن سعيد بن جبير وكل شىء كسرتة وفتته فقد تبرته ، ما علوا أى ما غلبوا واستولوا عليه من بلادكم ، والحصير السجن كما قال ابن عباس .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآية الأولى أنه أكرم عبده ورسوله بالإسراء من مكة إلى بيت المقدس — أردف ذلك بذكر ما أكرم به موسى قبله بالتوراة وجعلها هدى لبني إسرائيل ليخرجهم من ظلمات الكفر والجهل إلى نور العلم والهدى ، ثم قفى على ذلك ببيان أنهم ما عملوا بهديها ، بل أفسدوا فى الأرض فسلط الله عليهم البابليين أئمنوا فيهم وقصدوهم بالقتل والنهب والسلب .

ولما تابوا أزال عنهم هذه الحنة وأعاد لهم الدولة وأمدهم بالأموال والبنين وجعلهم أكثر عددا مما كانوا ، ثم عادوا إلى عصيانهم وقتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام ، فسلط الله عليهم من أدال دولتهم مرة أخرى فأعمل فيهم السيف وسلب ونهب وجاس خلال ديارهم فدخل بيت المقدس كرة أخرى بالقهر والغلبة والإذلال ، وأهلك ما أهلك مما قد جمعوه وكنزوه ، ثم أوعدهم على عصيانهم بالعقاب فى الآخرة بنار جهنم ، وبئس السجن هى لمن عصى الله وخالف أوامره دينه .

الإيضاح

(وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا) أى وأعطينا موسى التوراة وجعلنا فيها هداية لبني إسرائيل ، وقلنا لهم : لا تتخذوا من دوني وليا ولا نصيرا تكونون إليه أموركم ، وهذه مقالة أوحى الله بها إلى كل نبي أرسله ، أمرهم جميعا أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وألا يعولوا في أمر إلا عليه .

وقد جاءت هذه الآية عقب آية الإسراء من قبل أن موسى أوتى التوراة بمسيره إلى الطور كما أسرى بمحمد إلى بيت المقدس .

ثم نبه إلى عظيم شرف بني إسرائيل وإتمام نعمته عليهم ، ليكون في ذلك تهيب لهم وبيان لعظيم المنة عليهم فقال :

(ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا) أى يا سلالة ذلك النبي الكريم الذى شمله الله بجميل رعايته وأنجاه من غرق الطوفان بما ألهمه من عمل السفينة التى حمل فيها من كل زوجين اثنين ، أنتم من حفدة أبنائه ، فتشبهوا بأبيكم واقتدوا به فإنه كان عبدا شكورا أى مبالغا فى الشكر بصرفه كل ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله ، فاللسان لذكر الله ، والعقل للفكر فيما خلق الله ، والبصر للتأمل فيما صنع الله ، وهكذا بقية الحواس وأعضاء الجسم .

أخرج ابن مردويه عن معاذ بن أنس الجهنى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن نوحا كان إذا أمسى وأصبح قال (سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون) .

وأخرج ابن جرير والبيهقى والحاكم عن سلمان الفارسى قال : « كان نوح إذا لبس ثوبا أو أظعم طعاما حمد الله تعالى فسمى عبدا شكورا » .

وفى هذا إيحاء إلى أن إنجاء من كان معه كان ببركة شكره ، وفيه حث للذرية على الاقتداء به وزجر لهم عن الشرك الذى هو أفضح مراتب الكفر .

ثم بين سبحانه أنه أنعم على بني إسرائيل بالتوراة ، وجعلها هدى لهم لكنهم لم يهتدوا بها فقال :

(وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا) أى وأوحينا إلى بني إسرائيل فيما أنزلناه في التوراة على موسى فأعلمهم به : لتعصن الله ولتخالفن أمره مرتين : أولاها تغيير التوراة وقتل شعيا عليه السلام وحبس أرميا حين أنذرهم سخط الله . والثانية قتل زكريا ويحيى وقصدهم قتل عيسى عليهم السلام ، ولتستكبرن عن طاعة الله ، ولتبعن على الناس ولتظلمنهم ظلما شديدا تفرطون فيه وتبلغون أقصى الغاية .

(فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فحاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا) أى فإذا حان وقت حلول العقاب الموعود أرسلنا عليكم لمؤاخذتكم بمجناتكم عبادا لنا أولى بطش شديد في الحروب هم سنحاريب ملك بابل وجنوده ، أوغلوا في البلاد وترددوا بين الدور والمسكن للقتل والسلب والنهب ، وقتلوا علماءكم وكبراءكم وأحرقوا التوراة وخرّبوا بيت المقدس وسبوا منكم عددا كثيرا وكان ذلك وعدا مفعولا نافذا لامرد له .

(ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا) أى ثم رجعت لكم الدولة والغلبة على الذين فعلوا بكم ما فعلوا حين تبتم ورجعتم عما كنتم عليه من الإفساد والعلو ، ففزوتهم البابليين واستنقذتم الأسرى والأموال ورجع الملك إليكم وكثرت أموالكم بعد أن نهبت ، وأولادكم بعد أن سبيت ، وصرتم أكثر عددا وأعظم قوة مما كنتم من قبل ، وذلك بفضل طاعته تعالى والإخبات إليه ومن ثم قال :

(إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) أى إن أحسنتم فأطعتم الله ولزمت أمره وتركتم نهيه - أحسنتم لأنفسكم لأنكم تنفعونها بذلك في دنياها وآخرتها ؛ أما في الدنيا فإن الله يدفع عنكم أذى من أرادكم بسوء ويرد كيده في نحره ، وينى

لكم أموالكم ويزيدكم قوة إلى قوتكم ، وأما في الآخرة فإن الله يثيبكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ويرضى عنكم (ورضوان من الله أكبر) .

وإن عصيتكم ربكم وفعلتم ما نهاكم عنه فإلى أنفسكم تسبثون ، لأنكم تسخطونه تعالى فيسلط عليكم في الدنيا أعداءكم ويمكن منكم من يبغى بكم سوء ، ويلحق بكم في الآخرة العذاب المهين .

(فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تبيرا) أى فإذا جاء وقت المرة الآخرة من مرتى إفسادكم فى الأرض بعثنا أعداءكم ليجعلوا آتار المساءة والكآبة بادية فى وجوهكم (فإن الأعراض النفسية تظهر فى الوجوه فالفرح يظهر فيها النضارة والإشراق ، والحزن والخوف يظهر فيها الغبرة والقتر) وليدخلوا المسجد قاهرين فاتحين مذلين لكم كما دخلوه أول مرة ، وليهلكوا ما ادخرتموه وخزنتموه تبيرا شديدا ، فلا يبقون منه شيئا .

قال البيضاوى : سلب الله عليهم الفرس مرة أخرى فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف ويسمى بيردوس أو خردوس اه .

والذى أثبتته اليهود فى تواريخهم أن الذى أغار عليهم أولا وخرب بيت المقدس هو بُحْتَنَصْر وكان ذلك فى زمن أرميا عليه السلام ، وقد أذرهم بمجيئه صريحا بعد أن نهاهم عن الفساد وعبادة الأصنام ، فحبسوه فى بئر وجرحوه - وأن الذى أغار عليهم ثانيا هو أسبيناوس قيصر الروم وكان بين الإغارتين نحو من خمسمائة سنة . وعلى الجملة فمعرفة من بعث إليهم بأعيانهم وتواريخ البعوث مما لا يتعلق به غرض كبير ، لأن المراد أنه كلما كثرت معاصيهم سلط الله عليهم من ينتقم منهم مرة بعد أخرى .

وظاهر الآية يدل على اتحاد المبعوثين أولا وثانيا .

(عسى ربكم أن يرحمكم) بعد البعث الثانى إن تبتم وازدجرتكم عن المعاصى ، وقد حقق الله لهم وعده ، فكثر عددهم وأعزهم بعد الذلة وجعل منهم الملوك والأنبياء .

(وإن عدتم عدنا) أى وإن عدتم لمعصيتي وخلاف أمرى وقتل رسلى - عدنا عليكم بالقتل والسب والإحلال للذلل والصغار بكم ، وقد عادوا فعاد الله عليهم بمقابله ، فقد كذبوا النبى صلى الله عليه وسلم وهموا بقتله فسلطه الله عليهم ، فقتل قريظة وأجلى بنى النضير وضرب الجزية على الباقين ، فهم يعطونها عن يد وهم صاغرون ، ولا ملك لهم ولا سلطان .

(وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) قال الحسن : الحصير هو الذى يبسط ويفرش والعرب تسمى البساط الصغير حصيرا ، أى إنه تعالى جعل جهنم للكافرين به بساطا ومهادا كما قال : « لَّهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » وقال ابن عباس وغيره : جعلناها سجنا محيطا بهم حابسا لهم لا رجاء لهم فى الخلاص منه .
وخلاصة ذلك - إن لهم فى الدنيا ما تقدم وصفه من العذاب ، وفى الآخرة ما يكون محيطا بهم من عذاب جهنم فلا يتخلصون منه أبدا .

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَغْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا بَأْسًا لِيَمَّا (١٠) وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أكرم به من اصطفاه من النبيين والمرسلين ، فأكرم محمدا صلى الله عليه وسلم بالإسراء وأكرم موسى بالتوراة وجعلها هدى لبنى إسرائيل ثم بين أنهم لم يعملوا بها فخل بهم عذاب الدنيا والآخرة - تفى على ذلك بالثناء على القرآن الكريم وبيان أنه يهدى للصراط المستقيم ويبشر الصالحين بالأجر والثواب

العظيم ، وينذر الكافرين بالعذاب الأليم ، ثم أردف ذلك بذكر طبيعة الإنسان وأنه خلق مجولا قد يدعو على نفسه بالشر أى بالموت والهلاك والدمار واللعنة كما يدعو لنفسه بالخير .

الإيضاح

(إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا . وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما) مدح الله سبحانه كتابه العزيز الذى أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم ووصفه بصفات ثلاث :

(١) إنه يرشد من اهتدى به للسبيل التى هي أقوم السبل وهي ذلك الدين القيم والملة الحنيفية السمحاء التى أهم دعائمها الإخبات لله والإنبابة إليه واعتقاد أنه واحد لا شريك له ، وأنه صاحب الملك والملكوت وهو الحى الذى لا يموت ، وهو الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

(٢) إنه يبشر المؤمنين بالله ورسوله الذين يعملون صالح الأعمال فيأتمرون بما أمر الله وينتهون عما نهاهم عنه ، بالأجر العظيم يوم القيامة كفاء ما قدموا لأنفسهم من عمل صالح .

(٣) إنه ينذر الذين لا يصدقون بالمعاد ولا يقرون بالثواب والعقاب فى الدنيا ، فلا يتحاشون ركوب المعاصى - بالعذاب الأليم الموجع جزاء ما دنسوا به أنفسهم من الكفر واجتراح الآثام ، ويدخل فى هؤلاء أهل الكتاب لأن بعضهم ينكر الثواب والعقاب الجسمانيين ، وبعضهم يقول : لن تمسنا النار إلا أياما معدودات ، وإطلاق البشارة على العقاب من قبيل التهمك كما فى قوله : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

وبعد أن بين حال الهادى وهو الكتاب الكريم بين حال المهدى وهو الإنسان فقال :

(ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير) أى ويدعو الإنسان على نفسه وولده وماله بالشر حين الغضب فيقول: اللهم العني، اللهم أهلكني، كدعائه ربه بالخير أى بأن يهب له العافية ويرزقه السلامة ، ولو استجيب له فى دعائه بذلك كما يستجاب له فى هذا لهلك ، ولكن الله بفضله ومنته لا يستجيب دعاءه كما قال « وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَابَهُمْ بَاخْتِيارِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ » وفى الحديث « لاتدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها » .

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم دفع إلى سودة بنت زمعة أسيرا فأقبل يئن بالليل ، فقالت له مالك تن فشكا ألم القيد (سير من جلد غير مدبوغ تربط به يدا الأسير ورقبته) فأرخت له من كتافه ، فلما نامت أخرج يده وهرب ، فلما أصبح النبي صلى الله عليه وسلم دعا به فأعلم بشأنه ، فقال عليه السلام « اللهم اقطع يدها » فرفعت سودة يدها تتوقع أن يقطع الله يدها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إني سألت الله أن يجعل دعائى على من لا يستحق عذابا من أهلى رحمة ، لأنى بشر أغضب كما تغضبون ، فلترد سودة يدها » .

وقد يكون المعنى فى الآية — إن الإنسان قد يبالغ فى الدعاء طلبا لشيء يعتقد أن فيه خيره ، مع أن ذلك قد يكون سبب بلائه وشره لجهله بحاله ، وإنما يقدم على ذلك العمل لكونه عجولا مغترا بظواهر الأمور غير متفحص لحقائقها وأسرارها ومن ثم قال :

(وكان الإنسان عجولا) يسارع إلى طلب كل ما يخطر بباله متعاميا عن ضرره .
وفى الآية إيماء إلى أن القرآن يدعو للتى هى أقوم ، ويأبون إلا التى هى أوم .

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوَنًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ،
وَكَلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (١٢)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الهداية والإرشاد بالقرآن الكريم — قفى على ذلك بالاستدلال بالآيات والدلائل التى فى الآفاق، وهى برهان نير لا ريب فيه، وطريق بين لا يضل من ينتحيه .

الإيضاح

(وجعلنا الليل والنهار آيتين) أى وجعلنا الليل والنهار دليلين للخلق على مصالح الدين والدنيا، أما فى الدين فلأن كلا منهما مضاف للآخر ومخالف له مع تعاقبهما على الدوام، وهذا من أقوى الأدلة على أنه لا بد لهما من فاعل مدبر يقدرهما بمقادير مخصوصة، وأما فى الدنيا فلأن مصالحه لا تتم إلا بهما، فلولا الليل لما حصل السكون والراحة، ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف فى وجوه المعاش .

(فحجونا آية الليل) أى محونا آية هى الليل أى جعلنا الليل محو الضوء مطموسه مظلمًا لا يستبين فيه شيء كما لا يستبين ما فى اللوح المحو روى ذلك عن مجاهد .
(وجعلنا آية النهار مبصرة) أى وجعلنا الآية التى هى النهار مضيئة ومبصرة أى يبصر أهلها فيها .

(لتبتغوا فضلا من ربكم) أى فعلنا ذلك لتطلبوا لأنفسكم فيه رزقا من ربكم إذ لا يتسنى ذلك فى الليل، وفى التعبير عن الرزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء مع ذكر صفة الربوبية الدالة على الوصول إلى ذلك شيئا فشيئا — دلالة على أنه ليس للمرء فى تحصيل الرزق سوى الطلب بالأسباب العادية، وفى الخبر « يطلبك رزقك كما يطلبك أجلك » وقيل :

ولقد علمت وما الإشراف من خلقي أن الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى إليه فيعيننى تطلبه ولو قعدت أتانى لا يعيننى

(ولتعملوا عدد السنين والحساب) أى ولتعملوا بمحو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة عدد السنين التى تتوقف عليها مصالحكم الدينية والدنيوية، ولتعملوا الحساب أى حساب الأشهر والليالى والأيام وغير ذلك مما نيظ به شىء من تلك المصالح إذ لو كان الزمان كله نسقا واحدا لماعرف شىء من هذا كما قال تعالى «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ؟ أَفَلَا تَسْمَعُونَ؟ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ؟ أَفَلَا تُبْصِرُونَ؟ وَمَنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» وقال «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ». ولا شك أن فى ذكر منافعهما وبيان ما فيهما من الدلالة على وجود الخالق تفصيلا لتلك الفوائد، لا جرم قال:

(وكل شىء فصلناه تفصيلا) أى وكل شىء لكم إليه حاجة فى مصالح دينكم ودنياكم قد فصلناه تفصيلا بينا، ونحو الآية قوله «مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ» وقوله «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ».

وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا

فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ
 مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) مَنْ كَانَ
 يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ
 يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا
 وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كَلَّا نُمَدِّهُ هُوًّا لَاءَ
 وَهُوَ لَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انظُرْ كَيْفَ
 فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ
 تَفْضِيلًا (٢١)

شرح المفردات

طائرُه، أى عمله، سُمى به إما لأنه طار إليه من عش الغيب، وإما لأنه سبب
 الخير والشر كما قالوا: طائر الله لا طائر لك، أى قدر الله الغالب الذى يأتى بالخير والشر
 لا طائر لك الذى تتشاهم به وتتمين؛ إذ جرت عادتهم بأن يتفاءلوا بالطير ويسمونه
 زجرا، فإن مرّ بهم من اليسار إلى اليمين تيمينوا به وسموه سانحا، وإن مرّ من اليمين
 إلى اليسار تشاءموا منه وسموه بارحا، كتابا: هو صحيفة عمله، منشورا، أى غير مطوى،
 حسيبا، أى حاسبا أى عادّايعد عليه أعماله، والوزر: الإثم والذنب، يقال منه وزر يزر
 فهو وازر وهى وازرة أى نفس وازرة، والمترفون: هم المنعمون من الملوك والعظماء،
 أمرنا مترفيها، أى أمرناهم بالطاعة، ففسقوا، أى خرجوا عن الطاعة وتمردوا، فحق عليها
 القول، أى وجب لها العذاب، والتدمير: الإهلاك مع طمس الأثر، والقرن: القوم
 مجتمعهم زمان واحد، وقد حدد بأربعين سنة، وبثمانين، وبمائة، والعاجلة: الدار

الدنيا ، يصلها ، أى يقاسى حرها ، مدحورا ، أى مطرودا مبعدا من رحمة الله ،
محظورا أى ممنوعا عن يريده .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فيما سلف حال كتابه الذى يحوى النافع والضار من
الأعمال مما يكون به سعادة الإنسان وشقاؤه فى دينه ودنياه — قفى على ذلك
بذكر حال كتاب المرء وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من أعماله إلا أحصاها ، وأن
حسنها وقبحها تابع لأخذه بما فى الكتاب الأول أو تركه لذلك ، فمن أخذ به
اهتدى ومنفعة ذلك عائدة إليه ، ومن أعرض عنه ضل وغوى ووبال ذلك راجع
عليه ؛ ثم أكد عنايته بعباده وأنه لا يعاقب أحدا منهم إلا إذا أرسل الرسل يبلغون
رسالات ربهم رحمة بهم ورأفة ، وأعقب ذلك بأن عذابه إنما يكون بكسب المرء
واختياره وأن هذا واقع بتقدير الله وعلمه ، وإذا وقعت المعصية حلت العقوبة بعذاب
الاستئصال كما فعل بكثير من الأمم التى من بعد نوح كعاد وثمود ، والله عليم بأفعالهم
وبما يستحقون ، ثم قسم العباد قسمين قسم يحب الحياة الدنيا ويعمل لها وعاقبته
دار البوار وبئس القرار ، وقسم يعمل للآخرة ويسعى لها سعيها وهو مؤمن وأولئك
سعيهم مشكور مقبول عند ربهم ولهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، وهؤلاء
وهؤلاء يمدم ربهم بعطائه ، إذ ليس عطاؤه بممنوع عن أحد ، ولكن قد فضل
بعضهم على بعض فى أرزاق الدنيا ، ومراتب التفاوت فى الآخرة أكثر من درجات
التفاوت فى الدنيا وأبعد مدى .

الإيضاح

(وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا)
أى وألزمنا كل امرئ عمله الذى يصدر منه باختياره على حسب ما قدر له من خير

أوشر ، لا ينفك عنه بحال ، والعرب تضرب المثل للشيء الذي يلزم بالشئ الذي يوضع في العنق ، فيقولون جعلت هذا في عنقك أى قلدتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به ، وخصوا العنق لأنه يظهر عليه ما يزين المرء كالتقلايد والأطواق ، أو ما يشينه كالأغلال والأوهاق (الحبال تجرّ بها الدواب) .
 وخلاصة هذا — إن كل إنسان منكم معشر بني آدم الزمناء نحسه وسعده ، وشقاءه وسعاده ، بما سبق في علمنا أنه صائر إليه ، ونحن نخرج له حين الحساب كتابا يراه منشورا وفيه أعماله التي كسبها في الدنيا ، وقد أحصى عليه ربه فيه كل ما أسلف في تلك الحياة .

أخرج ابن جرير عن الحسن أنه قال: قال الله يابن آدم بسطنا لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك ، والآخر عن يسارك ، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة كتابا تلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، قد عدل والله من جعلك حسيب نفسك .

(اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) أى ونخرج له يوم القيامة حين البعث والحساب كتابا يلقاه منشورا ، فيقال له اقرأ كتاب عملك الذي عملته في الدنيا وكان الملكان يكتبانه ويحصىانه عليك ، وحسبك اليوم نفسك عليك حاسبا تحسب عليك أعمالك فتحصيها ، لا نبتغى عليك شاهدا غيرها ، ولا نطلب محصيا سواها .

و بعد أن ذكر أن القرآن هاد للتي هي أقوم وأن الأعمال لازمة لأصحابها بين أن منفعة العمل ومضرته راجعة إلى عامله فقال :

(من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها) أى من استقام على طريق الحق واتبعه ، واتبع الدين الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم ، فنفسه

قد نفع ، ومن حاد عن قصد السبيل وسار على غير هدى وكفر بالله ورسوله وبما جاء به من عند ربه من الحق فلا يضرن إلا نفسه ، لأنه جعلها مستحقة لغضب الله وأليم عذابه .

ثم زاد الجملة الثانية توكيدا بقوله :

(ولا تزروا وزارة ووزر أخرى) أى ولا تأثم نفس آئمة إنهم نفس أخرى ، بل على كل نفس إنهما دون إنهم غيرها من الأنفس .

وفى هذا قطع لأطماعهم الفارغة ، إذ كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق فالتبعة على أسلافهم الذين قلدوهم ، روى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة حين قال : اكفروا بمحمد وعلى أوزاركم .

ولا منافاة بين هذه الآية وبين قوله : « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » وقوله : « وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ » فإن الدعاء إلى الضلال عليهم إنهم ضلالتهم فى أنفسهم ، وإنهم آخر بسبب إضلالهم من أضلوا من غير أن ينقص أوزار أولئك ولا يرفع عنهم منها شيئا ، وهذا عدل من الله ورحمة منه بعباده .

ثم ذكر عنايته ورحمته بهم فقال :

(وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) أى وما كنا مهلكى قوم إلا بعد الإعذار إليهم بالرسول وإقامة الحجة عليهم بالآيات التى تقطع أعدارهم ، وبمعنى الآية قوله تعالى : « كَلَّمَآ أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلُوهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ » وقوله : « أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مِمَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ ؟ فَذُقُوا مِمَّا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ » إلى نحو ذلك من الآيات الدالة على أن الله لا يدخل أحدا النار إلا بعد إرسال الرسول إليه .

وخلاصة ذلك — إن سنتنا المبينة على الحكم العالية ألا نعذب أحداً من نوع من العذاب الدنيوي أو الأخرى على فعل شيء أو تركه إلا إذا أرسلنا رسولا يهتدى إلى الحق ويردع عن الضلال ويقيم الحجج ويمهد الشرائع وتبلغه دعوته .

قال الإمام الغزالي : الناس بعد بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم أصناف ثلاثة :

(أ) من لم تبلغهم دعوته ولم يسمعوا به أصلاً ، وأولئك مقطوع لهم بالجنة .

(ب) من بلغتهم دعوته وظهور المعجزات على يديه ، وما كان عليه صلى الله عليه من الأخلاق العظيمة والصفات الكريمة ، ولم يؤمنوا به كالكفرة الذين بين ظهرانينا ، وأولئك مقطوع لهم بالنار .

(ج) من بلغتهم دعوته صلى الله عليه وسلم وسمعوا به ولكن كما يسمع أحدنا بالدجالين وحاشا قدره الشريف عن ذلك ، وهؤلاء أرجو لهم الجنة إذا لم يسمعوا ما يرغبهم في الإيمان به اه .

يريد الغزالي بهذا أنهم سمعوا عنه أخباراً مكذوبة ، وعن دينه أخباراً لا تنطبق على حقيقته ، كما يفعل رجال الكنائس في تشويه أخبار الرسول بأنه مزواج مطلق ، وأنه كان متهاكاً في حب النساء ، وأن دينه دين وثنية ، لأنه كان يسجد للكعبة ، وأنه خالف جميع الأنبياء واتجه إليها ولم يتجه لبيت المقدس ، وأن القرآن كثير المتناقضات كثير التكرار للتقصص وفيه كذب ، إلى نحو أولئك مما يقولون وهم لا يقولون إلا ترهات وأباطيل .

ثم بين كيف يقع العذاب بعد بعثة الرسل فقال :

(وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) أى إذا دنا وقت تعلق إرادتنا بإهلاك أى قرية بعذاب الاستئصال لما ظهر منها من المعاصي وندست به أنفسها من الآثام — لم نعالجها بالعقوبة ، بل نأمر مترفيها بالطاعة فإذا فسقوا عن أمرنا وتمردوا حق عليهم العذاب جزاء وفاقاً لاجتراحهم

السيئات وارتكابهم كبائر الإثم والفواحش ، فدمرنا تلك القرية تدميرا ولم نبق منها ديارا ولا نافخ نار .

وخص المترفين بالذكر لما جرت به العادة أن من سواهم يكون تبعاهم ، وأن العامة والدهاء يقلدونهم فيما يفعلون ، ولأنهم أسرع إلى الفجور وأقدر على الوصول إلى سبله .

وقد يكون المراد من الأمر — أن الله يفيض عليهم نعمه التي تبطرحهم وتجعلهم يقعون في المعاصي ، فكأنه تعالى يأمرهم بها ، إذ مهد لهم الأسباب الموصلة إليها .
وحكى بعض أئمة اللغة أن المراد (بأمرنا) أكثرنا واستدل بما أخرجه أحمد والطبراني من قوله صلى الله عليه وسلم « خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة » أى مهرة كثر نسلها وطريق مصطفة من النخل مأبورة (كثر فيها اللقاح) لتثمر الثمر الجنى .
ثم ذكر أن كثيرا من الأمم قد حق عليها العذاب بذنوبها فقال :

(وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح) أى وقد أهلكنا أمما كثيرة قبلكم من بعد نوح حتى زمانكم حين جحدوا آيات الله وكذبوا رسله وكانوا على مثل ما أنتم عليه من الشرور والآثام ، ولستم بأكرم على الله منهم ، فاحذروا أن يحل بكم من العقاب مثل ما حل بهم وينزل بكم سخطه مثل ما نزل بهم .

وفى هذا من الوعيد لمكذبي رسول الله صلى الله عليه وسلم من مشركى قريش وتهديدهم بشديد العقاب إن لم ينتهوا عما هم عليه من تكذيب رسوله — ما لا يخفى .
(وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا) أى وحسبك أيها الرسول بالله خبيرا بذنوب خلقه ، فلا يخفى عليه شيء من أفعال مشركى قومك ولا أفعال غيرهم ، بل هو عليم بجميع أعمالهم لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وسيجازيهم على ذلك بما يستحقون .

ثم قسم سبحانه عباده قسمين محب للعاجلة ومحب لأعمال الآخرة :

(١) (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم

يصلها مذموما مدحورا) أى من كان طلبه الدنيا العاجلة ، ولها يعمل ويسعى وإياها يبتغى ، لا يوقن بمعاد ولا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا من ربه على ما يعمل ، يعجل الله له فى الدنيا ما يشاء من بسط الرزق وسعة العيش ثم يصلية حين مقدمه عليه فى الآخرة جهنم مذموما على قلة شكره وسوء صنيعه فيما سلف ، مبعدا من رحمته مطرودا من إنعامه .

وقد اشتمل هذا العقاب على أمور ثلاثة :

(١) الدوام والخلود وإلى ذلك الإشارة بقوله : ثم جعلنا له جهنم يصلها أى يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه .

(ب) الإهانة والاحتقار وإلى ذلك أشار بقوله مذموما .

(ح) البعد والطرده من رحمة الله دائما فلا يتخلل ذلك راحة ولا يعقبه خلاص . وإلى هذا أشار بقوله : مدحورا ، وفى قوله : لمن تريد ، إشارة إلى أن الفوز بالدنيا لا يحصل لكل من يريد ، فكثير من الكفار الضلال يعرضون عن الدين فى طلب الدنيا ثم هم يبقون محرومين من الدين والدنيا .

وفى هذا تهديد وزجر عظيم لهؤلاء الكفار ، فإنهم قد يتركون الدين لطلب الدنيا ، وربما فاتتهم أيضا .

(٢) (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) أى ومن أراد الآخرة ولها عمل وإياها طلب ، فأطاع الله وطلب ما يرضيه ، وهو مصدق بشوابه وعظيم جزائه على سعيه لها - شكر الله له جزيل سعيه وآتاه حسن الثوبة ، كفاء ما قدم من صالح العمل ، وتجاوز عن سيئاته ، وأدخله فراديس جناته .

وقد اشترط لهذا الجزاء أمورا ثلاثة :

(١) أن يريد بعمله ثواب الآخرة ونعيمها ، فإن لم تحصل هذه النية لم ينتفع بذلك العمل كما قال : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » وجاء فى الحديث :

« إنما الأعمال بالنيات » - إلى أن استنارة القلب بمعرفة الله ومحبته لا تحصل إلا إذا نوى العامل بعمله طاعة ربه والإخبات والخشوع له .

(ب) أن يعمل العمل الذي يتوصل به إلى الفوز بثواب الآخرة ، ولا يكون ذلك إلا إذا كان من القرب والطاعات ، لامن الأعمال الباطلة كعبادة الأوثان والكواكب والملائكة .

(ح) أن يكون ذلك وهو مؤمن ، فإن أعمال البر لا توجب الثواب إلا إذا وجد الإيمان .

ثم بين سبحانه أن عطاءه ورزقه الدينوى لا يحظر على كل من الفريقين فقال :
(كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) أى إن كلا من الفريقين مريدى العاجلة ومريدى الآجلة الساعى لها سعيها وهو مؤمن يمده ربه بعطائه ويوسع عليه الرزق ويكثر الأولاد وغيرها من زينة الدنيا ، فإن عطاءه ليس بالمنوع من أحد من خلقه مؤمنا كان أو كافرا ، فكالم مخلوق فى دار العمل ، فوجب إزالة العذر ورفع العلة وإيصال متاع الدنيا إليهم على القدر الذى يقتضيه صلاحهم ، ثم تختلف أحوال الفريقين ، ففريق العاجلة إلى جهنم وبئس المهاد ، وفريق الآجلة إلى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ونعم عقبى الدار .

ثم وضع ما مر من الإمداد وعدم محظورية العطاء على أحد فقال :
(انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض) أى انظر إلى عطائنا للفريقين فى الدنيا كيف فضلنا بعضهم على بعض فأوصلنا رزقنا إلى مؤمن وقبضناه عن آخر ، وأوصلناه إلى كافر ومنعناه من كافر آخر ، ولهذا حكم وأسباب بينها سبحانه بقوله :
« وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِيهَا آتَاكُمْ » وقوله :
« نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا » .

(وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً) أى ولتفاوتهم فى الدار الآخرة وتفاضلهم فيها أكبر من تفاضلهم فى الدار الدنيا ، فإن منهم من يكون فى الدرجات السفلى فى جهنم مصفداً بالسلاسل والأغلال ، ومنهم من يكون فى الدرجات العليا فى نعيم وحبور ، وكل فريق يتفاوتون فيما بينهم ، فى الصحيحين « إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر فى السماء » وفيهما : « إن الله تعالى أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

وروى ابن عبد البر عن الحسن قال : حضر جماعة من الناس باب عمر رضى الله عنه وفيهم سهيل بن عمرو القرشى (وكان أحد الأشراف فى الجاهلية) وأبو سفيان ابن حرب ومشايخ من قريش ، فأذن لصهيب وبلال وأهل بدر وكان يجهم ، فقال أبو سفيان ما رأيت كاليوم قط إنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يلتفت إلينا ، فقال سهيل وكان أعقلهم : أيها القوم إني والله قد أرى الذى فى وجوهكم ، فإن كنتم غضاباً فاعضبوا على أنفسكم ، إنهم دعوا ودعينا (يعنى إلى الإسلام) فأمرعوا وأبطأنا ، وهذا باب عمر فكيف التفاوت فى الآخرة ، ولئن حسدتموه على باب عمر لما أعد الله لهم فى الجنة أكبر .

وعن بعضهم أنه قال : أيها المباهى بالرفع منك فى مجالس الدنيا ، أما ترغب فى المباهة بالرفع فى مجالس الآخرة وهى أكبر وأفضل ؟ .

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَحْدُولًا (٢٢) وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبُّ ارْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ

كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ
 وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ
 الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ
 تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ
 وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ
 الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلَا تَقْتُلُوا
 أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا
 كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا
 تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا
 لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا
 مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، إِنَّ
 الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ
 الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ،
 إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ
 فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا
 (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ
 إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ
 مَلُومًا مَذْحُورًا (٣٩)

شرح المفردات

فتتعد : أى فتصير ، مذموماً : أى ممن يستحق الذم من الملائكة والمؤمنين ،
مخذولاً : أى من الله لأنك أشركت معه ما لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، وقضى :
أى حكم وأمر ، وأف : اسم صوت ينهى عن التضجر والتألم ويقولون لا نقل لفلان
أف أى لا تتعرض له بنوع من الأذى والمكروه ، والنهر : الزجر بغلظة ، كريماً :
أى جميلاً لا شراسة فيه ، قال الراغب : كل شيء يشرف فى جنسه يقال إنه كريم .
وخفضُ الجناح يراد به التواضع والتذلل ، من الرحمة : أى من فرط رحمتك عليهما
والأواب : الذى ديدنه الرجوع إلى الله والاتجاء إليه حين الشدة ، والتبذير إنفاق
المال فى غير موضعه ، وإخوان الشياطين : أى قرناؤهم ، والابتغاء : الطلب ، والرحمة
الرزق ، والميسور : السهل اللين ، والمغلولة : المقيدة بالغل وهو القيد يوضع فى اليدين
والعنق ، وتبسطها : أى تتوسع فى الإنفاق ، والمحسور : المنقطع عن السير إعياء
وكلالا ، ويقدر : أى يقتدر ، والإملاق : الفقر قال :

وإنى على الإملاق يا قوم ماجدٌ أعدُّ لأضيافى الشواء المضمبباً

والخطء : كالإثم لفظاً ومعنى ، والفاحشة : الفعلة الظاهرة القبيح ، والسلطان :
التسلط والاستيلاء ، فلا يسرف : أى لا يتجاوز الحد المشروع فيه ، التى هى أحسن
أى الطريق التى هى أحسن ، والعهد : ما تعاهدون عليه غيركم من العباد لتوثيقه
وتوكيده ، والقسطاس : (بكسر القاف وضمها) الميزان ، والمستقيم : العدل ، والتأويل
ما يثول إليه الشيء وهو عاقبته ، ولا تنف من قفوت أثر فلان : أى اتبعته ، والمرح :
الفخر والكبر ، لن تحرق الأرض : أى لن تجعل فيها طرفاً بدوسك وشدة وطأتك ،
والحكمة : معرفة الحق سبحانه ومعرفة الخير للعمل به ، والمدحور : المبعد من
رحمة الله .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جلت قدرته أن الناس فريقان فريق يريد بعمله الدنيا فقط ، وعاقبتهم العذاب والوبال، وفريق يريد بعمله طاعة الله، وهم أهل مرضاته والمستحقون لثوابه ، وقد اشترط لنيلهم ذلك أن يعملوا للآخرة وأن يكونوا مؤمنين — لا جرم فصل الله في هذه الآية حقيقة الإيمان والأعمال التي إذا عملها المؤمن كان ساعيا للآخرة وصار من الذين سعد طائرهم وحسن حظهم ، ثم أعقب ذلك بذكر ما هو من شعائر الإيمان وشرائطه ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وبعدئذ أتبع ذلك بالأمر ببر الوالدين من قبل أنهما السبب الظاهر في وجوده ، وبالأمر بإيتاء ذوى القربى حقوقهم ، ثم بالأمر بإصلاح أحوال المساكين وأبناء السبيل ، لأن فى إصلاحهما إصلاح المجتمع والمسلمون كلهم إخوة وهم يد على من سواهم ، ثم قفى على ذلك بالنهى عن التبذير لما فيه من إصلاح حال المرء وعدم ارتبائه فى معيشتة، وإصلاحه لإصلاح للأمة جمعاء ، فما الأمم إلا مجموعة الأفراد فى صلاحهم صلاحها ، ثم علمنا سبيل إنفاق المال على الوجه الذى يرضاه الدين ويرشد إلى حسنه العقل ، وبعدئذ نهانا عن قتل الأولاد خشية الفقر وبين أن الكفيل بأرزاقهم وأرزاقكم هو ربكم فلا وجه للخوف من ذلك ؛ ثم تلا هذا بالنهى عن الزنا لما فيه من اختلاط الأنساب وفقدان النسل أو قتلته ووقوع الشغب والقتال بين الناس دفاعا عن العرض ؛ ثم بالنهى عن القتل لهذا السبب عينه ، ثم بالنهى عن إتلاف مال اليتيم ، ثم بالأمر بالوفاء بالعهد وهو العقد الذى يعمل لتوكيد الأمر وتثبيتته ، ثم بإيفاء السكيل والميزان لما فى حسن التعامل بين الناس من توافر المودة والمحبة بينهم ، وهذا ما يرمى إليه الدين لإصلاح شؤون الفرد والمجتمع ، ثم بالنهى عن تتبع ما لا علم لك به من قول أو فعل ، فلا تتبع ما كان يعمله الآباء اقتداء بهم من عبادة الأصنام تقليدا لهم ، ولا تشهد على شىء لم تره ، ولا تكذب فتقول فى شىء لم تسمعه إنك قد سمعته ،

ولا في شيء لم تره ، إنك قد رأيتَه ، ثم بالنهي عن مشية الخيلاء والمرح لما فيهما من الصلف الذي لا يرضاه الله ولا الناس ، ثم ختم ذلك ببيان أن تلك الأوامر والنواهي هي من وحى الله وتبليغه لا من عند نفسه ، أمر بها ونهى عنها ، لأنها أسس سعادة الدارين وعليها تبنى العلاقات بين الأفراد والأمم على نظم صحيحة لا تكون عرضة للاضطراب وفقدان الثقة في معاملاتهم .

الإيضاح

(لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا) أى لا تجعل أيها الإنسان مع الله شريكا في ألوهته وعبادته ، ولكن أخلص له العبادة وأفرد له الألوهة ، فإنه لا رب غيره ولا معبود سواه ، وإنك إن تجعل معه إلها غيره وتعبد معه سواه تصر ملوما على ما ضيعت من شكر الذى أنعم عليك بنعمه ، وشكر من لم يولك نعمة ، مخذولا لا ينصرك ربك بل يكلك إلى من عبدته معه ممن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .

وبعد أن ذكر الركن الأعظم فى الإيمان أتبعه بذكر شعائره وهى الأمور الآتية فقال :

(١) (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) أى وأمر ربك ألا تعبدوا غيره ، إذ العبادة نهاية التعظيم ، ولا تليق إلا بمن له الإنعام والإفضال على عباده ، ولا منعم إلا هو .

(٢) (وبالوالدين إحسانا) أى وأن تحسنوا إلى الوالدين وتبروهما ليكون الله معكم « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » .
وقد أمر الله بالإحسان إليهما للأسباب الآتية .

(١) شفقتهما على الولد وبذل الجهد فى إيصال الخير إليه وإبعاد الضر عنه جهد المستطاع ، فوجب مقابلة ذلك بالإحسان إليهما والشكر لهما .

(ب) إن الولد قطعة من الوالدين كما جاء في الخبر أنه عليه السلام قال :
« فاطمة بضعة مني » .

(ح) إنهما قد أنعموا عليه وهو في غاية الضعف ونهاية العجز ، فوجب أن
يقابل ذلك بالشكر حين كبرهما كما قال الشاعر العربي يعدد نعمه على ولده وقد
عقه في كبره :

غذوتك مولودا ومُنتك يافعا	تعلّ بما أجنى عليك وتنهل
إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت	لسقمك إلا ساهرا أتأمل
كأنى أنا المطروق دونك بالذى	طرقت به دونى فعينى تهمل
تخاف الردى نفسى عليك وإنها	لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التى	إليها مدى ما كنت فيك أوئل
جعلت جزائى غلظة وفضاظة	كأنك أنت المنعم للمتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتى	فعلت كما الجارُ المجاورُ يفعل

والخلاصة — إنه لا نعمة تصل إلى الإنسان أكثر من نعمة الخالق عليه ثم
نعمة الوالدين ، ومن ثم بدأ بشكر نعمته أولا بقوله : وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ،
ثم أردفها بشكر نعمة الوالدين بقوله : وبالوالدين إحسانا .

ثم فصل ما يجب من الإحسان إليهما بقوله :

(إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل
لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني
صغيرا) أى إذا وصل الوالدان عندك أو أحدهما إلى حال الضعف والعجز وصارا
عندك فى آخر العمر كما كنت عندهما فى أوله — وجب عليك أن تشفق عليهما
وتحنو لهما وتعاملهما معاملة الشاكر لمن أنعم عليه ، ويتجلى ذلك بأن تتبع معهما الأمور
الحمسة الآتية :

(ا) ألا تتأفف من شيء تراه من أحدهما أو منهما مما يتأذى به الناس ،
ولكن اصبر على ذلك منهما واحتسب الأجر عليه كما صبرا عليك في صغرك .
(ب) ألا تنغص عليهما بكلام تزجرهما به ، وفي هذا منع من إظهار المخالفة
لهما بالقول على سبيل الرد عليهما والتكذيب لهما ، وفيما قبله منع من إظهار الضجر
القليل أو الكثير .

(ح) أن تقول لهما قولاً حسناً وكلاماً طيباً مقروناً بالاحترام والتعظيم
مما يقتضيه حسن الأدب وترشد إليه المروءة كأن نقول يَا أَبَتَاهُ وَيَا أُمَّاهُ ، ولا تدعوها
بأسمائهما ، ولا ترفع صوتك أمامهما ، ولا تحديق فيهما بنظرك .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي الهذاج قال : قلت لسعيد بن المسيَّب :
كل ما ذكر الله تعالى في القرآن من بر الوالدين فقد عرفته إلا قوله « وَقُلْ لَّهُمَا
قَوْلًا كَرِيمًا » ما هذا القول الكريم ، فقال ابن المسيَّب : قول العبد المذنب
للسيد الفظ .

(د) أن تتواضع لهما وتتذلل وتطيعهما فيما أمرك به مما لم يكن معصية لله ،
رحمة منك بهما وشفقة عليهما ، إذ هما قد احتاجا إلى من كان أفقر الخلق إليهما ،
وذلك منتهى ما يكون من الضراعة والمسكنة ، والله در الخفاجي إذ يقول :

يا من أتى يسأل عن فاقتي ما حال من يسأل من سائله

ما ذلة السلطان إلا إذا أصبح محتاجاً إلى عامله

وقوله: من الرحمة، أي أن يكون ذلك التذلل رحمة بهما، لا من أجل امتثال الأمر
وخوف العار فقط ، فتذكر نفسك بما تقدم لهما من الإحسان إليك ، وبما أمرت
به من الشفقة والحذب عليهما .

وقد مثل حاله معهما بحال الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه لتربيته ، فإنه يخفض
له جناحه ، فكأنه قال للولد : اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك
حال صغرك .

(هـ) أن تدعو الله أن يرحمهما برحمته الباقية كِفَاءَ رَحْمَتِهِمَا لَكَ فِي صَغْرِكَ وَجَمِيلَ شَفَقَتِهِمَا عَلَيْكَ .

وعلى الجملة فقد بالغ سبحانه في التوصية بهما من وجوه كثيرة ، وكفاهما أن شفع الإحسان إليهما بتوحيده ، ونظمهما في سلك القضاء بهما معا .
وقد ورد في بر الوالدين أحاديث كثيرة منها :

(١) إن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الجهاد معه فقال :
أحى والدك ؟ قال نعم ، قال ففيهما فجاهد .

(٢) مارواه مسلم وغيره - لا يجرى ولد والده إلا أن يجده مملوكا فيشتريه ويعتقه .

(٣) ماروى عن ابن مسعود قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى العمل أحب إلى الله ورسوله ؟ قال الصلاة على وقتها ، قلت ثم أى ؟ قال بر الوالدين ، قلت ثم أى ؟ قال الجهاد في سبيل الله .

وبر الأم مقدم على بر الأب لما روى الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أمك .

ولا يختص برهما بحال الحياة ، بل يكون بعد الموت أيضا ، فقد روى ابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : هل بقى من بر أبوى شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال نعم ، خصال أربع : الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقيهما ، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبائهما ، فهذا الذى بقى عليك من برهما بعد موتهما .

والخلاصة - إنه سبحانه بالغ في التوصية بالوالدين بمبالغة تشعّر منها جلود أهل العقوق وتقف عندها شعورهم من حيث افتتحها بالأمر بتوحيده وعبادته ثم شفعهما بالإحسان إليهما ، ثم ضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخص فى أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر ومع أحوال لا يكاد الإنسان يصبر معها ، وأن

يذل ويخضع لهما ، ثم ختمها بالدعاء لهما والترحم عليهما ، وهذه الخمسة الأشياء جعلها سبحانه من رحمته بهما مقرونة بوحدايته وعدم الشرك به .

ولما كان بر الوالدين عسيرا حذر من التهاون فيه فقال :

(ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا)
 أى ربكم أيها الناس أعلم منكم بما في نفوسكم من تعظيمكم أمر آبائكم وأمهاتكم والبر بهم ، ومن الاستخفاف بحقوقهم والعقوق بهم ، وهو مجازيكم على حسن ذلك وسيئته ، فاحذروا أن تضمروا لهم سوءا وتعقدوا لهم في نفوسكم عقوقا ، فإن أتم أصلحتم نياتكم فيهم وأطعتم ربكم فيما أمركم من البر بهم والقيام بحقوقهم عليكم بعد هفوة كانت منكم أو زلة في واجب لهم عليكم ، فإنه تعالى يغفر لكم ما فرط منكم ، فهو غفار لمن يتوب من ذنبه ويرجع من معصيته إلى طاعته ويعمل بما يحبه ويرضاه .

وفى هذا وعد لمن أضمر البر بهم ووعيد لمن تهاون بحقوقهم وعمل على عقوبهم .

وبعد أن أمر بالبر بالوالدين أمر بالبر بأصناف ثلاثة أخرى فقال :

(وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل) أى وأعط أيها المكلف القريب منك حقه من صلة الرحم والمودة والزيارة وحسن العشرة ، وإن كان محتاجا إلى النفقة فأنفق عليه ما يسد حاجته ، والمسكين ذا الحاجة ، وابن السبيل وهو المسافر لغرض ديني ، فيجب إعادته ومساعدته على سفره حتى يصل إلى مقصده .

ولما رغب سبحانه في البذل بين الطريق التي تتبع في ذلك فقال :

(ولا تبذر تبذيرا) أى ولا تفرق أيها الإنسان ما أعطاك الله من مال في معصيته تفريقا بإعطائه من لا يستحقه ونحو الآية قوله « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » .

قال عثمان بن الأسود : كنت أطوف في المساجد مع مجاهد حول الكعبة

فرفع رأسه إلى أبي قبيس (جبل بمكة) وقال لو أن رجلاً أنفق مثل هذا في طاعة الله لم يكن من الميسرين ، ولو أنفق درهما واحداً في معصية الله كان من الميسرين . وأنفق بعضهم نفقة في خير وأكثرت قليل له : لا خير في السرف ، فقال : لا سرف في الخير .

وعن عبد الله بن عمر قال : « مر رسول الله بسعد وهو يتوضأ ، فقال ما هذا السرف يا سعد ؟ قال : أوفى الوضوء سرف ؟ قال نعم وإن كنت على نهر جار . » وروى أحمد عن أنس بن مالك أنه قال : أتى رجل من تميم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إني ذو مال كثير وذو أهل وولد وحاضرة ، فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تخرج الزكاة من مالك إن كان فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق السائل والجار والمسكين » فقال يا رسول الله : أقلل لي ، قال فأت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ، فقال حسبي يا رسول الله إذا أدت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله ورسوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم إذا أدتها إلى رسولك فقد برئت منها ولك أجرها وإثمها على من بدلها » .

وعن علي كرم الله وجهه قال : ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك في غير سرف ولا تبذير وما تصدقت فلك ، وما أنفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان . ثم نبه سبحانه إلى قبح التبذير بإضافته إلى الشياطين فقال :

(إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) تقول العرب لكل من لازم سنة قوم واتبع أثرهم هو أخوهم ، أي إن المفرقين أموالهم في معاصي الله المنفقيها في غير طاعته قرناء الشياطين في الدنيا والآخرة كما قال « وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » وقال « احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » أي قرناءهم من الشياطين .

(وكان الشيطان لربه كفوراً) أي وكان الشيطان لنعمة ربه التي أنعم بها عليه

جحودا لا يشكره عليها ، بل يكفرها بترك طاعته وركوبه معصيته ، وهكذا إخوانه المبدزون أموالهم في معاصي الله لا يشكرون الله على نعمه عليهم ، بل يخالفون أمره ولا يستنون سنته ، ويتركون الشكران عليها ويتلقونها بالكفران ، قال الكرخي وكذلك من رزقه الله جاها أو مالا فصرفه إلى غير مرضاة الله كان كفورا لنعمة الله لأنه موافق للشيطان في الصفة والفعل اه .

وفي ذكر وصف الشيطان بالكفران دون ذكر سائر أوصافه ، بيان لأن المبدز لما صرف نعم الله عليه في غير موضعها فقد كفر بها ولم يشكرها ، كما أن الشيطان كفر بهذه النعم .

وقد كان من عادة العرب أن يجمعوا أموالهم من السلب والنهب والغارة ثم ينفقونها في التفاخر وحب الشهرة . وكان المشركون من قريش ينفقون أموالهم ليصدوا الناس عن الإسلام وتوهين أهله وإعانة أعدائه ، فجاءت الآية تبين قبح أعمالهم .

(وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا)
 أي وإن أعرضت عن ذوى القربى والمسكين وابن السبيل وأنت تستحى أن ترد عليهم انتظار فرج من الله ترجو أن يأتيك ، ورزق يفيض عليك ، فقل لهم قولا ليينا جميلا وعدم وعدا تطيب به قلوبهم ، قال الحسن : أمر أن يقول لهم : نعم وكرامة ، وليس عندنا اليوم شيء ، فإن يأتنا نعرف حقكم . وفي هذا تأديب من الله لعباده إذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون وبم يردون ؟ ، ولقد أحسن من قال :

إلا يكن ورق يوما أجود به للسائلين فإني لئن العود

لا يعدم السائلون الخير من خلقي إما نوال وإما حسن مردود

ثم بين سبحانه الطريق المثلى في إنفاق المال فقال :

(ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتتعد ملوما محسورا)

أى لا تكن بخيلا ممنوعا لا تعطى أحدا شيئا ، ولا تسرف في الإنفاق فتعطى فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك ، فإنك إن بخلت كنت ملوما مذموما عند الناس كما قال زهير :

ومن يك ذا مال فيبخل بماله على قومه يستغن عنه ويذم
ومذموما عند الله لحرمان الفقير والمسكين من فضل مالك وقد أوجب الله عليك سد حاجتهما باعطاء زكاة أموالك .

وإن أسرفت في أموالك فسرعان ما تفقدتها فتصبح معسرا بعد الغنى ، ذليلا بعد العزة ، محتاجا إلى معونة غيرك بعد أن كنت معينا له ، وحينئذ تقع في الحسرة التى تقطع نياط قلبك ويبلغ منك الأسمى كل مبلغ ، ولكن أنى يفيد ذلك وقد فات ما فات فلا ينفع الندم ولا تجدى العظة والنصيحة .

وخلاصة ذلك — اقتصد فى عيشك وتوسط فى الإنفاق ، ولا تكن بخيلا ولا مسرفا ، روى أحمد وغيره عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما عال من اقتصد » وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة » وروى عن أنس مرفوعا : « التدبير نصف المعيشة ، والتودد نصف العقل ، والهلم نصف الهرم ، وقلة العيال أحد اليسارين » . وقيل حسن التدبير مع العفاف خير من الغنى مع الإسراف .

وإجمال المعنى — لا تجعل يدك فى انقباضها كالمغلولة الممنوعة عن الانبساط ، ولا تتوسع فى الانفاق فتصير نادما مغموما وعاجزا عن الانفاق لاشيء عندك ، فتكون كالدابة التى قد عجزت عن السير فوقفت ضعفا وعجزا وإعياء .

ثم سلى رسوله والمؤمنين بأن الذى يرهقهم من الإضاعة ليس لهوانهم على الله ولكن لمشيئة الخالق الرازق فقال :

(إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى إن ربك أيها الرسول يبسط الرزق لمن يشاء ويوسع عليه ، ويقتر على من يشاء ويضيق عليه على حسب السنن

التي وضعها لعباده في كسب المال وحسن تصرفهم في جمعه بالوسائل والنظم التي وضعها في الكون .

(إنه كان بعباده خيرا بصيرا) أى إن ربك ذو خبرة بعباده ، فيعلم من الذى تصلحه السعة في الرزق ومن الذى تفسده ؟ ومن الذى يصلحه الإقتار والضيق ؟ ومن الذى يفسده ؟ وهو البصير بتدبيرهم وسياستهم ، فعليك أن تعمل بما أمرك به ونهاك عنه من بسط يدك فيما تبسط فيه وفيمن تبسطها له ، ومن كفيها عن تكفيها عنه ، فهو أعلم بمصالح العباد منك ومن جميع الخلق ، وأبصرهم بتدبير شؤونهم .
وقصارى ذلك — إنكم إذا علمتم أن شأنه تعالى البسط والقبض وأنعمتم في النظر في ذلك وجدتم أن من سننه تعالى الاقتصاد ، فاقتصادوا واستنوا بسنته .

و بعد أن بين أنه تعالى الكفيل بالأرزاق وهو الذى يبسط ويقدر نهامهم عن قتل الأولاد خشية الفقر فقال :

(ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم) أى لا تندوا بناتكم خوف الفقر ، فنحن نرزقهم لأنتم ، فلا تخافوا الفقر لعلمكم بعجزهم عن تحصيل رزقهم .
وقد كان العرب في جاهليتهم يقتلون البنات لعجزهن عن الكسب وقدرة البنين عليه بالفارات والسلب والنهب ، ولأن فقرهن ينفر الأ كفاء عن الرغبة فيهن ، فيحتاجون إلى تزويجهن لغير الأ كفاء وفي ذلك عار أيما عار عليهم .
والخلاصة — إن الأرزاق بيد الله ، فسكا يفتح خزائنه للبنين يفتحها للبنات ، فليس لكم سبب يدعو إلى قتلهن ، ومن ثم قال :

(إن قتلهم كان خطئا كبيرا) أى إن قتلهم كان إثما فظيما لما فيه من انقطاع النسل وزوال هذا النوع من الوجود ، وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : « قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال أن تجعل لله ندا وهو الذى خلقك ، قلت ثم أى ؟ قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت ثم أى ؟ قال أن تزاني بحليلة جارك » .

والخلاصة — إن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر فهو من سوء الظن بالله ، وإن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعى في تخريب العالم ، والأول انتهاك لحرمه أوامر الله ، والثاني ضد الشفقة على خلق الله ، وكلاهما مذموم غاية الذم .
ولما كان في قتل الأولاد حظ من البخل ، وفي الزنا داع من دواعي الإسراف أتبعه به فقال :

(ولا تقربوا الزنا) نهى الله عباده عن القرب من الزنا بمباشرة أسبابه ودواعيه فضلا عن مباشرته هولمبالغة في النهي عنه وبيان شدة قبحه ، ثم عالج ذلك بقوله :
(إنه كان فاحشة وساء سبيلا) أي إنه كان فعلة ظاهرة القبح مشتملة على مفسد كثيرة أهمها :

(١) اختلاط الأنساب واشتباهاها ، وإذا اشتبه المرء في الولد الذي أتت به الزانية أمنه هو أم من غيره لا يقوم بترينته ولا يستمر في تعهده ، وذلك مما يوجب إضاعة النسل وخراب العالم .

(٢) فتح باب الهرج والمرج والاضطراب بين الناس دفاعا عن العرض ، فكم سمعنا بحوادث قتل كان مبعثها الإقدام على الزنا حتى إنه ليقال عند السماع بحادث قتل (فتش عن المرأة) .

(٣) إن المرأة إذا عرفت بالزنا وشهرت به استقدرها كل ذى طبع سليم ، فلا تحدث ألفة بينها وبين الأزواج ، ولا يتم السكن والازدواج الذي جعله الله مودة ورحمة بين الناس بقوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » .

(٤) إنه ليس المقصد من المرأة مجرد قضاء الشهوة ، بل أن تصير شيكة للرجل في ترتيب المنزل وإعداد مهامه من مطعم ومشروب وملبوس ، وأن تكون حافظة له قائمة بشؤون الأولاد والخدم ، وهذه المهام لا تتم على وجه الكمال إلا إذا كانت مختصة برجل واحد منقطعة له دون غيره من الناس .

وإجمال ذلك — إن الزنا فاحشة وأى فاحشة لما فيه من اختلاط الأنساب والتقاتل والتناحر دفاعا عن العرض ، وإنه سبيل سوء من قبل أنه يسوى بين الإنسان والحيوان في عدم اختصاص الذكوان بالإناث .

وبعد أن نهى عن قتل الأولاد للسبب المتقدم نهى عن القتل مطلقا فقال :
(ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) أى لا تقتلوا النفس التي حرم الإسلام قتلها إلا قتلا متلبسا بالحق ، وهو أحد أمور ثلاثة : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل مؤمن معصوم عمدا كما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود : « لا يحل دم امرئ يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

والسبب في هذا التحريم وجوه :

- (١) إنه إفساد فوجب حرمة لقوله : « وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ » .
- (٢) إنه ضرر ، والأصل في المضارة الحرمة لقوله : « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » وقوله صلى الله عليه وسلم « لا ضرر ولا ضرار » .
- (٣) إنه إذا أبيح القتل زال هذا النوع من الوجود ففتك القوى بالضعيف ، وحدث الاضطراب في المجتمع فلا يستقيم للناس حال ولا ينتظم لهم معاش .
(ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) أى ومن قتل بغير حق يوجب قتله فقد جعلنا لمن يلى أمره من وارث أو سلطان عند عدم الوارث تسليطا واستيلاء على القاتل بمؤاخذته بأحد أمرين : إما القصاص منه ، وإما الدية لقوله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ » الآية وقوله عليه السلام يوم الفتح « من قتل قتيلا فأهله بين خيرتين ، إن أحبوا قتلوا وإن أحبوا أخذوا الدية » .

(فلا يسرف في القتل) أى فلا يتجاوز الحد المشروع فيه بأن يقتل اثنين مثلا بإزاء واحد كما كانوا يفعلون في الجاهلية ، إذ كانوا يقتلون القاتل ويقتلون معه غيره إذا كان رجلا شريفا ، وأحيانا لا يرضون بقتل القاتل بل يقتلون بدله رجلا شريفا

وفي الآية إيماء إلى أن الأولى للولى ألا يقدم على استيفاء القتل وأن يكتبني بالدية أو يعفو .

(إنه كان منصوراً) أى إن الله نصر الولي بأن أوجب له القصاص أو الدية وأمر الحكام أن يعينوه على استيفاء حقه ، فلا يبغى ما وراءه ولا يطمع في الزيادة على ذلك ، وقد يكون المعنى : إن المقتول ظلماً منصور في الدنيا بإيجاب القود له على قاتله ، وفي الآخرة بتكفير خطاياهم وإيجاب النار لقاتله ، وهذه الآية أول ما نزل من القرآن في شأن القتل لأنها مكية .

وبعد أن نهى عن إتلاف الأنفس نهى عن إتلاف الأموال ، لأن المال أخو الروح ، وأحق الناس بالنهي عن إتلاف ماله هو اليتيم لضعفه وكمال عجزه ولذلك قال : (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده) أى لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالطريق التي هي أحسن الطرق وهي طريق حفظه وتثمينه بما يزيد به حتى تستحكم قوة عقله وشبابه وإذ ذلك يمكنه القيام على ماله بما فيه المصلحة .

ولما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانوا لا يخالطونهم في طعام ولا غيره ، فأنزل الله تعالى : « وَإِنْ تَخَاطَبُوا فَاِخْوَانَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ » فكانت لهم فيها رخصة .

ونظير الآية قوله تعالى : « وَلَا تَأْكُلُوها إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا ، وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ » .

وبعد أن نهى عن الزنا والقتل وأكل مال اليتيم أتبعها بثلاثة أوامر فقال : (١) (وأوفوا بالعهد) أى وأوفوا بما عاهدتم الله عليه من التزام ما كلفكم به ، وما عاهدتم الناس عليه من العقود التي تتعاملون بها في البيوع والإجارة ونحوها ، قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد ، ويدخل في ذلك ما بين العبد وربّه ، وما بين العباد بعضهم وبعض ، والوفاء به القيام بحفظه على الوجه الشرعى والقانون المرضى .

(إن العهد كان مستولاً) أى إن الله سائل ناقض العهد عن نقضه إياه ، فيقال
 اللناكث له على سبيل التبكيت والتوبيخ لم نكثت عهدك ؟ وهلا وفيت به ، كما يقال
 لوأئد الموءودة بأى ذنب قتلت ؟ وقوله تعالى لعيسى عليه السلام : « أَأَنْتَ قُلْتَ
 لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ ؟ » والمخاطبة لعيسى والإنكار على غيره .
 (٢) (وأوفوا الكيل إذا كلمتم) أى وأنموا الكيل للناس ولا تُخسروهم إذا
 كلمتم لهم حقوقهم قبلكم ، فإن كلمتم لأنفسكم فلا جناح عليكم إن نقصتم عن حقمكم
 ولم تفوا بالكيل .

(٣) (وزنوا بالقسطاس المستقيم) أى وزنوا بالميزان العدل دون شيء من الجور
 أو الحيف ، لأن جميع الناس محتاجون إلى المعاوضات والبيع والشراء ، ومن ثم بالغ
 الشارع في المنع من التطفيف والنقصان سعياً في إبقاء الأموال لأربابها .
 ثم بين عاقبة هذه الأوامر وحسن مآلها فقال :

(ذلك خير) أى إيفاؤكم بالعهد ، وإيفاؤكم من تكيلون له ووزنكم بالعدل
 لمن توفون له ، خير لكم في الدنيا من نكثكم وبخسكم في الكيل والوزن ، لأن ذلك
 مما يرغب الناس في معاملتكم وحب الثناء عليكم .
 (وأحسن تأويلاً) أى وأجمل عاقبة لما يترتب على ذلك من الثواب في الآخرة
 وإخلاص من العقاب الأليم .

وكثير من الفقراء الذين اشتهروا بالأمانة والبعد عن الخيانة أقبلت عليهم الدنيا
 وحصل لهم الثروة والغنى وكان ذلك سبب سعادتهم فيها .
 و بعد أن ذكر سبحانه أوامر ثلاثة نهى عن مثلها فقال :

(١) (ولا تقف ما ليس لك به علم) أى ولا تتبع أيها المرء ما لا علم لك به من
 قول أو فعل ، وذلك دستور شامل لكثير من شؤون الحياة ، ومن ثم قال المفسرون
 فيه أقوالاً كثيرة :

(١) قال ابن عباس : لا تشهد إلا بما رأت عينك وسمعت أذنك ووعاه قلبك .

(ب) قال قتادة : لا تفل سمعت ولم تسمع ، ولا رأيت ولم تر ، ولا علمت ولم تعلم .
 (ح) وقيل المراد النهي عن القول بلا علم بل بالظن والتوهم كما قال :
 « اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » وفي الحديث « إياكم والظن فإن
 الظن أكذب الحديث » وفي سنن أبي داود « بنس مطية الرجل زعموا » إلا ما قام
 الدليل على جواز العمل به إن لم يوجد دليل من كتاب أو سنة كما رخص النبي
 صلى الله عليه وسلم في ذلك لمعاذ حين بعثه قاضيا في اليمن إذ قال له « بهم تقضى ، قال :
 بكتاب الله ، قال فإن لم تجد قال فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال فإن لم تجد
 قال أجتهد رأبي » .

(د) وقيل المراد نهى المشركين عن اعتقاداتهم تقليدا للأسلافهم واتباعا للهوى
 كما قال : « إِنَّ هِيَ إِلَّا الْأَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن
 سُلْطَانٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ » .
 ثم ذكر سبحانه تعليلا لذلك النهي فقال :

(إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) أى إن الله سائل
 هذه الأعضاء عما فعل صاحبها كما قال « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ
 وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وفي الخبر عن شكل بن حميد قال : « أتيت النبي
 صلى الله عليه وسلم فقلت يا نبي الله علمني تعويذا أتعوذ به فأخذ بيدي ثم قال : قل
 أعوذ بك من شر سمعى وشر بصرى وشر قلبى وشر مني » (يريد الزنا) .

(٢) (ولا تمش في الأرض مرحا) أى ولا تمش متبخترا متايلا كمشى
 الجبارين ، فتمتلك الأرض التي لا تقدر على خرقها بدوسك وشدة وطئك لها ،
 وفوقك الجبال التي لا تقدر على الوصول إليها ، فأنت محوط بنوعين من الجماد أنت
 أضعف منهما ، والضعيف المحصور لا يليق به التكبر ، ولقد أحسن من قال :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا فكم تحتها قوم هم منك أرفع
 وإن كنت في عز وحرز ومنعة فكم مات من قوم هم منك أضعف

وخلاصة ذلك — تواضع ولا تتكبر فإنك مخلوق ضعيف محصور بين حجارة وتراب ، فلا تفعل فعل القوى المقتدر . ولا يخفى ما فى الآية من التقرير والتهكم والزجر لمن اعتاد ذلك .

ثم علل هذا النهى بقوله :

(إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا) أى لن تحرق الأرض بدوسك وشدة وطأتك ، ولن تبلغ الجبال التى هى بعض أجزاء الأرض فى الطول حتى يمكنك أن تتكبر عليها ، فالتكبر إنما يكون بالقوة وعظم الجثة وكلاهما غير موجود لديك ، فما الحامل لك على ما أنت فيه وأنت أحقر من كل من الجمادين ؟ وكيف يليق بك الكبر ؟

(كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها) أى كل الذى ذكر من الخصال أثناء الأوامر والنواهي وهى الخمس والعشرون السانفة كان سيئه وهو ما نهى عنه منها من الجعل مع الله إلهاً آخر وعبادة غيره والتأفف والتبذير وغل اليد وقتل الأولاد خشية الأملاق — مكروها عند ربك أى مبعوضا عنده وإن كان مراد الله تعالى بالإرادة التكوينية كما قال صلى الله عليه وسلم « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » وهذه الإرادة لا تستدعى الرضا منه سبحانه .

وفى وصف هذه الأشياء بالكراهة مع أن أكثرها من الكبائر — إيماء إلى أن الكراهة عنده تعالى تكفى فى وجوب الكف عن ذلك .

ثم بين وجوب امتثال تلك الأوامر وترك تلك النواهي فقال :

(ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة) أى هذا الذى أمرناك به من الأخلاق الجميلة ونهينناك عنه من الرذائل مما أوحينا إليك من فقه الدين ومعرفة أسرارها ومن الحكم فى تشريعها .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما أن التوراة كلها فى خمس عشرة آية من بنى إسرائيل ثم تلا (لا تجعل مع الله إلهاً آخر) الآية .

(ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا) كرر هذا مع ما سلف للتنبيه إلى أن التوحيد رأس الدين ورأس الحكمة وهو مبدأ الأمر ومنتهاه، وقد رتب عليه أولا آثار الشرك في الدنيا فقال: فتتعد مذموما مخذولا ، ورتب عليه هنا نتيجة في العقبى فقال: فتلقى في جهنم ملوما مدحورا أى ملوما من جهة نفسك ومن جهة غيرك ، ومبعدا من رحمة الله تعالى .

وأنت قد علمت فيما تقدم لك أن مثل هذا الخطاب إما موجه إلى الإنسان عامة ، وإما إلى الرسول خاصة والمراد أمته والكلام من وادى قولهم (إياك أعنى واسمعى يا جاره) .

أَفَاصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ خَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) .

شرح المفردات

الإصفا بالشئ : جعله خالصا له ، وصرفنا : أى بينا ، ليذكروا : أى يتدبروا ويتعظوا ، والنفور: البعد من الشئ ، وابتغاء الشئ : طلبه ، والسبيل : الطريق ، والفقه : الفهم .

المعنى الجملى

بعد أن نبه سبحانه إلى جهل من أثبتوا له شريكاً واتخذوا له ندّاً ونظيراً —
 قفى على ذلك بالتنديد والتقريع لمن أثبتوا له ولداً ، وأنه قد بلغ من قبحهم أن جعلوا
 البنين لأنفسهم مع علمهم بعجزهم ونقصهم ، وأعطوا لله البنات مع علمهم بأنه
 الموصوف بالكمال الذى لا نهاية له ، والجلال الذى لا غاية له — ثم أتبعه ببيان أنه
 قد ضرب فى القرآن الأمثال ليتدبروا ويتأملوا فيها ، ولكن ذلك ما زادهم
 إلا نفورا عن الحق وقلة طمأنينة إليه ، ثم أردفه ببيان أنه لو كانت هذه الأصنام
 كما تقولون من أنها تقربكم إلى الله زلفى ، لطلبت لأنفسها قربة إلى الله
 وسبيلا إليه ، ولكنها لم تفعل ذلك ، وكيف تقربكم إليه وكل ما فى السموات
 والأرض يسبح بحمده بدلالة أحواله على توحيده وتقديسه وكمال قدرته ، ولكنكم
 لجهلكم وغفلتكم لا تدركون دلالة تلك الدلائل .

الإيضاح

(أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً؟) أى أنفصم ربكم بالذكور
 من الأولاد واتخذ من الملائكة إناثاً وأنتم لاترضونهن لأنفسكم بل تكدونهن وتقتلونهن
 فتجعلون له ما لاترضون لأنفسكم .

وخلاصة ذلك — إنهم جعلوا الملائكة إناثاً ، ثم ادعوا أنهن بنات الله ثم
 عبدوهن ، فأخطوا فى الأمور الثلاثة خطأ عظيماً ، ومن ثم قال :

(إنكم لتقولون قولاً عظيماً) فتفترون على الله الكذب وتنسبون إليه ما تستحقون
 عليه الإثم والعذاب ، وتخزقون قضايا العقول ، فتجعلون أشرف خلق الله الذين منهم
 من يقدر على جعل على الأرض سافلها إناثاً غاية فى الرخاوة .

ونحو الآية قوله « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ
 السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ

وَلَدَا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا .

ولما كان هذا الكلام غاية في الوضوح والبيان ، ولا يخفى فهمه على إنسان ، ثم هم بعد ذلك أعرضوا عنه نبه إلى ذلك بقوله :

(ولقد صرفنا في هذا القرآن ليدركوا وما يزيدهم إلا نفورا) أى ولقد بينا في هذا القرآن الآيات والحجج وضربنا لهم الأمثال وحذرناهم وأنذرناهم ليتذكروا ويتعظوا فيقفوا على بطلان ما يقولون — فإن التكرار يقتضى الإذعان واطمئنان النفس — وهم مع ذلك لا يعتبرون ولا يتذكرون بما يرد عليهم من الآيات والنذر بل ما يزيدهم التذكير إلا نفورا وبعدا عن الحق وهربا منه .

ثم رد على هؤلاء الذين يشركون بربهم ويتخذون الشفعاء والأنداد وندد عليهم وسفه أحلامهم فقال :

(قل لو كان مع آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذى العرش سبيلا) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين جعلوا مع الله إلهة أخرى : لو كان الأمر كما تقولون وأن مع آلهة تعبد لتقرب إليه وتشفع لديه — لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويتتغون لديه الوسيلة ، فاعبدوه وحده كما يعبد من تدعونه من دونه ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه ، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه ، بل يكرهه ويأباه ، وقد نهى عن ذلك على أسنة رسله وأنبيائه ونزه نفسه عن ذلك فقال :

(سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا) أى تنزيها لله وعلوا له عما تقولون أيها القوم من الفرية والكذب ، فهو الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

وفي الآية إيماء إلى وجود البون الشاسع بين ذاته وصفاته سبحانه ، وبين ثبوت

الصاحبة والولد والشركاء والأضداد ، للمنافاة التى لا غاية وراءها بين القديم والمحدث والغنى والمحتاج .

ثم بين سبحانه عظمة ملكه وكبير سلطانه فقال :

(تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) أى إن السموات السبع والأرض ومن فيهن من المخلوقات تنزهه وتعظمه عما يقول هؤلاء المشركون ، وتشهد له بالوحدانية فى ربوبيته وألوهته كما قال أبو نواس :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

والمكلف العاقل يسبح ربه إما بالقول كقوله : سبحان الله ، وإما بدلالة أحواله على توحيد الله وتقديسه ، وغير العاقل لا يسبح إلا بالطريق الثانى ، فهى تدل بحدوثها دلالة واضحة على وجوب وجوده تعالى ووحدانيته وقدرته وتنزهه عن الحدوث فإن الأثر يدل على مؤثره .

(وإن من شىء إلا يسبح بحمده) أى وما شىء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله أى يدل بإمكانه وحدوثه دلالة واضحة على وجوب وجوده تعالى ووحدته وقدرته وتنزهه عن لوازم الحدوث .

والخلاصة — إن كل الأكوان شاهدة بتنزهه عن مشاركته تعالى للمخلوقات فى صفاتها المحدثه .

(ولكن لا تفقهون تسبيحهم) أى ولكن لا تفهمون أيها المشركون تلك الدلالة ، لأنكم لما جعلتم مع الله آلهة فكأنكم لم تنظروا ولم تقرؤا ، إذ النظر الصحيح والتفكير الحق يؤدى إلى غير ما أتم فيه ، فأنتم إذا لم تفقهوا التسبيح ولم تستوضحوا الدلالة على الخالق .

(إنه كان حليما غفورا) فمن حلمه أن أمهلكم ولم يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وسوء جهلكم بهذا التسبيح بإشراككم بالله سواء وعبادتكم معه غيره ، ومن مغفرته لكم أنه لا يؤاخذ من تاب منكم . أخرج أحمد وابن مردويه عن ابن عمر أن النبى

صلى الله عليه وسلم قال : « إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنيه : أمر كما بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء » .

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْمِعْ أَنْ يَسْمِعُوكَ وَتَسْمِعُوكَ لِقَوْمٍ أَهْلًا مِنْكُمْ كَانُوا يَعْتَبِرُونَ (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّاعًا عَلَى آذَانِهِمْ تُفُورًا (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ، وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٤٧) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨) .

شرح المفردات

الحجاب والحجب : المنع من الوصول إلى الشيء والمراد الحاجب ، والمستور : أى الساتر كما جاء عكسه من نحو ماء دافق : أى مدفوق ، أن يفقهوه أى لئلا يفقهوه ويفهموه ، والأكنة : الأغطية واحدها كنان ، والوقر : الصمم والثقل فى الأذان المانع من السماع ، والنفور : الانزعاج ، مسحورا أى مخبول العقل ، فهو كقولهم : إن هو إلا رجل به جنه ، فضلوا : أى جاروا عن قصد السبيل .

المعنى الجملى

كان الكلام قبل هذا فى مقام الألوهية وجداهم بالتى هى أحسن ، بضرب الأمثال لهم وإقامة الحجة عليهم وإيضاح السبيل لهم - والكلام هنا فى مقام النبوة والنعى عليهم فى عدم فهمهم للقرآن والنفور منه والهزء به ، وضربهم الأمثال للنبي صلى الله عليه وسلم وقولهم فيه تارة إنه ساحر وأخرى إنه مجنون ، وحينما إنه شاعر . روى ابن عباس أن أبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبي صلى الله عليه وسلم ويستمعون إلى حديثه ، فقال النضر يوما ما أدرى ما يقول

محمد ، غير أنى أرى شفتيه تتحركان بشيء ، وقال أبو سفيان : إني لأرى بعض ما يقول حقا ، وقال أبو جهل : هو مجنون ، وقال أبو لهب : هو كاهن ، وقال حويطب بن عبد العزى هو شاعر فنزلت هذه الآية .

الإيضاح

(وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا)
 أى وإذا قرأت أيها الرسول القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدقون بالبعث ولا يقرون بالثواب والعقاب - جعلنا بينك وبينهم حجابا يمنع قلوبهم عن أن يفهموا ما تقرأه عليهم فينتفعوا به ، عقوبة منا لهم على كفرهم وتدسيتهم لأنفسهم واجتراحهم الجرائر والمعاصي التي تظلم القلوب وتضع عليها الأغشية وتستر عنها فهم حقائق القرآن ومراميه ، وأسراره وأحكامه وحكمه ، ومواعظه وعبره .

روى أنه عليه السلام كان إذا قرأ القرآن قام عن يمينه رجلان وعن يساره آخران من ولد قصي يصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار .
 ثم بين السبب في عدم فهمهم لمدارك القرآن فقال :

(وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا) أى إنه تعالى جعل في قلوبهم ما يشغلهم عن فهم القرآن وفي آذانهم ما يمنع من سماع صوته .
 وخلاصة ذلك - إنا منعناهم فقهه ، والوقوف على كنهه ، فبنت قلوبهم عن فهمه ، ومجته أسماعهم ، فهم لامتناعهم عن قبول دلائله صاروا كأنه حصل بينهم وبين تلك الدلائل حجاب ساتر .

ونسب الحجاب إلى نفسه ، لأنه خلامهم وأنفسهم ، فصارت تلك التخلية كأنها السبب في وقوعهم في تلك الحال ؛ ألا ترى أن السيد إذا لم يراقب أحوال مولاه حتى ساءت حاله ، يقول أنا الذي أوصلك إلى هذا إذ أقيت حبلك على غاربك ، ولم أراقبك عن كذب .

ونحو الآية قوله : « وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْنَةِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ » .

(وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا) أى وإذا ذكرت ربك وحده فى القرآن وأنت تتلوه ، ولم تقل واللوات والعزى انفضوا من حولك وهربوا نافرين استكبارا واستعظاما لأن يذكر الله وحده .
 (نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) أى نحن أعلم بالوجه الذى يستمعون به وهو الهزة والسخرية والتكذيب حين استماعهم ، وأعلم بما يتناجون به ويتسارون ، فبعضهم يقول مجنون ، وبعضهم يقول كاهن ، وبعضهم يقول : ما اتبعتم إلا رجلا قد سحر فاختلط عليه عقله وزال عن حد الاستواء ، وهل من خير لكم فى اتباع أمثاله الجانين .
 (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) أى تأمل وانظر أيها الرسول ، كيف مثلوا لك الأمثال وشبهوا لك الأشباه ، فقالوا هو مسحور ، وهو شاعر مجنون ، فغادوا فى كل ذلك عن سواء السبيل ، ولم يهتدوا لطريق الحق لضلالهم عنه وبعدهم منه .

وفى هذا من الوعيد وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى .

وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا؟ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ؟ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) .

شرح المفردات

الرفات : ما تكسر وبقى من كل شيء ، يكبر فى صدوركم : أى يستبعد قبوله للحياة ، فطركم : أى ذرأكم وأوجدكم ، فسينغضون إليك رؤوسهم : أى سيحرجونها

استهزاء ، يقال نفض رأسه ينفض نفضا إذا تحرك ، وأنفص رأسه : حركه كالمتعجب من الشيء ، فاستجيبون : أى تجيبون الداعى .

المعنى الجملى

اعلم أن أمهات المسائل التى دار حولها البحث فى الكتاب الكريم الإلهيات ، والنبوات ، والبعث والجزاء ، والقضاء والقدر ، وقد تكلم فيما سلف فى الإلهيات ، ثم أتبعه بذكر شبهاتهم فى النبوات وفندها بما لا مجال للرد عليه ولا لدحضه وتكذيبه ، ثم ذكر فى هذه الآيات شكوكهم فى المعاد والبعث والجزاء ، ورد عليها بما لو نظر إليه المنصف لأيقن بصدق ما يدعى وتصديق ما يقول .

الإيضاح

(وقالوا أنذا كنا عظاما ورفاتا أننا لمبعوثون خلقا جديدا ؟) أى وقال الذين لا يؤمنون باليوم الآخر من المشركين : أنذا كنا عظاما فى قبورنا لم نتحطم ولم نتكسر بعد مماتنا ، ورفاتا متكسرة مدقوقة ، أننا لمبعوثون بعد مصيرنا فيها وقد بلىنا فتكسرت عظامنا وتقطعت أوصالنا - خلقا جديدا كما كنا قبل الممات .

ومثل الآية قوله تعالى حكاية عنهم : « يَقُولُونَ أَنِنَّا لَمَرَدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ؟ أَنِنَّا كُنَّا عِظَامًا نَحْرَةً . قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ » . وقوله : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .

وقد أمر الله رسوله أن يجيبهم ويعرفهم قدرته على بعثه إياهم بعد مماتهم وإنشائه لهم كما كانوا قبل بلامم خلقا جديدا على أى حال كانوا عظاما أو رفاتا أو حجارة و حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدورهم فقال :

(قل كونوا حجارة أو حديدا. أو خلقا مما يكبر فى صدوركم) أى قل كونوا حجارة

أو حديداً أو خلقاً مما يستبعد عندكم قبوله للحياة كالسموات والأرض والجبال ، فإن الله لا يعجزه إحياءكم لتساوى الأجسام في قبولها الأعراض المختلفة ، فكيف إذا كنتم عظاماً بالية وقد كانت قبلُ حيةً ، والشئُ أقبلُ لما عهد فيه مما لم يعهد .

وخلاصة هذا - إنكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله عن الإعادة والإحياء ، وهذا كما يقول القائل للرجل : أتطمع فيّ وأنا فلان ؛ فيقول : كن ابن من شئت ، كن ابن الخليفة ، فسأطلب منك حتى .

وجملة المعنى - إن هذا مبالغة أيما مبالغة في قدرة القادر العليم على الإعادة والإحياء كما يقال لو كنت عين الحياة فالله يمتك ، ولو كنت عين الغنى فالله يفقرك . وبعد أن استبعدوا الإعادة استبعدوا صدورها وهي على هذه الحال حجارة أو حديداً من أي معيد . كما حكى عنهم بقوله :

(فسيقولنا من يعيدنا ؟ قل الذي فطركم أول مرة) أي فسيقولون لك من يعيدنا ونحن على هذه الحال ؟ قل لهم تحقيقاً للحق وإزاحة للاستبعاد وإرشاداً إلى طريق الاستدلال : الذي يفعل ذلك هو القادر العظيم الذي ذرأكم أول مرة على غير مثال يحتذى ، ولا منهاج معين ينتجى ، وكنتم تراباً لم يشم رائحة الحياة ، أليس الذي يقدر على ذلك يقدر على أن يفيض الحياة على العظام البالية ويعيدها إلى ما كانت عليه أولاً ؟ بلى إنه سبحانه على كل شيء قدير .

ثم بين جلته قدرته ما يفعلون حين سماع هذه الإجابة فقال :

(فسيفضون إليك رهوسهم) قال أبو الهيثم يقال لمن أخبر بشيء فحرك رأسه إنكاراً له : قد أنفض ، أي إنك إذا قلت لهم ذلك يحركون رهوسهم استهزاءً وتكديباً ، ثم يسألون .

(ويقولون متى هو ؟) أي متى هذا البعث ، وفي أي وقت وحال يعيدنا خلقاً

جديداً كما كنا أول مرة ، ومقصدهم من هذا السؤال استبعاد حصوله .

وفي معنى الآية قوله « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »
وقوله « يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا » .

(قل عسى أن يكون قريبا) أى فاحذروا ذلك فإنه قريب منكم سيأتكم
لا محالة ، وكل آت قريب ، وكل ما هو محقق الحصول قريب وإن طال زمانه ،
ولم يخبر به أحدا من خلقه ، لا ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ، لكن الخبر قد جاء
بقرب حدوثه كما قال « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى .

(يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده) أى ذلك يوم يدعوكم فتستجيبون له من
قبوركم بقدرته ودعائه إياكم والله الحمد فى كل حال ، وهذا كما يقول القائل فعلت هذا
بحمد الله أى والله الحمد على كل ما فعلت .

وروى عن أنس مرفوعا « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت
ولا فى القبر ولا فى الحشر ، وكأنى بأهل لا إله إلا الله قد خرجوا من قبورهم ينفضون
رءوسهم من التراب ، يقولون : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » .

(وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) أى وتظنون حين تقومون من قبوركم أنكم
ما أقمت فى دار الدنيا إلا زمنا قليلا .

ونحو الآية قوله « كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا »
وقوله « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا
يُؤْفَكُونَ » وقوله « كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ
بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِيْنَ . قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

قال الحسن : المراد تقريب وقت البعث ، فكأنك بالدنيا ولم تكن وبالآخرة
ولم تزل .

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ مِنْهُمُ الْإِنشَاءَ
الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَاءُ

يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا (٥٤) وَرَبُّكَ
أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ
وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (٥٥) .

شرح المفردات

ينزع : يفسد ويهيج الشر ، والوكيل : هو المفوض إليه الأمر ، والزبور : اسم
الكتاب الذي أنزل على داود عليه السلام .

المعنى الجملي

بعد أن أقام سبحانه الحجج على إبطال الشرك ، فقال : قل لو كان معه آلهة
كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا ، وذكر الأدلة على صحة البعث والجزاء
فقال : قل الذي فطركم أول مرة - أمر رسوله أن يأمر عباده المؤمنين بأن يحاجوا
مخالفتهم ويجادلهم باللين ولا يغلظوا لهم في القول ، ولا يشتموهم ولا يسبوه ، فإن
الكلمة الطيبة تجذب النفوس وتميل بها إلى الاقتناع كما يعلم ذلك الذين تولوا النصيح
والإرشاد من الوعاظ والساسة والزعماء في كل أمة .

ثم ذكر من الكلمة الطيبة أن يقول لهم : ربكم العليم بكم إن شاء عذبكم
وإن شاء رحمكم ، ولا يصرح بأنهم من أهل النار ، فإن ذلك مما يهيج الشرع
أن الخاتمة مجهولة لا يعلمها إلا الله سبحانه ، ثم بين لرسوله أنه لا يقسر الناس على
الإسلام ، فما عليه إلا البلاغ والإنذار والله هو العليم بمن في السموات والأرض
فيختار لنبوته من يشاء ممن يراه أهلا لذلك ، وأولئك الأنبياء ليسوا سواء في مراتب
الفضل والكمال ، وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم وأمه .

الإيضاح

(وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن) أى وقل لعبادى يقولوا فى مخاطبتهم ومحاوراتهم مع خصومهم من المشركين وغيرهم ، الكلام الأحسن للافتناع ، مع البعد عن الشتم والسب والأذى .

ونظير الآية قوله « ادعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » وقوله « وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ، روى أن الآية نزلت فى عمر بن الخطاب ، ذلك أن رجلا شتمه فسبه عمر وهم بقتله فسكادت ثبير فتنة . فأنزل الله الآية .

ثم علل ذلك بقوله :

(إن الشيطان ينزغ بينهم) أى إن الشيطان يفسد بين المؤمنين والمشركين ويهيج الشر بينهم ، فينتقل الحال من الكلام إلى الفعل ، ويقع الشر والمخاصمة ، ومن ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة . فإن الشيطان ينزغ فى يده فر بما أصابه بها ، روى أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ولا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزغ فى يده فيقع فى حفرة من النار » وروى أيضا عن رجل من بنى سليط قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى رَفْلة (جماعة) من الناس فسمعتة يقول « والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ، التقوى هاهنا ووضع يده على صدره » .

ثم بين سبب نزغ الشيطان للإنسان بقوله :

(إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا) أى إن بين الشيطان والإنسان عداوة قديمة مستحكمة كما قال تعالى حكاية عن الشيطان « مُّمَّ لَا تَبْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ » وقال « كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِّىءٌ مِنْكَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ » .

ثم فسر سبحانه التي هي أحسن بما علمهم من النصفة بقوله :
 (ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم) أي ربكم أيها القوم هو
 العليم بكم ، إن يشأ رحمتكم بتوفيقكم للايمان والعمل الصالح يرحمكم ، وإن يشأ
 يعذبكم بأن يخذلكم عن الايمان فتموتوا على شرككم .

وفي هذا إيماء إلى أنه لا ينبغي للمؤمنين أن يحتقروا المشركين ، ولا أن يقطعوا
 بأنهم من أهل النار ويعيروهم بذلك ، فإن العقابة مجهولة ، ولا يعلم الغيب إلا الله -
 إلى أن ذلك مما يجر إلى توليد الضغينة في النفوس بلا فائدة ولا داع يدعو إليها .

ثم وجه خطابه إلى أعظم الخلق ليكون من دونه أسوة له فقال :
 (وما أرسلناك عليهم وكيلا) أي وما أرسلناك أيها الرسول حفيظا ورقيبا
 تقسر الناس على ما يرضى الله ، وإنما أرسلناك بشيرا ونذيرا ، فدارهم ولا تغلظ
 عليهم ، ومر أصحابك بذلك ، فإن ذلك هو الذي يؤثر في القلوب ويستهوئ الأفتدة ،
 ثم انتقل من علمه تعالى بهم إلى علمه بجميع خلقه فقال :

(وربك أعلم بمن في السموات والأرض) وبأحوالهم الظاهرة والباطنة ، فيختار
 منهم لنبوته والفقه في دينه من يراه أهلا لذلك ويفضل بعضهم على بعض لإحاطة
 علمه وواسع قدرته . ونحو الآية قوله « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ » .

وفي هذا رد عليهم حين قالوا : يبعد كل البعد أن يكون يتيم ابن أبي طالب
 نبيا ، وأن يكون أولئك الجوع العراة كهيب وبلال وخباب وغيرهم صحابة دون
 الأكابر والصناديد من قريش .

وفي ذكر من في السموات رد لمقالم حين قالوا « لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ »
 وفي ذكر من في الأرض رد لمقالم حين قالوا « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ
 مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ » .

(ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) بما لهم من الفضائل النفسية ، والمزايا
 القدسية ، وإنزال الكتب السماوية ، فخصنا كلا منهم بفضيلة ومزية ، ففضلنا

إبراهيم باتخاذ خليلا ، وموسى بالتكليم ، ومحمدا بالقرآن الذي أعجز البشر والإسراء والمعراج .

ونحو الآية قوله « نِلِكَ الرُّسُلُ فَضَلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ » ولا خلاف في أن أولى العزم منهم وهم الخمسة الذين ذكروا في سورة الأحزاب في قوله « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » أفضل من بقيتهم ، ولا خلاف في أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضلهم ، ثم إبراهيم فموسى فعيسى عليهم السلام .

(وآتينا داود زبورا) أى إن تفضيل داود لم يكن بالملك ، بل كان بما آتاه الله من الكتاب ، وأفرده بالذكر لأنه كتب في الزبور أن محمدا خاتم الأنبياء ، وأن أمته خير الأمم كما قال تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » وهم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته .

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ، وَآتَيْنَا مُوَدَّ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ، وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩)

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ، وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً
لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ، وَنُحْوِفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا
كَبِيرًا (٦٠) .

شرح المفردات

الزعم : (بتثليث الزاي) القول المشكوك في صدقه ، وقد يستعمل بمعنى الكذب
حتى قال ابن عباس : كل موضع في كتاب الله ورد فيه (زعم) فهو كذب ،
لا يملكون : أى لا يستطيعون كشف الضر : إزالته أو تحويله عنكم إلى غيركم ،
يدعون : أى ينادون ، الوسيلة : القربة بالطاعة والعبادة ، محذورا : أى يحذره
ويحترس منه كل أحد ، في الكتاب : أى في اللوح المحفوظ ، والآيات : هى
ما اقترحتة قريش من جعل الصفا ذهباً ، ومبصرة : أى ذات بصيرة لمن يتأملها
ويتفكر فيها فظلموا بها : أى فكفروا بها وجحدوا ، أحاط بالناس : أى أحاطت
بهم قدرته فلا يستطيعون إيصال الأذى إليك إلا بإذننا ، والرؤيا هى ما عينه صلى الله
عليه وسلم ليلة أسرى به من العجائب ، والشجرة : هى شجرة الزقوم ، والطغيان :
تجاوز الحد في الفجور والضلال .

المعنى الجملى

هذه الآيات عود على بدء في تسفيه آراء المشركين الذين كانوا يعبدون الملائكة
والجن والمسيح وعزيراً ، إذ رد عليهم بأن من تدعونهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة
ويخافون عذابه ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، فادعوني وحدى لأنى أنا المالك
لنفعكم وضرهم دونهم ؛ ثم بين أن قري الكافرين صائرة إما إلى الفناء والمهلك بعذاب
الاستئصال ، وإما بعذاب دون ذلك من قتل كبرائها وتسليط المسلمين عليهم بالسبي

واغتنام الأموال وأخذ الجزية ؛ ثم أردف ذلك ببيان أنه ما منعه من إرسال الآيات التي طلب مثلها الأولون كقولهم : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا الخ إلا أنه لو جاء بها ولم يؤمنوا لأصابهم عذاب الاستئصال كما أصاب من قبلهم ، أو لم ينظروا إلى ما أصاب ثمود حين كذبوا بآيات ربهم وعقروا الناقة ، ثم قفى على ذلك بأن الله حافظه من قومه وأنه سينصره ويؤيده ، ثم أتبع ذلك بأن أمر الإسراء كان فتنة للناس وامتحانا لإيمانهم ، كما كان ذكر شجرة الزقوم في قوله : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ » ثم تلا هذا بذكر تماديهم في العناد وأنه كلما خونهم وأنذرتهم ازدادوا تماديا وطغيانا ، فلو أنزل عليهم الآيات التي اقترحوها لم ينتفعوا بها ، ومن ثم أجل عذابهم إلى يوم الوقت المعلوم .

الإيضاح

(قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا)
 أي قل أيها الرسول لمشركي قومك الذين يعبدون من دون الله من خلقه : ادعوا أيها القوم الذين زعمتم أنهم أرباب وآلهة من دونه حين ينزل الضر بكم من فقر ومرض ونحوهما ، وانظروا هل يقدرون على دفع ذلك عنكم أو تحويله عنكم إلى غيركم؟ إنهم لا يقدرون على دفع شيء من ذلك ولا يملكونه ، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم ، روى أنه لما ابتليت قريش بالقحط وشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل الله هذه الآية . . .

(أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) أي هؤلاء الذين يدعواهم المشركون أربابا وينادونهم لكشف الضر عنهم - يطلبون مجتهدين إلى ربهم ومالك أمرهم القرب إليه بالطاعة والقربة. أخرج الترمذى وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلوا الله لي الوسيلة ، قالوا وما الوسيلة؟ قال القرب من الله؟ ثم قرأ هذه الآية » .

(أيهم أقرب) أى إن أقرب أولئك المعبودين إلى الله يدعوه يبتغى إليه الوسيلة والقرب منه ، وإذا كان العجز عن كشف الضر عنكم والافتقار إلى ربكم شأن أعلام وأدنام ، فكيف تعبدونهم ؟ .

(ويرجون رحمته ويخافون عذابه) أى ويرجون بأفعالهم للطاعة رحمته ويخافون بمخالفة أمره عذابه .

ثم ذكر العلة في خوفهم من العذاب فقال :

(إن عذاب ربك كان محذورا) أى عذابه حقيق بأن يحذره كل أحد من الملائكة والأنبياء فضلا عن سواهما .

ثم ذكر مآل الدنيا وأهلها فقال :

(وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا) أى وما من قرية من القرى التى ظلم أهلها بالكفر والمعاصى إلا نحن مهلكو أهلها بالفناء ومبيدوهم بالاستئصال قبل يوم القيامة ، أو معذبوها ببلاء من قتل بالسيف أو غير ذلك من صنوف العذاب ، بسبب ذنوبهم وخطاياهم كما قال سبحانه عن الأمم الماضية : « وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » وقال : « فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا » وقال : « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ » الآية .

(كان ذلك فى الكتاب مسطورا) أى كان ذلك مثبتا فى علم الله أو فى اللوح المحفوظ . عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له اكتب ، فقال ما أكتب ؟ قال اكتب المقدر وما هو كأئن إلى يوم القيامة » أخرجه الترمذى .

وكان كفار قريش يقولون يا محمد : إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء منهم من سخرت له الريح ، ومنهم من كان يحبى الموتى ، فإن سرك أن تؤمن بك ونصدقك فادع ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ، فأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله :

(وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) أى إنه تعالى لو أظهر تلك المعجزات القاهرة ثم لم يؤمنوا بها بل بقوا مصرين على كفرهم لاستحقوا عذاب الاستئصال كما هي سنتنا فى الأمم السالفة ، لكن هذا العذاب على هذه الأمة لا يكون ، لأن الله يعلم أن فيهم من سيؤمنون أو يؤمن أولادهم ، فلم يجبهم إلى ما طلبوا ولم يظهر لهم تلك المعجزات .

وإخلاصة — إنه ما منعنا من إرسال الآية التى سألوها إلا تكذيب الأولين بمثلها ، فإن أرسلناها وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هو سنة الله فى عباده .
 روى أحمد عن ابن عباس قال : «سأل أهل مكة النبى صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا ، وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا ، فقيل له إن شئت أن نستأنى بهم ، وإن شئت أن يأتيهم الذى سألو ، فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم من الأمم ، قال بل نستأنى بهم وأنزل الله (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) الآية » .

وأخرج البيهقى فى الدلائل عن الربيع بن أنس قال : قال الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم «لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبيون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن شئتم دعوت الله فأنزلها عليكم ، فإن عصيتم هلكتم فقالوا لا نريدها» .
 ثم بين أن الآيات التى التمسوها هى مثل آية ثمود وقد أوتوها واضحة بينة فكفروا بها فاستحقوا العذاب ، فكيف يتمنى مثلها هؤلاء على سبيل الاقتراح كما قال :

(وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) أى وقد سألت ثمود من قبل قومك الآيات فآتيناهما ما سألت وجعلنا لها الناقة حجة واضحة دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله الذى أجيب دعاؤه فيها ، فكفروا بها ومنعوا شربها وقتلوا ، فأبادهم الله وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

(وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) أى إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون فيرجعوا .

ذكر المؤرخون أن الكوفة رُجفت (زلزلت) في عهد ابن مسعود فقال: أيها الناس إن ربكم يستعجبكم فأعتبوه، وروى أن المدينة زلزلت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات فقال عمر: أحدثتم والله، لئن عادت لأعلنن ولأعلنن، وفي الحديث الصحيح «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره» - ثم قال: يا أمة محمد والله ما أحد أعير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا»

ثم قال سبحانه محضر رسوله على إبلاغ رسالته ونخبها له بأنه قد عصمه من الناس. (وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس) أي واذا ذكر إذ أوحينا إليك أن ربك هو القادر على عباده وهم في قبضته وتحت قهره وغلبته، فلا يقدر على أمر إلا بقضائه وقدره، وقد عصمك من أعدائك، فلا يقدر على إيصال الأذى إليك كما قال: «وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» .

وخلاصة ذلك - إن الله ناصرك ومؤيدك حتى تبلغ رسالته وتظهر دينه . قال الحسن: حال بينهم وبين أن يقتلوه، ويؤيد هذا قوله تعالى: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ» .

(وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) أي وما جعلنا الرؤيا التي أريتها ليلة الإسراء إلا امتحانا واختبارا للناس فأنكرها قوم وكذبوا بها وكفر كثير ممن كان آمن به، وازداد المخلصون إيماناً .

روى البخاري في التفسير عن ابن عباس إنها رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء، وهو قول سعيد بن جبير ومسروق وقتادة، والعرب تقول رأيت به معنى رؤية ورؤيا .

(والشجرة الملعونة في القرآن) أي وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس، فإنهم حين سمعوا: «إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ، طَعَامُ الْأَثِيمِ» اختلفوا فقوم ازدادوا

إيماناً ، وقوم ازدادوا كفراً كأبي جهل قال : إن ابن أبي كبشة (يعنى النبي صلى الله عليه وسلم) توعدكم بنار تحرق الحجارة ، ثم يزعم أنها تنبت شجرة وتعلمون أن النار تحرق الشجر ، وقال عبد الله بن الزُّبَيْرِ : إن محمداً يخوفنا بالزقوم وما الزقوم إلا التمر والزُّبْدُ ، فنزقوا منه ، وجعل يأكل من هذا بهذا .

وقد فات هؤلاء أن في الدنيا أشياء كثيرة لا تحرقها النار ، فهناك نوع من الحرير يسمى بالحرير الصخري لا تؤثر فيه النار ، بل هو يزداد إذا لامس النار نظافة ، ومن ثم يلبسه رجال المطافئ في الدول المتمدينة .

وكم في الأرض من عجائب ، وكم في العوالم الأخرى من مثاها ، فالأرض مملوءة نارا ، وما خالص من النار إلا قشرتها التي نعيش عليها ، وما من شجر أو حجر إلا وفيه نار ، والماء نفسه مادة نارية فنحو $\frac{1}{4}$ منه أكسوجين وهو مادة تشتعل سريعاً ، والتسع أدروجين ، فأرضنا نار وماؤنا نار وأشجارنا وأحجارنا مليئة بالنار وهذا العالم الذي نسكنه تتخلله النار .

والخلاصة — إن هؤلاء المشركين فتنوا بالرؤيا وفتنوا بالشجرة .

وقد وصفت هذه الشجرة بكونها ملعونة ولا ذنب لها ، لعن الكفار الذين يأكلونها ، توسعا في الاستعمال وهو كثير في كلام العرب .

(ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً) أى ونخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة ، فما يزيدهم التخويف إلا تمادياً في الطغيان والضلال ، فلو أننا أنزلنا عليهم الآيات التي اقترحوها لم يزدادوا بها إلا تمرداً وعناداً واستكباراً في الأرض ، وفعل بهم ما فعل بأمثالهم من الأمم الغابرة من عذاب الاستئصال ، لكن قد سبقت كلمتنا بتأخير العذاب عنهم إلى حلول الطامة الكبرى .

والكلام مسوق لتسليته صلى الله عليه وسلم عما عسى يعتريه من عدم الإجابة إلى إنزال الآيات المقترحة لمخالفتها للحكمة ، من الحزن لظعن الكفار إذربما يقولون لو كنت رسولا حقاً لأتيت بمثل هذه المعجزات التي أتى بها من قبلك من الأنبياء .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ، قَالَ
 أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ
 أُخْرَتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِيكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ اذْهَبْ
 فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزَزَ مَنْ
 اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْتِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْتَهُمْ فِي
 الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ
 عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥) .

شرح المفردات

أرأيتك : أى أخبرنى ، هذا الذى كرّمت على : أى أهذا الذى كرّمته على .
 قاله احتقارا واستصغارا لشأنه ، لأحتنكنّ من قولهم حنك الدابة واحتنكها: إذا جعل
 فى حنكها الأسفل جبلا يقودها به ، كأنه يملكهم كما يملك الفارس فرسه بلجامه ،
 اذهب : أى امض لشأنك فقد خلقتك وماسوات لك نفسك ، وموفورا: أى مكملًا
 لا يدخر منه شيء من قولهم فرّ لصاحبك عرضه فرّة: أى أكمله له قال :
 ومن يحمل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
 ويقال أفرّه الخوف واستغزه : أى أزعجه واستخفه ، بصوتك : أى بدعائك
 إلى معصية الله ، وأجلب عليهم : أى صح عليهم من الجلبة وهى الصياح ، ويقال
 أجلب على العدو إجلابا إذا جمع عليه الخيول (والخيل هنا الفرسان) كما جاء فى قوله
 صلى الله عليه وسلم فى بعض غزواته لأصحابه « يا خيل الله اركبى » والرّجل : واحده راجل
 كركب وراكب ، والغرور : تزيين الباطل بما يظن أنه حق ، والوكيل : الحافظ والرقيب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان فى محنة من قومه إذ كذبوه وتوعده حين حدثهم بالإسراء وشجرة الزقوم، وأنهم نازعوه وعاندوه واقتروا عليه الآيات حسدا على ما آتاه الله من النبوة، وكبرا عن أن ينقادوا إلى الحق - بين أن هذا ليس ببدع من قومك، فقد لاقى كثير من الأنبياء من أهل زمانهم مثل ما لاقيت؛ ألا ترى أن آدم عليه السلام كان فى محنة شديدة من إبليس، وأن الكبر والحسد هما اللذان حملاه على الخروج من الإيمان والدخول فى الكفر؛ والحسد بلية قديمة ومحنة عظيمة للخلق.

الإيضاح

ذكر سبحانه قصص آدم فى سبع سور: البقرة. الأعراف. الحجر. الإسراء. الكهف. طه. ص. وقد تقدم الكلام فيها فيما سلف من تلك السور؛ وهانحن أولاء نفسرها فى هذه السورة.

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أسجد لمن خلقت طينا؟) أى واذكر أيها الرسول لقومك عداوة إبليس لآدم وذريته، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له افتخارا عليه واحتقارا له وقال أسجد لمن خلقت من الطين وأنا مخلوق من النار كما جاء فى الآية الأخرى: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» فكفر بنسبة ربه إلى الجور بتخليه أنه أفضل من آدم من قبل أن الفروع ترجع إلى الأصول، وأن النار التى هى أصله أكرم من الطين الذى هو أصل آدم، وقد فاتته أن الطين أنفع من النار؛ ولئن سلم غير هذا فالأجسام كلها من جنس واحد، والله هو الذى أوجدها من العدم، ويفضل بعضها على بعض بما يحدث فيها من الأعراض.

و (قال) أيضا لربه جرأة وكفرا والرب يحلم وينظر .

(أرايتك هذا الذي كرمت على ؟) أى أخبرنى أهذا الذى كرمته على ؟ وهل

يوجد ما يدعو إلى تفضيله على ، وهذا كلام قاله على وجه التعجب والإنكار .

(لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا) أى لئن أنظرتنى

لأضلن ذريته إلا قليلا منهم ، وهذا القليل هم الذين عناهم الله بقوله : « إِنَّ عِبَادِي

لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » .

ولعل إبليس حكم هذا الحكم على ذرية آدم إما بالسماع من الملائكة حين قالوا

« أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ »

أو بالقياس على ما رأى من آدم حين وسوس له فلم يجد له عزما .

ثم ذكر سبحانه أنه أجابه إلى النظرة وأخره إلى يوم الوقت المعلوم .

(قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا) أى قال له

سبحانه : امض لشأنك الذى اخترته ، ولما سولته لك نفسك ، وقد أخرجتك ، وهذا

كما تقول لمن يخالفك : افعلى ما تريد .

فمن أطاعك من ذرية آدم وضل عن الحق ، فإن جزاءك على دعائك إياهم ،

وجزاءهم على اتباعهم لك وخلافهم أمرى جزاء موفور لا ينقص لكم منه شيء ،

بما تستحقون من سيء الأعمال ، وما دنستم به أنفسكم من قبيح الأفعال .

ونحو الآية قوله : « فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ . إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ » .

(واستغزز من استطعت منهم بصوتك) أى قال تعالى مهدداله : استخف

وأزعج بدعائك إلى معصية الله ، ووسوستك من استطعت من ذرية آدم .

(وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) أى واجمع عليهم من ركبان جنلك ومشاتهم

من تجلب بالدعاء إلى طاعتك والصراف عن طاعتى ، ومثل هذا الأسلوب يراد به

التشهير فى الأمر والجد فيه والتسلط على من يغويه ، وكأن فارسا مغوارا وقع

على قوم فصوت بهم صوتا مزججا من أما كنهم ، وأجلب عليهم بجند من خيالة ورجالة حتى استأصلهم .

قال مجاهد : ما كان من راكب يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس ، وما كان من راجل في معصية الله فهو من رجالة إبليس . وقال آخرون : ليس للشيطان خيل ولا رجالة ، وإنما يراد بهما الأتباع والأعوان من غير ملاحظة لكون بعضهم ماشيا وبعضهم راكبا .

(وشاركهم في الأموال) بحثهم على كسبها من غير السبل المشروعة وإنفاقها في غير الطرق التي أباحها الدين ، ويشمل ذلك الربا والغصب والسرقة وسائر المعاملات الفاسدة .

قال الحسن : مرهم أن يكسبوها من خبيث وينفقوها في حرام .
(والأولاد) بالحث على التوصل إليهم بالأسباب المحرمة وارتكاب ما لا يرضى الله .
وإجمال القول فيه — إن كل مولود ولدته أثنى عصى الله فيه بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه ، أو بالزنا بأمه أو بواده أو بقتله أو غير ذلك فقد شارك إبليس فيه من ولد ذلك الولد له أو منه .

(وعدهم) بما يستخفهم ويفرهم من المواعيد الباطلة ، كوعدهم بأن لاجنة ولانار أو بأن الآلهة تشفع لهم ، أو بالكرامة على الله بالأنساب الشريفة ، مع ما ثبت من قوله صلى الله عليه وسلم « يا فاطمة بنت محمد سليني من مالى ما شئت لأغنى عنك من الله شيئا » أو بالتسويق في التوبة ، أو بإيثار العاجل على الآجل أو نحو ذلك .
وخلاصة ذلك — إنه يغويهم بأن لا ضرر من فعل هذه المعاصي ، فإنه لاجنة ولانار ، ولا حياة بعد هذه الحياة ، وإنما سبيل اللذة والسرور ، ولا حياة للإنسان إلا بها ، فتفويتها غبن وخسران .

خذوا بنصيب من سرور ولذة فكل وإن طال المدى يتصرم

وينفرهم من الطاعة بأن لا فائدة فيها ، إذ لا رجعة بعد هذه الحياة ، فهي عبث محض ، فهذه بعض تلبيسات الشيطان وهذه خدعه .

(وما يعدم الشيطان إلا غرورا) لأنه لا يفتنى عنهم من عقاب الله شيئا إذا نزل بهم ، فواعيده خدعة وباطل يزيناها لهم ويلبسها ثوب الحق ، كما قال إبليس إذ حصحص الحق يوم يقضى ربك بالحق : « إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ » .

(إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) أى إن عبادي الذين أطاعوني فاتبعوا أمرى وعصوك ، ليس لك عليهم تسلط ، فلا تقدر أن تقويهم وتحملهم على ذنب لا يغفر ، فإنى قد وفقهم بالتوكل على ، فكفيتهم أمرك .

(وكفى بربك وكيلا) فهم يتوكلون عليه ويستمدون منه العون فى الخلاص من إغوائك ووسوستك .

وفى الآية إيماء إلى أن الإنسان لا يمكنه أن يحترز بنفسه من مواقع الضلال ، وإنما المعصوم من عصمه الله .

رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغَرِّقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا

لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا
تَفْضِيلًا (٧٠) .

شرح المفردات

يزجى: أى يسوق حيناً بعد حين؛ والمراد أنه يجريه، وفضله: هو رزقه، والمراد
بالضر: خوف الفرق بتقاذف الأمواج، وضل: غاب عن ذكركم، والخسف والخسوف:
دخول الشيء فى الشيء؛ يقال عين خاسفة إذا غابت حدقتها فى الرأس، وعين من
الماء خاسفة: أى غائرة الماء، وخسفت الشمس: أى احتجبت، وكأنها غارت
فى السحاب، والحاصب: الريح التى ترمى بالحصباء والحجارة، والقاصف: الريح
تقصف الشجر وتكسره، والتبيع: النصير والمعين، وحملته على فرس: أى أعطيته
إياها ليركبها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى الآية السالفة أنه هو الحافظ الكالى للعبد المؤمن من غواية
إبليس، وأنه لا يستطيع أن يمسه بسوء — قفى على ذلك بذكر بعض نعمه تعالى
على الإنسان التى كان يجب عليه أن يقابلها بالشكران لا بالكفران، وهو الذى
يرى دلائل قدرته فى البر والبحر، فهو الذى يزجى له الفلك فى البحر لتنتقل له
أرزاقه وأقواته من بعيد المسافات، لكنه مع هذا هو كفور للنعمة إذا مسه الضر
دعا ربه، وإذا أمن أعرض عنه وعبد الأصنام والأوثان، فهل يأمن أن يخسف به
الأرض، أو يرسل عليه حاصبا من الريح فى البر، أو قاصفا من الريح فى البحر فيفرقه
بكفره، وهل نسى أنه فضله على جميع الخلق، وبسط له الرزق، أفلا يفرد بالعبادة
ويخبت له كفاء تلك النعم المتظاهرة عليه؟

الإيضاح

(ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيمًا)
 أى إن ربكم أيها القوم هو القادر الحكيم الذي يجرى لكم لنفعمكم السفن في البحر
 بالريح اللينة أو بالآلات البخارية أو الكهربية لتسهيل نقل أقتاتكم وحاجكم من إقليم
 إلى آخر من أقصى المعمورة إلى أذناها ، والعكس بالعكس ، ونقل أشخاصكم من
 قطر إلى قطر ابتغاء للرزق أو للسياحة ورؤية مظاهر الكون على اختلاف الأصقاع
 مما يرشد إلى باهر القدرة ، ووافر النعمة عليكم إنه كان بكم رحيمًا ، إذ سهل ما فيه
 الفوائد المرجوة لكم في هذه الحياة .

ثم خاطب الكفار بقوله :

(وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه) أى وإذا نالتكم الشدة
 والجهد في البحر ذهب عن خواطركم كل من تدعونه وترجون نفعه من صنم أو جن
 أو ملك أو بشر أو حجر فلا تذكرون إلا الله ، ولا يخطر على بالكم سواه لكشف
 ما حل بكم .

وخلاصة ذلك — إنكم إذا مسكم الضر دعوتم الله منيبين إليه مخلصين
 له الدين .

(فلما نجاكم إلى البر أعرضتم) أى ومن عجيب أمركم أنكم حين دعوتموه
 وأغاثكم وأجاب دعاءكم ونجاكم من هول ما كنتم فيه في البحر أعرضتم عن الإخلاص
 ورجعتم إلى الإشراف به كفرا منكم بنعمته .

ثم عائل هذا الإعراض بقوله :

(وكان الإنسان كفورا) أى وكانت سجية الإنسان وطبيعته أن ينسى النعم
 ويحجدها إلا من عصم الله .

وخلاصة ما سلف — إنهم حين الشدائد يتمسكون برحمة الله ، وحين الرخاء

يعرضون عنه .

ثم حذر من كفران نعمته فقال :

(أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم
وكيلا؟) أى أغسبتم أنكم بخروجكم إلى البر أمنتم من انتقام الله وعذابه ، فهو إن
شاء خسف بكم جانب البر وغيبه فى أعماق الأرض وأتم عليه ، وإن شاء أمطر
عليكم حجارة من السماء تقتلكم كما فعل بقوم لوط ، ثم لا تجدوا لكم وكيلا
تكلون إليه أموركم فيحفظكم من ذلك أو يصرفه عنكم غيره ، جل وعلا .

وخلاصة ذلك — إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف أصابكم من فوقكم
بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء يرجمكم بها ، فيكون أشد عليكم من الفرق فى البحر .
(أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيفرقكم
بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) أى أم أمنتم أيها المعرضون عنا بعد
ما اعترفتم بتوحيدنا فى البحر حتى خرجتم إلى البر — أن يعيدكم فيه مرة أخرى
فيرسل عليكم ريحا تقصف السوارى وتفرق المراكب بسبب كفركم وإعراضكم عن
الله ، ثم لا تجدوا لكم نصيرا يعينكم ويأخذ بثأركم .

قال قتادة : أى لا يخاف أحدا يتبعنا بشيء مما فعلنا ، يريد . إنكم لا تجدون
ثأرا يطلبنا بما فعلنا انتصارا منا أو دركا للثأر من جهتنا ، وفى معنى الآية قوله :
« فَسَوَّاهَا وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا » .

وفى الآية وعيد أيما وعيد فكأنه قيل : ننتقم منكم من غير أن يكون لكم
نصير يدفع عنكم شديد بأسنا .

(ولقد كرمتنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم
على كثير ممن خلقنا تفضيلا) أى ولقد كرمتنا بنى آدم بحسن الصورة واعتدال القامة
والعقل ، فاهتدى إلى الصناعات ومعرفة اللغات وحسن التفكير فى وسائل المعاش
والتسلط على ما فى الأرض وتسخير ما فى العالم العلوى والسفلى ، وحملناهم على الدواب
والقطر والطائرات والمطاود (واحد ما منطاد) والسفن ، ورزقناهم من الأغذية النباتية
والحيوانية ، وفضلناهم على كثير من الخلق بالغلبة والشرف والكرامة ، فعليهم

ألا يشركوا ربهم شيئاً ، ويرفضوا ما هم عليه من عبادة غيره من الأصنام والأوثان .
والمراد بالكثير من عدا الملائكة عليهم السلام .

والخلاصة — إن في الآية حثاً للإنسان على الشكر ، وألا يشرك بربه
أحدًا ، لأنه سخر له ما في البر والبحر وكلاًه بحسن رعايته ، وهداه إلى صنعة الفلك
لتجري في البحر ، ورزقه من الطيبات ، وفضله على كثير من المخلوقات .

يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ، فَمَنْ أَوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينًا فَأُولَئِكَ
يَقْرَهُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ
فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢) وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ
ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذَا لَأَذْنُكَ ضِعْفَ
الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) وَإِنْ كَادُوا
لَيَسْتَفْزِنُوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ
إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا
تَحْوِيلًا (٧٧) .

شرح المفردات

إمامهم: هو كتابهم فهو كقوله « وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ » والفتيل:
الخط المستطيل في شق النواة، وبه يضرب المثل في الشيء الحقير التافه ، ومثله النقيير
والقطمير ، أعمى: أى أعمى البصيرة عن حجة الله وبياناته ، والركون إلى الشيء: الميل
إلى ركن منه ، ضعف الحياة: أى عذاباً مضاعفاً في الحياة الدنيا ، وضعف المات: أى

عذابا مضاعفا في الممات في القبر و بعد البعث، ونصيرا: أى معيننا يدفع عنك العذاب، لا يلبثون : أى لا يبقون ، خائفك : أى بعدك ، سنة من قد أرسلنا : أى سنتنا بك سنة الرسل قبلك ، تحويلا : أى تغييرا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جل ثناؤه أحوال بنى آدم في الدنيا ، وذكر أن الله أكرمهم على كثير من خلقه ، وفضله عليهم تفضيلا — فصل في هذه الآيات تفاوت أحوالهم في الآخرة مع شرح أحوال السعداء ، ثم أردفه بما يجرى مجرى تحذير السعداء من الاغترار بوساوس أرباب الضلال والانخداع بكلامهم المشتعل على المكر والتليس ، ثم قفى على ذلك ببيان أن سنته قد جرت بأن الأمم التي تلجىء رسلها إلى الخروج من أرضها لا بد أن يصيبها الوبال والنكال .

الإيضاح

(يوم ندعو كل أناس بإمامهم) أى اذ كر لهم ذلك اليوم يوم ندعو كل أناس ومعهم كتابهم الذى فيه أعمالهم التي قدموها ، ولا ذكر للأنساب حينئذ لأنها مقطوعة فلا يقال يابن فلان ، وإنما يقال يا صاحب كذا كما قال تعالى « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ » .

والخلاصة : إن المعول عليه يومئذ الأعمال والأخلاق والآراء والعقائد النفسية التي تعرس في النفوس لا الأنساب ، لأن الأولى باقية والثانية فانية .

(فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم) أى فمن أعطى كتاب عمله بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم مبتهجين فرحين بما فيه من العمل الصالح ، ونحو الآية قوله « فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّةً » . (ولا يظلمون فتىلا) أى ولا ينقصون شيئا من أجور أعمالهم ، وقد ثبت

في علم الكيمياء أن وزن الذرات التي تدخل في كل جسم هي بنسب معينة ، فلو أن ذرة واحدة في عنصر من العناصر الداخلة في تركيب أي جسم من النبات أو الحيوان أو الجماد نقصت عن النسبة المقدرة لتكوينه لم يتكون ذلك المخلوق .

وخالق الدنيا هو خالق الآخرة ، فالظلم مستحيل هناك كما استحال هنا في نظم الطبيعة ، فما أجل قدرة الله وما أعظم حكمته في خلقه ! .

(ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) أي ومن كان في دار الدنيا أعمى القلب لا يبصر سبل الرشد ، ولا يتأمل حجج الله وبياناته التي وضعها في صحيفة الكون وأمر بالتأمل فيها — فهو في الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة ، وأضل سبيلا منه في الدنيا ، لأن الروح الباقى بعد الموت هو الروح الذي كان في هذه الحياة الدنيا ، وقد خرج من الجسم وكأنه ولد منه كما تلد المرأة الصبي ، وكما يثمر النخل الثمر والأشجار الفواكه ، وما الثمر والفواكه إلا ما كان من طباع الشجرة ، فهكذا الروح الباقى هو هذا الروح نفسه قد خرج بجميع صفاته وأخلاقه وأعماله ، فهو ينظر إلى نفسه وينفر أو ينشرح على حسب ما يرى ، وما الثمر إلا على حسب الشجر ، فإذا كان هنا ساهيا لاهيا فهناك يكون أكثر سهوا وهوا وأبعد مدى في الضلال ، لأن آلات العلم والعمل قد عطلت وبقى فيه مناقبه ومثالبه ولا قدرة على الزيادة في الأولى ولا النقص في الثانية .

وبعد أن ذكر سبحانه درجات الخلق في الآخرة وشرح أحوال السعداء ، أردفه بتحذيرهم من وساوس أرباب الضلال والخديعة بمكرهم فقال :

(وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره) أي وإن المشركين قاربوا بخداعهم أن يوقعوك في الفتنة بصرفك عما أوحيناه إليك من الأحكام ، لتقول علينا غير الذي أوحيناه إليك مما اقترح عليك .

أخرج ابن إسحق وابن مردويه وغيرها عن ابن عباس « أن أمية بن خلف وأبا جهل ورجالا من قریش أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا تعال فتمسح

بآلهتنا وندخل معك في دينك ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد عليه فراق قومه ويحب إسلامهم فرق لهم فأنزل الله هذه الآية إلى قوله نصيرا .

وعن سعيد بن جبير قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الأسود في طوافه فمنعته قریش وقالوا : لاندعك تستلم حتى تلم بآلهتنا . فحدث نفسه وقال : ما على أن ألم بها بعد أن يدعوني أستلم الحجر والله يعلم إنى لها كاره ، فأبى الله ذلك وأنزل عليه هذه الآية :

(وإذا لاتخذوك خليلا) أى ولو اتبعت ما يريدون لاتخذوك خليلا ووليا لهم وخرجت من ولايتى .

(ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا) أى ولولا تثبيتنا إياك وعصمتك عما دعوك إليه لقاربت أن تميل إلى ما يرومون .

وخلاصة ذلك — إنك كنت على أهبة الركون إليهم ، لا لضعف منك ، بل لشدة مبالغتهم في التحيل والخداع ، ولكن عنايتنا بك منعتك أن تقرب من الركون فضلا عن أن تركز إليهم .

وفى هذا تصريح بأنه صلى الله عليه وسلم لم يهم بإجابتهم ولم يقرب من ذلك . ثم توعدده على ذلك أشد الوعيد فقال :

(إذا لأذقناك ضعف الحياة و ضعف الممات) أى ولو فعلت ذلك لأذقناك ضعف عذاب الحياة و ضعف عذاب الممات أى ضاعفنا لك العذاب فى الدنيا والآخرة ، فهو صلى الله عليه وسلم لو ركن إليهم يكون عذابه ضعف عذاب غيره ، لأن الذنب من العظيم يكون عقابه أعظم ، ومن ثم يعاقب العلماء على زلاتهم أشد من عقاب العامة ، لأنهم يتبعونهم .

ونظير ذلك من وجه ما جاء فى نسائه صلى الله عليه وسلم من قوله « يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ » .

وخلاصة ذلك — إنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك ، وعقدت على

الركون همك ، لاستحقت تضعيف العذاب عليك في الدنيا والآخرة ، ولصار عذابك مثلي عذاب المشرك في الدنيا ومثلي عذابه في الآخرة .

وقد ذكروا في حكمة هذا - أن الخطير إذا ارتكب جرماً وخطأ خطيئة يكون سبباً في ارتكاب غيره مثله والاحتجاج به ، فكأنه سن ذلك ، وقد جاء في الأثر - « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

(ثم لا تجد لك علينا نصيراً) أى ثم لا تجد من يدفع العذاب أو يرفعه عنك .
 روى عن قتادة أنه قال : « لما نزل قوله : وإن كادوا ليفتنونك الخ قال صلى الله عليه وسلم : اللهم لا تكني إلى نفسى طرفة عين » فينبغى للمؤمن أن يتدبرها حين تلاوتها ، ويستشعر الخشية ، ويستمسك بأهداب دينه ويقول كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « اللهم لا تكني إلى نفسى طرفة عين » .

(وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها) أى ولقد كاد أهل مكة يزعمونك ويستخفونك بعداوتهم ومكرهم من الأرض التي أنت فيها ليخرجوك منها ، بما فعلوه من حصرك والتضييق عليك ووقع ذلك بعد نزول الآية وصار ذلك سبباً لخروجه صلى الله عليه وسلم .

(وإذا لا يلبثون خلافاً إلا قليلاً) أى ولو استفزوك فخرجت لا يبقون بعدك إلا زماناً قليلاً .

وفي هذا وعيد لهم بإهلاكهم بعد خروجه بقليل ، وقد تحقق ذلك بإفناء صناديد قريش في وقعة بدر لثمانية عشر شهراً من ذلك التاريخ .

(سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) أى هكذا عادتنا في الذين كفروا برسولنا وأذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم أن يأتيهم العذاب ، ولولا أنه صلى الله عليه وسلم رسول الرحمة لجاءهم من النقم ما لا قبل لهم به ، ومن ثم قال تعالى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » الآية .

(ولا تجد لسنتنا تحويلاً) أى إن ما أجرى الله به العادة لا يتسنى لأحد سواه أن يغيره ولا أن يحوله .

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ
 قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى
 أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ
 وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠) وَقُلْ
 جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ
 مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) وَإِذَا
 أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا
 (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَأْنِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى
 سَبِيلًا (٨٤)

شرح المفردات

دلوك الشمس : زوالها عن دائرة نصف النهار ، والغسق : شدة الظلمة ، وقرآن
 الفجر : أى صلاة الصبح ، كان مشهودا : أى تشهد شواهد القدرة وبدائع الحكمة
 وبهجة العالم العلوى والسفلى ، فمن ظلام حالك أزاله ضوء ساطع ونور باهر ، ومن
 نوم وخمود إلى يقظة وحركة وسعى إلى الأرزاق ، فسبحان الواحد الخلاق ، وهل
 هناك منظر أجمل فى نظر الرأى من ظهور ذلك النور ينفلت من خلال الظلام
 الدامس يدفعه بقوة ليضىء العالم بجماله ، ويقظة النوم وحركتهم على ظهر البسيطة
 وقد كانوا فى سكون ، فهى حياة متجددة بعد موت وغيوبة للحواس ، والتمجد :

الاستيقاظ من النوم للصلاة ، نافلة : أى فريضة زائدة على الصلوات الخمس المفروضة عليك ، والمقام المحمود : مقام الشفاعة العظمى حين فصل القضاء ، حيث لا أحد إلا وهو تحت لوائه صلى الله عليه وسلم ، والسلطان : الحجة البينة ، والنصير : الناصر والمعين ، زهق : أى زال وضمحل ، نأى بجانبه : أى لوى عطفه عن الطاعة وولاه ظهره ، وشاكلته : أى مذهبه وطريقته التى تشاكل حاله فى الهدى والضلال ، ويثوسا : أى شديد اليأس والقنوط من رحمة الله ، وأهدى سبيلا : أى أسد طريقا وأقوم منهجا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر كيد الكفار واستفزاهم لرسوله صلى الله عليه وسلم ليخرجوه من أرضه ، وسلاه بما سلاه به - أمره بالإقبال على ربه بعبادته لينصره عليهم ، وألا يبالي بسعيهم وألا يلتفت إليهم ، فإنه يدفع مكرمهم وشرهم ويجعل يده فوق أيديهم ، ودينه عاليا على أديانهم ، ثم وعده بما يغبطه عليه الخلق أجمعون من المقام المحمود ، ثم بين أن ما أنزل عليه من كتاب ربه فيه الشفاء للقلوب من الأدواء النفسية والأمراض الاعتقادية ، كما أنه يزيد الكافرين خسارة وضلالا ، لأنه كلما نزلت عليه آية ازدادوا بها كفرا وعتوا .

الإيضاح

(أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل) أى أذ الصلاة المفروضة عليك بعد دلوك الشمس وزوالها إلى ظلمة الليل ، ويشمل ذلك الصلوات الأربعة الظهر والعصر والمغرب والعشاء .

(وقرآن الفجر) أى صلاة الصبح ، وقد بينت السنة المتواترة من أقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم تفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم مما تلقوه خلفا عن سلف قرنا بعد قرن .

وقد تقدم في سورة البقرة أن المراد بإقامة الصلاة أداؤها على الوجه الذي سنه الدين ،
والنهج الذي شرطه من توجيه القلب إلى مناجاة الرب والخشية منه في السر والعلن ،
مع اشتغالها على الشرائط والأركان التي أوضحتها الأئمة المجتهدون ؛ والصلاة لب العبادة
لما فيها من مناجاة الخالق والإعراض عن كل ما سواه ودعائه وحده ، وهذا هو مخ
كل عبادة ، وفي الحديث « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

(إن قرآن الفجر كان مشهودا) أى فى الفجر تجتمع ملائكة الليل وملائكة
النهار وتشهدا جميعا ، ثم يصعد أولئك ويقيم هؤلاء ، روى أبو هريرة أن
النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار
ويجتمعون فى صلاة الصبح وفى صلاة العصر ، فيخرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم
وهو أعلم بكم ، كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون »
وروى الترمذى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله : « (وقرآن الفجر
إن قرآن الفجر كان مشهودا) قال تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار » وقد يكون
المراد كما قال الرازى- إن الانسان يشهد فيه آثار القدرة وبدائع الحكمة فى السموات
والأرض ، فهناك الظلام الخالك الذى يزيله النور الساطع ، وهناك يقظة النوم بعد
الخمود والغيوبة عن الحس إلى نحو ذلك من مظاهر القدرة فى الملك والملكوت ،
فكل العالم يقول بلسان حاله أو مقاله « سُبُوحٌ قُدُوسٌ ، رب الملائكة والروح » .

(ومن الليل فتهجد به) أى وأسهر بعض الليل وتهجد به ، وهو أول أمر له
بقيام الليل زيادة على الصلوات المفروضة . روى مسلم عن أبى هريرة « أن النبي صلى
الله عليه وسلم سئل : أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال صلاة الصبح » وقد ثبت
فى صحيح الأحاديث عن عائشة وابن عباس وغيرهما من الصحابة رضوان الله عليهم
أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتهجد بعد نومه .

(نافلة لك) أى إنها مخصوصة بك وحدك دون الأمة ، فهى فريضة عليك

ومندوبة فى حق أمتك .

(عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) أى افعل هذا الذى أمرتك ، لنقيمتك يوم القيامة مقاما يحمذك فيه كل انخلاق وخالقهم تبارك وتعالى .
قال ابن جرير : قال أكثر أهل العلم : ذلك هو المقام الذى يقومه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة للشفاعة للناس ليريمهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة في ذلك اليوم .

أخرج النسائي والحاكم وجماعة عن حذيفة رضى الله عنه قال : « يجمع الله الناس في صعيد واحد يسمعون الداعى وينفذهم البصر حفاة عراة كما خلقوا ، قياما لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فينادى يا محمد ، فيقول (لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك ، والمهدى من هديت ، وعبدك بين يديك ، وبك وإليك ، لاملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت ، سبحانك رب البيت) فهذا هو المقام المحمود الذى ذكره الله » اهـ .

وروى البخارى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته ، حلت له شفاعتى » .
وروى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا نخر ، وبيدى لواء الحمد ولا نخر ، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى » الحديث .

وسر هذا — أن الهداة فى الأرض وهم الأنبياء ومن سلك نهجهم من الأئمة والعلماء لا تشرق قلوبهم إلا بتوجههم إلى الله فى أوقات الصلوات ، فإذا قاموا للخلق داعين أشرقوا مرايا نفوسهم الصافية على من يدعونهم من العباد فتضىء نفوسهم فيستجيبون لدعوتهم ويكون لهم المقام المحمود بينهم والثناء العظيم الذى هم له أهل ، إلى أنهم يحسون فى أنفسهم سرورا ولذة وبهجة ورضا ، فيحمدون مقامهم ، كما حمدهم الناس من حولهم ، والله والملائكة من فوقهم .

لاجرم أن هذا المقام المحمود بالرشد والإرشاد يتبعه مقام الشفاعة ، إذ لشفاعة في الآخرة إلا على مقدار ما أوتى المشفوع له في الدنيا من علم وخلق ، والله في الشفاعة ما يشاء من غفران وإعلاء درجات .

(وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق) أى وقل داعيا : رب أدخلني في كل مقام تريد إدخالى فيه في الدنيا وفي الآخرة مدخلا صادقا أى يستحق الداخل فيه أن يقال له أنت صادق في قولك وفعلك ، وأخرجني من كل ما تخرجني منه مخرج صدق أى يستحق الخارج منه أن يقال له أنت صادق .

وخلاصة ذلك — أدخلني إدخالا مرضيا كإدخالى للمدينة مهاجرا ، وإدخالى مكة فاتحا وإدخالى في القبر حين الموت ، وأخرجني إخراجا محفوظا بالكرامة والرضا كإخراجى من مكة مهاجرا وإخراجى من القبر للبعث .

ثم سأل الله القوة بالحجة والتسلط على الأعداء فقال :

(واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا) أى واجعل لى تسلطا بالحجة والملك ، فأقنع المستمعين للدعوة بالحجة ، ويكون للإسلام الغلبة بالاستيلاء على أهل الكفر . وقد أجاب الله دعاءه وأعلمه أنه يعصمه من الناس كما قال : « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » وقال : « فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » وقال : « لَيْسَتْ خَلْفَتُهُمْ فِي الْأَرْضِ » .

ثم أمره أن يخبر بالإجابة بقوله :

(وقل جاء الحق وزهق الباطل) أى قل للمشركين مهددا لهم : إنه قد جاءهم الحق الذى لامرية فيه ، ولا قبل لهم به ، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع ، واضمحل باطلهم وهلك ، إذ لا ثبات له مع الحق كما قال : « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » .

(إن الباطل كان زهوقا) أى مضمحلا لا ثبات له في كل آن .

أخرج البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال : « دخل النبي صلى الله عليه وسلم

مكة يوم الفتح وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ، جاء الحق وما يبدى الباطل وما يعيد .

وفي رواية للطبراني والبيهقي عن ابن عباس « أنه صلى الله عليه وسلم جاء ومعه قضيب فجعل يهوى به إلى كل صنم منها فينخر لوجهه فيقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً - حتى مر عليها كلها » .

(ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) أى ونزل عليك أيها الرسول من القرآن ما به يستشفى من الجهل والضلالة وتزول أمراض الشدة والنفاق ، والزيف والإلحاد ، وهو أيضاً رحمة للمؤمنين الذين يعملون بما فيه من الفرائض ، ويحلون حلاله ويحرمون حرامه ، فيدخلون الجنة وينجون من العذاب ، وفي الخبر « من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله » .

(ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) لأنهم كلما سمعوا آية منه ازدادوا بعداً عن الإيمان وازدادوا كفراً بالله ، لأنه قد طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون كما قال : « قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ » وقال : « وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ » .

قال قتادة في قوله : (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة) إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه (ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) أى لا ينتفعون به ولا يحفظونه ولا يعوناه ، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين اه .

(وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه) أى وإذا أنعمنا على الإنسان عمال وعافية وفتح ونصر ونال ما يريد - أعرض عن طاعتنا وعبادتنا ونأى بجانبه ، وهذا كقوله « فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ » وقوله « فَلَمَّا نَجَّيْنَاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ » .

(وإذا مسه الشر كان يثوسا) أى وإذا أصابته الجوائح وانتابته النوائب كان يثوسا قنوطا من حصول الخير بعد ذلك ، ونحو الآية قوله « وَلَسْنَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً مِّمَّ نَزَّعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَثُوسٌ كَفُورٌ » وقوله « فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ . وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ » .

ولما ذكر حالى العُمى والمهتدين ختم القول ببيان أن كلا يسير على مذهبه فقال :
(قل كلُّ يعمل على شاكلته) أى قل إن كلا من الشاكر والكافر يعمل على طريقته وحاله فى الهدى والضلال ، وما طبع عليه من الخير والشر .

(فر بكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) أى فر بكم أعلم من كل أحد بمن منكم أوضح طريقا واتباعا للحق ، فيؤتية أجره موفورا ، ومن هو أضل سبيلا فيعاقبه بما يستحق ، لأنه يعلم ما طبع عليه الناس فى أصل الخلقة وما استعدوا له ، وغيره يعلم أمورهم بالتجربة ، وبمعنى الآية قوله « وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ، وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ » ولا يخفى ما فى الآية من تهديد شديد ووعيد المشركين .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ

الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)

شرح المفردات

في المراد من الروح في هذه الآية ثلاثة آراء :

(١) القرآن وهو المناسب لما تقدمه من قوله : « وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ » ، ولما بعده من قوله « وَلَنْ نَشِئْنَا لِنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » ولأنه سمي به في مواضع متعددة من القرآن كقوله « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا » وقوله « يُنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ » ولأن به تحصل حياة الأرواح والعقول ، إذ به تحصل معرفة الله وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، ولا حياة للأرواح إلا بمثل هذه المعارف .

(٢) جبريل عليه السلام وهو قول الحسن وقتادة ، وقد سمي جبريل في مواضع عدة من القرآن كقوله « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ » وقوله « فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا » ويؤيد هذا أنه قال في هذه الآية « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » وقال جبريل « وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ » فهم قد سألوا الرسول كيف جبريل في نفسه وكيف يقوم بتبليغ الوحي .

(٣) الروح الذي يحيا به بدن الإنسان - وهذا قول الجمهور - ويكون ذكر الآية بين ما قبلها وما بعدها اعتراضا للدلالة على خسارة الظالمين وضلالهم ، وأنهم مشتغلون عن تدبر الكتاب والانتفاع به إلى التعنت بسؤالهم عما اقتضت الحكمة سد الطريق إلى معرفته ، ويؤيد هذا ما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفر من اليهود فقال بعضهم : سلوه عن الروح وقال بعضهم : لا تسألوه يسمعكم ما تكرهون ، فقاموا إليه وقالوا يا أبا القاسم حدثنا عن الروح فقام ساعة ينظر فعرفت أنه يوحى إليه ، ثم قال : ويسألونك عن الروح الآية » .

الإيضاح

(ويسألونك عن الروح) الذي يحيا به البدن ، أقدم هو أم حادث ؟

(قل الروح من أمر ربي) الأمر واحد الأمور أى الروح شأن من شؤونه تعالى حدث بتكوينه وإيداعه من غير مادة ، وقد استأثر بعلمه لا يعلمه إلا هو ، لأنكم لا تعلمون إلا ما تراه حواسكم وتتصرف فيه عقولكم ، ولا تعلم من المادة إلا بعض أوصافها كالألوان والحركات للبصر ، والأصوات للسمع ، والطعوم للذوق ، والمشمومات للشم ، والحرارة والبرودة للمس ، فلا يتسنى لها إدراك ما هو غير مادي كالروح .

وللعلماء في حقيقة الروح أقوال كثيرة أولاها بالاعتبار قولان :

(١) إن الروح جسم نوراني حى متحرك من العالم العلوى مخالف بطبعه لهذا الجسم المحسوس ، سار فيه سرعان الماء فى الورد والدهن فى الزيتون والنار فى الفحم ، لا يقبل التبدل والتفرق والتمزق ، يفيد الجسم المحسوس الحياة وتوابعها ما دام صالحا لقبول الفيض وعدم حدوث ما يمنع السريان ، وإلا حدث الموت ، واختاره الرازى وابن القيم فى كتاب الروح .

(٢) إنه ليس بجسم ولا جسمانى ، متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف ، وإلى هذا ذهب حجة الإسلام الغزالي وأبو القاسم الراغب الأصفهاني .
ثم أكد عدم علمه بها بقوله :

(وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) أى وما أوتيتم من العلم إلا علما قليلا تستفيدونه من طرق الحس ، فعلومنا ومعارفنا النظرية طريق حصولها الحواس ، ومن ثم قالوا : من فقد حسا فقد علما .

روى أنه لما نزلت الآية قالت اليهود : أوتينا علما كثيرا ، أوتينا التوراة ، ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيرا كثيرا ، فنزل قوله «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا» .

وخلاصة ذلك — إنه ما أطلعكم من علمه إلا على القليل ، والذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر بعلمه تبارك وتعالى ولم يطلعكم عليه .

وَلَتَن شِدُنَا لَنذَهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا
 وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧) قُلْ
 لَسَنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَآ يَأْتُونَ
 بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا
 الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩)

شرح المفردات

وكيلا: أى ملتزما استرداده بعد الذهاب به ، كما يلتزم الوكيل ذلك فيما يتوكل
 عليه ، وظهيرا: أى معيناً فى تحقيق ما يتوخونه من الإتيان بمثله ، وصرفنا: كررنا
 ورددنا ، والكفور: الجحود .

المعنى الجملى

بعد أن امتن سبحانه على نبيه بما أنزل عليه من الكتاب ، وذكر أنه شفاء
 للناس ، وأنه ثبته عليه حين كادوا يفتنونه عنه ، ثم أردفه بمسألة الروح اعتراضا ،
 لأن اليهود والمشركين اشتغلوا بها عن تدبر الكتاب والانتفاع به ، وسألوا تعنتا عن
 شىء لم يأذن الله بالعلم به لعباده - امتن عليه ببقاء ذلك الكتاب وحذره من فتنه
 الضالين ، وإرجاف المرجفين وهو المعصوم من الفتنة فإنه لو شاء لأذهب ما بقلبه
 منه ولكن رحمة بالناس تركه فى الصدور .

وفى هذا تحذير عظيم للهداة والعلماء وهم غير معصومين من الفتنة ، بأن يباعد
 بينهم وبين هدى الدين بمظاهرتهم للرؤساء والعامة ، وتركهم العمل به اتباعا
 لأهوائهم ، واستبقاء لودهم ، وحفظا لزعامتهم على الناس .

الايضاح

لما ذكر سبحانه أنه ما آتاهم من العلم إلا قليلا ، بين أنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل لفعل فقال :

(ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك) أى والله لئن شئنا نمحون القرآن من الصدور والمصاحف ولا نترك له أثرا ، وتصير كما كنت ، لا تدرى ما الكتاب ولا الإيمان . أخرج سعيد بن منصور والحاكم وصححه والطبرانى والبيهقى فى جماعة آخرين .

وعن ابن مسعود قال : « إن هذا القرآن سيرفع ، قيل كيف يرفع وقد أثبتته الله فى قلوبنا وأثبتناه فى المصاحف ؟ قال يسرى عليه فى ليلة واحدة فلا تترك منه آية فى قلب ولا مصحف إلا رفعت ، فتصبحون وليس فيكم منه شىء ثم قرأ هذه الآية » .
وعنه أنه قال : ذهب القرآن رفعه من صدور قارئيه .

(ثم لا تجد لك به علينا وكيلا) أى ثم لا تجد ناصرا ينصرك ، فيحول بيننا وبين ما تريد بك ، ولا قويا لك فيمنعنا من فعل ذلك بك .

(إلا رحمة من ربك) أى ولكن رحمة من ربك تركه ولم يذهب به ، وفى هذا امتنان من الله ببقاء القرآن ، قال الرازى إنه تعالى امتن على جميع العلماء بنوعين من المنة ، أحدهما تسهيل ذلك العلم عليهم ؛ ثانيهما إبقاء حفظه .

(إن فضله كان عليك كبيرا) إذ أرسلك للناس بشيرا ونذيرا ، وأنزل عليك الكتاب ، وأبقاه فى حفظك ومصاحفك ، وفى حفظ أتباعك ومصاحفهم ، وصيرك سيد ولد آدم وختم بك النبيين وأعطاك المقام المحمود .

ثم نبه إلى شرف القرآن العظيم وكبير خطره فقال :

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) أى قل لهم متحديا : والله لئن اجتمعت الإنس والجن كلهم وانفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزل على رسوله بلاغة وحسن معنى وتصرفا وأحكاما ونحو ذلك ،

لا يأتون بمثله وفيهم العرب الفصحاء وأرباب البيان ، ولو تعاونوا وتظاهروا ، فإن هذا غير ميسور لهم ، فكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ولا مثيل .

ثم ذكر بعض محاسن هذا القرآن فقال :

(ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) أى ولقد رددنا القول فيه بوجوه مختلفة وكررنا الآيات والعبير والترغيب والترهيب والأوامر والنواهي وأقاصيص الأولين والجنة والنار ليدبروا آياته ويتعضوا بها .
(فأبى أكثر الناس إلا كفورا) أى فأبى أكثر الناس إلا الجحود والإنكار والثبات على الكفر والإعراض عن الحق .

ولما تم الإقناع بالحجة وقطعت ألسنتهم وأخموا ولم يجدوا وسيلة للرد ، أرادوا المراوغة باقتراح الآيات وذكروا من ذلك ستة أنواع ذكرها الله بقوله :

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ
تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١)
أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَّمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا
(٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ
لِرُؤْيَاكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ
إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ؟ (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا
أَنْ قَالُوا أُبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ
يَمْسُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَى
بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) وَمَنْ يَهْدِ

اللَّهُ فَهَوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يَضِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا ؛ مَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ كَلِمًا
خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا
أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ
اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ
أَجَلًا لَارْتِيَابٍ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ
خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ
قَتُورًا (١٠٠)

شرح المفردات

الينبوع : العين التي لا ينضب ماؤها ، جنة : أى بستانا تستر أشجاره
ما تحتها من الأرض ، كسفا: واحدها كسفة كقطع وقطعة لفظا ومعنى ، وقبيلا: أى
مقابلا كالعشير بمعنى المعاشر والمراد رؤيتهم عيانا ، والزخرف : هنا الذهب ، وأصله
الزينة وأجملها ما كان بالذهب ، ترقى: أى تصعد ، مطمئنين : أى ساكنين مقيمين
فيها ، وخبث : أى سكن لها ، والسعير: اللهب ، وكفورا أى جحودا للحق ، خشية
الإنفاق : أى خوف الفقر ، والقفور: الشديد البخل .

المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الدليل على إعجاز القرآن ولزمتهم الحججة وغلبوا على أمرهم -
أخذوا يراوغون ويقترحون الآيات ويتعثرون فى أذيال الحيرة فطلبوا آية من آيات
ست ، فإن جاءهم بآية منها آمنوا به وصدقوا برسالته .

روى عن ابن عباس « أن أشرف مكة أرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهم جلوس عند الكعبة فاتاهم فقالوا يا محمد إن أرض مكة ضيقة ، فسير جبالها لنتفع بأرضها ، ونحفر لنا فيها نهرا وعيونا نزرع فيها ، فقال لا أقدر عليه ، فقال قائل : أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، فقال لا أقدر عليه ، فقيل أو يكون لك بيت من زخرف (ذهب) فيغنيك عنا ، فقال لا أقدر عليه ، فقيل له أما تستطيع أن تأتي قومك بما يسألونك ؟ فقال لا أستطيع ، قالوا إن كنت لا تستطيع الخير فاستطع الشر ، فأسقط السماء كما زعمت علينا كسفا بالعذاب ، فقال عبد الله بن أمية المخزومي وأمه عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا والذي يُخلف به ، لا أومن بك حتى تشد سائما فتصعد فيه ونحن ننظر إليك ، فتأتي بأربعة من الملائكة يشهدون لك بالرسالة ، ثم بعد ذلك لا أدري أتؤمن بك أم لا ؟

فأمره الله بأن يرد عليهم بأن اقتراح الآيات ليس من وظيفة الرسل ، وإنما وظيفتهم البلاغ للناس .

ثم حكى عنهم شبهة أخرى وهي استبعادهم أن يرسل الله بشرا رسولا ، فأجابهم بأن أهل الأرض لو كانوا ملائكة لوجب أن تكون رسالتهم من الملائكة ، لأن الجنس أميل إلى جنسه .

ثم سلى رسوله صلى الله عليه وسلم عما يلاقى من قومه بأن الهداية والإيمان بيد الله ولا قدرة له على شيء من ذلك ، ومن يضل الله فلا هادي لهم وسيلقون جزاءهم نار جهنم بما كسبت أيديهم ودسوا به أنفسهم من الكفر والفجور والمعاصي ، وإنكار البعث والحساب وهم يعلمون أن الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يعيدهم مرة أخرى، ثم بين أنه لو أجابهم إلى ما طلبوا من إجراء الأنهار والعيون وتكثير الأموال واتساع المعيشة لما كان هناك من فائدة ، ولما أوصلوا النفع إلى أحد ، فالإنسان بطبعه شحيح كثر بخيل .

الإيضاح

علمت مما سلف أنهم طلبوا منه آية من ست ، وها هي ذى :

(١) (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) أى قال رؤساء مكة كعتبة وشيبة ابني ربيعة وأبي سفيان والنضر بن الحرث قول المبهوت المحجوج المتحير : لن نصدقك حتى تستنبط لنا عينا من أرضنا تدفق بالماء أو تفور ، وذلك سهل يسير على الله لو شاء فعله وأجابهم إلى ما يطلبون ، ولكن الله علم أنهم لا يهتدون كما قال : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » وقال : « وَلَوْ أَنفَأْنَا نَزَّلْنَا إِلَى الْمَلَائِكَةِ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا » الآية .

(٢) (أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا) أى أو يكون لك بستان فيه نخيل وعنب تتفجر الأنهار خلاله تفجيرا لسقيه .

(٣) (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) تقول العرب : جاءنا بثريد كسف أى قطع من الخبز : أى أو تسقط علينا جرم السماء إسقاطا مماثلا لما زعمت في قولك : « أَوْ نَسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ » .

وخلاصة ذلك — أو تسقط السماء علينا متقطعة ، ونحو الآية قوله : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ » وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا : « أَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » (٤) (أو تأنى بالله والملائكة قبيلا) أى أو تأنى بالله والملائكة تقابلهم معاينة ومواجهة قاله مجاهد وعطاء ، ونحو الآية قولهم : « لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا » .

(٥) (أو يكون لك بيت من زخرف) أى أو يكون لك بيت من ذهب ،

روى ذلك عن ابن عباس وقتادة وغيرها .

(٦) (أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) أى أو تصعد فى سلم إلى السماء ونحن ننظر إليك ، ولن نصدقك من أجل رقيك وحده ، بل لابد أن تنزل علينا كتابا نقرؤه بلغتنا على نهج كلامنا ، وفيه تصديقك .
 (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا) أى قل لهم متعجبا من مقترحاتهم ، ومنزها ربك من أن يقترح عليه أحد أو يشاركه فى القدرة : ما أنا إلا كسائر الرسل ، وليس للرسول أن يأتوا إلا بما يظهره الله على أيديهم على حسب ما تقتضيه المصلحة من غير تفويض إليهم فيه ولا تحكم منهم عليه .

وخلاصة ذلك — سبحانه أن يتقدم أحد بين يديه فى أمر من أمور سلطانه وملكوته ، بل هو الفعال لما يشاء ، إن شاء أجابكم إلى ما سألتهم ، وإن شاء لم يجبكم وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم ، وقد فعلت ذلك ، وأمركم فيما سألتهم إلى الله عز وجل .

ثم أعقب ذلك بشبهة أخرى وهى استبعادهم أن يكون من البشر رسول فقال :
 (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا؟)
 أى وما منع مشركى قريش وهم من حكيت أباطيلهم — من الإيمان بك حين مجيء الوحي المقرون بالمعجزات التى تستدعى الإيمان بنبوتك وبما نزل عليك من الكتاب إلا قولهم : أبعث الله بشرا رسولا ، إنكارا منهم أن يكون الرسول من جنس البشر واعتقادا منهم بأن الله لو بعث رسولا إلى الخلق لوجب أن يكون من الملائكة .

ونحو الآية قوله : « أكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ » وقوله : « ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا؟ » الآية . وقال فرعون وملؤه : « أَنْتُمْ مِّنْ لَّبَشِرِينَ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ؟ » وكذلك قالت الأمم لرسولهم : « إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَنَا عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ آبَاءَنَا » .

فأجابهم الله عن هذه الشبهة ذاكرا وجه الحق منبها إلى المصاححة بقوله :
 (قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئننين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) أى لو وجد في الأرض ملائكة يمشون كما يمشى البشر ، و يقيمون فيها كما يقيمون ، ويسهل الاجتماع بهم ، وتلقى الشرائع منهم - لنزلنا عليهم من السماء رسلا من الملائكة للهداية والإرشاد وتعليم الناس ما يجب عليهم تعلمه ، ولكن طبيعة الملك لا تصلح للاجتماع بالبشر ، فلا يسهل عليهم التخاطب ، والتفاهم معهم لبعدهما بين الملك وبينهم ، ومن ثم لم نبعث ملائكة إليهم ، بل بعثنا خواص البشر ، لأن الله قد وهبهم نفوسا زكية ، وأيدهم بروح قدسية ، وجعل لهم ناحية ملكية بها يستطيعون أن يتلقوا من الملائكة ، وناحية بشرية بها يبلغون رسالات ربهم إلى عباده .

وقد نبه سبحانه إلى عظيم هذه الحكمة ، وجيل تلك النعمة بقوله : « لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » وقوله : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » وقوله : « كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ » وإجمال القول في ذلك - أنه لو جعل الرسل ملائكة لما استطاع الناس التخاطب معهم ، ولما تمكنوا من الفهم منهم ، فلزم أن يجعلوا بشرا حتى يستطيعوا أداء الرسالة كما قال تعالى جده : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ » .

وقد ثبت أن جبريل عليه السلام جاء في صورة دخية الكلبى مرارا عدة ، فقد صح أن أعرابيا جاء وعليه وعشاء السفر فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان ، فأجابه عليه السلام بما أجابه ثم انصرف ، ولم يعرفه أحد من الصحابة رضوان الله عليهم فقال عليه السلام : هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم .

ثم أجابهم سبحانه بجواب آخر بقوله :

(قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم) أى قل لهم : إن الله لما أظهر المعجزة على وفق دعواى كان ذلك شهادة منه على صدقى ، ومن شهد له الله فهو صادق ، فادعواكم أن الرسول يجب أن يكون ملكا تحكم منكم وتعنت .

وخلاصة ذلك — إن الله شاهد علىّ وعليكم ، عالم بما جئتم به ، فلو كنت كاذبا عليه لانتقم منى أشد الانتقام كما قال سبحانه : « وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ » .

ثم ذكر سبحانه ماهو كالتهديد والوعيد بقوله :

(إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) أى إنه محيط بأحوال عباده الظاهر منها والباطن وأعلم بمن يستحق الإحسان والرعاية ، ومن هو أهل للشقاء والضلال .

وفى هذا إيحاء إلى أنه مادعاهم إلى إنكار نبوته صلى الله عليه وسلم إلا الحسد وحب الرياسة والتكبر عن قبول الحق ، كما أن فيه تسلية له صلى الله عليه وسلم على ما يلقاه من الإصرار والعناد والإمعان فى إيدانه .

ثم أخبر سبحانه بأنه لامعقب لحكمه ، ولاسلطان لأحد من خلقه فى شىء فقال :

(ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه) أى ومن يهد الله للإيمان به وتصديقك وتصديق ما جئت به من عند ربك ، فهو المهتدى إلى الحق المصيب سبيل الرشد ، ومن يضله لسوء اختياره وتدسيته نفسه ، وركوبه رأسه فى الغواية والعصيان كهؤلاء المعاندين ، فلن تجد لهم أنصارا ينصرونهم من دونه يهدونهم إلى الحق ويمنعون عنهم العذاب الذى يقتضيه ضلالهم .

(ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكا وصمًا) أى ونجمعهم فى موقف الحساب بعد تفرقهم فى القبور — عميا وبكا وصمًا كما كانوا فى الدنيا لا يستبصرون

ولا ينطقون بالحق ويتصامون عن استماعه ، فهم في الآخرة لا يبصرون ما يقرّ أعينهم ، ولا يسمعون ما يلد مسامعهم ، ولا ينطقون بما يقبل منهم كما قال : « وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا » .

روى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه أنه قال : « قيل يارسول الله ، كيف يمشى الناس على وجوههم قال : الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم » .

وروى الترمذى : « إن الناس يكونون ثلاثة أصناف فى الحشر : مشاة ، وركباناً ، وعلى وجوههم » .

وإنما نرى فى الدنيا من الحيوان ماهو طائر ، ومنه ماهو ماش ، ومنه ماهو زاحف كالحيات وهوام الأرض .

والقسم الأخير من الأقسام الثلاثة فى الحديث أقرب إلى هيئة الزواحف بحيث يبقى الوجه فى الأرض وتحيط به زوائد كالأرجل الصغيرة الحيوانية ، وهو يهيم على وجهه - وانخلاصة - إنهم يبعثون فى أقبح صورة وأشنع منظر قد جمع الله لهم بين عمى البصر وعدم النطق وعدم السمع مع كونهم مسحوبين على وجوههم كما يفعل فى الدنيا بمن يبالغ فى إهاتته وتعذيبه ، ويؤيده قوله تعالى : « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ » .

(ماواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً) أى ثم بعد أن يتم حسابهم يكون منقلبهم ومصيرهم جهنم ، كلما سكن لبيها بأن أكلت جلودهم ولحومهم ولم يبق ما تتعلق به وتحرقه ، زدناها لها وتوقدا بأن نعيدهم إلى ما كانوا عليه فتستمر وتتوقد - أخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إن الكفار وقود النار ، فإذا أحرقتهم ولم يبق شيء صارت جمرات توهج فذلك خبوها ، فإذا بدلوا خلقاً جديداً عاودتهم اه .

وكان هذا عقوبة لهم على إنكارهم الإعادة بعد الإفناء بتكررها مرة بعد أخرى
البروها عيانا حيث أنكروها برهانا .

ثم بين علة تعذيبهم لعله يرجع منهم من قضى بسعادته فقال :
(ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أنذا كنا عظاما ورفاتا أننا لمبعوثون
خلقا جديدا) أى ذلك العذاب الذى جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصمم
هو جزاؤهم الذى يستحقونه على تكذيبهم بالبينات والحجج التى جاءتهم ، وعلى
استبعادهم وقوع البعث ، وقولهم : أبعدهما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك
والتفرق فى أرجاء الأرض نعاد مرة أخرى - استنكارا منهم وتعجبا من أن
يحصل ذلك .

ثم استدلل على البعث فقال :
(أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم)
أى ألم يعلموا ويتدبروا أن الذى خلق السموات والأرض ابتداء على غير مثال
سابق وأقامهما بقدرته - قادر على أن يخلق أمثالهم من الخلق بعد فنائهم ،
وكيف لا يقدر على إعادتهم ، والإعادة أهون من الابتداء .
وبعد أن ثبت أن البعث أمر ممكن الوجود فى نفسه ، أردف ذلك بأن لحصوله
وقتا معلوما عند الله فقال :

(وجعل لهم أجلا لا ريب فيه) أى وجعل لإعادتهم وقيامهم من قبورهم
أجلا مضروبا ومدة مقدره لا بد من انقضائها، لا يعلمها إلا هو كما قال : « وَمَا نُؤَخِّرُهُ
إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ » .

وخلاصة ذلك - إنهم قد علموا بالبرهان العقلى أن الله قادر على إعادتهم وقد
جعل لميقات إعادتهم أجلا وهو يوم القيامة الذى لا شك فيه ، فلا وجه لإنكاره .
(فأبى الظالمون إلا كفورا) أى وبعد إقامة الحجة عليهم أبوا لإلتاماديا
فى ضلالهم وكفرهم مع وضوح الحجة وظهور المحجة .

ثم بين السبب فى عدم إجابتهم إلى ما طلبوا من الجنات والعيون بأنهم لو ملكوا خزائن الدنيا لبقوا على شحهم فقال :

(قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لمسكنم خشية الإنفاق) المراد من الإنفاق هنا الفقر كما أخرجه ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ، وروى نحوه عن قتادة وإليه ذهب الراغب فقال : يقال أنفق فلان إذا افتقر ، وقال أبو عبيدة : أنفق وأملق وأعدم وأصرم بمعنى ، أى قل لهم أيها الرسول : لو أنكم تملكون التصرف فى خزائن الله لمسكنم خشية الفقر : أى خشية أن تزول وتذهب مع أنها لا تفرغ ولا تنفذ أبدا .

وقصارى ذلك — إنكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لانهاية لها لبقيتم على الشح والبخل ، وفى هذا إيماء إلى أن الله لا يجيبكم إلى ما طلبتم من نبيه صلى الله عليه وسلم من بساتين وعيون تنبع ، لا بخلا منه ، ولكن اقتضت الحكمة أن يكون نظام الدنيا هكذا ، ولا رقى للإنسان إلا على هذا المنوال ، فهو يوسع الرزق على قوم ويضيقه على آخرين على مقتضى الحكمة والمصلحة ، ومن ثم لم ينزل ما اقترحتموه . (وكان الإنسان قتورا) أى وكان الإنسان بخيلا منوعا بطبعه كما قال « أَمْ لَّهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا » أى لو أن لهم نصيبا فى ملك الله لما أعطوا أحدا شيئا ولا مقدار نقير .

وقد روى البخارى ومسلم « يد الله مלאى لا يفيضها نفقة سحاء (أخذ) الليل والنهار ، أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فإنه لم يفيض ما فى يمينه » .

وإجمال المعنى — إن الله لم يجب محمدا إلى ما طلبتم ، لا هو انا لنبيه ، ولا لأنه ليس بنبي ، ولا بخلا منه (حاشاه) بل لحكمة منه ، فربما كان وفير العطاء إذا نزل على غير وجهه مصايب على الناس ، فأما أنتم فمنعكم يجرى على طريق البخل ، فلو سلم لكم السموات والأرض وادآرستموها لم تفهموا إلا الإمساك ، ومن ثم لا يسلمكم مفاتيح خزائنه لئلا تمسكوا المال لأنفسكم ولا تنفخوا خلقه .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاَسْأَلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ
جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ
عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هُوَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرٌ . وَإِنِّي
لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْزِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ
فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا
الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) .

شرح المفردات

مسحورا: أى محبول العقل ، بصائر: أى حججا و بينات واحدها بصيرة أى
مبصرة بينة ، مثبورا: أى هالكا كما روى عن الحسن ومجاهد ، قال الزجاج يقال
ثبر الرجل فهو مثبور إذا هلك ، ويقال فلان يدعو بالويل والثبور حين تصيبه
المصيبة ، كما قال تعالى « دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا . لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا
ثُبُورًا كَثِيرًا » أن يستفزهم: أى أن يخرجهم بالقتل أو أن يزيلهم عنها ، واللفيف:
الجمع العظيم من أخلاط شتى من شريف ودنىء ومطيع وعاص وقوى وضعيف ،
وكل شىء خلطته بغيره فقد لفته .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف ما اقترحوه من الآيات وأبان لهم أن الرسل ليس من
شأنهم أن يقترحوا على الله شيئا - ذكر هنا أنه قد أنزل على موسى مثل ما اقترحتهم
وأعظم منه ولم يُجِدْ فرعون وقومه شيئا ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فلا فائدة لكم
فيما اقترحتموه من الآيات وكفاكم الآيات العلمية التي أنزلها على عبده ورسوله محمد
صلى الله عليه وسلم ، فإن لم تؤمنوا بعد ظهور تلك الحجج أهلككم كما أهلك

فرعون بالفرق ، وفي ذلك تسلية لرسوله بذكر ماجرى لموسى مع فرعون ، وما جوزى به فرعون وقومه .

الإيضاح

(ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) أى ولقد أعطينا موسى تسع آيات واضحات الدلالة على صحة نبوته وصدقه حين أرسل إلى فرعون وقومه ، فلم يؤمنوا بها كما قال تعالى « فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ » وقال « وَجَعَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا » .

وقد ذكر سبحانه في كتابه العزيز ست عشرة معجزة لموسى عليه السلام .

(١) إنه أزال العقدة من لسانه ، أى أذهب العجمة عن لسانه وصار فصيحاً .

(٢) انقلاب العصا حية .

(٣) تلقف الحية حبالهم وعصيهم على كثرتها .

(٤) اليد البيضاء .

(٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩) الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

(١٠) شق البحر .

(١١) انفلاق الحجر في قوله « أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ » .

(١٢) إظلال الجبل في قوله « وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ » .

(١٣) إنزال المن والسلوى عليه وعلى قومه .

(١٤ ، ١٥) الجذب ونقص الثمرات في قوله « وَاقْدُ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ

بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ » .

(١٦) الطمس على أموالهم من الخنطة والدقيق والأطعمة .

وقد اختلفوا في المراد من هذه التسع . أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور

وابن جرير وابن المنذر من طرق عدة عن ابن عباس إنها العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنون ونقص الثمرات .

وقيل المراد بالآيات الأحكام ، فقد أخرج أحمد والبيهقي والطبراني والنسائي وابن ماجه « أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : انطلق بنا إلى هذا النبي فسأله ، فأتياه صلى الله عليه وسلم فسألاه عن قول الله تعالى « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » فقال عليه السلام : لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تسرقوا ولا تسجروا ولا تأكلوا الربا ولا تمشوا بهرىء إلى ذى سلطان ليقتله ولا تقذفوا محصنة ، وأنتم يا يهود عليكم خاصة ألا تعدوا فى السبت ، فقبلا يده ورجله وقالوا نشهد أنك نبي ، قال فما يمنعكما أن تسلما ؟ قالوا إن داود دعا ألا يزال من ذريته نبي ، وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود » .

قال الشهاب الخفاجى وهذا هو التفسير الذى عليه المعول فى الآية .

ثم خاطب نبيه فقال :

(فاسأل بنى إسرائيل) أى اسأل بنى إسرائيل الذين كانوا فى عصرك وآمنوا بك كعبد الله بن سلام وأصحابه سؤال استشهاد ، لتزيد طمأنينتك و يقينك ، ولتعلم أن ذلك محقق ثابت عندهم فى كتابهم .

(إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا) أى فاسألهم يخبروك ، لأنه جاءهم أى جاء آباءهم بهذه الآيات وأبلغها فرعون ، فقال له فرعون : إني لأظنك يا موسى مخلط العقل ، ومن ثم ادعيت ما ادعيت ، مما لا يقول مثله كامل العقل حصيف الرأى .

(قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) أى قال موسى لفرعون : لقد علمت يا فرعون ما أنزل الله هذه الآيات التسع التى أريتكمها إلا حجة لى على حقيقة ما أدعوك إليه ، وشاهدة لى على صدق وصحة قولى إني رسول الله ، بعثنى بها رب السموات والأرض ، لأنه هو الذى يقدر عليها وعلى أمثالها ، وهى

بصائر لمن استبصر بها ، وهدى لمن اهتدى بها ، يعرف من رآها أن من جاء بها فهو محق وأنها من عند الله لا من عند غيره ، إذ كانت معجزة لا يقدر عليها إلا رب السموات والأرض .

(وإني لأظنك يا فرعون مشورا) أى وإنى لأظنك يا فرعون مصروفا عن الخير مطبوعا على الشر .

(فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا) أى فأراد فرعون أن يخرج موسى وبنى إسرائيل من أرض مصر بقتلهم واستئصالهم بحيث لا يبقى منهم أحدا ، فعكسنا عليه مكره وأغرقناه فى البحر ومن معه من جنده جميعا ، فأخرجناه من أرضه أفضع إخراج .

(وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض) أى ونجيننا موسى وبنى إسرائيل وقلنا لهم من بعد هلاك فرعون : اسكنوا أرض الشام وهى الأرض المقدسة التى وعدتم بها .

(فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيها) أى فإذا جاءت الساعة الآخرة حشرناكم من قبوركم إلى موقف القيامة مختلطين أتم وهم ، ثم نحكم بينكم وبينهم ، ونميز سعداءكم من أشقيائكم .

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا
 (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا
 (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا ، إِنَّ
 كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُونَ وَيَزِيدُهُمْ
 خُشُوعًا (١٠٩) قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ، أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ

الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا ، وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا
(١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلَّةِ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا (١١١) .

شرح المفردات

الحق : هو الثابت الذي لا يزول ، والقرآن مشتمل على كثير من ذلك كدلائل التوحيد وتعظيم الملائكة ونبوة الأنبياء وإثبات البعث والقيامة، وفرقناه : أى أنزلناه مفرقا منجما ، والمكث (بالضم والفتح) : التؤدة والتأني ، والخروج : السقوط بسرعة ، والأذقان واحدها ذقن : وهو مجتمع للحيين ، ادعوا الله أو ادعوا الرحمن : أى سموه بهذين الاسمين ، خفت الرجل بقراءته : إذا لم يبينها برفع الصوت ، وتخافت : القوم تساروا فيما بينهم .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن القرآن معجز دال على صدق الرسول بقوله « قل لن اجتماعت الإنس والجن » الآية ، ثم حكى عن الكفار أنهم لم يكتفوا بهذا المعجز بل طلبوا معجزات أخرى ، وأجابهم ربهم بأنه لا حاجة إلى شيء سواه ، وبأن موسى أتى فرعون وقومه بتسع آيات فجدوا بها فأهلكوا ، فلو أتاكم محمد صلى الله عليه وسلم بتلك المعجزات التي اقترحتموها ثم كفرتم بها أنزل عليكم عذاب الاستئصال ولم يكن ذلك من الحكمة التي أرادها ، لعلمه أن منكم من يؤمن ومنكم من لا يؤمن ، ولكن سيظهر من نسله من يكون مؤمنا - عاد هنا إلى تعظيم حال القرآن وجلالة قدره ، و بيان أنه هو الثابت الذي لا يزول ، وأنه أنزله على نبيه مفرقا ليسهل حفظه وتعرف دقائق أسراره ، وأنكم سيان آمنتم به أو لم تؤمنوا فإن من قبلكم من أهل

الكتاب إذا تلى عليهم خروا له سجدا وبكيا؛ ثم أردف ذلك ببيان أنكم إن ناديتُم الله أو ناديتُم الرحمن فالأمران سواء ، ثم قفى على ذلك بطلب التوسط فى القراءة فى الصلاة بين الجهر والخفوت ، ثم أمر نبيه أن يقول حين الدعاء : الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا .

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : « صلى صلوات الله عليه بمكة ذات يوم فدعا الله تعالى فقال فى دعائه يا الله يا رحمن ، فقال المشركون : انظروا إلى هذا الصابى ، ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو إلهين فنزل « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » الآية .

وعن الضحاك أنه قال : قال أهل الكتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنك لتقلّ ذكر الرحمن وقد أكثر الله فى التوراة هذا الاسم فنزلت .

الإيضاح

(وبالحق أنزلناه) أى وأنزلنا عليك القرآن متضمنا للحق ، ففيه أمر بالعدل والإنصاف ومكارم الأخلاق ، ونهى عن الظلم والأفعال الذميمة ، وذكر براهين الوحدانية وحاجة الناس إلى الرسل لتبشيرهم وإنذارهم وحثهم على صالح الأعمال انتظارا ليوم الحساب والجزاء .

(وبالحق نزل) أى ونزل إليك محفوظا محروسا لم يشب بغيره فلم يزد فيه ولم ينقص ، وقد يكون المراد ونزل إليك مع الحق وهو شديد القوى الأمين المطاع فى الملأ الأعلى جبريل عليه السلام .

وبعد أن مدح الكتاب مدح من أنزل عليه فقال :

(وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا) أى وما أرسلناك أيها الرسول إلى من أرسلناك إليهم من عبادنا إلا مبشرا بالجنة من أطاعنا فاتتهى إلى أمرنا ، ومنذرا لمن عصانا فخالف ذلك .

(وقرآنا فرقناه لنقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) أى وآتيناك قرآنا فرقناه أى نزلناه مفردا منجمًا ، وقد بدى بإنزاله ليلة القدر في رمضان ، ثم أنزل نجوما في ثلاث وعشرين سنة على حسب الوقائع .
وسر نزوله هكذا بعضه إثر بعض أن تقرأه على الناس بتؤدة وتأن ليسهل عليهم حفظه ويكون ذلك أعون على تفهم معناه . أخرج البيهقي في الشعب عن عمر رضى الله عنه أنه قال : تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات ، فإن جبريل عليه السلام كان ينزل به خمسا خمسا ، وكذلك أخرج ابن عساكر عن أبي سعيد الخدرى ، والمراد أن الغالب كذلك ، فقد صح أنه نزل بأكثر من ذلك وبأقل منه .
وفائدة قوله : ونزلناه تنزيلا بعد قوله فرقناه - بيان أن ذلك التنزيل لمقتض وهو التنزيل على حسب الحوادث .

ثم هددهم سبحانه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله :

(قل آمنوا به أو لا تؤمنوا) أى قل لهؤلاء الضالين القائلين لك : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا - آمنوا بهذا القرآن الذى لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لم يأتوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا - أو لا تؤمنوا به ، فإن إيمانكم به لن يزيد في خزائن رحمة الله ، ولا ترككم للإيمان به ينقص ذلك .
ثم علل عدم المبالاة بهم واحتقار شأنهم بقوله :

(إن الذين أتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) أى وإن تكفروا به فإن العلماء الذين قرءوا الكتب السالفة من قبل نزول القرآن ، وعرفوا أن الله سيبعث نبيا - يخرون لله سجدا شكرا له على إنجاز وعده بإرسالك ، حين يتلى عليهم هذا القرآن ، ويقولون في سجودهم : تنزه ربنا عن خلف الوعد إنه كان وعده آتيا لا محالة .

والخلاصة - إنكم إن لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسن إيمان من هو خير منكم ، وفيه تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وازدراء بشأنهم .

(ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) أى ويخرون للأذقان باكين من خشية الله إذا يتلى عليهم ، ويزيدهم ما فيه من العبر والمواعظ خشوعا وخضوعا لأمره وطاعته .

وقد جاء في مدح البكاء من خشية الله أخبار كثيرة ؛ فقد روى الترمذى عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله تعالى ، وعين باتت تحرس في سبيل الله تعالى » .
وأخرج مسلم والنسائى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يبلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ، ولا اجتمع على عبد غبار في سبيل الله ودخان جهنم » .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن عبد الأعلى التميمى أنه قال : إن من أوتى من العلم ما لم يبكه لخليق أن قد أوتى من العلم ما لا ينفعه ، لأن الله تعالى نعت أهل العلم فقال (ويخرون للأذقان يبكون) .

ثم رد على المشركين المنكرين إطلاق اسم الرحمن عليه عز وجل فقال :

(قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيما تدعوا فله الأسماء الحسنى) أى قل أيها الرسول لمشركى قومك الذين أنكروا اسم الرحمن : سمو الله أيها القوم أو سمو الرحمن فبأى أسمائه جل جلاله تسمونه فهو حسن ، لأن كل أسمائه حسنى ، إذ فيها التعظيم والتقديس لأعظم موجود ، وهو خالق السموات والأرض ، وهذان الاسمان منها .
روى مكحول « أن رجلا من المشركين سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول في سجوده : يا رحمن يا رحيم ، فقال إنه يزعم أنه يدعو واحدا وهو يدعو اثنين فأنزل الله الآية » .

ثم أمره بالتوسط في القراءة فلا يجهر بصوته ولا يخافت به فقال :

(ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) أى ولا تجهر بقراءتك

فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ، ولا تخافت بها عن أصحابك ، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ، بل ابتغ طريقا بين الجهر والخافتة .

أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن ابن عباس قال : « نزلت هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وسلم مختف بمكة (يصلى خفية) فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به » .

وروى أن أبا بكر رضى الله عنه كان يخفت في قراءته ويقول أناجى ربي وقد علم حاجتى ، وعمر كان يجهر بها ويقول : أطرده الشيطان ، وأوقف الوسنان ، فلما نزلت الآية أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يرفع صوته قليلا ، وعمر أن يخفض قليلا .

ولما أمر الله رسوله ألا يناديه إلا بأسمائه الحسنى علمه كيفية التحميد بقوله : (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل) أى وقل لله ذى الجلال والكمال ، الحمد والشكر على ما أنعم على عباده من واسع النعم .

وقد وصف سبحانه نفسه بثلاث صفات :

(١) إنه لم يتخذ ولدا ، فإن من يتخذ الولد يمسك جميع النعم لولده ، ولأن الولد يقوم مقام الوالد بعد انقضاء أجله وفنائه - تنزه ربنا عن ذلك - ومن كان كذلك لم يستطع الإنعام فى كل الحالات ، فلا يستحق الحمد على الإطلاق .

وفى هذا رد على اليهود الذين قالوا عزير ابن الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، تعالى الله عما يقولونه علوا كبيرا .

(٢) إنه ليس له شريك فى الملك ، إذ لو كان له ذلك لم يعرف أيهما المستحق للحمد والشكر ، ولكان عاجزا ذا حاجة إلى معونة غيره ، ولم يكن منفردا بالملك والسلطان .

(٣) إنه لم يكن له ولي من الذل أحكم يوال أحدا من أجل مذلة به يدفعها بموالياته .
والخلاصة — إنه ليس له ولد يحبس نعمه عليه ، وليس له شريك يقف أعماله
في الملك ، ولا ناصر يدفع العدو المذل له ، وإذا تنزه ربنا عن ذلك فقد أمن الناس
نضوب موارده ، وأصبحت أبوابه مفتحة لكل قاصد ، فلتغترف أيها العبد من
مناهلها ، ولتعلم أنه لا يحاييك لأجل أهلك ولا نسلك ولا دينك ، ولو كنت ابن نبي
من الأنبياء أو عظيم من العظماء .

(وكبره تكبيرا) أى وعظم ربك أيها الرسول بما أمرناك أن تعظمه به من قول
أو فعل ، وأطعه فيما أمرك به ونهاك عنه .
وتكبيره تعالى وتنزيهه يكون :

(١) بتكبيره في ذاته باعتقاد أنه واجب الوجود لذاته ، وأنه غنى عن كل موجود .
(٢) بتكبيره في صفاته باعتقاد أنه مستحق لكل صفات الكمال منزّه عن
صفات النقص .

(٣) بتكبيره في أفعاله ، فتعتقد أنه لا يجرى شيء في ملكه إلا على وفق
حكيمته وإرادته .

(٤) بتكبيره في أحكامه ، بأن تعتقد أنه ملك مطاع له الأمر والنهى والرفع
والخفض ، وأنه لا اعتراض لأحد عليه في شيء من أحكامه ، يعز من يشاء ويذل
من يشاء .

(٥) تكبيره في أسمائه ، فلا يذكر إلا بأسمائه الحسنى ، ولا يوصف
إلا بصفاته المقدسة .

روى أحمد في مسنده عن معاذ الجهني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول
« آية العز (الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا) الآية » . وعن ابن عباس أنه قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم « أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين
يحمدون الله في السراء والضراء » .

وأخرج عبد الرزاق عن عبد الكريم بن أبي أمية قال : « كان رسول الله صلى
الله عليه وسلم يعلم الغلام من بنى هاشم إذا أفصح ، الحمد لله إلى آخر الآية سبع مرات » .

بجمل ما حوته السورة من الأغراض

- (١) الإسراء من مكة إلى بيت المقدس .
- (٢) تاريخ بني إسرائيل في حالي الارتقاء والانحطاط .
- (٣) حكم وعظات للأمة الإسلامية يجب أن تراعيها حتى لاتذهب دُورها كما ذهبت دولة بني إسرائيل .
- (٤) بيان أن كل ما في السموات والأرض مسبح لله .
- (٥) الكلام في البعث مع إقامة الأدلة على إمكانه .
- (٦) الرد على المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة من الأوثان والأصنام .
- (٧) الحكمة في عدم إنزال الآيات التي اقترحوها على محمد صلى الله عليه وسلم .
- (٨) قصص سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس من ذلك .
- (٩) تعداد بعض نعم الله على عباده .
- (١٠) طلب المشركين من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يوافقهم في بعض معتقداتهم وإخافهم في ذلك .
- (١١) أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإقامة الصلاة والتهجد في الليل .
- (١٢) بيان إعجاز القرآن وأن البشر يستحيل عاينهم أن يأتوا بمثله .
- (١٣) قصص موسى مع فرعون .
- (١٤) الحكمة في إنزال القرآن منجما .
- (١٥) تنزيه الله عن الولد والشريك والناصر والمعين .

عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى
الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْأُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا
صَعِيدًا جُرُزًا (٨) .

شرح المفردات

العوج : (بالكسر والفتح) : الانحراف والميل عن الاستقامة ، فلا خلل في لفظه
ولا في معناه ، قيا : أى معتدلا لا إفراط فيما اشتمل عليه من التكاليف حتى يشق
على العباد ، ولا تفريط فيه بإهمال ما تمس الحاجة إليه ، والبأس : العذاب الشديد
في الآخرة ، من لدنه : أى من عنده ، كبرت : (بضم الباء) كلمة : أى ما أعظمها
مقالة قيلت ، وهذا أسلوب في الكلام يدل على التعجب والاستغراب مما حدث
من قول أو فعل ، باخع : أى قاتل (منتحر) قاله ابن عباس وأنشد قول لبيد :

لعلك يوما إن فقدت مزارها على بعده يوما لنفسك باخع

على آثارهم : أى من بعدهم أى من بعد توليهم عن الإيمان وتباعدهم عنه ،
والحديث : هو القرآن ، والأسف : المبالغة في الحزن والغضب ، وصعيدا : أى ترابا ،
وجرزا : أى لانيات فيه .

الإيضاح

(الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيا) حمد الله نفسه
على إنزاله كتابه العزيز إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، لأنه أعظم نعمة أنزلها على
أهل الأرض ، إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور ، وجعله كتابا مستقيما لا اعوجاج
فيه ولا زيغ ، بل يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم .
وخلاصة ذلك — إنه تعالى أنزل الكتاب على عبده محمد صلى الله عليه وسلم

مستقيا لا اختلاف فيه ولا تفاوت ، بل بعضه يصدق بعضا ، وبعضه يشهد لبعض ، ولا اعوجاج فيه ولا ميل عن الحق .

(لينذر بأسا شديدا من لدنه) أى ليخوف الذين كفروا به عذابا شديدا صادرا من عنده أى نكالا فى الدنيا ونار جهنم فى الآخرة .

(ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا . ما كثير فى أبدا) أى ويبشر المصدقين الله ورسوله الذين يمثلون أوامره ونواهيه - بأن لهم ثوابا جزيلاً منه على إيمانهم به وعملهم الصالح فى الدنيا ، وذلك الثواب الجزيل هو الجنة التى وعدها الله المتقين خالدين فيها أبدا لا ينتقلون منها ولا ينقلون .

(وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) أى وليحذر من بين هؤلاء الكفار من قالوا هذه المقالة الشنعاء - إن الله اتخذ ولدا ، وهؤلاء ثلاث طوائف .

(١) المشركون الذين قالوا للملائكة بنات الله .

(٢) اليهود القائلون عزيز ابن الله .

(٣) النصارى القائلون المسيح ابن الله .

وإنما خص هؤلاء مع دخولهم فى الإنذار السابق لفظاعة حالهم ، وشناعة كفرهم وضلالهم .

(ما لهم به من علم) أى ليس لهم باتخاذ الولد برهان ، بل هو قول لم يصدر عن علم يؤيده ، ولا عقل يظاهره .

(ولا لآبائهم) أى وكذلك ليس لآبائهم الذين قالوا مثل هذه المقالة وهم القدوة لهم - به علم .

(كبرت كلمة تخرج من أفواههم) أى عظمت مقالتهم هذه فى الكفر ، وليتهم اكتفوا بخطورها بالبال وترددها فى الصدور ، بل تلفظوا بها على مرأى من الناس ومسمع ، وكثير مما يوسوس به الشيطان وتحدث به النفس لا يتلفظ به ،

بل يكتفى بما يعتقدده القلب ، فكيف ساغ لهم أن يجروا على التلفظ بهذا المنكر الذى لامستند له من عقل ولا نقل .

ثم أكد هذا الإنكار و بين أنه كما لا علم لهم ولا بأبائهم به - لا علم لأحد به ، لأنه لا وجود له وما هو إلا محض اختلاق بقوله :

(إن يقولون إلا كذبا) أى ما يقولون إلا قولا لاحقيقة له بحال .

(فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) لعل هنا للاستفهام الإنكارى المتضمن معنى النهى - أى لا تبخع نفسك من بعد توليهم عن الإيمان وإعراضهم عنه أسفا وحسرة عليهم .

أى إنك قد اشتد وجدك عليهم وبلغت حالا من الأسى والحسرة صرت فيها أشبه بحال من يحدث نفسه أن يبخعها أسى وحسرة عليهم ، وما كان من حقتك أن تفعل ذلك ، إن عليك إلا البلاغ ، وليس عليك الهداية « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

وقد جاء مثل هذا النهى فى آيات كثيرة كقوله « لَمَّا كَبَّخْتُمْ أَنْ يُصَلُّوا عَلَيْكُمْ نَبَأَ مَلَكٌ مِّنْ رَبِّكَ أَنَّكَ كَبَّخْتَهُمْ فَخَلَّفْتَ كَلِمَاتِكَ فَجَشَعْتَهُمْ لِيُحَدِّثُوا عَلَيْكَ هَلْ يَسْمَعُونَ » وقوله « وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ » .

وخلاصة ذلك - أبلغهم رسالة ربك ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تذهب نفسك عليهم أسى وحسرة ، فإنما أنت منذر ولست عليهم بمسيطر ، إن عليك إلا البلاغ .

ثم ذكر سبحانه سبب إرشاده إلى الإعراض عنهم بغير ما يقدر عليه من التبليغ بالبشارة والندارة ، وهو أنه تعالى جعل ما على الأرض زينة لها ليختبر المحسن والمسيء ، ويجازى كلا بما يستحق فقال :

(إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) أى إنا جعلنا ما على الأرض من حيوان ونبات ومعادن زينة لها ولأهلها ، لنختبر حالهم فى فهم

مقاصد تلك الزينة والاستدلال بها على وجود خالقها والإخبارات إليه والطاعة له فيما أمر به والبعد عما نهى عنه ، فتقوم عليهم الحجة ، فمن اعتبر بتلك الزينة وفهم حكمها حاز الثوبة ، ومن اجترأ على مخالفة أمره ، ولم يفهم أسرارها ومقاصدها استحق العقوبة .

وخلاصة ذلك — إنا جعلنا ما على الأرض من الزينة لنعاملهم معاملة من يجتبرهم ، فنجازي المحسنين بالثواب والمسيئين بالعقاب ، ويمتاز أفراد الطبقتين بعضهم عن بعض على حسب امتياز درجات أعمالهم .

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الدنيا نضرة حلوة والله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون » ، وقال : « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا ، قيل وما زهرة الدنيا ؟ قال بركات الأرض » ، وروى البخاري أن عمر كان يقول اللهم إنا لانستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا ، اللهم إني أسألك أن ننفقه في حقه .

(وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا) أى إن الأرض وما عليها بأند فان ، وإن المرجع إلى الله ، فلا تأس ولا تحزن لما تسمع وترى ، ونحو الآية قوله « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ » وقوله « فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا » .

وإجمال المعنى — إن ما على الأرض سيصير ترابا ساذجا بعد ما كان يتعجب من بهجته النظارة ، وتسرب رؤيته العيون ، فلا تحزن لما عاينت من تكذيب هؤلاء لما أنزل عليك من الكتاب ، فإننا جعلنا ما على الأرض من مختلف الأشياء زينة لها لنختبر أعمال أهلها ، فنجازيهم على حسب ما هم له أهل ، وإنا لمنون ذلك بعد حين .

وفي هذا تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وكأنه قيل : لا تحزن فإننا ننتقم

لك منهم .

تلخيص لقصة أهل الكهف كما أثر عن العرب

روى أن النصارى عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام ، وأكروهوا الناس على عبادتها ، وأصدر (الملك دقيانوس) الأوامر المشددة في ذلك ومعاقبة من يخالفه ، وأراد أن يلزم فتية من أشرف قومه عبادتها وتوعدهم بالقتل ، فأبوا إلا الثبات على دينهم ، فزرع ثيابهم وحلبهم ، ولكنه رحم شبابهم فأمرهم لعلمهم يتوبون إلى رشدكم ، وهكذا ذهب الملك إلى مدن أخرى ليحث أهلها على عبادتها ، وإلا قتلوا .

أما الفتية فإنهم انطلقوا إلى كهف قريب من مدينتهم (أفسوس أو طرسوس) في جبل يدعى (نيكايوس) وأخذوا يعبدون الله فيه حتى إذا هجم عليهم دقيانوس وقتلهم ماتوا طائعين ، وقد كانوا سبعة ، فلما مروا في الطريق إلى الكهف تبعهم راع ومعه كلبه ، فجلسوا هناك يعبدون الله ، وكان من بينهم امرؤ يدعى (تلميخا) يبتاع لهم طعامهم وشرابهم ويبلغهم أخبار دقيانوس الذي لا يزال مجداً في طلبهم ، حتى إذا عاد من مطافه ووصل إلى مدينتهم بحث عن هؤلاء العباد والنسك ليدبجهم أو يسجدوا للأصنام ، فسمع بذلك تلميخا بينما كان يشتري لهم الطعام خفية فأخبرهم فبكوا ، ثم ضرب الله على آذانهم فناموا ، وتذكرهم دقيانوس ، فهدد آبائهم إن لم يحضروهم فدلوه عليهم وقالوا إنهم في الكهف ، فتوجه إليهم وسده عليهم ليموتوا هناك وينتهى الأمر على ذلك .

وقد كان في حاشية الملك رجلان يكتان إيمانها وهما بيدروس ، وروناس ، فكتبا قصة هؤلاء الفتية سرا في لوحين من حجر وجعلاهما في تابوت من نحاس ، وجعلا التابوت في البنيان ليكون ذلك عظة وذكرى لمن سيحيى من بعد .

ثم مضت قرون يتلو بعضها بعضا ، ولم يبق لدقيانوس ذكر ولا أثر .

وبعدئذ ملك البلاد صالح يسمى بيدروس دام ملكه ٦٨ سنة ، وانقسم

الناس في شأن البعث والقيامة فرقتين : فرقة مؤمنة به ؛ وأخرى كافرة ، فحزن الملك لذلك حزنا شديدا ، وضرع إلى الله أن يرى الناس آية يرشدهم بها إلى أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وقد خطر إذ ذاك ببال راع يسمى (أولياس) أن يهدم باب الكهف ويبني به حظيرة لغنمه ، فلما هدمه استيقظوا جميعا فجلسوا مستبشرين ، وقاموا يصلون ، ثم قال بعضهم لبعض : كم لبثتم نياما ؟ قال بعضهم : لبثنا يوما أو بعض يوم ، وقال آخرون ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحداكم بورقكم (الورق الفضة) هذه إلى المدينة ، فلينظر أيها أزكى طعاما وليحضر لنا جانبا منه ، فذهب تمليخا كما اعتاد من قبل ، ليشتري لهم الطعام وهو متلطف في السؤال مخفف حذرا من دقيانوس .

و بينما هو ماش سمع اسم المسيح ينادى به في كل مكان ، فحدث نفسه وقال : عجبالم لم يذبح دقيانوس هؤلاء المؤمنين ؟ وبقي حائرا دهشا وقال : ربما أكون في حلم أو لعل هذه ليست مدينتنا ، فسأل رجلا ما اسم هذه المدينة ، قال (أفسوس) وفي آخر مطافه تقدم إلى رجل فأعطاه ورقا ليشتري به طعامه فدهش الرجل من نوع هذا النقد الذي لم يره من قبل ، وأخذ يقلبه ويعطيه إلى جيرته ، وهم يعجبون منه ويقولون له : أهذا من كنز عثرت عليه ، فإن هذه الدراهم من عهد دقيانوس ، وقد مضت عليه حقبة طويلة ثم أخذوه وقادوه إلى حاكمي المدينة فظن في بادئ الأمر أنهم ساقوه إلى دقيانوس ، ولكن لما عرف أنه لم يؤت به إليه زال عنه الكرب وجفت مدامعه ، ثم سأله حاكم المدينة وهما أريوس وطنطيوس : أين الكنز الذي وجدت يا فتى ، وبعد حوار بينه وبينهما ذكر لهما خبر الفتية ودقيانوس وأن حديثهما كان أمس ؛ وإن كان لديكما ريب من أمرى فهاهو ذا الكهف فاذهبا معي لترى صدق ما أقول ، فسارا معه حتى وصلا إلى باب الكهف ، وتقدمهما تمليخا فأخبرهما بالحديث كله ، فداخلهما العجب حين علما أنهم ناموا تسعا وثلاثمائة سنة ، وأنهم أوقظوا ليكونوا آية للناس .

ثم دخل أريوس فرأى تابوتا من نحاس مختوما بخاتم ، وبداخله لوحان مكتوب عليهما قصة هؤلاء الفتية ، وكيف هربوا من دقيانوس حرصا على عقيدتهم ودينهم ، فسدّ عليهم بالحجارة .

ولما رأى أريوس ومن معه هذا القمص خروا لله سجدا وأرسلوا بريدا إلى ملكهم أن مجلّ واحضر لترى آية الله في أمر فتية بعثوا بعد أن ناموا ثلاثمائة سنة . ثم سار الملك ومعه ركب من حاشيته وأهل مدينته حتى أتوا مدينة أفسوس وكان يوما مشهودا ، وحين رأى الفتية خرا ساجدا لله ثم اعتنقهم وبكى وهم لا يزالون يسبحون ، ثم قال الفتية له : أيها الملك نستودعك الله ونعيذك من شر الإنس والجن ثم رجعوا إلى مضاجعهم وقبضت أرواحهم ، فأمر الملك أن يجعل كل منهم في تابوت من ذهب ، وحين جن الليل ونام رآهم في منامه يقولون له : اتركنا كما كنا في الكهف ننام على التراب حتى يوم البعث ، فأمر الملك أن يوضعوا في تابوت من ساج وألا يدخل عليهم أحد بعد ذلك ، وأن يبني على باب الكهف مسجد يصلى فيه الناس ، وجعل لهم ذلك اليوم عيدا عظيما . ذلك هو القمص الذي جعله النصرى دليلا على البعث . أما القرآن الكريم فإنه يقول إن آياتي على البعث وإعادة الأرواح بعد الموت ليست مقصورة على هذا القمص وحده ، فأياتي عليه لا تعد ولا تحصى ، فاقروا صحائف هذا الوجود ولا تقصروا أمركم على صحائف أهل الكهف والرقيم ، واجعلوا أنظاركم تتجه إلى ما حواه الكون لا إلى ما كتب في القمص والحكايات ، وإن كانت فيها الدلائل والآيات .

إجمال القرآن لقصص أهل الكهف

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا
(٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ

لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا
(١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢).

شرح المفردات

أم: حرف يدل على الانتقال من كلام إلى آخر، وهو بمعنى بل وهمزة الاستفهام
أى بل أحسبت، والخطاب في الظاهر للنبي عليه السلام، والمراد غيره كما سبق نظيره،
والكهف: النقب المتسع في الجبل، فإن لم يكن متسعاً فهو غار، والرقم لوح حجري
رقت فيه أسماؤهم كالألواح الحجرية المصرية التي يذكر فيها تاريخ الحوادث وتراجم
العظماء، أوى إلى المسكن: اتخذ مأوى ومكاناً له، والفتية واحد من فتى وهو الشاب
الحدث، وقد كانوا من أبناء أشرف الروم وعظماؤهم لهم أطواق وأسورة من
الذهب، وهيء: أى يسر، والرشد (بفتح حين وضم فسكون) الهداية إلى الطريق
الموصل للمطلوب، فضر بنا على آذانهم أى ضربنا عليها حجاً يمنع السماع، كما يقال
بنى على امرأته، يريدون بنى عليها قبة، والمراد أمنام نومة لا تنبهم الأصوات
الموقظة، عدداً: أى ذوات عدد والمراد التكثير، لأن القليل لا يحتاج إلى العد غالباً،
بعثناهم: أى أيقظناهم وأثرناهم من نومهم، والحزبين: هما الحزب القائل لبثنا يوماً
أو بعض يوم، والحزب القائل ربكم أعلم بما لبثتم، وأحصى: أى أضبط لأوقات
لبثهم، والأمد: مدة لها حد وغاية.

الإيضاح

(أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقم كانوا من آياتنا عجبا) أى لا تحسب
أن قصة أصحاب الكهف والرقم المذكورة في الكتب السالفة حين استمروا أحياء
أمداً طويلاً — عجبا بالإضافة إلى ما جعلناه على ظهر الأرض من الزينة؛ فليست
هى بالعجب وحدها من بين آياتنا؛ بل زينة الأرض وعجائبها أبداعاً وأعجب من

قصة أصحاب الكهف ؛ فإذا وقف علماء الأديان الأخرى عند أمثالها دهشين حائرين ، فأنا أدعوك وأمتك إلى ما هو أعظم منها ؛ وهو النظر في الكون وعجائبه من خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والكواكب إلى نحو أولئك من الآيات الدالة على قدرة الله وأنه يفعل ما يشاء لامعقب لحكمه .

أما القصص وغرائبها فلا تكفي للوصول إلى أبواب الخير والسعادة التي يطمح إليها الإنسان ويجعلها مثله العليا ليفوز بخيري الدنيا والآخرة ، فابحث عما نقش في صحائف الأكوان ، لافي صحائف الكهوف والغيران .

قال الزجاج : أعلم الله سبحانه أن قصة أصحاب الكهف ليست بعجبية من آيات الله ، لأن خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصتهم .

(إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهي لنا من أمرنا رشدا) أى اذكر أيها الرسول حين أوى أولئك الفتية إلى الكهف هربا بدينهم من أن يفتنهم عباد الأصنام والأوثان ، وقالوا إذ ذاك : ربنا يسر لنا بما نبتغي من رضاك وطاعتك رشدا من أمرنا ، وسدادا إلى العمل الذى نحب ، وارزقنا المغفرة والأمن من الأعداء .

(فضر بنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا) أى فضر بنا على آذانهم حجبا يمنعهم السماع وأنماهم نوما لا ينيهم فيه مختلف الأصوات فى الكهف سنين كثيرة معدودة .

(ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا) أى ثم أيقظناهم من رقدتهم لنعلم أى الطائفتين المتنازعتين فى مدة لبثهم ، أضبط فى الإحصاء والعد لمدة هذا اللبث فى الكهف .

وخلاصة ذلك — إنا بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبر حالهم انزى أيهم أحصى لما لبثوا أمدا ، فيظهر لهم عجزهم ويفوضوا ذلك إلى العليم الخبير ، ويتعرفوا ما صنع الله

بهم من حفظ أبدانهم ، فيزدادوا يقينا بكمال قدرته تعالى وعلمه ، ويستبصروا به في أمر البعث ، ويكون ذلك لطفًا لمؤمني زمانهم ، وآية بينة لكفارهم .

تفصيل ذلك القصص وبسطه

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ، إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاَهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا (١٤) هُوَ أَهْلًا قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا؟ (١٥) وَإِذِ اعْتزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (١٦) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ، لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَكَلَّمْتَهُمْ مِنْهُمْ رُءُوبًا (١٨) .

شرح المفردات

النبا : الخبر العظيم ، وبالحق : أى بالصدق ، والربط : الشد ، وربطت الدابة : شدتها بالرباط ، والربط : الحبل ، وربط الله على قلبه ، أى قوى عزيمته ، قاموا :

أى وقفوا بين يدي ملكهم الجبار دقيانوس ، إلهها : أى معبودا آخر لا استقلالاً ولا اشتراكاً ، اتخذوا من دونه آلهة : أى نحتوا أصناماً وعبدوها ، والسلطان : الحجة والبيّن : الظاهر ، والاعتزال والتعزل : تجنب الشيء بالبدن أو بالقلب كما قال :

يا بيتَ عاتكةَ التى أتعزل حذر العدا وبه الفؤاد مؤكلاً

فأووا إلى الكهف : أى التجئوا إليه ، وينشر لكم : أى يبسط لكم ، والمرفق : ما يرتفق وينتفع به ، وتزاور : تتنحى ، وذات اليمين : أى جهة يمين الكهف ، وتقرضهم : أى تعدل عنهم ، قال الكسائى : يقال : قرضت المكان : إذا عدلت عنه ولم تقربه ، فجوة : أى متسع ، والأيقاظ ، واحدهم يقظ (بضم القاف وكسرهما) والرقود : واحدهم راقد ، أى نائم ، وباسط ذراعيه : أى مادّهما ، والصيد : فناء الكهف ، والرعب : الخوف يملأ الصدر .

الإيضاح

(نحن نقص عليك نبأهم بالحق) أى نحن ننبئك نبأ هؤلاء الفتية الذين آووا إلى الكهف نبأ حقاً لا محل للريبة فيه .

وفى هذا إيماء إلى أن نبأهم كان معروفاً لدى العرب على وجه ليس بالصدق ، ويدل على ذلك قول أمية بن أبى الصلت :

وليس بها إلا الرقيمُ مجاوراً وصيدهم والقوم فى الكهف مُجَدِّدٌ
ثم فصل ذلك بقوله :

(إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) أى إنهم شباب آمنوا بربهم ، وزدناهم هدى بالثبوت على الإيمان والتوفيق للعمل الصالح والانقطاع إلى الله والزهد فى الدنيا .

وقد جرت العادة أن الفتیان أقبل للحق ، وأهدى للسبل من الشيوخ الذين

قد عتوا وانغمسوا في الأديان الباطلة ، ومن ثم كان أكثر الذين استجابوا لله ورسوله صلى الله عليه وسلم شبانا ، وبقى الشيوخ على دينهم ، ولم يسلم منهم إلا القليل .
 ونحو الآية قوله : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ » وقوله :
 « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » وقوله : « لِيَزِدَّادُوا إِيمَانًا
 مَعَ إِيمَانِهِمْ » .

في أي زمن كان قصص أهل الكهف ؟

رجح ابن كثير أن قصص أهل الكهف كان قبل مجيء النصرانية لبعدها كما رواه كثير من المفسرين متبعين ما أثر عن العرب ، والدليل على ذلك أن أحبار اليهود كانوا يحفظون أخبارهم ويعنون بها فقد روى عن ابن عباس أن قريشا بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء الفتية ، وعن خبر ذى القرنين ، وعن الروح ، وفي هذا أعظم الأدلة على أن ذلك كان محفوظا عند أهل الكتاب وأنه مقدم على النصرانية .

(ور بطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض) أى وألهمناهم قوة العزيمة وشدتنا قلوبهم بنور الإيمان حتى عزفت نفوسهم عما كانوا عليه من خفض العيش والرغبة عنه ، وقالوا حين قاموا بين يدي الجبار دقيانوس إذ عاتبهم على تركهم عبادة الأصنام - ربنا رب السموات والأرض ورب كل مخلوق .
 ثم أردفوا تلك المقالة بالبراءة من إله غيره فقالوا :

(لن ندعو من دونه إلها) أى لن ندعو من دون رب السموات والأرض إلها ، لاعلى طريق الاستقلال ولا على سبيل الاشتراك ، إذ لا رب غيره ولا معبود سواه .
 وقد أشاروا بالجملة الأولى إلى توحيد الألوهية والخلق ، وبالجملة الثانية إلى توحيد الربوبية والعبادة ، وعبدة الأصنام يقرون بتوحيد الأولى ، ولا يقرون بتوحيد

الثانية ، بدليل قوله . « وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ »
وقوله سبحانه حكاية عنهم : « إِنَّمَا نَعْبُدُهُمْ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » وكانوا يقولون
في تلبيتهم في الحج : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك .

ثم عللوا عدم دعوتهم لغيره بقولهم :

(لقد قلنا إذا شططا) أى إنا إذا دعونا غير الله لقد أبعدنا عن الحق ،

وتجاوزنا الصواب .

وفي هذا إيماء إلى أنهم دُعوا لعبادة الأصنام وليموا على تركها .

ثم حكى سبحانه عن أهل الكهف مقالة بعضهم لبعض فقال :

(هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين) أى إن
قومنا هؤلاء وإن كانوا أكبر منا سنا وأكثر تجربة قد أشركوا مع الله غيره ، فهلا
أتوا بحجة بينة على صدق ما يقولون ، كما أتينا على صدق ما ندعى بالأدلة الظاهرة ،
وإنهم لأظلم الظالمين فيما فعلوا وفيما افتروا ، ومن ثم قال :

(فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؟) أى لا أظلم ممن افترى على الله الكذب

ونسب إليه الشريك ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

(وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته
ويهيئ لكم من أمركم مرفقا) أى وإذا فارقتموهم وخالفتموهم في عبادتهم غير الله ،
ففارقوهم بأبدانكم والجلثوا إلى الكهف ، وأخلصوا لله العبادة في مكان تتمكنون
منها بلا رقيب ولا حسيب ، وإنكم إن فعلتم ذلك فالله تعالى يبسط لكم الخير من
رحمته في الدارين ، ويسهل لكم من أمر الفرار بدينكم والتوجه إليه في عبادتكم ،
ما ترتفقون وتنتفعون به .

وقد قالوا ذلك ثقة بفضل الله تعالى ورجاء منه لتوكلهم عليه وكال إيمانهم ،

أخرج الطبراني وابن المنذر عن ابن عباس قال : ما بعث الله نبيا إلا وهو شاب ،

وقرأ: «قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ» «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ»
«إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ» .

ثم بين سبحانه حالهم بعد أن أووا إلى الكهف فقال :

(وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه) أى إنك أيها المخاطب لو رأيت الكهف لرأيت الشمس حين طلوعها تميل عنه جهة اليمين ، ورأيتها حين الغروب تتركهم وتعدل عنهم جهة الشمال ، والحال أنهم في وسطه وامتسعه ، فيصيبهم نسيم الهواء وبرده .

وخلاصة ذلك — إنهم طوال نهارهم لاتصيبهم الشمس في طلوعها ولا في غروبها إذ كان باب الكهف في مقابلة بنات نعش ، فهو إلى الجهة الشمالية ، والشمس لاتسامت ذلك أبدا ، لأنها لاتصل إلى أبعد من خط السرطان ، وكل بلاد بعده إلى جهة الشمال تكون الشمس من ورائها لا أمامها فيكون الظل مائلا جهة الشمال طول السنة ، كما يعلم ذلك من علم الفلك .

وإيضاح ذلك أنه لو كان باب الكهف في ناحية الشرق لما دخل إليه شيء منها حين الغروب ، ولو كان من ناحية الجنوب لما دخل منها شيء حين الطلوع ولا الغروب وما تزاور الفء لا يميننا ولا شمالا ، ولو كان جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع ، بل بعد الزوال ولا تزال فيه إلى الغروب .

مكان الكهف

وللمفسرين في تعيين مكان الكهف أقوال : فقيل هو قريب من إيلياء (بيت المقدس) ببلاد الشام ، وقال ابن إسحاق : عند نينوى ببلاد الموصل ، وقيل ببلاد الروم ، ولم يرقم إلى الآن الدليل على شيء من ذلك ، ولو كان لنا في معرفة ذلك فائدة دينية لأرشدنا الله إليه كما قال صلى الله عليه وسلم : « ما تركت شيئا يقر بكم إلى الجنة ويباعدكم عن النار إلا وقد أعلمتكم به » .

(ذلك من آيات الله) أى إن هدايتهم إلى التوحيد ومخالفتهم قومهم وآباءهم وعدم الاكتراث بهم وبمليكتهم مع حداثتهم ، وإيوائهم إلى كهف تلك صفة بحيث تزاور الشمس عنهم طالعة ، وتقرضهم غاربة ، وإخبارك بقصصهم - كل ذلك من آيات الله الكثيرة فى السكون الدالة على كمال قدرته ، وعلى أن التوحيد هو الدين الحق ، وعلى أن الله يكرم أهله .

ثم بين أن هدايتهم إلى التوحيد كانت بعناية الله ولطفه فقال :

(من يهد الله فهو المهتد) أى من يوفقه الله للاهتداء بآياته وحججه إلى الحق كأصحاب الكهف ، فهو المهتدى الذى أصاب سبيل الحق ، وفاز بالحظ الأوفر فى الدارين .

وفى هذا إيماء إلى أن أصحاب الكهف أصابوا الصواب ووقفوا لتحقيق ما أملوا من نشر الرحمة عليهم وتهيئة المرفق .

(ومن يضل فلن تجد له وليا مرشدا) أى ومن يضلله الله لسوء استعداده وصرف اختياره إلى غير سبل الهدى والرشاد ، فلن تجد له أبدا خليلا ولا حليفا يرشده لإصابة سبل الهداية ، ويخلصه من الضلال ، لأن التوفيق والخذلان بيد الله يوفق من يشاء من عباده ، ويخذل من يشاء .

وفى هذا تسلية لرسوله وإرشاد له إلى أنه لا ينبغي له أن يحزن على إدبار قومه عنه وتكذيبهم إياه ، فإن الله لو شاء لهداهم وآمنوا .

(وتحسبهم أيقاظا وهم رقود) أى ولو رأيتمهم لظننتهم فى حال يقظة لانفتاح أعينهم وهم نيام كأنهم ينظرون إلى من أمامهم ، ولما للنوم من الحال الخاصة به التى يستينها الناظر بادية ذى بدء كاسترخاء المفاصل والأعضاء ولا سيما العينان والوجه . (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) ونقلب هؤلاء الفتية فى رقدتهم مرة للجنب الأيمن ، ومرة للجنب الأيسر ، كى ينال روح النسيم جميع أبدانهم ، ولا يتأثر ما بلى الأرض منها بطول المكث .

(وكتبهم باسط ذراعيه بالوصيد) أى وكتبهم ملق يديه على الأرض مبسوطتين
غير مقبوضتين بفناء الكهف كما روى عن ابن عباس ، وقيل المراد بالوصيد الباب
وأشدوا :

بأرض فضاء لا يُسَدُّ وصيدها على ومعرّوفى بها غير منكر
(لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا) أى لو شاهدتهم فى رقدهم التى رقدوها
فى الكهف ، لأدبرت عنهم هاربا فرارا منهم .

(وملتت منهم رعبا) أى وملتت نفسك حين اطلاعك عليهم خوفا وفرعا ،
لأن الله قد ألبسهم هيبه ووقارا كى لا يصل إليهم واصل ، ولا تلمسهم يد لاس
حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتوظفهم من رقدتهم قدرته وسلطانه فى الحين الذى
أراد أن يجعلهم فيه عبرة لمن شاء من خلقه ، وآية لمن أراد الاحتجاج عليهم من
عباده ، وليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها .

وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ؟
قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالُوا رَبُّكُمْ أَلْمَمَ بِمَا لَبِثْتُمْ ، فَأَبْعَثُوا
أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا
فَأَيُّاتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلِيَتَلَطَّفَ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ
يُظْهِرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُواكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مَاتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا
(٢٠) وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ
فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ
بِهِمْ ، قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ

ثَلَاثَةَ رَابِعِهِمْ كَلْبُهُمْ ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةَ سَادِسِهِمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ،
 وَيَقُولُونَ سَبْعَةَ وَثَامِنِهِمْ كَلْبُهُمْ ، قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ
 إِلَّا قَلِيلٌ ، فَلَا تُنَمِّرْ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ
 أَحَدًا (٢٢) .

شرح المفردات

بعثناهم: أى أيقظناهم ، لبثتم: أى أقمتم ، والورق: الفضة مضروبة كانت أو غير
 مضروبة ، وأزكى: أجود وأطيب ، ولينتلطف: أى يتكلف اللطف فى المعاملة كى لاتقع
 خصومة تجر إلى معرفته ، ولا يشعروا: أى لا يفعلوا ما يؤدى إلى شعور أحد من أهل
 المدينة بكم ، إن يظهروا عليكم: أى إن يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم ؛ وأصل العثور
 السقوط للوجه يقال عثر عثورا وعثارا: إذا سقط لوجهه ، ويقال فى المثل « من سلك
 الجدد أمن العثار » ، ثم استعمل فى الاطلاع على أمر من غير طلب له ، والساعة: يوم
 القيامة حين يبعث الله انطلائق جميعا للحساب والجزاء ، والتنازع التخاصم ، والذين
 غلبوا على أمرهم هم رؤساء البلد ، لأنهم هم الذين لهم رأى فى مثل هذا ، والمسجد:
 معبد المؤمنين من تلك الأمة وكانوا نصارى على المشهور ، والرجم: القول بالظن
 ويقال لكل ما يخرص رجم فيه ومرجوم ومرجم كما قال :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم.

والغيب: ما غاب عن الإنسان ؛ فالمراد أن يرمى الإنسان ما غاب عنه ولا يعرفه
 بالحقيقة ، كما يقال فلان يرمى بالكلام رميا: أى يتكلم من غير تدبر ، والمراد هنا
 القول بالظن والتخمين ، والمراء: الحاجة فيما فيه مرية وتردد ، والمراء الظاهر: مالا
 تعمق فيه بالأى يكذبهم فى تعيين العدد ، بل يقول هذا التعيين لادليل عليه ، فيجب
 عدم الجزم به ، ولا تستفت: أى لاتطلب الفتيا منهم .

الإيضاح

(وكذلك بعثناهم) أى كما أرقدنا هؤلاء الفتية فى الكهف وحفظنا أجسامهم من البلى على طول الزمان ، وثيابهم من العفن على مرّ الأيام بقدرتنا - بعثناهم من رقدتهم وأيقظناهم من نومهم ، لنعرفهم عظيم سلطاننا ، وعجيب فعلنا فى خلقنا ، وليزدادوا بصيرة فى أمرهم الذى هم عليه من براءتهم من عبادة الآلهة ، وإخلاصهم العبادة لله الواحد القهار ، إذا تبينوا طول الزمان عليهم وهم بهيئتهم حين رقدوا .

(ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم ؟) أى ولتكون عاقبة أمرهم أن يسأل بعضهم بعضا ، فيقول قائل منهم لأصحابه كم لبثتم ؟ ذاك أنهم استنكروا من أنفسهم طول رقدتهم .

(قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) أى فأجابه الآخرون ، فقالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ظنا منهم أن ذلك كذلك كان .

وإيضاح هذا أنهم لم يتحققوا مقدار لبثهم ، فهم لا يدرون مقدار ذلك اللبث ، أيوم هو أو بعض يوم ، لأن لؤثة النوم وظواهره لم تذهب من بصرهم وبصيرتهم ، فلم ينظروا إلى الأمارات التى تدل على ذلك المقدار الذى يظن أنه قد كان .

وأكثر المفسرين على أن دخولهم فى الكهف كان فى أول النهار واستيقاظهم كان آخر النهار .

(قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) أى وقال آخرون : ربكم أعلم بما لبثتم أى أنتم لا تعلمون مدة لبثكم ، بل الله هو الذى يعلمها ، وهذا من الأدب البارع فى الرد على الأولين بأحسن أسلوب وأجمل تعبير .

وحين علموا أن الأمر ملتبس عليهم عدلوا إلى الأهم فى أمرهم وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا :

(فابعثوا أحداكم بورقكم هذه إلى المدينة) أى فابعثوا بدراهمكم هذه إلى المدينة وهى طرسوس كما جزم بذلك فخر الدين الرازى .

وفي قولهم (هذه) إشارة إلى أن القائل كان قد أحضرها ليناولها بعض أصحابه ،
وإلى أن التأهب لأسباب المعاش بحمل الدراهم ونحوها لمن خرج من منزله ، لا ينفى
التوكل على الله كما جاء في الحديث « اعقلها وتوكل » .
(فليُنظر أيها أركي طعاما فليأتكم برزق منه) أي فليبصر أي الأطفمة أجدود
والذ فليأتكم بمقدار منه .

(وليتلف ولا يشعرن بكم أحدا) أي وليترفق في دخول المدينة وفي شرائه
وفي إيابه منها ، ولا يخبرن بمكانكم أحدا من أهلها .

ثم ذكروا تعليل الأمر والنهي السالفين بقولهم :

(إنهم إن يظهروا عليكم يرجوكم أو يعيدوكم في ملتهم) أي إن الكفار إذا
علموا بمكانكم ولم تفعلوا ما يريدون منكم ، بل ثبتتم على إيمانكم ، إما أن يقتلوكم رميا
بالحجارة ، وكان ذلك هو المتبع في الأزمنة الفائرة فيمن يعلن خلاف ما عليه الجماهير
في الأمور الدينية والسياسية التي لها شأن في الدولة ، وإما أن يعيدوكم إلى ملة
آبائكم التي هم مستمسكون بها .

(ولن تفلحوا إذا أبدا) أي وإن دخلتم في ملتهم ولو بالاكراه والقسر لن
تفوزوا بخير لا في دنياكم ولا في آخرتكم ، إذ ربما استدرجكم الشيطان إلى أن
تستحسنوا ما استعنتقونه من ذلك الدين الجديد ، وتستمرئوه فتستمرؤوا عليه ، فيكون
قد كتب عليكم الشقاء عند ربكم ، والخذلان الذي لا خذلان بعده .

(وكذلك أعتزنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها)
أي وكما بعثناهم بعد طول رقبتهم كهيتهم حين رقدوا ، ليتساءلوا بينهم فيزدادوا
بصيرةً بعظيم سلطانه تعالى ، ومعرفة حسن دفاع الله عن أوليائه - أعتزنا عليهم
الفريق الآخر الذين كانوا في شك من قدرة الله على إحياء الموتى ، وفي مرية من
إنشاء أجسام خلقه كهيتهم يوم قبضهم بعد البلى ، ليعلموا أن وعد الله حق ،
ويوقنوا أن الساعة آتية لا ريب فيها ، إذ لا حجة لمن أنكرها إلا الاستبعاد ،

ولكن وقوع ذلك الأمر العظيم وعليهم به مما يخفف من غلوائهم ، ويكبح جماح إنكارهم ويردهم إلى رشدهم .

ذاك أن حال هؤلاء الفتية في تلك الحقبة الطويلة ، وقد حبست عن التصرف نفوسهم ، وعطلت مشاعرهم وحواسهم ، وحفظت من التحلل والتفتت أبدانهم ، وبقيت على ما كانت عليه من الطراوة والشباب ، ثم رجعت بعدئذ تلك المشاعر والحواس إلى حالها ، وأطلقت النفوس من عقالها ، وأرسلت إلى تدير أبدانها ، فرأت الأمور كما كانت ، والأعوان هم الأعوان ، ولم تنكر شيئا عهدته في مدينتها ، ولم تتذكر حبسها المدى الطويل عن التصرف في شؤونها - وحال الذين يقومون من قبورهم بعد ما تعطلت مشاعرهم وحبست نفوسهم - من وادٍ واحد في الغرابة ، ولا ينكر ذلك إلا جاهل أو معاند ، ووقوع الأول يزيل الارتباب في إمكان وقوع الثاني ، ولا يبقى بعد ذلك شك في أن وعد الله حق ، وأن الله سيبعث من في القبور ، فيرد عليهم أرواحهم ، ويجازيهم جزاء وفاقا على حسب أعمالهم إن خيرا نخير ، وإن شرا فشر ، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير .

(إذ يتنازعون بينهم أمرهم) أي وكذلك أطلعنا عليهم بيدروس وقومه حين ينازع بعضهم بعضا في أمر البعث ، فمن مقرّ به ، وجاحد له ، وقائل تبعث الأرواح دون الأجساد - ففرح الملك وفرحوا بآية الله على البعث ، وزال ما بينهم من الخلاف في أمر القيامة ، وحمدوا الله إذ رأوا ما رأوا مما يثبتها ، ويزيل كل ريب فيها .

(فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا) أي إنهم انقسموا في شأنهم فريقين ، فريق يقول : نسد عليهم باب الكهف ونذرهم حيث هم ، وفريق يقول : نبني عليهم مسجدا يصلح فيه الناس وقد غلب هذا الفريق الفريق الأول في الرأي .

وقوله (ربهم أعلم بهم) جملة معترضة من كلامه تعالى ردا للخائضين في أمرهم

إما من أعتروا عليهم ، أو ممن كان في عهده صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب في بيان أنسابهم وأسمائهم وأحوالهم ومدة لبثهم .

وقد ذكر العلماء أن اتخاذ القبور مساجد منهي عنه أشد النهي حتى ذكر ابن حجر في كتابه الزواجر أنه من الكبائر ، لما روى في صحيح الأخبار من النهي عن ذلك ، روى أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لعن الله تعالى زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » وزاد مسلم « ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك » .

وروى الشيخان والنسائي عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لعن الله تعالى اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

وروى أحمد والشيخان والنسائي قوله صلى الله عليه وسلم : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق يوم القيامة » .

وروى أحمد والطبراني : « إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، ومن يتخذ القبور مساجد » .

إلى نحو ذلك من الآثار الصحيحة ، فليعتبر المسلمون اليوم بهذه الأخبار التي لا مريية في صحتها ، وليقلعوا عما هم عليه من اتخاذ المساجد في أضرحة الأولياء والصالحين والتبرك بها ، والتمسح بأعتابها ، وليعلموا أن هذه وثنية مقنعة ، وعود إلى عبادة الأوثان والأصنام على صور مختلفة ، والعبرة بالجواهر واللب ، لا بالعرض الظاهر ، فذلك إشراك بالله في ربوبيته وعبادته ، وقد حاربته الدين أشد الحاربة ، ونعى على المشركين ما كانوا يفعلون .

اللهم ألهم المسلمين رشدهم ، وثبتهم في أمر دينهم ، ولا تجعلهم يحذون حذو من قبلهم حذو القُدَّة بالقُدَّة ، وأرجعهم إلى مثل ما كان يفعله المسلمون في الصدر الأول

وما بعده ، فرجاله هم الأسوة ، وقد صح أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما وجد قبر دانيال فى عهدده بالعراق أمر أن يسوى بالأرض ، وأن تدفن تلك الرقعة التى وجدوها عنده وفيها شىء من الملاحم وغيرها من الأخبار .

ولما ذكر سبحانه القصة ونزاع المتخاصمين فيما بينهم - شرع يقص علينا ما دار فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم من الخلاف فى عدد أصحاب الكهف فقال :

(سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) أى سيقول بعض الخائضين من أهل الكتاب ذلك ، فقد روى أن نصارى نجران تناظروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدد أهل الكهف ، فقالت الملكانية (أصحاب الملك) : هم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وقالت اليعقوبية : هم خمسة سادسهم كلبهم ، وقالت النسطورية : هم سبعة وثامنهم كلبهم ، وروى هذا عن ابن عباس ، وهو الحق بدليل أنه تعالى حكم على القولين السابقين بأنهما رجم بالغيب ، فأرشد ذلك إلى أن الحال فى الأخير بخلافه ، وأنهم إنما قالوه عن ثبات علم وطمانينة نفس .

(قل ربي أعلم بعدتهم) فى هذا إرشاد لنا إلى أن الأحسن فى مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى ، إذ لا احتياج إلى الخوض فى مثل ذلك بلا علم ، فإن أطلعنا على أمر قلنا به ، وإلا توقفنا ولم نجزم بشىء .

(ما يعلمهم إلا قليل) أى ما يعلم عددهم إلا قليل من الناس ، روى قتادة عن ابن عباس أنه قال : أنا من القليل الذى استثنى الله عز وجل ، كانوا سبعة سوى الكلب ، ولم يرد فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم شىء فى ذلك .

وفى هذا دلالة على أن المهم ليس هو معرفة العدد ، بل المهم الاعتبار بذلك القصص ، وبما يكون نافعا لعقولنا وتطهير أخلاقنا ورقينا فى حياتنا الدنيوية والأخروية .

و بعد أن ذكر سبحانه هذا القصص ، نهى رسوله صلى الله عليه وسلم عن شيئين : المرء في أمرهم ، والاستفتاء في شأنهم فقال :

(فلا تمار فيهم إلا مرء ظاهرا) أى فلا تجادل في شأن الفتية إلا جدلا سهلا لنا ، وقص عليهم ما جاء في الكتاب الكريم دون تكذيب لهم في تعيين العدد ، ولا تجهيل لهم في الحديث ، إذ لا يترتب على ذلك كبير فائدة ، لأن المقصد من القصة هو العظة والاعتبار ، ومعرفة أن البعث حاصل لا محالة وهذا لا يتوقف على عدد معين إلى أن ذلك مما يخل بمكارم الأخلاق التي بعث لإتمامها .

ونحو الآية قوله : « وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » .

(ولا تستفت فيهم منهم أحدا) أى ولا تستفت النصارى في شأنهم فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجما بالغيب من غير استناد إلى دليل قاطع ولا نص صريح ، وقد جاءك ربك بالحق الذى لا مرية فيه ، فهو الحاكم المقدم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال السالفة .

وفي الآية دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب فى شيء من العلم .

وَلَا تَقُولَنَّ لِيْءَ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَّبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤) .

المعنى الجملى

جاءت هاتان الآيتان إرشادا وتأديبا من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، يعلمه بأنه إذا أراد أن يخبر عن شيء سيفعله فى مستأنف الأيام ، أن يقرن قوله بمشيئة علام الغيوب الذى يعلم ما كان وما سيكون .

وجاءت معترضة أثناء القصة لما تضمنته من تعليم عباده تفويض الأمور كلها إليه ، وبيان أنه لا يحدث فى ملكه إلا ما يشاء .

روى أنهما نزلتا حين سألت قریش رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين ، فقال عليه الصلاة والسلام غدا أخبركم ، ولم يستثن (لم يقل إن شاء الله) فأبطأ عليه الوحي خمسة عشر يوماً ، فشق ذلك عليه وكذبتة قریش .

الإيضاح

(ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) أى ولا تقولن أيها الرسول لشيء إني سأفعل ذلك غدا إلا أن تقول : إن شاء الله ، ذلك أنه ربما مات المرء قبل مجيء الغد ، أو ربما عاقه عائق عن فعله ، فإذا لم يقل إن شاء الله صار كاذباً في ذلك الوعد ونفر الناس منه .

(واذا كررت ذلك ، وهذا أمر بالتذكير ، سواء أطل الفصل أم قصر .

(وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً) أى وقل عسى أن يوفقنى ربي لشيء أقرب إرشاداً للناس ، وأظهر حجة من نبا أهل الكهف .
وقد حقق الله له ذلك ، فاتاه من الآيات ما هو أعظم من ذلك ، كقصص الأنبياء مع أممهم على توالى العصور ومر الأيام .

وخلاصة ذلك - اطمع من ربك أن يهديك لأقرب مما أرشدك إليه خيراً ومنفعة فى ضمن ما ألقى إليك من الأوامر والنواهي ، وقد استجاب الله دعاءه ، فهداه فيما أنزل عليه إلى ما هو خير منفعة ، وأجدى فائدة للمسلمين فى دنياهم وآخرتهم ، وآتاهم من الخير العميم ما جعلهم به خير أمة أخرجت للناس .

ثم بين سبحانه ما أجل فى قوله : فصر بنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً ، وأكده بالآية بعدها فقال :

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا لَبِثُوا ، لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ، مَا لَهُمْ
مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦)

الإيضاح

(ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا) أى ولبثوا في الكهف حين
ضربنا على آذانهم ثلاثمائة سنة على حساب أهل الكتاب الذين علموا قومك السؤال
عن شأنهم ، وتسعا زائدة على حساب قومك الذين سألك عن ذلك .

ولا شك أن في هذا البيان معجزة لرسوله النبي الأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب ،
ولم يدرس الحساب ولا الهندسة ولا الفلك ، فمن أين له أن كل مائة سنة شمسية
تزيد ثلاث سنين قمرية ، وكل ثلاث وثلاثين سنة شمسية تزيد سنة قمرية ، وكل
سنة شمسية تزيد نحو أحد عشر يوماً على السنة القمرية .

لا شك أنه قد أعلمه اللطيف الخبير بما أوحاه إليه ، وهداه لأقرب من هذا
رشداً ، وهو الذي جعله يلفت الأنظار إلى علم ما على الأرض زينة لها كضوء
الشمس والقمر على وجهها ، وما نتج عن ذلك الضوء من بهجة الأرض وزينتها ؛
فلولا اختلاف الفصول لم يكن للأرض زينة ، ولا اختلاف للفصول إلا بتقلب
أحوال الشمس وطلوعها من حيث لا تسمى ، فما من حيوان ولا نبات إلا أسَّ
حياته ضوء الشمس الذي أرسله الله إلى الأرض ، كما أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم
ليهدينا إلى نور العلم ويقول لنا : إن النظر فيما على الأرض من زينة أقرب رشداً
من قصص الأولين ، وحكايات الغابرين .

فكم في العوالم المحيطة بكم من خوارق ، فإياكم أن تذروها ابتغاء ما يقع على
أيدي أنبيائكم وأوليائكم . فإني قد أرسلت الأنبياء ليرشدوكم إلى ملكي وما في خلقي

من عجائب ، وما الأنبياء والأولياء إلا بعض خلقى «تَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» .

ثم أكد أن المدة المضروبة على آذانهم هي هذه المدة فقال :
(قل الله أعلم بما لبثوا) أى قل الله أعلم منكم بهم وقد أخبر بمدة لبثهم فهو الحق الذى لا يحوم حوله شك .

وفائدة تأخير بيانها للدلالة على أنهم تنازعوا فيها أيضا كما تنازعوا فى العدد ، وعلى أن هذا البيان من الغيب الذى أخبر الله به نبيه ليكون معجزة له ، وجاء قوله « قل الله أعلم بما لبثوا » تذييلا لسابقه ليكون محاكيا قوله فى حكاية عددهم « قل ربى أعلم بعدتهم » .

ثم أشار إلى اختصاصه بعلم ما لبثوا مبينا علمه فقال :
(له غيب السموات والأرض) أى والله علم ما غاب فيهما ، وخفى من أحوال أهلها ، لا يعزب عنه علم شىء منه ، فسلموا له علم ما لبثت الفتية فى الكهف ، وإذا علم الخفى فيهما فهو بعلم غيره أدرى .

ومن ذلك العلم الغائب على كثير من العقول حساب السنة الشمسية والقمرية ، فقد غيبه الله عن بعض الناس ، ولم يطلع عليه إلا العارفين بحساب الأفلاك ، ومن ثم يعجبون من أمر نبيهم ويعلمون أن هذا مبدأ زينة الأرض وزخرفها .

(أبصر به وأسمع) هذا أسلوب فى اللغة يدل على التعجب والمبالغة فى الأمر الذى تتحدث بشأنه ، أى ما أبصر الله تعالى بكل موجود ، وأسمعه بكل مسموع ، فهو لا يخفى عليه شىء من ذلك ، وهذا أمر عظيم من شأنه أن يتعجب منه .

وقد ورد مثل هذا فى الحديث : « ما أحلمك عن عصاك ، وأقربك ممن دعاك ، وأعطفك على من سألك » .

(ما لهم من دونه من ولى) أى ما خلقه دون ربهم الذى خلقهم - ولى
تدبير أمورهم وتصرفهم إلى ما هم فيه مصرفون .

(ولا يشرك في حكمه أحدا) أى إنه تعالى هو الذى له الخلق والأمر لامعقب لحكمه ، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ، تعالى الله وتقدس أسماؤه .

وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا (٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ، بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١) .

شرح المفردات

لا مبدل : أى لا مغير ، لكلماته أى لأحكامها فلا يستطيع أحد نسخ أحكام ما جاء فى كتابه ، ملتحدا : أى ملجأ تعدل إليه إذا ألت بك ملة ، واصبر نفسك : أى احبسها وثبتها ، بالغداة والعشى : أى فى طرفى النهار ، وخصهما بالذكر لأنهما محل الغفلة وفيهما يشتغل الناس بأمور دنياهم ، وجهه : أى رضاه وطاعته ، لأن من رضى

عن شخص يقبل عليه ، ومن غضب عليه يعرض عنه ، ولا تعد عينك عنهم : أى لا تصرف عينك النظر عنهم إلى أبناء الدنيا ؛ والمراد لا تحتقرهم وتصرف النظر عنهم لثأنة منظرهم إلى غيرهم ، تريد زينة الحياة الدنيا: أى تطالب بمجالسة من لم يكن مثلهم من الأغنياء وأصحاب الثراء ، أغفلنا قلبه : أى جعلناه غافلا ، فرطا: أى تفرطا وتضييعا لما يجب عليه أن يتبعه من أمر الدين ، وأعدتنا : أى أعددنا وهياتنا ، والسرادق : لفظ فارسى معرّب يراد به الفسطاط (الخيمة) شبه به ما يحيط بهم من لهب النار المنتشر منها فى سائر الجهات ، المهل : دردى الزيت أو ما أذيب من المعادن كالرصاص والنحاس ، يشوى الوجوه : أى ينضجها إذا قدم ليشرب لشدة حره ، ومرتقا : أى متكأ ؛ يقال بات فلان مرتقا أى متكئا على مرفق يده ، وجنات عدن : أى جنات إقامة واستقرار ؛ يقال عدن بالمكان إذا أقام فيه واستقر ومنه المعدن لاستقرار الجواهر فيه ، والأساور : واحدها سوار ، والسندس : رقيق الديباج واحده سندسة وهو فارسى معرّب ، والاستبرق : ما غلظ منه وهو رومى معرب ، والأرائك واحدها أريكة - سرير عليه حجلة (أو ناموسية) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قصص أهل الكهف ودل اشتغال القرآن عليه على أنه وحي من علام الغيوب - أمره جل شأنه بالمواظبة على درسه وتلاوته ، وألا يكثرث بقول القائلين له انت بقرآن غير هذا أو بدله .

الإيضاح

(واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا) أى واتل الكتاب الذى أوحى إليك ، والزم العمل به ، واتبع ما فيه من أمر ونهى ، وإن أحدا لا يستطيع أن يغير ما فيه من وعيد لأهل معاصيه ، ومن

وعد لأهل طاعته ، فإن أنت لم تتبعه ولم تأتم به ، فنالك وعيد الله الذي أوعده به الخالفين حدوده - فلن تجد موثلاً من دونه ، ولا ملجأ تلجأ إليه ، إذ قدرة الله محيطه بك وبجميع خلقه ، لا يقدر أحد على الهرب من أمر إرادته به .

(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) أى احبس نفسك وثبتها مع فقراء الصحابة كعمار بن ياسر وصهيب وبلال وابن مسعود وأضرابهم ممن يدعون ربهم بالغداة والعشي بالتسبيح وصالح الأعمال ابتغاء مرضاة الله ، لا يريدون عرضاً من أعراض الدنيا ولا شيئاً من لذاتها ونعيمها .

روى « أن عيينة بن حصن الفزاري أتى النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم وعنده جماعة من فقراء أصحابه ، فيهم سلمان الفارسي وعليه شملة قد عرق فيها ، ويده خوص يشقه ثم ينسجه ، فقال له : أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر وأشرافها ، فإن أسلمنا أسلم الناس ، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء ، فنتجهم حتى نتبعك ، أو اجعل لهم مجلساً ولنا مجلساً ، فنزلت الآية » .

وعن أبي سعيد وأبي هريرة قالا : « جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجل يقرأ سورة الحجر أو سورة الكهف فسكت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم » .

ونحو الآية قوله : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » .

ومقال هؤلاء شبيه بمقالة قوم نوح : « أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ » . ثم أمره سبحانه بمراقبة أحوالهم فقال : (ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا) أى لاتصرف بصرك ونفسك عنهم رغبة في مجالسة الأغنياء لعلهم يؤمنون .

وخلاصة ذلك - النهى عن احتقارهم وصرف النظر عنهم إلى غيرهم لسوء

حالمهم وقبح بزتهم ، روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت الآية : الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت أن أصبر نفسى معه .

ثم أكد هذا النهى بقوله :

(ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) أى ولا تطع فى تنحية الفقراء عن مجلسك من جعلنا قلبه غافلاً عن ذكر الله ، لسوء استعداده ، واتباع شهواته وإسرافه فى ذلك غاية الإسراف ، وتدميته نفسه ، حتى ران الكفر والفسوق والعصيان على قلبه ، وتمادى فى اجتراح الآثام والأوزار .

وفى ذلك تنبيه إلى أن الباعث لهم على استدعاء الطرد غفلة قلوبهم عن جناب الله والعمل على ما يقرب منه ، وشغلهم بالأمر الحسية حتى خفى عليهم أن الشرف بحلية النفس لآزينة الجسد وزخرف الحياة من اللباس والطعام والشرف .

وبعد أن نهى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يلتفت إلى قول أولئك الأغنياء الذين قالوا إن طردت أولئك الفقراء آمننا بك - أمره أن يقول لهم ولغيرهم على طريق التهديد والوعيد : هذا هو الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، وقد أشار إلى ذلك بقوله :

(وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) أى قل أيها الرسول لأولئك الذين أغفلنا قلوبهم عن الذكر ، واتبعوا أهواءهم : هذا الذى أوحى إلى هو الحق من عند ربكم ، وهو الذى يجب عليكم اتباعه والعمل به ، فمن شاء أن يؤمن به ويدخل فى غمار المؤمنين ، ولا يتعلل بما لا يصلح أن يكون معذرة له فليفعل ، ومن شاء أن يكفر به وينبذه وراء ظهره فأمره إلى الله ، ولست بطارد لأجل أهوائكم من كان للحق متبعاً ، وباللهم وبما أنزل على مؤمننا .

وخلاصة ذلك - إتنى فى غنى عن متابعتكم وإتنى لا أبالى بكم ولا بإيمانكم ، وأمر ذلك إليكم ، وبيد الله التوفيق والخذلان والهوى والضلال ، وهو لا ينتفع بإيمان

المؤمنين ، ولا يضره كفر الكافرين كما قال : « إِنَّ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا » .

ولما هدد السامعين بأن يختاروا لأنفسهم ما يجدونه غدا عند الله - أتبعه بذكر الوعيد على الكفر والمعاصي ، والوعد على الأعمال الصالحة ، فبدأ :

(إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها) أى إنا قد أعددنا لمن ظلم نفسه وأنف من قبول الحق ، ولم يؤمن بما جاء به الرسول - نارا يحيط بهم لهبها المستعر من كل جانب كما يحيط السرادق بمن حل فيه ، فلا مخلص منه ولا ملجأ إلى غيره (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه) أى وإن يستغث هؤلاء الظالمون يوم القيامة وهم فى النار ، فيطلبوا الماء لشدة ما هم فيه من العطش لحر جهنم كما قال فى سورة الأعراف حكاية عنهم : « أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » يؤت لهم بماء غليظ كدردى الزيت ، وإذا قرب إليهم للشرب سقطت جلود وجوههم ونضجت من شدة حره .

روى أحمد والترمذى والبيهقى والحاكم عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « المهل : كعكر الزيت ، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه » ، وعن ابن عباس قال أسود كعكر الزيت .

(بنس الشراب وساءت مرتفقا) أى ما أقبح هذا الشراب الذى هو كالمهل ، فهو لا يطفى غلة ، ولا يسكن حرارة الفؤاد ، بل يزيد فيها إلى أقصى غاية ، وما أسوأ هذه النار منزلا ومقيلا وموضعا للارتفاق كما قال فى الآية الأخرى : « إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » .

ثم ثنى بذكر السعداء فقال :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا) أى إن الذين آمنوا بالحق الذى يوحى إليك ، وعملوا ما أمرهم به ربهم ، فالله لا يضيع أجرهم على ما أحسنوا من الأعمال ، ولا يظلمهم على ذلك نفيرا ولا قطميرا .

ثم بين ما أعد لهم من النعيم بقوله:

(١) (أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار) أى إنه لهم جنات

يقيمون فيها تجري من تحت غرفها الأنهار .

(٢) (يخلون فيها من أساور من ذهب) أى يلبسون فيها أساور من ذهب

تكون حلية لهم ، وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تبلغ الحلية من

المؤمن حيث يبلغ الضوء » . أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما ، وظاهر الآية أنها جميعها

من ذهب ، وجاء فى آية أخرى من فضة وفى أخرى من ذهب ولؤلؤ فيعلم من هذا

أنهم يخلون بالأساور الثلاثة ، فيكون فى يد الواحد منهم سوار من ذهب وآخر من

فضة وآخر من لؤلؤ .

(٣) (ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق) أى ويلبسون رقيق الحرير

وغليظه مما نسج من سلوك الذهب ، وهذا لباس المترفين فى الدنيا ، ومنتهى ما يكون

للأهل النعيم .

واختير اللون الأخضر ، لأنه أرفق بالأبصار ، ومن ثم جعله الله لون النبات

والأشجار ، وجعل لون السماء الزرقة ، لأنه نافع لأبصار الحيوان أيضا ، وقالوا :

ثلاثة مذهبة للحزن : الماء والخضرة والوجه الحسن .

(٤) (متكئين فيها على الأرائك) أى يتكئون فيها على سرر مزدانة بالستور ،

وهذا دليل على منتهى الراحة والنعيم كما يكون ذلك فى الدنيا .

(نعم الثواب وحسنت مرتفقا) أى نعمت الجنة لهم جزاء وفاقا على جميل أعمالهم

وحسنت منزلا ومقيلا .

ونحو الآية قوله : « أولئك يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً

وَسَلَامًا . خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » .

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ

وَحَفَفْنَا هُمَا بِنَخْلٍ جَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا

وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ، وَفَجَّرْنَا خِلَالَ لَهْمَا نَهْرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ
 لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ
 جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ
 السَّاعَةَ قَائِمَةً ، وَلَنْ رُدُّدْتُ إِلَى رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦)
 قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ : أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ
 مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي
 أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ،
 إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ
 جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠)
 أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ
 فَأُصْبِحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَتَّفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ،
 وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ
 ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) .

شرح المفردات

الجنة : البستان ، سميت بذلك لاجتماع أرضها واستقرارها بظل الشجر ، وكل
 مادة (ج ن ن) تفيد الخفاء والاستتار كالجنين والجن والمجنون لاستتار عقله وجن
 الليل : أى أظلم إلى نحو ذلك ، أعناب : أى كروم متنوعة ، وحففناهما بنخل : أى
 جعلنا النخل محيطًا بهما مطبقًا بحفافيهما : أى جانبيهما ، يقال حفه القوم : أى

طافوا به ، ومنه قوله : « حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ » وحففته بهم إذا جعلتهم حافين حوله ، أكلها : أى ثمرها ، ولم تظلم : أى لم تنقص ، والنهر لغة فى النهر : وهو مجرى الماء العذب ، ثمر : أى أنواع من المال يقال ثمر فلان ماله وأثمره : إذا نماه . قال الحرث ابن كلدّة :

ولقد رأيت معاشرنا قد أثمروا مالا وولدا

والصاحب : المصاحب لك ، يحاوره : أى يجادله ويراجعه الكلام بالوعظ والدعاء إلى الإيمان بالله والبعث ، والمراد من النفر الخدم والحشم والأعوان ، أن تبديد : أى تفتى وتهلك ، قائمة : أى كائنة متحققة ، ومنقلبا : أى مرجعا وعاقبة ، سواك : أى عدلك وملكك إنسانا ، لكننا هو الله ، أصل التركيب لكن أنا هو الله ربى (دخله نقل وحذف) لولا : حرف يفيد الحث على الشيء والتوبيخ على تركه ، ماشاء الله : أى ماشاء الله كائن ، حسبانا من السماء : أى مطرا عظيما يقلع زرعها وأشجارها والصعيد : وجه الأرض ، وزلقا : أى تصير بحيث تنزلق عليها الرجل ؛ والمراد أنها تصير ترابا أملس لا تثبت فيه قدم ، والغور : الغائر فى الأرض الغائص فيها ، طلبا : أى عملا وحركة لرده ، وأحيط بثمره : أى أهلكت أمواله ، يقال أحاط به العدو : إذا استولى عليه وغلبه ثم استعمل فى كل إهلاك ، ويقاب كفيه ، هذا أسلوب فى اللغة يفيد الندامة والحسرة ، فإن من تعظم حسرته يصفق بإحدى يديه على الأخرى متأسفا متلهفا ، خاوية : أى ساقطة ، يقال خوت الدار : تهدمت وخوت وخويت خيتا وخويّا : خلت من أهلها ، والعروش : واحدها عرش وهى الأعمدة التى توضع عليها الكروم ، منتصرا : أى ممتنعا بقوة عن انتقام الله ، عقبا : أى عاقبة .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله نبيه بصبر نفسه مع أقراء المؤمنين ، وعدم طاعة أولئك الأغنياء من المشركين الذين طلبوا منه صلى الله عليه وسلم طرد هؤلاء الصعاليك ، وأن

يعين لهم مجلسا وللسادة مجلسا آخر حتى لا يؤذوهم بمناظرهم البشعة ، وروايتهم المستقدرة ، وحتى لا يقال إن السادة ومواليهم يجتمعون في صعيد واحد ، ويتحدثون وإياهم حديث الندّ للندّ ، وفي ذلك امتهان لكبريائهم وخفض من عزتهم - قفى على ذلك بمثل يستبين منه أن المال لا ينبغي أن يكون موضع فخار ، لأنه ظل زائل ، وأنه كثيرا ما يصير الفقير غنيا والغنى فقيرا ، وإنما الذى يجب أن يكون أساس التفاخر ، وعمدة التفاضل ، هو طاعة الله وعبادته ، والعمل على ما يرضيه فى دار الكرامة حيث لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

الإيضاح

(واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا) أى واضرب أيها الرسول لهؤلاء المشركين بالله الذين سألوك أن تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي - مثلا هو مثل رجلين جعلنا لأحدهما بستانين من كروم العنب ، وأحطناهما بنخل ، وجعلنا وسط هذين البستانين زرعا . وخالصة ذلك - إن أرضه جمعت القوت والفواكه ، وهى متواصلة متشابكة ، فلها منظر ورواء حسن ووضع أنيق يخاب اللب بجماله وبهجته إذا امتلأ منه البصر . روى أن أخوين من بنى إسرائيل ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فتشاطراها فاشترى الكافر بنصيبه ضياعا وعقارا ، وأنفق المؤمن ما ورثه فى وجوه الخير وطاعة الله ، وآل أمرهما إلى ما قصه الله علينا فى كتابه .

وسواء أصحت الرواية أم لم تصح ، فإن ضرب المثل لا يتوقف على صحتها . وقد ضرب الله المثل لبيبين حال الفريقين المؤمنين والكافرين ، من قبل أن الكفار مع تقلبهم فى النعيم قد عصوا ربهم ، وأن المؤمنين مع مكابدتهم للشدائد والبأساء قد أطاعوه .

(كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا) أى كلتا الجنتين أخرجت ثمرها

ولم تنقص منه شيئا فى سائر الأعوام على خلاف ما يعهد فى الكروم والأشجار من أنها تكثر غلتها أعواما وتقل أعواما أخرى .

(وفجرنا خلالهما نهرا) أى وشققنا وسط الجنتين نهرا كبيرا تنفرع منه عدة جداول ، ليدوم سقيهما ، ويزيد بهاؤها وتكثر غلتها .

(وكان له ثمر) أى وكان لصاحب الجنتين أموال أخرى غيرها من ذهب وفضة ثمرها بما ادخره من غلات الجنتين ومن تجارات أخرى .

وخلاصة ذلك — إنه سبحانه أنعم عليه بخيرات الدنيا صامتة وناطقها ، ثاغيا وراغيا ، وكان له مزارع يستخدم فيها أعوانه وخدمه ولا يستعصى عليه شيء من مسرات الدنيا ومباهجها ، ولذاتها ونعيمها .

وبعد أن تم له الأمر وقعد على سنام العز والكبرياء ، داخله الزهو والخيلاء .
(فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكرم منك مالا وأعز نفرا) أى فقال لصاحبه المؤمن حين حاوره وراجع الحديث ، مذكرا له بالإيمان بالله والبعث والقيامة :
أنا أكرم منك مالا كما ترى من جناتى وزروعى المختلفة ، وأعز عشيرة ورهطا تقوم بالذنب عني ودفع خصومتي ، وتنفر معي عند الحاجة إلى ذلك .

ثم زاد فخرا على صاحبه المسلم وأراه عيانا ما يتمتع به من المناظر البهيبة فى تلك الجنان التى لا تبنى ، وذلك ما أخبر عنه سبحانه بقوله :

(ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال ما أظن أن تبديد هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة) أى ودخل هذا الذى جعلنا له جنتين من أعناب وأشجار ونخيل ، ومعه صاحبه ، هاتين الجنتين وطاف به فيهما مفاخرا وقال حين عاين ما فيهما من أشجار وثمار وزروع وأنهار مطردة : ما أظن أن تبنى هذه الجنة أبدا ولا تخرب — كما قال وهو شاك فى المعاد إلى الله والبعث والنشور : ما أظن أن يوم القيامة آت كما تقولون ، وقد كان فى كل ذلك ظالما لنفسه ، إذ وضع الشيء فى غير موضعه ،

فقد كان أليق به أن يكون شاكرا لتلك النعم ، متواضعا لربه ، لا أن يكون كافرا به ، منكرا لما جاء به الوحي وأقرته جميع الشرائع .

وخلاصة ذلك — إنه لحقه الخسار من وجهين .

(١) ظنه أن تلك الجنة لا تهلك ولا تبديد مدى الحياة .

(٢) ظنه أن يوم القيامة لن يكون .

ثم تمنى أمنية أخرى كان في شك منها فقال :

(ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا) أى ولئن كان معاد ورجعة

إلى الله ليكون لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي ، والذي جرأه على هذا

الطمع وعلى تلك اليمين الفاجرة - اعتقاده أن الله إنما حباه بما حباه به في الدنيا لما له

من كرامة لديه ، ولما فيه من مزايا استحقق بها أن ينال ما نال .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن الكافر «وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ

لَلْحُسْنَى» .

وخلاصة ذلك — إنه لم يعطى الجنة في الدنيا إلا ليعطيني في الآخرة أفضل

حظا ، قال ذلك طمعا وتمنيا على الله وادعاء للكرامة عنده .

ثم ذكر سبحانه جواب المؤمن له فقال :

(قال له صاحبه وهو يحاوره : أ كفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة

ثم سواك رجلا ؟) أى قال له صاحبه للمؤمن واعظا وزاجرا عما هو فيه من الكفر :

أ كفرت بالذي خلقك من التراب ؟ إذ غذاء والديك من النبات والحيوان ، وغذاء

النبات من التراب والماء ، وغذاء الحيوان من النبات ، ثم يصير هذا الغذاء

دما يتحول بعضه إلى نطفة يكون منها خلقك بشرا سويا على أتم حال وأحكمه على

حسب ما تقتضيه الحكمة - فهذا الذي خلقك على هذه الحال قادر على أن يخلقك

مرة أخرى .

والخلاصة — كيف تمجدون ربكم ، ودلالة خلقكم على وجوده ظاهرة جليلة

يعلمها كل أحد من نفسه ، فما من أحد إلا يعلم أنه كان معدوما ثم وجد ، وليس وجوده من نفسه ولا مستندا إلى شيء من المخلوقات ، لأنها مثله ، وقد أشار إلى ذلك بقوله :

(لكنا هو الله ربى) أى لكن أنا لا أقول بمقاتك ، بل أعترف بالوحدانية بالربوبية وأقول هو الله ربى .

(ولا أشرك بربى أحدا) فهو المعبود وحده لا شريك له .

وفى هذا تعريض بأن صاحبه لما عجز الله عن البعث فقد جعله مساويا لخلقته فى هذا العجز ، وإذا أثبت المساواة فقد أثبت الشريك ثم زاد فى عظمة صاحبه فقال له :

(ولولا إذ دخلت جنتك قلت : ما شاء الله لا قوة إلا بالله) أى هلا إذ أعجبتك جنتك حين دخلتها ونظرت إليها - حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك ، وقلت : الأمر ما شاء الله ، والكائن ما قدره الله ، ليكون ذلك منك اعترافا بالعجز ، وبأن كل خير بمشيئة الله وفضله ، وهلا قلت : لا قوة إلا بالله ، إقرارا بأن ما قويت به على عمارتها وتدير أمرها فهو بمعونة الله وتأيدته . وبعد أن نصح الكافر بالإيمان وأبان له عظيم قدرة الله وكبير سلطانه - أجابه عن افتخاره بالمال والنفس ورد على قوله : أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا فقال :

(إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا ، فعسى ربى أن يوتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا . أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا) أى إن ترنى أيها الرجل أقدر منك فإنى أرجو الله أن يقلب الآية ويجعل ما بى بك ويرزقنى الغنى ويرزقنى لإيمانى جنة خيرا من جنتك ، ويسلبك بكفرك نعمته ويخرب جنتك بأن يرسل عليها مطرا من السماء يقلع زروعها وأشجارها ، أو يجعل ماءها يغور فى الأرض ، فلن تطيق أن تدركه بعد غوره بطلبك إياه .

وخلاصة ذلك — إن المؤمن رجا هلاك جنة صاحبه الكافر إما بأفة سماوية أو بأفة أرضية وهي غور مائها ، وكلتاها تتلف الشجر والزرع والكرم .

ثم أخبر سبحانه بأنه قد حقق ما قدره هذا المؤمن فقال :

(وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا) أى وأحاطت الجوائح بثمار جنته التي كان يقول فيها : ما أظن أن تبديد هذه أبدا — فأصبح يقلب كفيه ندما وأسفا على ضياع نفقته التي أنفقها في عمارتها حين رآها ساقطة على عروشها ، ويتمنى أن لم يكن قد أشرك بربه أحدا .

والخلاصة — إنه لما أنفق عمره في تحصيل الدنيا وأعرض عن الدين ، ثم ضاعت منه الدنيا حرم الدين والدنيا معا ، ومن ثم عظمت حسرته وقال : ليتني لم أشرك بربي أحدا .

(ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا) أى ولم تكن له عشيرة ممن افتخر بهم واستعز ينصرونه ويقدرون على دفع الجوائح عنه أو رد المهلك له ، من دون الله ، فإن الله هو الذى يقدر وحده على نصره ، وما كان منتصرا بقوته عن انتقام الله منه بإهلاك جنته .

وخلاصته — إنه لا يقدر على نصره إلا الله ولا ينصره غيره من عشيرة وولد وخدم وحشم وأعوان ، كما لا يقدر أن ينتصر لنفسه .

ثم أكد الجملة السالفة وقرر المراد منها بقوله :

(هنالك الولاية لله الحق) أى فى مثل هذه الشدائد والحن — النصر لله وحده لا يقدر عليها غيره .

(هو خير ثوابا وخير عقبا) أى هو خير جزاء وخير عاقبة لأوليائه ، فينتقم لهم منهم ، ويفوض أمرهم إليهم .

وبعد أن ضرب المثل لدنيا هؤلاء الكافرين التي أبطرتهم وكانت سبب

شقايمهم وهم يظنون أنهم يحسنون صنعا - ضرب مثلا لدار الدنيا عامة في سرعة فناها وعدم دوام نعيمها فقال :

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ
نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
مُقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ
عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦).

شرح المفردات

المثل الصفة ، وهشيمًا : أى يابسًا متفتتًا ، تذروه ، أى تنثره وتفرقه ، ومقتدرا : أى
كامل القدرة ، والباقيات الصالحات : هى الأعمال الصالحة كلها ، وثوابا : أى جزاء .

المعنى الجملى

أخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن جرير وابن مردويه والحاكم وصححه عن
أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « استكثروا من الباقيات
الصالحات ، قيل وما هى يا رسول الله ؟ قال : التكبير والتهيل والتسبيح والتحميد
ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر ، ولا حول ولا قوة
إلا بالله هن الباقيات الصالحات ، وهن يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها ، وهن
من كنوز الجنة » .

وأخرج النسائى والطبرانى والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعا « خذوا جنتكم ،
قيل يا رسول الله من أى عدو قد حضر ، قال بل جنتكم من النار قول سبحان الله

والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر ، فإنهن يأتين يوم القيامة مقدمات معقبات
ومجئبات ، وهن الباقيات الصالحات .

الايضاح

(واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض
فأصبح هشيما تذروه الرياح) شبهت الدنيا في نضرتها ثم صيرورتها إلى الزوال بحال
نبات اخضرّ والتف وأزهر ، ثم صار هشيما متفتتا تنثره الرياح ذات اليمين وذات
الشمال ، ومن ثم لا يفتنّ أهلها بها ولا يفخرنّ ذو الأموال الكثيرة بأمواله ،
ولا يستكبرنّ بها على غيره ، فإنما هي ظل زائل ، وفي الحديث : « الدنيا كسوق
قام ثم انقض » .

(وكان الله على كل شيء مقتدرا) أى وكان الله ذو الكمال والجلال قادرا
على كل شيء إنشاء وإفناء وإعادة ، فهو يوجد الأشياء ثم ينيها ثم يفنيها ، وما حال
الدنيا إلا هذه الحال ، فهي تظهر أولا ناضرة زاهرة ثم تتزايد قليلا قليلا ، ثم تأخذ
في الانحطاط إلى أن تصير إلى الهلاك والفناء ، فلا ينبغي للعاقل أن يتهيج بما يحوزه
منها أو يفخر به أو يصعر خده استكبارا .

ثم بين سبحانه ما كانوا يفتخرون به من محسنات الدنيا إثر بيان حالها بما مرّ
من المثل فقال :

(المال والبنون زينة الحياة الدنيا) أى إن الأموال والبنين التي يفخر بها
عيننة والأقرع وأضرابهم هي من زينة هذه الحياة ، وليس من زاد الآخرة ، وقد
علمت أن الدنيا سريعة الفناء ، فلا ينبغي التفاخر بها .

وقدم المال على البنين مع كونهم أعز منه لدى جميع الناس - من قبل أن
الزينة به أتم ، ولأنه يمد الآباء والأبناء في كل حين ، ولأنه مناط بقاء النفس
والأولاد وبذا يبقى النوع الإنساني ، ولأن الحاجة إليه أمس من الحاجة إليهم ، ولأنه
زينة بدونهم ، دون العكس ، فإن من له بنون ولا مال له فهو في بؤس وشقاء .

روى عن على كرم الله وجهه : المال والبنون حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة ، وقد جمعهما الله لأقوام .

ثم بين ما ينبغي التفاخر به فقال .

(والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) أى وأعمال الخير التي تبقى ثمرتها للإنسان وهي أفعال الطاعات كالصلاة والصدقات والجهاد في سبيل الله ومساعدة البائسين وذوى الحاجات - خير عند ربك من المال والبنين جزاء ، وخير أملا ، إذ ينال بها صاحبها في الآخرة ما كان يؤمله في الدنيا .

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَا لَهُمْ فَلَمَّ نُفَادِرٍ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨) وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) .

شرح المفردات

بارزة: أى ظاهرة، إذ لم يبق على وجهها شيء من العائر ولا من الجبال والأشجار، وحشرناهم: أى سقناهم إلى الموقف من كل أوب، فلم تغادر: أى لم نترك يقال غادره وأغدره إذا تركه، ومنه الغدر وهو ترك الوفاء، وعرضوا: أى أحضروا لفصل القضاء، صفا: أى مصطفين، موعدا: أى وقتا ننجز فيه ما وعدنا من البعث وما يتبعه، ووضع الكتاب: أى جعل كتاب كل عامل في يد صاحبه حين الحساب، مشفقين: أى خائفين، والويل: الهلاك، ويا ويلتنا: أى ياهلاك أقبل فهذا أوانك، أحصاها: أى

عدّها ، حاضرًا ، أى مستطورا فى كتاب كل منهم ، ولا يظلم ربك : أى لا يتجاوز ما حده من الثواب والعقاب .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن الدنيا ظل زائل ، وأنه لا ينبغي أن يفتر أحد بزخرفها ونعيمها ، بل يجب أن يكون موضع التفاخر العمل الصالح الذى فيه رضا الله وانتظار مشوبته فى جنات تجرى من تحتها الأنهار - أردف ذلك بذكر أحوال يوم القيامة وما يكون فيها من أخطار وأهوال ، وأنه لا ينجى منها إلا اتباع ما أمر به الدين وترك ما نهى عنه مما جاء على لسان الأنبياء والمرسلين ، لا الأموال التى يفتخر بها المشركون على المؤمنين .

الإيضاح

ثم ذكر سبحانه من أحوال يوم القيامة أمورًا :

(١) (ويوم نسير الجبال) أى واذا ذكر أيها الرسول يوم نقلع الجبال من أماكنها ونسيرها فى الجوكالسحاب ونجعلها هباء منثورا كما قال : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا » أى تذهب الجبال وتتساوى المهاد وتبقى الأرض سطحًا مستويا لاعوج فيه ولا وادى ولا جبل ، وقال : « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ كَمَرٍّ مَرٍّ السَّحَابِ » وقال : « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا » .

(٢) (وترى الأرض بارزة) أى وترى أيها الرأى جميع جوانب الأرض بادية ظاهرة ، إذ لم يبق على وجهها شيء من العماثر ولا شيء من الجبال ولا شيء من الأشجار ، فليس عليها ما يسترها ، فيكون جميع الخلق ضاحين لربهم لا تخفى عليه خافية من أمرهم ، وهذا هو المراد من قوله : لا ترى فيها عوجا ولا أمتا .

(٣) (وحشرناهم فلم تغادر منهم أحدا) أى وجمعنا الأولين والآخرين للحساب بعد أن أقمناهم من قبورهم ، فلم نترك منهم أحدا لا صغيرا ولا كبيرا كما قال : « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ » وقال : « ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ » وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يحشر الناس حفاة عراة غرلا (الفرلة القلقة) فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال الأمر أشد من أن يهههم ذلك » زاد النسائى فى رواية « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » .

ولما ذكر سبحانه حشر الخلق بين كيفية عرضهم على ربهم فقال :

(٤) (وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) أى يعرض الخلق كلهم على الله صفا واحدا كما قال : « وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » ويقال لهم على طريق التوبيخ والتقريع : لقد جئتمونا أيها الناس أحياء كهيتكم حين خلقناكم أول مرة فرادى حفاة عراة لاشيء معكم من المال والولد ، ونحو الآية قوله : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ » .

وفى هذا زجر لأولئك المشركين المنكرين للبعث الذين يفخرون فى الدنيا على الفقراء من المؤمنين بالأموال والأنصار .

أخرج ابن المنذر عن معاذ بن جبل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى ينادى يوم القيامة : يا عبادى أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين ، أحضروا حججكم ، ويسروا جوابكم ، فإنكم مسئولون محاسبون ، يا ملائكتى أقيموا عبادى صفوفًا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب » .

وفى الحديث الصحيح « يجمع الله تعالى الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفًا يسمعون الداعى وينفذهم البصر » والحديث له بقية .

(بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا) أى ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ولا هو كائن ، وكنتم مع الافتخار على المؤمنين بالأموال تنكرونه ، فالآن قد استبان لكم أنه حق ، وأنه لا مال ولا ولد بين أيديكم .

(٥) (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه) أى ووضع كتاب الأعمال الذى فيه الجليل والحقير فى يد صاحب اليمين والشمال ، فترى المجرمين جميعا نادمين على ما فيه من قبائح أعمالهم وسىء أفعالهم وأقوالهم وظهور ذلك لأهل الموقف ، خائفين من عقاب الحق ، والفضيحة عند الخلق .

(ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ؟) أى ويقولون حين وقوفهم على ما فى تضاعيفه : يا حسرتنا على ما فرطنا فى جنب الله ، ما لهذا الكتاب لا يترك هنة صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وعدّها ؟ فهو محيط بجميع ما كسبته يد الإنسان .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ » وقوله : « إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » وما مثل النفس إلا مثل الزجاج التى يضعها المصور فى صندوق آلة التصوير ، فكل صورة تقع عليها تلتقطها وتحفظها من ضار ونافع ، فإذا كشف الغطاء أبصرنا كل ما عملنا ورأينا صورته كما هى من حسن وسىء ، وفضيلة ورذيلة ، فتعمل فى عقولنا فعلها دون كلام ولا كتابة ، وكل امرئ يراها يقرؤها والناس فيها سواء .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(ووجدوا ما عملوا حاضرا) مثبتا فى كتابهم ، خيرا كان أو شرا كما قال : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا » الآية . وقال : « يُنَبِّأُ الْإِنْسَانَ يَوْمَ يُنَبِّئُهُ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ » .

(ولا يظلم ربك أحدا) من خلقه ، بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم ويعذب

من يشاء بحكمته وعدله ، فإنه سبحانه وعد بإثابة المطيع وتعذيب العاصي بمقدار جرمه من غير زيادة ، وإنه قد يغفر له ما سوى الكفر ، ومن ثم لا يعذب أحدا بما لم يعمله ولا ينقص ثواب ما عمله مما أمر به وارتضاه ، ولا يزيد في عقابه الملائم لعمله الذي نهى عنه ولم يرتضه .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا » وقوله : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ » .

وخلاصة ذلك — إن الجزاء نتيجة العمل ، والعمل مرسوم في قوالب حافظة له . فليس يمكن رفعه ولا دفعه ، ولا يكون الجزاء عليه ظلما ، كما لا تعد التهمة بعد الأكل الكثير ظلما ، ولا المرض بعد الشرب من الماء الآسن المملوء بالجراثيم والأدران ظلما ، وإنما تلك مسببات لأسباب كل عاقل يعلم أنها نتيجة حتمية لها .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ؟ بئسَ للظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠) ، مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذِي الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ، فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) .

شرح المفردات

فسق : خرج ؛ يقال فسق الرطب إذا خرج عن قشره ، أفتتخذونه ، الهمة
 في مثل هذا تفيد الإنكار والتعجب ممن يفعل مثل ذلك ، والذرية : الأولاد وبذلك
 قال جمع من العلماء ، منهم الضحاک والأعمش والشعبي ، وقيل المراد بهم الأتباع من
 الشياطين ، والعدو يطلق على الواحد والكثير كما قال : « فَأَيُّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ
 الْعَالَمِينَ » وقال : « هُمُ الْعَدُوُّ فَأَخَذَرَهُمْ » والمضد : أصله ما بين المرفق إلى
 الكتف ، ويستعمل بمعنى المعين كاليد ونحوها وهو المراد هنا ، فدعومهم : أى
 فاستغاثوا بهم ، فلم يستجيبوا لهم : أى فلم يغيثوهم ، والموبق : مكان الوبوق : أى
 الهلاك وهو النار ؛ يقال وبق وبقا كوئب وثوبا : إذا هلك ، واقعوها : أى داخلوها
 وواقعون فيها ، ومصرفا : أى مكانا ينصرفون إليه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه رده على أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين
 بأموالهم وأعوانهم وقالوا كيف نجلس مع هؤلاء ونحن من أنساب شريفة وهم من
 أنساب وضيعة ، ونحن أغنياء وهم فقراء ؟ - قفى على ذلك بذكر عصيان إبليس لأمره
 تعالى بالسجود لآدم ، لأن الذى حدها إلى ذلك هو كبره وافتخاره عليه بأصله ونسبه
 إذ قال « خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » ، فأنا أشرف منه أصلا ونسبا فكيف
 أسجد له ؟ تنبيهها إلى أن هذه الطريقة السالفة هى بعينها طريقة إبليس ، ثم حذر
 سبحانه منها فى قوله : (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو) .

وقد تكرر ذكر هذه القصة فى مواضع من الكتاب الكريم ، وهى فى كل
 موضع سبقت لفائدة غير ما جاءت له فى المواضع الأخرى ، على اختلاف أساليبها
 وعباراتها ، ولا غرو فهى من نسج العليم الخبير .

الإيضاح

(واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس) تقدم أن قلنا في سورة البقرة : إن الملائكة عالم من العوالم الغيبية لانعرف حقيقتهم ، والقرآن الكريم يرشد إلى أنهم أصناف ، لكل صنف عمل ، وقد جاء على لسان الشرع إسناد إلهام الحق والخير إليهم ، كما يستفاد من خطابهم لمريم عليها السلام ، وإسناد الوسوسة إلى الشياطين كما ورد في الحديث « إن للشيطان كمة باين آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فأيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فأيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، وليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْقُرَّ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ » .

فالملائكة والشياطين أرواح لها اتصال بأرواح الناس على وجه لانعرف حقيقته، بل نؤمن به كما ورد ولا تزيد عليه شيئا . وكلنا نشعر بأنا إذا هممنا بأمر فيه وجه للحق أو الخير ، ووجه للباطل أو الشر - بأن في نفوسنا تنازعا وكأن هاجسا يقول افعل ، وآخر يقول : لا تفعل ، حتى ينتصر أحد الطرفين على الآخر ، فهذا الذي أودع في النفوس ونسميه قوة وفكرا - لا يبعد أن نسميه ملكا إن كان يميل إلى الخير ، وشيطانا إن كان يميل إلى الشر ، والسجود : الخضوع والانتقاد ، وكان تحية للملوك عند بعض القدماء كما جاء من سجد يعقوب وأولاده ليوسف ، والسجود قسمان : سجد العقلاء تعبدا على الوجه المخصوص ، وسجود سائر المخلوقات لمقتضى إرادته تعالى كما قال « وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ » .

والمعنى - واذكر أيها الرسول لقومك وقت قولنا للملائكة : اسجدوا لآدم سجود تحية وإكرام اعترافا بفضله ، واعتذارا عما قالوه في شأنه من نحو قولهم : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » فسجدوا كلهم أجمعون امتثالا إلا إبليس أبى واستكبر .

ثم بين السبب في عصيانه ومخالفته للأمر فقال :

(كان من الجن) أى إن الذى منعه من السجود أنه كان جنيا واحدا بين أظهر الألوف من الملائكة مغمورا بينهم متصفا بصفاتهم ، بدليل أنه قال : «أنا خيرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» ولأنه تعالى أثبت له في هذه الآية ذرية ونسلا والملائكة لا ينسلون ، ولأن الملائكة لا يستكبرون وهو قد استكبر .

ويرى قوم أنه كان من الملائكة بدليل أن خطاب السجود كال معهم ، ولأن وصف الملائكة بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم دليل على أنه يتصور منهم العصيان ، ولولا ذلك ما مدحوا به ، لكن طاعتهم طبع ، وعصيائهم تكلف ، وطاعة البشر تكلف ، ومتابعة الهوى منهم طبع ، ولأنه تعالى ذكر من هاروت وماروت ما ذكر وهما ملكان .

على أنه لا دليل على أن هناك فروقا جوهرية بين الملائكة والجن بها يمتاز أحدهما من الآخر ، بل هي فروق في الصفات فحسب ، والجميع من عالم الغيب لا نعلم حقيقتهم ولا نضيف إليها شيئا إلا إذا ورد به نص عن المعصوم .

(فسق عن أمر ربه) أى فصار فاسقا كافرا بسبب أمر الله للملائكة المعدود هو فى عدادهم ، إذ لولا الأمر ما تحقق إباء . .

وفى الآية إيماء إلى أن فسقه قد نتج عن كونه من الجن ، إذ أن من شأنهم التمرد والعصيان لكدورة مادتهم ، وخباثة ذاتهم (وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا) وإن كان منهم من أطاع وآمن .

ثم حذر سبحانه من اتباعه بعد أن استبان من حاله ما استبان فقال :

(أفنتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو؟) أى وبعد العلم بما صدر منه من القبائح لا ينبغي لكم أن تتخذوه وأولاده وأعوانه أولياء لكم من دونى تطيعونهم بدل طاعتي وهم لكم أعداء .

وجملة المعنى — كيف تصنعون هذا الصنيع وتستبدلون بمن خلقكم وأنعم عليكم

بجميع ما أنتم فيه من النعم ، من لم يكن لكم منه منفعة قط بل هو عدو لكم يترقب حصول ما يضركم في كل حين .

(بنس للظالمين بدلا) أى بنس البذل للكافرين بالله اتخاذ إبليس وذريته أولياء من دون الله ، وهو المنعم عليهم وعلى أبيهم آدم من قبلهم ، المتفضل عليهم بما لا يحصى من الفواضل .

ثم بين السبب في عدم استحقاق إبليس وذريته هذه الولاية في أنفسهم بعد بيان خبائثة أصلهم فقال :

(ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) أى ما أحضرت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ، ولا أشهدت بعضهم خلق بعض ، فكيف تطيعونهم وتعبدون الأصنام من دوني وهم عبيد أمثالكم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا .

وقصارى ذلك — ما أطلعتمهم على أسرار التكوين ، وما خصصتمهم بخصائص لا تكون لسواهم ، حتى يقتدى الناس بهم ، فأنا المستقل بخلق الأشياء كلها ومدبرها ليس لى في ذلك شريك ولا وزير .

(وما كنت متخذ المضلين عضدا) أى وما كنت متخذ من لا يهدون إلى الحق أعوانا وأنصارا ، لأنهم يضلون فمتبعهم يجر عن قصد السبيل ولا يصل إلى هدى ، فكيف اتبعوهم وعبدوا الأصنام على مقتضى وسوستهم ؟ .

ثم أخبر سبحانه عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤس الأشهاد تقريرا لهم وتوبييحا فقال :

(ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) أى واذكر أيها الرسول يوم الجمع حين يقول الله تعالى للكافرين على سبيل التأنيب والزجر : نادوا للشفاعة لكم من زعمتم في الدنيا أنهم شركائى ، لينقذوكم مما أنتم فيه ، والمراد بهم كل ما عبد من دون الله ، فدعوهم ليستغيثوا بهم ، ويشفعوا لهم ، فلم يغيثوهم .

ونحو الآية قوله : « وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » وقوله « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ » وقوله « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » .

(وجعلنا بينهم موبقا) أى وجعلنا بين المشركين وما كانوا يدعون من دون الله شركاء فى الدنيا - موضعا للهلاك وهو النار حسبا لأطماعهم أن يصل إليهم من دعوه للشفاعة .

(ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا) أى وعابن المشركون النار يومئذ فعلوا أنهم داخلوها ولم يجدوا بدا من الوقوع فيها ، لأن الله قد حتم عليهم ذلك ، فلا معدل لهم عنها ، ولا مكان لهم ينصرفون إليه ويزيلونها ، إذ قد أحاطت بهم من كل جانب .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ ، إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِنْ قَدَعْتَهُمْ إِلَىٰ الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ

لَوْ يُؤْخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا
مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَمَلْنَا
لِإِهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩) .

شرح المفردات

صرفنا : أى رددنا وكررنا ، والمثل : الصفة الغريبة ، والجدل : المنازعة بالقول ؛
ويراد به هنا المارة والخصومة بالباطل ، وسنة الأولين : الإهلاك بعذاب الاستئصال ،
والقبل (بضمين) الأنواع والألوان واحدها قبيل ، ليدحضوا به الحق : أى ليبطلوه
ويزيلوه من قلوبهم دحضت رجله أى زلقت ودحضت حجته بطلت ، وما أنذروا :
أى ماخوفوه من أنواع العقاب ، ونسى ما قدمت يدها ، أى لم يتدبر عواقبه ، أ كنة :
أى أغطية واحدها كنان ، أن يفقهوه : أى أن يفهموه ، وقرا : أى ثقلا فى السمع ،
الموعد : يوم القيامة ، موثقا : أى ملجأ ؛ يقال وأل فلان إلى كذا وألا وووولا : إذا لجأ
إليه ، القرى : أى قرى عاد وثمود وقوم لوط وأشباهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر شبهات المبطلين ورد عليها بأدلة لا تدحض ، وبرهانات لا ترد -
قنى على ذلك ببيان أن فى القرآن من الأمثال ما فيه مقنع لمن تذكر وتدبر وألقى
السمع وهو شهيد ، لكنها القلوب قد تمجرت ، والأفتدة قد قست ، فلا تنفع فيها
الذكرى ، ولا تستجيب لوعظ الواعظ ، ونصيحة المذكر ، ولو آخذهم ربهم
بما كسبوا لأرسل عليهم العذاب معجلا ، ولم يبق منهم على ظهر الأرض أحدا ،
ولكنه الغفور ذو الرحمة ، فجعل لهلاكهم موعدا لعلمهم يشوبون إلى رشدهم ويرعوون
عن غيهم .

أخرج الشيخان وابن المنذر وابن أبى حاتم عن على كرم الله وجهه « أن النبى

صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة ليلا فقال (الأصليان) فقالت : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ، ولم يرجع إلى شيئا ، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذة ويقول «وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا» .

الإيضاح

(ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) أى ولقد وضخنا للناس كل ما هم في حاجة إليه من أمور دينهم ودنياهم ، ليتذكروا فينبوا ويعتبروا ويزدجروا عما هم عليه مقيمون من الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لكنهم لم يقبلوا ذلك ولم يرعوا عن غيهم وعنادهم واستكبارهم وعتوهم .

ثم بين سبب هذا العتو وتلك الممارسة فقال :

(وكان الإنسان أكثر شيء جدلا) أى وكان الإنسان بمقتضى جبلته أكثر شيء مراء وخصومة لا ينيب لحق ، ولا يزدجر لموعظة ، والمراد بذلك خصومة الأمم لأنبياهم وردم عليهم ما جاءوا به كما حكى الله عنهم من قولهم «إِنَّ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ» وقولهم «يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَلَ عَلَيْكُمْ» وشديد تعنتهم كما حكى عنهم بنحو قولهم «وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ» . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ» .

وخلاصة ذلك — إن جدل الإنسان أكثر من جدل كل مجادل لما أوتيته من سعة الحيلة وقوة المعارضة واختلاف النزعات والأهواء وقوة العزيمة إلى غير حد ؛ فلو اتجه إلى سبيل الخير وتاقت نفسه إلى سلوك طريقه ارتقى إلى حظيرة الملائكة ، ولو نزعته نفسه إلى اتباع وساوس الشيطان انحط إلى الدرك الأسفل ولحق بأنواع الحيوان ، يفعل ما يشاء غير مقيد بوازع من الدين ولا زمام من العقل وصادق العزيمة .

ولما بين سبحانه وتعالى إعراضهم ذكر علة ذلك فقال :

(وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا) أي وما منع هؤلاء المشركين من أن يؤمنوا بالله حين جاءتهم البيّنات الواضحة والدلالات الظاهرة وعلّموا صحة ما تدعوهم إليه ، وأن يستغفروا ربهم بالتوبة عما فرط منهم من الذنوب - إلا تعنتهم وعنادهم الذي جعلهم يطلبون أحد أمرين :

(١) إما عذاب الاستئصال بنحو قولهم «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» .

(٢) وإما أن تأتيهم بأنواع من العذاب والبلاء يتلو بعضها بعضا حين وجودهم في الدنيا كقولهم «يَأْتِيهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَأْنِ كَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» وقولهم «إِثْنِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» .

ولما كان مجيء ذلك بيد الله وأمره مفوض إليه لا إلى الرسول نبيه إلى ذلك بقوله : (وما ترسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) أي وما ترسل رسلنا إلا ليشروا أهل الإيمان والتصديق بالله ورسله بجزيل ثوابه في الآخرة ، وينذروا أهل الكفر به وتكذيب رسله بعظيم عقابه وأليم عذابه ، ولم ترسلهم ليقترح عليهم الظالمون من أممهم الآيات بعد ظهور المعجزات ، ويطلبوا منهم ما لا قبل لهم به .

ثم ذكر أن من شأن المشركين كثرة الجدل للرسول صلى الله عليه وسلم فقال : (ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق) أي ويجادل أولئك المشركون بالباطل كقولهم للنبي صلى الله عليه وسلم : أخبرنا عن فتية ذهبوا أول الدهر ماشأئهم؟ وعن الرجل الذي بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وعن الروح ، وما أشبه ذلك مما يقصد منه التعنت وإزالة الحق الذي جاء به الرسل عليهم ، لا كشف حقيقة تفيد في دين أو دنيا .

وخلاصة ذلك — إن الرسل ما أرسلوا للجدل والشغب بالباطل ، بل بعثوا
 للبشارة والإنذار ، وأتم تجادلون بالباطل لتدحضوا الحق الذي جاءكم به رسولي .
 (واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا) أى اتخذوا الحجج التي احتج بها عليهم ،
 وكتابه الذي أنزله إليهم ، والنذر التي أنذروهم بها العقاب والعذاب — استهزاء
 وسخرية كقولهم : « إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ا كَتَبْنَا فِيهَا فَمَلَى عَلَيْهِ
 بُكْرَةً وَأَصِيلًا » وقولهم . « لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا » .

ولما حكى عنهم خبيث أحوالهم وصفهم بما يوجب الخزي والنكال فقال :
 (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ؟) أى
 لا أحد أظلم ممن وعظ بآيات الله ، ودل بها على سبيل الرشاد ، وهدى بها إلى طريق
 النجاة ، فأعرض عنها ولم يتدبرها ولم يتعظ بها ، ونسى ما عمله من الكفر والمعاصي
 أى لم يتفكر في عواقبه ، ومن ثم لم يتب منها ولم ينب إلى ربه .
 ثم علل ذلك الإعراض والنسيان بقوله :

(إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا) أى إن ذلك
 الإعراض منهم بسبب أن جعلنا على قلوبهم أغطية كراهة أن يفقهوا ما ذكروا به ،
 وجعلنا في آذانهم ثقلا لئلا يسمعه ، والمراد أنه لا يدع شيئا من الخير يصل إليها ،
 فهي لاتعى شيئا من الآيات إذا تليت عليها .

ذاك أنهم فقدوا الاستعداد لقبول الرشاد بما دنسوا به أنفسهم من قبيح الأفعال
 والأقوال ، وبما اجترحوا من الكفر والفسوق والعصيان ، فأصبح بينهم وبين سماع
 الحق حجاب غليظ ، فلا ينفذ إلى السمع شيء مما يسمع سماع تدبر واتعاظ ، ولا إلى
 القلب شيء مما يقال فيعيه وينتفع به كما قال : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا
 يَكْسِبُونَ » وقال : « خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً
 وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » .

وقد تكرر هذا المعنى في غير موضع من الكتاب الكريم : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » .

ثم ذكر سبحانه أثر هذا الختم على القلوب فقال :

(وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا) أى ومهما كررت أيها الرسول من الدعوة إلى الحق حرصا منك على نجاتهم وخشية نزول البلاء بهم ، فلن يستجيبوا لك ، ولن يهتدوا بهديك ، لأن الله قد كتب عليهم الضلال ، بسوء أعمالهم وقبح طواياهم ، فأنتى يفيد النصح ، وتجدى العظة ، ويرق القلب ؟

وخالصة المعنى — كأنه صلى الله عليه وسلم حرصا منه على هدايتهم قال : مالى لأدعوهم رجاء أن تنكشف تلك الأكنة ، وتمزق بيد الدعوة ، فقيل له — وأنى لك ذلك ؟ فإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا أبدا .

وقد جاءت هذه الآية في قوم علم الله أنهم سيموتون على الكفر من مشركى مكة . ثم بين أنه سبحانه لا يعجل العقوبة لعباده على ما يجترحون من الفسوق والآثام رجاء أن ينيبوا إليه فقال :

(وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب) أى وربك أيها الرسول غفور لذنوب عباده ، ذو رحمة واسعة بهم ، إذا هم أنابوا إليه ورجعوا إلى رحاب عفوه وجوده وكرمه ، فيرحمهم واسع الرحمات ، ويتجاوز لهم عن عظيم الخطيئات ، ولو شاء أن يؤاخذهم بما اجترحوا من المعاصى كإعراضهم عن آياته ، ومناصبتهم العدا لرسله ، ومجادلتهم بالباطل — لعجل لهم العذاب فى الدنيا وأنزل بهم عذاب الاستئصال جزاء وفاقا لقبيح أعمالهم .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ » وقوله : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ » إلى نحو ذلك من الآيات الكثيرة فى هذا الباب .

ثم أبان أن هذا إهمال لا إهمال فقال :

(بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً) أى بل لهم موعد ليس لهم منه محيص ولا ملجأ يلجئون إليه من عذابه .

ثم ذكر ما هو كالدليل على ما سلف فقال :

(وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً) أى وتلك القرى من عاد وثمود وأصحاب الأيكة أهلكناهم لما ظلموا فكفروا بآياتنا ، وجعلنا لهلاكهم ميقاتاً وأجلاً حين بلغوه جاءهم عذابنا فأهلكناهم به ، وهكذا جعلنا لهؤلاء المشركين من قومك الذين لا يؤمنون بك موعداً لهلاكهم إذا جاء أهلكناهم كما هى سنتنا فى الذين خلوا من قبلهم من أضرابهم من سالفى الأمم .

قصة موسى والخضر

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّ عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ؟ (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨)

قَالَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ، قَالَ أَخَرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ، قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا .

مقدمات تشرح هذا القصص

(١) مَنْ موسى ؟

أكثر العلماء على أن موسى الذي ذكر في هذه الآية هو موسى بن عمران نبي بني إسرائيل صاحب المعجزات الظاهرة المعروفة والشريعة ، ولهم على ذلك أدلة :
(أ) إنه ما ذكر الله موسى في كتابه إلا أراد صاحب التوراة ، بإطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف إليه ، ولو كان شخصا آخر سمي بهذا الاسم لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز وتزيل الشبهة .

(ب) ما أخرجه البخارى ومسلم في جماعة آخرين عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس رضى الله عنهما : إن نَوْفًا الْبِكَالِيَّ بن فضالة ابن امرأة كعب من أصحاب أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بني إسرائيل ، فقال كذب عدو الله .

وذهب أهل الكتاب وتبعهم بعض المحدثين والمؤرخين أن موسى هنا هو موسى ابن ميثى بن يوسف بن يعقوب وكان نبيا قبل موسى بن عمران ولهم على ذلك أدلة :

(١) إن موسى بعد أن أنزلت عليه التوراة وكله الله بلا واسطة ، وحج خصمه بالمعجزات العظيمة التي لم يتفق مثلها لأكثر الأنبياء - يبعد أن يبعثه الله بعد ذلك ليستفيد علما من غيره - وردّ هذا بأنه لا يبعد بأن العالم الكامل في أكثر العلوم يجهد بعد أشياء ، فيحتاج في تعلمها إلى من دونه ، وهذا مشاهد معلوم .

(ب) إن موسى عليه السلام بعد خروجه من مصر وذهابه إلى التيه توفي ولم يخرج قومه منه إلا بعد وفاته ، ولو كانت هذه القصة معه لاقتضت خروجه من التيه ، لأنها لم تكن وهو في مصر بالاتفاق .

(ح) إنها لو كانت معه لاقتضت غيبته أياما ، ولو كان كذلك لعلمها الكثير من بنى إسرائيل الذين كانوا معه ونقلت لتوافر الدواعي على نقلها ، ولم يكن شيء من ذلك ، فإذا لم تكن معه - وردّ هذا بأنه قد يكون موسى عليه السلام خرج وغاب أياما ، لكن لم يعلموا أنه ذهب لهذا الغرض ، بل ذهب ليناجي ربه ، ولم يفهم على حقيقة غيبته بعد أن رجع ، لعلمه بقصور فهمهم ، نخاف من حط قدره عندهم ، فأوصى فتاه بكتمان ذلك .

وعلى الجملة فإنكارهم لا يؤبه به ، وهو جائز عقلا وقد أخبر به الله ورسوله .

(٢) مَنْ فتاه ؟

فتى موسى - هو يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف عليه السلام ، وقد كان يخدمه ويتعلم منه ، والعرب تسمى الخادم فتى ، لأن الخدم أكثر ما يكونون في سن الفتوة ، كما يطلقون على العبد فتى ، وفي الحديث الصحيح « ليقبل أحدكم فتاى وفتاى ، ولا يقبل عبدي وأمتي » وهذا من محاسن الآداب الشرعية .

(٣) مَنْ الخضر ؟

الخضر (بفتح الخاء وكسرهما وكسر الضاد وسكونها) لقب لصاحب موسى ، واسمه بكليا (بفتح الباء وسكون اللام) بن ملكان ، والأكثر على أنه كان نبيا ، ولهم على ذلك أدلة :

(ا) قوله : « وَآتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا » والرحمة : النبوة بدليل قوله :
« أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ » .

(ب) قوله : « وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا » وهذا يتتضى أنه علمه بلا واسطة معلم
ولا إرشاد مرشد ، وكل من كان كذلك كان نبيا .

(ح) إنه قال له موسى : « هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني » والنبي لا يتعلم من
غير النبي .

(د) إنه قال : « وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي » أى بل قد فعلته بوحى من الله ،
وهذا دليل النبوة .

(٤) أين كان مجمع البحرين ؟

مجمع البحرين — هو المكان الذى يجتمع فيه البحرين ويصيران بحرا واحدا ،
وفيه رأيان :

(ا) إنه ملتقى بحرى فارس والروم (ملتقى المحيط الهندى والبحر الأحمر عند
باب المنذب) .

(ب) إنه ملتقى بحر الروم والمحيط الأطلنطى عند طنجة قاله محمد بن كعب
القرظى (البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسى عند مضيق جبل طارق
أمام طنجة) .

وسياتى رأى آخر للبقاعى .

وليس فى الكتاب الكريم ما يدل على تعيين هذين البحرين ، فإن جاء
فى الخبر الصحيح شىء فذاك ، وإلا فيجمل السكوت عنه .

شرح المفردات

لا أبرح : أى لا أزال سائرا ، والخقب (بضم تين و بضم فسكون) الدهر ،
بوقيل ثمانون سنة ، وعن الحسن سبعون ، مجمع بينهما : أى مكان اجتماعهما ، سربا :

أى مسلكا كالسرب : وهو النفق فصار الماء عليه كالتنظرة ، والغذاء : الطعام الذى يؤكل أول النهار والمراد به هنا الحوت ، نصبا : أى تعباً وإعياء ، أوينا : أى التجأنا نبعى . نطلب ، ارتد : رجع ، على آثارها : أى على طريقتهما الذى جاءا منه ، قصصا : أى اتباعاً من قولهم أثره إذا اتبعه ، رحمة : هى النبوة هنا ، الرشد (بضم فسكون وفتحتين) إصابة الخير ، والإحاطة بالشئ : معرفته معرفة تامة ، والخبر : المعرفة ، وذكرنا : أى بيانا ، إمرا : (بكسر الهمزة) أى منكرا : من أمر الأمر بمعنى كثر والعرب تصف الدواهي بالكثرة ، لآترهقنى : أى لا تحملى ، والعسر : ضد اليسر وهو المشقة ، زكية : أى طاهرة من الذنوب ، بغير نفس : أى بغير حق قصاص لك عليها ، والنكر : المنكر الذى تنكره العقول وتنفر منه النفوس .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قصص المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الأموال والأنصار ، وامتنعوا عن حضور مجلس النبي صلى الله عليه وسلم لثلاثيهم مع أولئك الصعاليك فى مجلس واحد ، ولثلاثيهم بمنافرتهم البشعة وروائحهم المستفدرة - قفى على ذلك بذكر قصص موسى عليه السلام مع الخضر ليبين بها أن موسى مع كونه نبيا صادقا أرسله الله إلى بنى إسرائيل بشيرا ونذيرا وهو كليم الله - أمر أن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه ما لم يعلمه ، وفى ذلك دليل على أن التواضع خير من التكبر .

روى البخارى ما خلاصته - إن موسى عليه السلام قام فى بنى إسرائيل خطيبا ، فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال أنا ، فعتب عليه ربه ، إذ لم يرد العلم إليه تعالى فأوحى إليه : إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك ، وأمره أن يأخذ حوتا فى مكثل ، فحيثما فقد الحوت فهو ثمة ، ففعل ذلك وسافر مع فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا صخرة فناما فاضطرب الحوت وسقط فى البحر - فاتخذ سبيله فى البحر

سربا - وصار الماء كالطاق عليه وهو يجرى ، فلما استيقظ موسى نسي صاحبه أن يخبره بالحوث ، وانطلقا بقية يومهما وليتتهما ، فلما كان الغد طلب موسى الغداء ووجد النصب ، ولم يكن ذلك إلا بعد أن جاوزا المكان الذى أمره الله به ، فقال فتاه : إني نسيت الحوث ، وذكر ما كان من أمره عند الصخرة ، فارتدا على آثارهما قصصا ، حتى انتهيا إلى الصخرة فوجدا رجلا مسجى بثوب أبيض ، وكان من أمرهما ما سترى من مسألة السفينة والغلام والجدار .

الإيضاح

(وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا) أى واذا ذكر أيها الرسول حين قال موسى بن عمران لفتاه يوشع : لا أزال أمشى حتى أبلغ مكان اجتماع البحرين أو أسير دهرا .

وسبب قوله هذا : أن الله أوحى إليه أن عبدا من عبادى بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم تحط به ، فأحب أن يرحل إليه .

وخلاصة ذلك — إن الله أعلم موسى حال هذا العالم وما أعلمه موضعه بعينه ، فقال لا أزال أمشى حتى يجتمع البحرين فيصيرا بحرا واحدا أو أمضى دهرا طويلا حتى أجده .

ومجمل الأمر أنه وطن نفسه على تحمل التعب الشديد والعناء العظيم فى السفر مهما طال به الزمان .

(فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا) أى فانطلقا يمسيان ، فلما بلغا مجمع بينهما وهو المكان الذى وعده الله بلاقائه عنده - نسيا حوتهما فاتخذ الحوث طريقه فى البحر مسلكا وصار الماء كالقنطرة عليه ، فكان ذلك للحوث سربا ولموسى وفتاه عجبا .

ولاشك أن حياة الحوث بعد موته كانت لموسى معجزة ، وأما كون ماء البحر

صار كالقنطرة عليه أو كأي وضع آخر ، فليس بالواجب علينا أن نعتقده إلا إذا ثبت بالنص القاطع .

روى أن موسى عليه السلام أمر بحمل حوت مملوح معه وقيل له : متى فقدت الحوت فهو ثمة ، فأخذ حوتا وجعله في مكمل (قفة) ثم انطلق ومعه فتاه حتى إذا أتيا الصخرة وكانت عند مجمع البحرين ناما واضطرب الحوت في المكمل وخرج منه وسقط في البحر .

روى البخاري ومسلم أن الله تعالى قال لموسى : خذ نونا (حوتا) ميتا فهو حيث ينفخ فيه الروح ، فأخذ ذلك فجعله في مكمل ، وقال لفتاه : لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت ، قال : ما كلفت كثيرا ، فبينما هما في ظل صخرة إذ تسرب الحوت حتى دخل البحر وموسى نائم فقال فتاه : لا أوقفه ، حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس : جعل الحوت لايمس شيئا من البحر إلا يمس حتى يكون صخرة .

وحدث محمد بن إسحاق عن الزهري عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر حديث ذلك : « ما انجاب ماء منذ كان الناس غير مسير الحوت الذي فيه ، فانجاب كالسكوة حتى رجع إليه موسى فرأى مسلكه ، فقال ذلك ما كنا نبغ » .

(فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) أي فلما جاوزا ذلك المكان المقصود من مجمع البحرين ، وسارا بقية يومهما وليلتها حتى إذا كان الغد وارتفع النهار أحس موسى بالجوع ، حينئذ قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا تعبنا ونصبا من ذلك السفر .

وقد كان من الحكمة في حصول الجوع والتعب له حين جاوز المكان أن يطلب الغداء فيذكر الحوت فيرجع إلى حيث يجتمع بمن يريد .

(قال رأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله في البحر عجبا) أى قال له فتاه : رأيت ما حدث لى حين التجأنا إلى الصخرة التى بمجمع البحرين ؟ إني نسيت أن أخبرك بما حدث من الحوت ، إنه حتى واضطرب ووقع فى البحر واتخذ سبيله فيه سبيلا عجبا . وذلك أن مسلكه كان كالطاق والسَّرب - وما أنساني ذكره إلا الشيطان .

(قال ذلك ما كنا نبغ) أى قال موسى : ذلك الذى ذكرت من أمر الحوت ما كنا نطلبه من حيث إنه أمانة للفوز بما هو المقصود بالذات .
(فارتدّا على آثارهما قصصا) أى فرجعا فى الطريق الذى جاء فيه يتبعان أثرهما اتباعا حتى أتيا الصخرة .

قال البقاعى — إن هذا يدل على أن الأرض كانت رملا لاعلامه فيها ، فالظاهر والله أعلم أنها مجمع النيل والملح عند دمياط أو رشيد من بلاد مصر ، ويؤيده نقر العصفور فى البحر الذى ركب فيه سفينته للتعدية كما ورد فى الحديث ، فإن الطير لا يشرب من الماء الملح اه .

وخلاصة ما تقدم — إنه تعالى بين لموسى عليه السلام أن موضع هذا العالم مجمع البحرين ، وأن علامة وجوده فى المكان المعين انقلاب الحوت الميت الذى فى المكتل حيا ، فلما بلغا مجمع بينهما اضطرب الحوت فيه ووثب فى الماء وقد أمسك الله إجراء الماء على البحر وجعله كالطاق أو الكوة حتى سرى الحوت فيه ، فلما جاوز موسى وفتاه المكان المعين وهو الصخرة بسبب النسيان ، وسارا كثيرا وتعبا وجاعا قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، قال القتى : رأيت ما وقع لى من الحوت حين لجأنا إلى الصخرة فاتخذ سبيله فى البحر اتخذنا عجبا إذ انقلب من المكتل وصار حيا وألقى نفسه فى البحر على غفلة منى ، وإني نسيت أن أبلغك خبره ، وما أنساني ذكره إلا الشيطان ، قال موسى ذلك الذى كنا نطلبه ،

لأنه أمارة الظفر بالمطلوب وهو لقاء الخضر ، فرجعا في طر يقهما الأولى إذ علما أنهما تجاوزا الموضع الذي يقيم فيه ذلك العالم .

(فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلما من لدنا علما . قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ؟) أي فوجد موسى وفتاه عند الصخرة حين رجعا إليها عبدا من عبادنا وهو الخضر مسجى بشوب أبيض ، فسلم عليه موسى فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام ؟ فقال أنا موسى . قال موسى بنى إسرائيل ؟ قال نعم . قال هل أصبحك لتعلمني مما علمك الله شيئا أسترشد به في أمري من علم نافع وعمل صالح ؟ .

(قال إنك لن تستطيع معي صبرا) يا موسى ، فإني على علم من الله علمنيه لتعلمه أنت ، وأنت على علم من الله ، علمك لا أعلمه .

ثم أكد ذلك مشيرا إلى علة عدم الاستطاعة فقال :

(وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ؟) أي وكيف تصبر وأنت نبي على ما أتولى من أمور ظواهرها منكرة وبواطنها مجهولة ، والرجل الصالح لا يتمالك أن يبصر إذا رأى ذلك ، بل يبادر بالإنكار .

(قال ستجدني إن شاء الله صابرا) معك غير منكر عليك ،

(ولا أعصى لك أمرا) تأمرني به غير مخالف لظاهر أمر الله .

(قال فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا) أي قال له الخضر : إن سرت معي فلا تفتحنني في شيء أنكرته على حتى أبتدى بذكركه فأبين لك وجه صوابه ، فإني لا أقدم على شيء إلا وهو صواب جائر في نفس الأمر وإن كان ظاهره غير ذلك ، فقبل موسى شرطه رعاية لأدب المتعلم مع العالم .

(فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها) أي فانطلقا يمشيان على الساحل يطلبان سفينة فوجداها فعرف أهلها الخضر من بينهم فملوهم بغير أجر ، حتى إذا ركبا في السفينة خرقها حين توسطوا لجة البحر ، إذ أخذ الخضر فأسا فخرق لوحا من ألواح السفينة .

(قال أخرقتها لتفرق أهلها لقد جئت شيئا إمرأ ؟) أى قال موسى للخضر :
لقد جئت عظيما منكرا ، ثم أخذ موسى ثوبه فحشا به الخرق .

(قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبيرا) أى قال الخضر : ألم أقل لك
يا موسى إنك لن تستطيع صبيرا معى فيما ترى مما أفعل .

(قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا) أى قال موسى للخضر
لا تؤاخذنى بما غفلت عن التسليم لك وترك الإنكار عليك ، ولا تكلفنى مشقة ،
ولا تضيق على أمرى ، ولا تعسّر على متابعتك ، بل يسرها بالإغضاء وترك المناقشة .
(فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما قتلته) أى فانطلقا بعد نزولهما من السفينة وسلامتهما
من الفرق والعطب ، يمشيان على الساحل فأبصر الخضر غلاما يلعب مع لداته وأترابه
فقتله ، ولم يبين القرآن كيف قتله ، أحز رأسه أم ضرب رأسه بالجدار ، أم بطريق
آخر ؟ وعلينا ألا نهتم بذلك إذ لو علم الله فيه خيرا لنا لذكره .

(قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس ؟) أى قال موسى عليه السلام للخضر :
أقتلت نفسا طاهرة من الذنوب بغير قتل نفس محرمة ؟ وخص هذا من بين مبيحات
القتل كالكفر بعد الإيمان والزنا بعد الإحصان ، لأنه أقرب إلى الوقوع نظرا إلى
حال الغلام .

(لقد جئت شيئا نكرا) أى لقد جئت شيئا تنكره العقول وتنفر منه النفوس .
وقد أتى هنا بقوله (نكرا) وهناك بقوله (إمرأ) لأن قتل الغلام أقبح من
خرق السفينة ، لأن هذا لم يكن إهلاكا لنفس إذ ربما لا يحصل الفرق ، وفى هذا
إتلاف النفس قطعا ، فكان أنكر .

وإلى هنا تم تفسير الجزء الخامس عشر فى الليلة السادسة عشرة من شعبان
المعظم سنة ثلاث وستين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة بمدينة حلوان من أرباض القاهرة .
والحمد لله الذى بنعمته تم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه وسلم .

فهرس

أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٥	آراء العلماء في الإسراء .
٨	إلمامة في المعراج .
٩	عظة وذكري فيما يستخلص من الإسراء والمعراج .
١٥	سلط الفرس على بني إسرائيل مرتين .
١٧	صفات القرآن .
٢٣	لكل امرئ كتاب يلقاه منشورا يوم القيامة .
٢٥	الناس بعد بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم أصناف ثلاثة .
٣٣	شعائر الإيمان .
٣٦	ما جاء في بر الوالدين من الأحاديث .
٤٠	ما عال من اقتصد .
٤٢	مفاسد الزنا .
٤٣	الحكمة في تحريم قتل النفس .
٤٦	في الحديث : أعوذ بك من شر ممعى وشر بصرى وشر قلبي وشر مني .
٥٤	إنكار المشركين للبعث وشبهاتهم على ذلك .
٥٧	ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت ولا في القبر ولا في الحشر .
٥٩	أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة .
٦٣	في الحديث - سلوا الله لي الوسيلة .
٦٦	كان الإسراء فتنة للناس واختبارا لإيمانهم .

الصفحة	المبحث
٧١	الشیطان یغری الناس بأن لا ضرر من فعل المعاصی .
٧٤	المشركون یدعون الله حین الشدة ، و یمرضون عنه حین الرخاء .
٧٧	المعول علیه يوم القيامة الأعمال لا الأنساب .
٨١	أمره صلى الله علیه وسلم بإقامة الصلاة لأوقاتها .
٨٣	یتعاقبون فیكم ملائكة باللیل وملائكة بالنهار .
٨٤	المقام المحمود للنبي صلى الله علیه وسلم .
٨٤	الهداة تشرق قلوبهم حین توجههم إلى الله فی أوقات الصلاة .
٨٥	طلب الرسول صلى الله علیه وسلم من ربه التسلط بالحجة والملاک .
٨٦	القرآن شفاء ورحمة .
٨٨	آراء العلماء فی الروح .
٩٠	تحذیر الهداة من ترکهم العمل بالقرآن مرضاة للرؤساء والعامه .
٩١	لو اجتمع الإنس والجن لم یستطیعوا أن یأتوا بمثل هذا القرآن .
٩٣	اقترح المشركین علی الرسول صلى الله علیه وسلم إنزال الآيات الكونية .
٩٧	لو أرسل الله تعالى ملاکا لجعله بشرا .
٩٧	جاء جبریل فی صورة دحية الکلبی .
٩٨	السکفار یحشرون علی وجوههم عمیا وبکا وصما .
١٠٠	الدلیل علی إثبات البعث .
١٠١	ید الله ملأی لاتغیضها نفقة .
١٠٣	آیات موسى التسع .
١٠٥	سکنی بنی إسرائيل أرض الشام .
١٠٧	محمد صلى الله علیه وسلم مبشر ونذیر .

الصفحة	المبحث	الصفحة
١٠٨	أهل الكتاب يخرون للأذقان سجدا إذا سمعوا القرآن .	١٠٨
١١٠	ما وصف به سبحانه نفسه من صفات الكمال .	١١٠
١١١	تنزيه الله سبحانه على ضروب .	١١١
١١٥	الذين قالوا : اتخذ الله ولدا ثلاث طوائف .	١١٥
١١٨	قصص أهل الكهف كما أثر عن العرب .	١١٨
١٢٠	إجمال القرآن لقصص أهل الكهف .	١٢٠
١٢٣	تفصيل قصص أهل الكهف وبسطه .	١٢٣
١٢٥	في أى زمن كان حادث أهل الكهف .	١٢٥
١٣٤	نهينا عن اتخاذ القبور مساجد .	١٣٤
١٣٥	عدد أهل الكهف .	١٣٥
١٣٧	أمرنا أن تقدم المشيئة إذا عزمنا على فعل شيء .	١٣٧
١٣٨	الثلاثمائة السنة الأفرنجية هي الثلاثمائة والتسع العربية .	١٣٨
١٤٢	كان صناديد قريش يابون أن يجلسوا مع الفقراء في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم .	١٤٢
١٤٥	ما أعد الله لأهل الجنة من النعيم .	١٤٥
١٤٨	مثل الجننتين .	١٤٨
١٥٠	حوار بين المؤمن والكافر .	١٥٠
١٥٢	ندم الكافر على ما فعل .	١٥٢
١٥٣	مثل الحياة الدنيا .	١٥٣
١٥٤	المال والبنون زينة الحياة الدنيا .	١٥٤
١٥٦	أحوال يوم القيامة .	١٥٦

البحث	الصفحة
كيفية عرض الخلائق يوم القيامة .	١٥٦
المجرمون يشفقون مما في كتابهم .	١٥٨
هل إبليس من الجن أو الملائكة .	١٦٢
تدعى الأصنام للشفاعة فلا تستجيب .	١٦٣
في القرآن من الأمثال ما فيه مقنع لمن تذكر وتدبر .	١٦٥
قال المشركون القرآن أساطير الأولين .	١٦٨
قصص موسى والخضر .	١٧٠
من موسى؟ ومن الخضر؟ .	١٧١
أين كان مجمع البحرين؟ .	١٧٣

كبار علماء الأزهري الشريف يولفون

لمكتبة مطفي (البيبي الحلي) دارودون بمصر

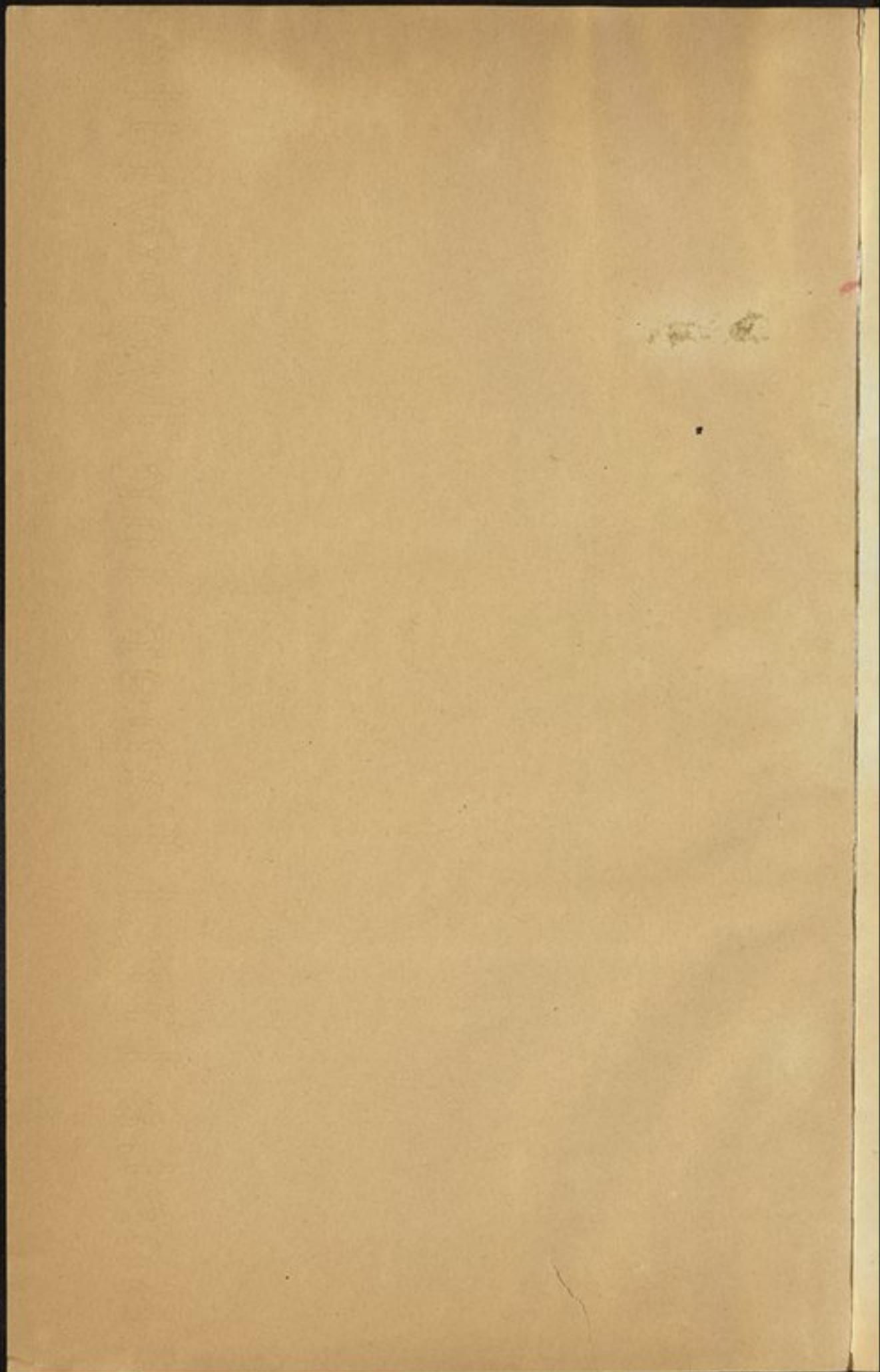
مندون بوسته الغوربة رقم ٧١

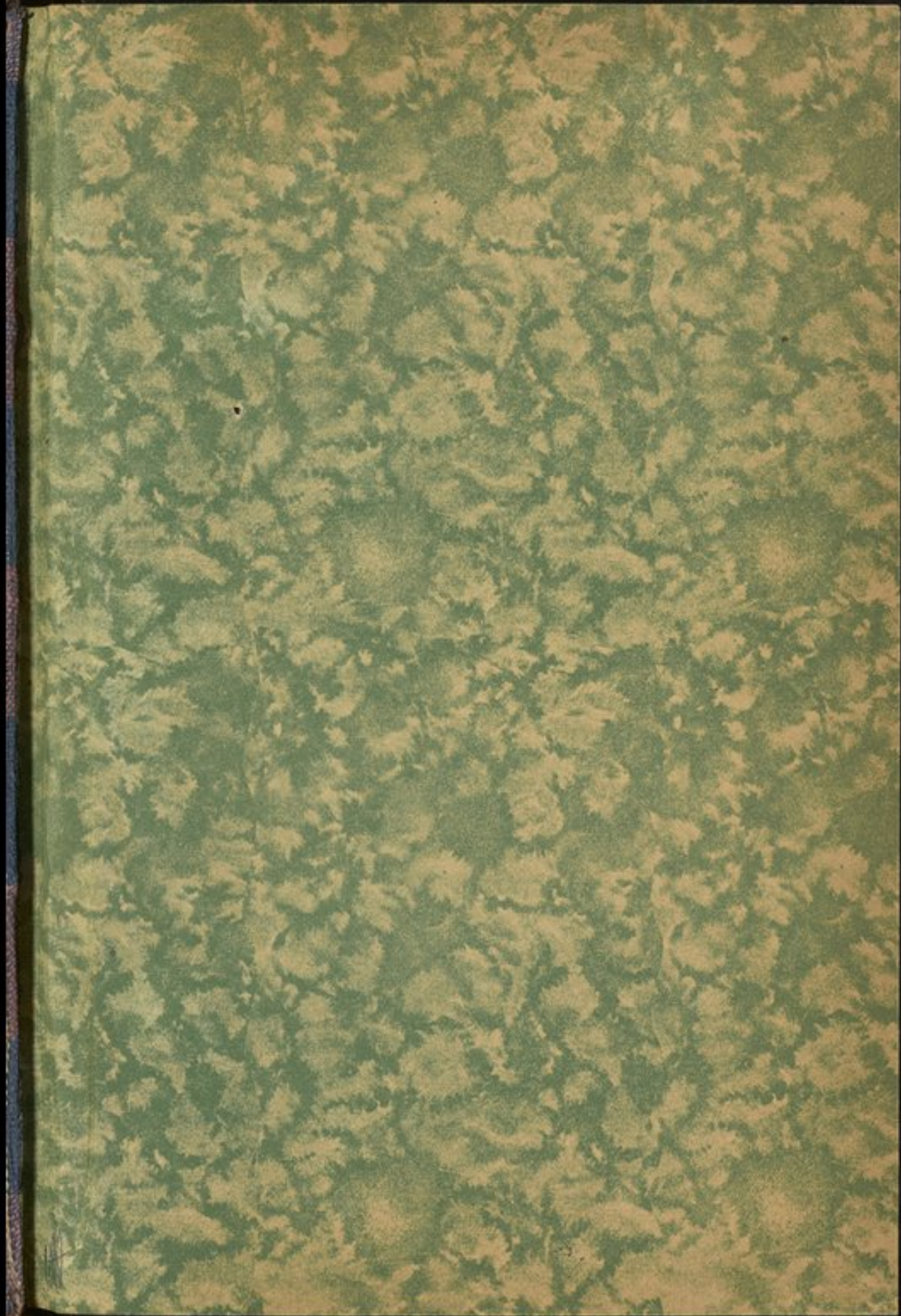
أحدث ما ألف في العقيدة والتوحيد

الشيخ الجليل الجوهري التوحيد

تأليف

فضيلة الشيخ محمد أحمد العادوي





COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0036758612

JAN 13 1977

